الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الحاج لخضر ـ باتنة ـ

كليّة الآداب واللّغات قسم اللّغة العربيّة وآدابها

تجليات صورة المرأة في روايات نجيب الكيلاني

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب العربي

إعداد الطالب : إشراف الأستاذ الدّكتور:

بوجمعة بوحفص الطيّب بودربالة

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
معمر حجيج	أستاذ التعليم العالي	الحاج لخضر ـ باتنة ـ	رئيسا
الطيّب بودربالة	أستاذ التعليم العالي	الحاج لخضر ـ باتنة ـ	مشرفا ومقررا
رشيد رايس	أستاذ التعليم العالي	جامعة ـ تبسة ـ	عضوا مناقشا
رابح طبجون	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة ـ قسنطينة ـ	عضوا مناقشا
إسماعيل بن صفية	أستاذ التعليم العالي	جامعة ـ عنابة ـ	عضوا مناقشا
سرحان بن خميس	أستاذ محاضر ـ أ ـ	الحاج لخضر ـ باتنة ـ	عضوا مناقشا

السّنة الجامعيّة : (1435هـ ــ 1436هـ /2014م ــ 2015م)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مقدمـة

اتسمت صورة المرأة في الخطاب الروائي العربي الحديث بالتنوع والتعدد ، فقد صورها الروائيون في نماذج مختلفة وفي حالات متنوعة بين نظرة سلبية وأخرى ايجابية؛ فمنهم من كرس نموذج المرأة الفقيرة الأمية المنحلة خلقيا والضائعة اجتماعيا حتى صار هذا النموذج ممجوجا ... ومنهم من صوّرها في صورة المتدينة المتشددة التي تكفر بكل شيء وتكفّر جميع النّاس وتربّي أولادها على هذا المنهج ، ومنها المرأة الغنية المتسلطة ،وقد تأرجحت المرأة في نماذجهم بين ثورية واعية وسلبية مغتربة عن مجتمعها ومتمردة على قيمه .

وقد شاعت هذه النماذج وتكررت إلى حد الابتذال عند كثير من الأدباء المحدثين من أمثال نجيب محفوظ وجبرا إبراهيم جبرا وسحر خليفة وغسان كنفاني ويوسف إدريس وغيرهم .

لذلك سوف أتناول بالدراسة صورة المرأة في الخطاب الروائي عند نجيب الكيلاني، وهي دون شك صورة قد تختلف عن النماذج السابقة. لأن المرأة عند الكيلاني قد حظيت في معظم رواياته بقدر جيّد من الاحترام والتقدير واتخذت نماذج أبرزت مكانتها ودورها الحقيقي إلى جنب الرجل لتشاركه رحلة النضال، وتقف معه في معركة الصمود والتحرير ؛ فهي في رواية (عمر يظهر في القدس) ممرضة ومناضلة ضد العدو الصهيوني ، وقد كان لها دور فعال مؤثر في أحداث الرواية.

فالمرأة عموما كانت شديدة الحضور عند الكيلاني، فقد جعل منها البطلة في بعض رواياته كما في رواية (الربيع العاصف) حيث كانت (الحكيمة منال عبد المجيد) بطلة الرواية دون منازع ،وكذلك كانت (براعم) في رواية (ملكة العنب) وغيرهما من الروايات التي جعل فيها المرأة بطلة أو شخصية محورية تدور حولها جميع أحداث الرواية ...

مبررات الدراسة :

إن كثيرا من القراء عندما يدخلون عالم الأدب ويشرعون في قراءة الروايات لا يطرق أسماعهم إلا أسماء روائيين معينين سلفا كنجيب محفوظ ويوسف إدريس ويوسف

السباعي وجورجي زيدان وغيرهم .ولكنهم لا يسمعون باسم نجيب الكيلاني إلا بعد حين من الزمن على الرغم من كثرة أعماله الروائية ؛ إلا أنه في الحقيقة يأتي في المراتب الأولى من حيث الكم قبل كثير ممن ذاعت شهرتهم وأطبقت الآفاق .

ولقد تجذّر الميل إلى البحث في صورة المرأة في روايات نجيب الكيلاني منذ أن وقعت بين يدي روايته الشهيرة (عمر يظهر في القدس) والتي قرأتها مرات متعددة دون أن أملَّ قراءتها بل إنّي كلّما أعدت قراءتها اكتشفت مجددا عبقرية هذا الروائي الفذ. ثمّ إنّ هناك أسبابا متعددة ذاتية وموضوعية تمثلت على وجه الخصوص فيما يلي :

1 ـ أن روايات نجيب الكيلاني لم تحظ بعناية الدارسين والباحثين المهتمين بالأدب الروائي العربي؛ حتى أن الناقد الدكتور طه وادي لم يعر الكيلاني أدنى ذكر في دراسته القيمة الموسومة بـ (صورة المرأة في الرواية المعاصرة). فلم تقم حول روايات الكيلاني دراسات علمية وافية ؛ فكل ما كتب عنها لا يتعدى الأبحاث الجزئية والمقالات القليلة الموجودة هنا وهناك في بعض الكتب والمجلات، مع أنّ كثرة عددها وتنوع مضامينها كفيل بإثارة الاهتمام والانتباه ، بالإضافة إلى أنّ قسما منها قد حاز على جوائز تقديرية من هيئات رسمية مختلفة .

2 ـ الميل إلى دراسة الروايات إيمانا منّي بأنّ الرواية هي الجنس الأدبي الأكثر قدرة على التعبير عن واقع المجتمع العربي والإسلامي الحديث الذي يسعى فيه المثقف جادا إلى التغيير نحو الأفضل .

3 ـ الإجابة عن كثير من الأسئلة أو بالأحرى التساؤلات التي ما فتئت تراودني، منها على الخصوص: إلى أيّ مدى يختلف نجيب الكيلاني في تصوير المرأة عن الصورة السلبية التي رسمها لها نجيب محفوظ مثلا ؟ ثمّ أيضا: ما هي النماذج الأكثر حضورا في روايات نجيب الكيلاني؟ وهل هي النماذج التقليدية ذات القوالب الجاهزة للمرأة العربية السلبية العاجزة عن التغيير ؟ أم أنّها المرأة الإيجابية الفعالة التي تتربع على عرش الحدث الروائي كما تتربع على المكانة الرائدة في واقع المجتمع ؟

4 ـ الرغبة الملحة في التواصل مع المعرفة لجعل الحياة نابضة بالحياة، ملؤها الحركة المستمرة بحثا عن التجديد لتجديد الرغبة في الجديد .

5 ـ السعي الدؤوب إلى التواصل مع الآخرين لتجاذب المعرفة إليهم والاستفادة مما يتمتعون به من معطى معرفي إبداعي زاخر يجب الالتفات إليه والالتفاف حوله في عصر لا مكان فيه لمن يتوارى منطويا على نفسه في حالة الظلامية ويخشى سطوع نور الوعي وإشراق شمس الحقيقة ..

وتلكم هي الأسباب التي حدت بي إلى اختيار نجيب الكيلاني دون غيره من أدباء عصره، فضلا عن أن إنتاج الكيلاني لا يزال حدائق غناء لم يرتع فيها الباحثون والدارسون خاصة في الجامعات الجزائرية التي لا يَعْرِفُ فيه الكيلاني ولا إنتاجَهُ إلا القليلُ من الخاصة.

أدبيات الدراسة :

أما من جهة موضوع الدراسة (تجليات صورة المرأة في روايات نجيب الكيلاني) فمن الواضح أن الرواية العربية منذ نشأتها قد تصدت لمسألة المرأة ، وقد ظهرت هذه الصورة ربّما بشكل واضح في الرواية أكثر من باقي الأجناس الأدبية الأخرى، ولعل السبب في ذلك قدرة الخطاب الروائي على عكس العمليات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وتمثلها في حركة نموها وتطورها وتعقيداتها .

ويمكن القول إن الدراسات والبحوث التي تطرقت إلى موضوع المرأة في روايات نجيب الكيلاني بالدراسة والتحليل لم تكن ـ على الرغم من أهميتها ـ كافية لبسط الضوء على جميع الأعمال الروائية للكيلاني. حيث أن الدراسات المختلفة لم تتجاوز الرواية أو الروايتين كما أنها جاءت موجزة وغير وافية بطبيعة المكانة التي تحتلها المرأة في الإنتاج الروائي عند الكيلاني، بل إنّ الحديث في بعض تلك الدراسات عن المرأة كان ثانويا وعارضا ليس مقصودا لذاته .

ومن تلك الدراسات التي تعرضت لموضوع المرأة في روايات نجيب الكيلاني نذكر :

1 ـ دراسة الدكتور أبي القاسم دقة الموسومة بـ (التحليل السيميائي للخطاب السردي في رواية (الربيع العاصف) لنجيب الكيلاني) والتي ركز فيها على التفاعل المنطقي لسير الأحداث وتفاعلها مع الشخصيات حيث كانت الشخصية المحورية الحكيمة منال عبد المجيد

2 ـ الدراسة التي ذيل بها الأستاذ محمد حسن عبد الله رواية (الربيع العاصف) والتي عنونها بـ (جولة في الربيع العاصف) حيث ناقش فيها مدى تحكم الروائي في شخوص الرواية والحبكة السردية.

3ـ الدراسة التي قام بها حلمي محمد القاعود تحت عنوان (مملكة البلعوطي لنجيب الكيلاني) وهي كما يدل عليها العنوان دراسة نقدية مقتصرة على رواية واحدة من روايات الكيلاني، حيث درس فيها قضية الصراع الطبقي ومنه الصراع بين الخير والشر في المجتمع الريفي المصري . كما درس فيها أيضا بعض وسائل البناء الفني والصياغة الروائية .

4ـ دراسة لعبد الله بن صالح العريني بعنوان (الاتجاه الإسلامي في أعمال نجيب الكيلاني القصصية) عرض فيها الباحث موقف الكيلاني من قضايا المرأة المعاصرة وتذبذبها بين الفضيلة والرذيلة، إضافة إلى دراسة القضايا الفنية للرواية كالشخصيات والحوادث والحبكة مع ربط أعمال الكيلاني القصصية بالدعوة الإسلامية.

5 ـ دراسة بعنوان (نجيب الكيلاني روائيا) لسهيل ياسين توفيق ، وهي رسالة ماجستير تناول فيها الباحث الحديث عن حياة الكيلاني وآثاره الأدبية والفكرية على اختلافها وتنوعها بين نثرية وشعرية ، وقد أفدت منها كثيرا سيما في الجانب الإجرائي في تقسيمات الرواية .

أما المصادر والمراجع التي ارتكز عليها البحث فقد تم بعون الله تعالى الحصول على معظم مؤلفات المرحوم نجيب الكيلاني ،متمثلة في أغلب رواياته عدا المفقودة منها والميؤوس من الحصول عليها حتى من مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ببيروت ، والتي نشرت معظم مؤلفات الأديب كما أفدت من الدراسات السابقة الذكر ، كما استعنت كثيرا العدد التاسع والعاشر من مجلة الأدب الإسلامي وهو عدد خاص بالأديب نجيب

الكيلاني حيث راسلت رئيس رابطة الأدب الإسلامي بالرياض ، والذي أمدني بنسخة منها ولحسن الحظ فقد كانت النسخة الأخيرة المتبقية .

وعلى هذا الأساس فإني آمل أن تكون دراستي هذه متسمة بمسح شامل في دراسة الإنتاج الروائي للكيلاني من حيث صورة المرأة في جانبها المضموني ،وأن تكون مكملة لما سبقها من الدراسات في هذا المجال .

إشكالية الموضوع :

إن أول ما يشدنا إلى نجيب الكيلاني هو وفرة إنتاجه حيث أثرى المكتبة الروائية العربية بأكثر من أربعين رواية تدور في أغلبها في فلك الأدب الإسلامي ، وتناقش قضايا الواقع الاجتماعي من منظور إسلامي. فقد كتب الرواية الرومانسية والاجتماعية والتي عبر من خلالها عن هموم الناس والأمراض الاجتماعية المتفشية في المجتمعات العربية ،ولعل من أهم أعماله الروائية في هذا الإطار (الطريق الطويل) و(ابتسامة في قلب الشيطان) و(الذين يحترقون) و(ليل الخطايا) و(طلائع الفجر) و(حمامة سلام) وغيرها .

كما كتب في الرواية التاريخية حيث استلهم التاريخ الإسلامي ،والسيرة النبوية الشريفة مثل رواية (عمر يظهر في القدس) و(قاتل حمزة) و(نور الله) و(النداء الخالد) و(دم لفطير صهيون) و(اليوم الموعود) و(أرض الأنبياء). ولم يكتف بعرض هموم العالم العربي بل عبر بالرواية إلى حدود العالم الإسلامي الأوسع في كثير من أقطاره غير العربية، وقد ظهر ذلك فيما يسمى بالرواية الإستشرافية التي تحدث فيها عن المسلمين خارج حدود العالم العربي، خاصة الدول الإسلامية التي استقلت عن الاتحاد السوفيتي - سابقا - وفي الصين وفي اندونيسيا ونيجيريا وإثيوبيا وغيرها، من ذلك روايات: (ليالي تركستان) و(الظل الأسود) و(عذراء جاكرتا) و(عمالقة الشمال).

كما حاول من خلال رواياته أن يعارض الواقعية الأوروبية (الواقعية الانتقادية) والواقعية الاشتراكية (الماركسية) بالواقعية الإسلامية حيث عبر فيها عن المستضعفين في الوطن العربي عموما وفي وطنه الأم مصر خصوصا، وتجلى ذلك في رواياته : (اعترافات

عبد المتجلي) و(امرأة عبد المتجلي) و(قضية أبو الفتوح الشرقاوي) و(ملكة العنب) وغيرها .

إلا أنه وعلى الرغم من هذه الوفرة وهذا التنوع في القضايا التي عالجها الأديب في رواياته لم يبلغ به هذا الإبداع الزاخر ما بلغ بغيره من أمثال نجيب محفوظ مثلا. ولعل السبب في هذا التجاهل والتنكر لهذا الأديب هو أن روايات نجيب الكيلاني أو أدبه بصفة عامة لا يمثل بالنسبة لصناع القرار وأتباع الفكر الغربي سوى إنتاجا مضادا وعلى أقل تقدير إنتاجا يمثل الماضي العتيق الذي يعيق حركية التطور ويقف حجر عثرة أمام عجلة الرقي والتقدم .

لذلك لم يحظ إنتاجه بما حظيت به إنتاجاته أقرانه من الأدباء من اهتمام الباحثين والدارسين بما يتناسب وقيمة أدبه، بل إن الكيلاني قد عانى من ويلات الحياة جراء ما لقي من ظلم وتعسف على أيدي الطغاة ممن لم يسرهم اتجاه الفكري ، مما جعله يحرم من أبسط حقوقه كإنسان ،حق الحرية الشخصية وحق حرية الإبداع، حيث زج به في غياهب السجن مرات متتالية ..

لذلك تظل الأسئلة من هذا النوع تلاحقنا وتقض مضاجعنا كلما قرأنا روايات الكيلاني، ومن جملة الأسئلة الملحة، هذا السؤال الذي يقف أمامنا كالطود الشامخ ، يكاد يطرح نفسه بنفسه فيقول : إلى أي مدى ربط نجيب الكيلاني الصورة الروائية لشخصية المرأة بالمرجعية التراثية والانتماء الفكري للكاتب تجاه عالمه وعصره؟ ثم أيضا هل استطاع نجيب الكيلاني أن يجعل هذه الصورة ذات مرجعية إنسانية عالمية من جهة ووظيفة جمالية فنية من جهة ثانية؟ وإلى أي مدى استطاع نجيب الكيلاني أن يكون صادقا في إبراز صورة المرأة ومدى ارتباطها بالواقع وعلاقاتها بالمجتمع وما هي دلالاتها الفكرية والاجتماعية والنفسية ؟

تلكم هي بعض الأسئلة التي يمكن أن تحفّز ذاكرة القارئ كلما قرأ روايات نجيب الكيلاني . لذلك سأحاول من خلال هذه الدراسة إماطة اللثام للكشف عن عموم هذه

الأسئلة الملحة وغيرها وتبيان تجليات صورة المرأة في أدب نجيب الكيلاني الروائي . وإن كان ميدان البحث في صورة المرأة في روايات نجيب الكيلاني ما يزال خصبا واعدا وبحاجة إلى من يخوض في غماره لصبر أغواره والكشف عن أبعاده ورصد تطورات الرؤى الفكرية والجمالية والفنية في أدب هذا الروائي المغمور والذي ظل غائبا عن عقول الناس ولم يأخذ حقه الذي يستحقه ...

المنهجية :

إن مسعى الرواية العربية عامة هو تأكيد الذات العربية أو الهوية العربية في صراعها مع الآخر ولاسيما الغربي عموما واليهودي على وجه الخصوص، وهو الهدف الذي سعى نجيب الكيلاني إلى تأصيله في رواياته عامة لا سيما الروايات التي بنيت عليها الدراسة ، وهي أربعة وعشرون رواية موزعة على أربعة محاور كبرى تناولها الكيلاني في رواياته وهي: الروايات المتمثلة بالرومانسية والروايات التي تستلهم التاريخ الإسلامي، والروايات التي تعبر عن واقع الشعوب الإسلامية خارج حدود الوطن العربي والتي سماها النقاد الروايات الاستشرافية، وكذلك روايات الواقعية الإسلامية التي عارض بها روايات الفكر الاشتراكي الماركسي .

وقد حاولت الالتزام في دراستي بمنهج تحليل المضمون ، كونه أكثر تكاملا مع أهداف الدراسة . معتمدا على النصوص الروائية في الكشف عن بنيتها الداخلية وتحليل دلالاتها متتبعا صور المرأة من نص لآخر ومقتفيا نماذجها للإجابة عما تثيره تلك النصوص من أسئلة وما تطرحه من قضايا مثيرة للجدل وإشكالات تستحق الرد الحاسم والرأي الصادق .

هذا من جهة ومن جهة أخرى سأضطر - وهذا وفقا لطبيعة الدراسة - إلى الاستعانة بمناهج أخرى أحسبها ضرورية منها على وجه الخصوص المنهج الاجتماعي في تحليل الشخصيات الروائية النسوية وتتبع حركيتها داخل البناء الروائي ككل الذي يماثل الواقع الخارجي أو الواقع الاجتماعي بشكل أو بآخر . كذلك المنهج النفسي لدراسة ما

تعتلج به دواخل الشخوص الروائية ونوازعها النفسية ومبرراتها في اتخاذ القرارات وانتهاج التصرفات .

وتجدر لإشارة في هذا الصدد أن هذه الدراسة ليست معنية بالتناول الفني للروايات، لكنها محاولة متواضعة لإلقاء الأضواء على بعض قضايا المرأة التي وردت في الروايات التي بني عليها البحث ، وهي في الحقيقة القضايا التي تعكس الحياة الاجتماعية للمرأة في الواقع السائد ..

وقد صادفني في سبيل إنجاز هذا البحث عدة صعوبات وعراقيل ، ولعل أكثرها تأثيرا هو سعة إنتاج الكيلاني إذ بلغ مجموع رواياته التي قرأتها حرفيا أربعا وثلاثين رواية تناولت بالدراسة أربعا وعشرين منها، يضاف إلى ذلك قلة الدراسات النقدية لها ، فضلا عن انصرافها في أغلبها إلى دراسة البناء الفني من حيث الزمان والمكان والحبكة، دون الاهتمام بالجانب المضموني خاصة ما تعلق بشخصية المرأة ،مما أحوجني إلى الاعتماد على الجهد الخاص في الاستقراء والاستنباط ، ثم تحليلها للوقوف على ملامحها ..

خطة الدراسة :

لقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة ومدخل وثلاثة أبواب(تتضمن اثنا عشر فصلا) وخاتمة .

فالمقدمة لا تعدو أن تكون توضيحا لأسباب اختيار الموضوع وطرح الإشكالية ومنهج الدراسة ومبرراتها .

أما المدخل الذي عنونته بـ (في مفاهيم الدراسة) ، فقد تناولت فيه ثلاثة عناصر أساسية تمثلت في الصورة الأدبية (الصورولوجيا) من حيث المصطلح ونشأته ، وتطور الصورة الروائية في الخطاب النقدي الغربي والعربي على حد سواء .

ثم المرأة العربية ومكانتها في المجتمع والواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي للمرأة العربية . وأخيرا الرواية العربية : النشأة والتطور ومدى انعكاس نماذج المرأة العربية في النصوص الروائية .

أمّا الباب الأول : (نجيب الكيلاني والفن الروائي) ، الذي تضمن ثلاثة فصول، فيدرس : في الفصل الأول والذي جعلت عنوانه (سيرة حياته ومصادر ثقافته) حياة الكيلاني بكل منعرجاتها من النشأة حتى الوفاة ، ثم مصادر ثقافته ومراتع معرفته.

وفي الفصل الثاني : الذي عنوانه (إنتاجه الأدبي والفكري) : مراحل التجربة الروائية عند الكيلاني، وروايات نجيب الكيلاني من حيث (أنواعها وموضوعاتها)،وآثاره، وغزارة إنتاج نجيب الكيلاني، وأخيرا الميداليات والجوائز التي تحصل عليها.

ويدرس الفصل الثالث : الذي عنونته بـ آراؤه النقدية ومواقفه الأدبية) قضيتين أساسيتين: الأولى تمثلت في عرض جملة من الآراء النقدية التي أثارها الكيلاني منها على وجه الخصوص: الحرية والالتزام في الأدب، والدين والفن، والأدب والجنس، ومشكلة اللغة أو بين الفصحى والعامية، وتمثلت القضية الثانية في مفهوم الأدب الإسلامي عند نجيب الكيلاني.

أمّا الباب الثاني : (قضايا المرأة العربية في روايات نجيب الكيلاني)،الذي تضمن أربعة فصول ، فيدرس :

في الفصل الأول (الحرية الشخصية وتحقيق الذات) : نضال المرأة من أجل الحرية الشخصية وتحقيق الذات منذ العصر الجاهلي وصولا إلى عصر النهضة حيث دخل مصطلح تحرير المرأة الوجود العربي، وقد تجذر على أيدي الرواد الأوائل منذ الحملة الفرنسية على مصر ، كما أوضحت في هذا الفصل اختلاف هؤلاء رجالا ونساء حيال قضية تحرر المرأة . وفي العنصر الثاني المتمثل في المرأة والسعي إلى الحرية وتحقيق الذات في روايات نجيب الكيلاني، فقد بينت فيه كيف عالج نجيب الكيلاني قضية تحرر المرأة من خلال نماذج نسائية متعددة عبر كثير من رواياته الاجتماعية والسياسية والتاريخية. ولعل من أبرز النماذج التي جسدت هذا الدور، نجد شخصية(صابرين) في رواية (النداء الخالد)،وشخصية (جليلة) في رواية (رمضان حبيبي).

في الفصل الثاني(حق المرأة في التعليم والعمل) : مطالبة المرأة بحقها في التعليم والعمل حيث أثرت هذه القضية من خلال توضيح قضية عمل المرأة التي شكلت رصيدا كبيرا للروائيين العرب رجالا ونساء. وفي الشق التطبيقي من هذا الفصل وتحت عنوان (المرأة والمطالبة بحق التعليم والعمل في روايات نجيب الكيلاني) ، تناولت بالدرس هذه القضية من خلال مجموعة من النسوة العاملات في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية.

وقد وجد في روايات نجيب الكيلاني نماذج متعددة للشخصيات النسوية التي تمثل المرأة المطالبة بحقها في التعليم والعمل ، لذلك اقتصرت في الدراسة التطبيقية لتلك النماذج المتوفرة في روايات على مجموعة من الشخصيات النسوية ،هي : الحكيمة (فضيلة علام) في رواية(رجال و ذئاب)، والممرضة (رجاء) في رواية (عمر يظهر في القدس)، والفنانة (صافي) في رواية (ليالي السهاد)، والمدرِّسة (نبيلة عبد الله) في رواية (رحلة إلى الله)،والصحافية (صفاء) في رواية (رأس الشيطان) . وهي النماذج الأكثر تعبيرا عن قضية مطالبة المرأة بحقها في التعليم والعمل .

ودرست في الفصل الثالث : قضية إكراه المرأة على الزواج : الاختيار والإكراه في الزواج، وقد تخيرت نموذجا يمثل هذه القضية أحسن تمثيل ويتمثل في شخصية نهيرة في رواية (في الظلام) .

أما في الفصل الرابع: (قضية العنوسة والطلاق): فيدرس حال المرأة بين مطرقة العنوسة وسنديان الطلاق ثم المرأة وظاهرتا العنوسة والطلاق من خلال روايات الكيلاني ، وتمثلت النماذج المختارة للتطبيق في بنات أبي العز سليم في رواية (مملكة البلعوطي)، والممرضات العوانس في رواية (الذين يحترقون)، والمرأة المطلقة هدى في رواية (الذين يحترقون) .

أمّا الباب الثالث : (نماذج المرأة في روايات نجيب الكيلاني): والذي هو عمود هذا البحث وذروة سنامه، فيدرس أبرز النماذج النسوية التي جسدها الكيلاني في أعماله تبعا

لتفاوت مستويات وعي المرأة وتعدد انتماءاتها وتباين مواقفها، وقد قسمته إلى خمسة فصول، كالتالي :

عرضت في الفصل الأول (نموذج مريم ـ المرأة الطاهرة المقدسة) من خلال نوعين هما: المرأة الأم متجسدة في شخصية (مسعدة) أم محمد حسب الله في رواية (ملكة العنب)،وشخصية(أم أحمد) المجاهد في رواية(رمضان حبيبي). أما النوع الثاني : المرأة الزوجة من خلال شخصيتين هما:(أم العز) زوجة (المعلم حامد) في رواية (الربيع العاصف) و(قطيفة) زوجة أبو الفتوح الشرقاوي في رواية(قضية أبو الفتوح الشرقاوي).

ودرست في الفصل الثاني : (نموذج شهرزاد (المرأة قاهرة الرجال): وقد تجسد شهرزاد المرأة قاهرة الرجال في روايات نجيب الكيلاني من خلال ثلاث شخصيات' هي :(سكينة) في رواية (حمامة سلام) و(فاطمة) في رواية (عذراء جاكرتا).والممرضة (منال عبد المجيد) في رواية(الربيع العاصف)

وفي الفصل الثالث (نموذج بلقيس : (المرأة وسلطة الجاه والمال والجمال): فتحدثت في البداية عن بلقيس من حيث الشخصية القوية والقرار الحكيم ، ثم المرأة وقوة الشخصية وحسن الاختيار في روايات نجيب الكيلاني ، من خلال ثلاث شخصيات هي :(شجرة الدّرّ) في رواية (اليوم الموعود) والفنانة (صافي) في رواية (ليالي السهاد) و(براعم) في رواية (ملكة العنب).

كما درست في الفصل الرابع (نموذج زوليخة (المرأة الغانية): حيث عالجت في البداية المرأة العربية بين قهر المجتمع ومأساة البغاء ، ثم في الجانب التطبيقي المرأة المنحرفة بين البغاء والخيانة الزوجية في روايات الكيلاني وتجسد نموذج البغي في المومس(زمردة) في رواية (اليوم الموعود) والمومس(نجمة الليل) في رواية(ليالي تركستان).أما نموذج الزوجة الخائنة فجسدته (وهيبة) في رواية (ليل الخطايا) و(عنايات هانم) في رواية (ليل وقضبان) أو (ليل العبيد).

ونخلص إلى الفصل الخامس(نموذج المرأة غير العربية): الذي درست فيه نموذج المرأة الغربية مجسدا في ثلاث شخصيات هي:(صوفيا) في رواية (الرجل الذي آمن) و(هيلدا) في رواية (مواكب الأحرار) و الملكة (مارجريت) في رواية (اليوم الموعود).

وختمت هذا الفصل ومن خلاله الباب الثالث بنموذج المرأة اليهودية وكانت أكثر بروزا من المرأة الغربية ،حيث منحها الكيلاني أدوارا كثيرة في رواياته وقد تجسدت أكثر في شخصية (راشيل) في رواية (عمر يظهر في القدس) (كاميليا) في (دم لفطير صهيون).

وانتهى البحث إلى خاتمة تضمنت رحيق هذا البحث وخلاصته دونت فيها أبرز ما توصلت إليه من نتائج .

وختاما لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر ، وعظيم الامتنان إلى أستاذي الفاضل الأستاذ المشرف على هذا البحث الأستاذ الدكتور الطيب بودربالة الذي رعاه وأحاطه بالعناية منذ أن اقترحته عليه فكرة وموضوعا إلى أن غدا حقيقة مشهودة وعملا مجسدا، ولم يبخل يوما في تقديم ملاحظاته وتوجيهاته القيمة ولفتاته الذكية في تواضع العظماء.

كما أتقدم بالشكر لكل الأساتذة الفضلاء أعضاء هيئة المناقشة الجليلة، الذين سيتجشمون عناء قراءة هذا البحث وإسداء النصح والتسديد والتصويب فجزاهم الله تعالى كل خير وبارك بهم وحفظهم من كل مكروه وأجزل لهم العطاء في الدارين .

وفي الختام ، فهذا البحث جهد المقل ، أسأل الله أن أكون قد وفقت في الإجابة عن أبرز التساؤلات التي أثرتها في دراستي من خلال هذا الجهد المتواضع . فإن أصبت فهذا قصدي ، وما كان فيه من خلل وزلل فمن جهدي ، وحسبي أنني بذلت ما بوسعي . وما زال الباب مفتوحا للبحث في إبداع نجيب الكيلاني الروائي ودراسته للكشف عن مواقف ورؤى هذا الفنان الفذّ.

ولا يفوتني في هذا الصدد أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى رفيقة دربي ، زوجتي التي سهرت الليالي من أجلي، وكثيرا ما تعبت في مساعدتي ، وهيأت لي الظروف المناسبة للدراسة والبحث، فجزاها الله كل خير .

وفي النهاية أشكر كل من أعانني على إنجاز هذا العمل ، من قريب أو بعيد ،أساتذة وزملاء وأصدقاء وأهل وأقارب ولو بالكلمة الطيبة وبالنصح والتشجيع الذي خفف عني وطأة البحث ومتاعبه . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

مدخل
في مفاهيم الدراسة

مدخل
في مفاهيم الدراسة

تمهيد

أولا : الصورة الأدبية أو الصورولوجيا

ثانيا :المرأة العربية ومكانتها في المجتمع

ثالثا : الرواية العربية : النشأة والتطور

تمهيد

إن مناقشة إشكالية هذه الدراسة المتعلقة بتجليات صورة المرأة في روايات نجيب الكيلاني تفرض على الدارس استعراض المفاهيم اللصيقة بهذا الموضوع وتوضيحها، لأن تعريف مصطلحات الدراسة يعد الانطلاقة المنهجية الصحيحة لفهم إشكاليات الموضوع.

ولكي تتضح الأهداف المراد تحقيقها من خلال هذه الدراسة ، ويكون المسار صحيحا ممنهجا فإنه لا مندوحة لي من توضيح المفاهيم التي بها تنفتح بعض مستغلقات هذه الدراسة محاولة منّي إزالة كل لبس أو إبهام، وكان من الضروري التطرق في البداية إلى التعريف بمصطلح الصورة الأدبية (الصورولوجيا). ثم أعرج على المرأة العربية ومكانتها في المجتمع .

وأختم هذا المدخل بالحديث عن الرواية العربية من حيث النشأة والتطور . وبذلك أكون قد ألممت بالعناصر الأساسية المشكلة لعنوان هذا البحث وهي (الصورة ـ المرأة ـ الرواية).

أولا ـ الصورة الأدبية (الصورولوجيا):

إن الناقد المهتم بدراسة الصورة الأدبية عامة وصورة المرأة خاصة ،يجد نفسه ملزما بالتوقف عند عتبات هذا المصطلح بما يحمله من دلالات متشعبة أسهب النقاد في تأصيلها منذ القدم، حيث بينوا أسس الصورة الفنية وأنواعها وأشكالها التعبيرية ،وأوضحوا قيمتها وأهميتها ، فهي تعد عنصرا أساسيا في الخطاب الأدبي إلى جانب عناصر أخرى لا تقل عنها أهمية .لقد أوردت القواميس العربية (لسان العرب ، تاج العروس والصحاح) مفاهيم لغوية للفظة(صورة) تكاد تكون متقاربة؛ جاء في لسان العرب تحت مادة (ص.و.ر) أن " في أسماء الله تعالى :المصور وهو الذي صور جميع الموجودات ورتبها وأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها، والصورة في الشكل: والجمع صُوَرٌ وصِوَر وصُوْرٌ، فقد صوَّرَهُ فَتَصَوَّرَ ، وتَصَوَّرْتُ الشيء : توهمت صورته فتصوَّرَ لي ، والتصاوير : التماثيل . قال ابن الأثير : الصورة ترد في كلام العرب

على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته ، وعلى معنى صفته ، يقال :صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته "([1]) .

وقد وردت لفظة (صورة) في قوله تعالى:(يأَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(06) ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ ، فَعَدَّلَكَ(07) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ(08) ([2]). وتقترب المعاني التي أوردها قاموس (الصحاح في اللغة) للفظة (صورة) مما ورد في لسان العرب، حيث جاء فيه :"وصَوَّرَهُ الله صورة حسنة فَتَصَوَّرَ.. وتصوَّرْتُ الشيء: توهمت صورته فتصور لي، والتصاوير : التماثيل "([3]).

أمّا (تاج العروس) فقد وردت فيه معاني كلمة (صورة)كالتالي: " الصُّورَةُ بالضم: الشكل والهيئة والحقيقة والصفة جمع صُوَّرٌ بضم ففتح ، وصِوَرٌ كَعِنَبٍ ، والصِّوَرُ بكسر الصاد : لغة في الصِّوَرِ جمع صورة، وينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجواري : أَشْبَهْنَ من بقر الخَلْصَاءِ أَعْيُنَهَا وهُنَّ أَحْسَ نُ من صِيرَانِهَا صِوَرَا وصُوْرٌ بضم فسكون.. وقد صوَّرَهُ صورة حسنة فَتَصَوَّرَ : تشكَّلَ . وتُسْتَعْمَلُ الصُّورَةُ بمعنى النَّوْعِ والصِّفَةِ ومنه الحديثُ : أتاني اللَّيْلَةَ رَبِّي في أحْسَنِ صُورَة ، تَرِدُ في كلامِ العَرَبِ على ظاهِرِها وعلى معنَى حَقيقةِ الشْيءِ وهيئته وعلى معنى صِفَتِه يقال : صُورَةُ الفِعْلِ كذا وكذا أي هَيْئَتُه وصُورةُ الأمْرِ كذا أي صِفَتُه.. الصُّورَةُ ما ينتقش به الإنسان ويتميَّزُ بها عن غيره وذلك ضَرْبانِ : ضَرْبٌ محسوس يُدْركُها الإنسانُ وكثيرٌ من الحيوانات كصُورَةِ الإنْسَان والفَرَسِ والحِمارِ .

والثاني : معقُولٌ يُدْرِكه الخاصَّةُ دونَ العَامَّة كالصُّورَةِ التي اخْتُصّ الإنْسَانُ بها من العَقْلِ والرَّويّضةِ والمَعَاني التي مُيِّزَ بها وإلى الصُّورتَيْن أشارَ تعالى بقوله "وَصَوَّرَكُمْ فأحْسَنَ

1/ ابن منظور ، محمد بن مكرم : لسان العرب ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ج4 ،1955م ، 492 .

2/سورة الانفطار : الآيات : 6 ـ 8 .

3/ الجوهري ، أبو نصر إسماعيل بن حماد : الصحاح في اللغة ، ط 4 ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين، بيروت ، ج 1 ، يناير 1990م ، ص 400 .

صُوَرَكُمْ "" في أَيِّ صُورَة ما شاءَ رَكَّبَكَ "" هُوَ الّذي يُصَوِّرُكُمْ في الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشاءُ". وقوله صلى اللهُ عليه وسلَّم " إنّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ على صُورَتِه " أراد بها ما خَصَّ الإنسانَ به من الهَيْئةِ المُدْرَكَة بالبَصَرِ والبَصيرَةِ وبها فضَّله على كثيرٍ من خَلْقِه وإضافَتُه إلى اللهِ تعالى على سبيلِ المِلْكِ لا على سبيل البَعْضِيَّة والتَّشَبُّه تعالى اللهُ عن ذلك وذلك على سبيلِ التَّشْرِيفِ كما قيل : حُرَمُ اللهِ وناقةُ اللهِ ونحو ذلك" ([1]).

فمعاني الصورة الواردة في هذه القواميس لا تخرج عن الصفة والهيئة والشكل، وهي تدل على الظاهر المحسوس والباطن المدرك عن طريق العقل. كما دلت(الصورة) في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة السابقة على معاني التسوية والتعديل والتركيب.

وقد علق الإمام محمد علي الصابوني على هذه المعاني بقوله ".. ثم عدد نعمه عليه فقال (الذي خلقك فسواك) أي الذي أوجدك من العدم ، فجعلك سويا سالم الأعضاء تسمع وتعقل وتبصر(فعدلك) أي جعلك معتدل القامة منتصبا في أحسن الهيئات والأشكال (في أي صورة ما شاء ركبك) أي ركبك في أي صورة شاءها واختارها لك من الصور الحسنة العجيبة ،ولم يجعلك في الشكل كالبهيمة كقوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) " ([2]).

أما مفهوم الصورة في الاصطلاح فقد حظي باهتمام النقاد والدارسين المعاصرين ، إن على المستوى النظري أو على المستوى التطبيقي الإجرائي إلا أنهم لم يتواضعوا على تعريف جامع مانع لهذا المصطلح الذي أخذ تشعيبات كثيرة حتى غدا "لمصطلح الصورة مفاهيم مختلفة لدى أفرع المعرفة في عصرنا الحديث ؛فمفهومه في علم النفس، غير مفهومه في الفلسفة ،ومفهومه في الفلسفة غير مفهومه في النقد الأدبي أو الشعر، بل إن مفهومه

1/ الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني : تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية ، مصر 1307هـ 1890م، ج1 ، ص379.

2/ الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير ،ط4(منقحة) ،دار القرآن الكريم ، بيروت ، 1981م ، مجلد 3 ، ص 528.

في الشعر ليس واحدا دائما، وإنما هو في تحوير وتبديل مستمرين حتى أن كل مدرسة تعطيه المفهوم الذي يتفق وفلسفتها العامة "([1]).

وقد أجمع النقاد على تسمية دراسة الصورة الأدبية بالصورولوجيا (imagologie) وهي فرع من فروع الأدب المقارن" والظاهر أن تسديدات لفظ (صورة) العربي، تلك تشترك مع مقابلاتها الأجنبية في الإحاطة بمعاني الخفاء والتجلي، إذ نجد صيغتي(image) و(figure) تستعملان للدلالة الاشتقاقية بقيم معنوية يلتبس فيها الحسي بالمجرد " ([2]).

وتعد اللغة المادة الأولى التي تنتج الصورة في النص الروائي لأنها المكون الأساسي في تشكيله، كما أن للخيال دورا أساسيا في تحويل الصورة الذهنية إلى صورة لغوية في النص الأدبي تجسدها الكلمات التي ترسم الأفعال والشخصيات من خلال اللغة لتتحول إلى صور في ذهن القارئ والمتلقي، وبالتالي فالصورة تربط بين كل من اللغة والفكر لتنتج في النهاية علما مجازيا موازيا قد يشبه عالم الواقع أو يختلف عنه ،وعلى هذا الأساس" تشكل الصورة بما تنطوي عليه من أبعاد جمالية مؤسسة على الشعرية وبلاغة المجازات والاستعارات والرموز، فاعلية مؤثرة في البنى النصية للخطاب الأدبي بشكل عام"([3]).

إلا أن تحديد مفهوم الصورة تحديدا دقيقا من الصعوبة بمكان ، ذلك أن هذه التحديدات قد تباينت وتعددت عند المنظرين وفقا لاتجاهاتهم الفنية ومنطلقا تهم الفلسفية " وقد شهدت دراسة الصورة الأدبية ازدهارا ملحوظا في الآونة الأخيرة، في

1/ الرباعي، عبد القادر : الصورة الفنية في النقد الشعري ــ دراسة في النظرية والتطبيق ، مكتبة الكتاني، إربد ،1995م،ص 85 .

2/ شرف الدين ،ماجدولين: بيان شهرزاد(التشكلات النوعية لصور الليالي) ط1 ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، 2001م ، ص 13 .

3/ عليمات ، يوسف محمود : "صورة المرأة عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي "،مجلة العلوم الإنسانية، كلية الآداب ، جامعة الكويت ،العدد 14 ، صيف 2007م ، ص 238 .

مختلف الآداب القومية، وبنسب متفاوتة، وفق تطور الدراسات الأدبية في هذا البلد أو ذاك، ونظرا لتخطي دراسة الصورة حدود الآداب القومية فقد كانت موضع اهتمام علماء الأدب المقارن فقد عدَّهَا بعضهم ميدانا أساسيا من ميادين البحوث المقارنة، كما أطلقوا على الدراسات التي تتخذ من الصورة موضوعا لها تسمية (الصورولوجيا)،واستخدم للدلالة على دراسة الصورة الأدبية أو الصورولوجياimagologie"([1]).

ويبدو أن أول من استعمل هذا المصطلح (الصورة) هم الرومانسيون، وهو عندهم ترجمة للكلمة الفرنسية (image) ،وقد عرفها الشاعر الفرنسي (بيار ريفاردي) (Pierre Reverdy 1889 ـ 1960)*" بأنها إبداع ذهني صرف، وهي لا يمكن أن تنبثق من المقارنة، وإنما تنبثق مع الجمع بين حقيقتين تتفاوتان في البعد قلة وكثرة ، وكلما كانت العلاقات بين تلك الحقيقتين عميقة ومتينة كلما كانت الصورة شديدة التأثير، صادقة التعبير " ([2]) .

وهذا يعني أن الصورة الأدبية عند هذا الشاعر، وعند غيره من الرومانسيين ، هي إبداع ذهني خالص يعتمد أساسا على الخيال والعقل ؛ فالخيال يبدعها والعقل يحدد علاقاتها من خلال مخزوناته القبلية في الذاكرة. والصورة عند (دانيال هنري باجو Daniel

---

1/ أحمد ، سيف الدين :" صورة المرأة الأوروبية في روايات د. شكيب الجابري "، مجلة جامعة دمشق، المجلد 18،العدد الأول،2002م ، ص 04 .

*/ النص الفرنسي لبيار ريفاردي كما ورد في معجم مصطلحات الأدب :

(L'image est une création pure de l'esprit, elle ne peut naître d'une comparaison, mais du rapprochement de deux réalités plus au moins éloignées. Plus les rapports des deux réalités rapprochées seront lointains et justes, plus l'image sera forte, plus elle aura de puissance émotive et de réalité poétique).

Pierre *Reverdy* ***Le Gant de Grain 1926.***

2/ وهبة، مجدي : معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1984م ن ص 237 .

Henri Pageaux) فهي" التعبير الأدبي أو غيره عن فجوة كبيرة بين نظامي الواقع الثقافي. وهكذا فالصورة الأدبية هي مجموعة الأفكار والمشاعر حيال الأجنبي التي تتخذ في خضم التكوينين الأدبي والاجتماعي ، تفضي الصورولوجيا بالباحث إلى ملتقيات إشكالية، حيث يحتك الأدب من بين علوم إنسانية أخرى ، بعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وحيث تصبح الصورة من عوالم الكشف عن الوظائف الأيديولوجية(على نحو العنصرية، الإغراب Exotisme) والمتخيل الاجتماعي" ([1]) .

فالصورة الأدبية إذن ،هي نتاج التفاعل بين قوميتين أو بين شعبي يشكلان طرفين هما الأنا والأخر، وغالبا ما تبنى هذه الصورة عن الأخر على سوء التفاهم وعلاقات العداء بين الأمم والثقافات، وينجم عن هذا التماس مواقف عن الآخر إما سلبية أو إيجابية ، وهي أيضا " تعبير أدبي أو غيره عن تباعد ذي دلالات بين نظامين من الواقع الثقافي " ([2]).

وعليه فإن صورة الآخر في الأدب القومي تصدر" عن وعي مهما كان صغيرا ،بالأنا مقارنة بالآخر وهنا مقارنة بمكان آخر " ([3]) .

أما الصورة عند الناقد العربي حسن درويش فهي"كلام مشحون شحنا قويا يتألف من عناصر محسوسة ، خطوط وألوان، حركة ظلال، تتحمل في تضاعيفها فكرة وعاطفة، أي أنها توحي بأكثر من المعنى الظاهر، وأكثر من انعكاس الواقع الخارجي ، وتؤلف في مجموعها كلاما منسجما، وأنها تنحصر في جانبين هما :الجانب الحسي المرتكز

1/ الداهي ، محمد : " الآخر المتعدد في المؤلفات التخيلية لعبد الله العروي "، مجلة (فكر) للعلوم الإنسانية والاجتماعية، الرباط ، العدد09 ، السنة 2010م ، ص 13 .

2/ سليمان ، نبيل : وعي الذات والعالم ، دار الحوار ، اللاذقية ،1985م ، ص 73 .

3/ حمود ، ماجدة : مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن ،اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،2000م ، ص 108 .

على الفكرة والعاطفة، والجانب الاستعاري الذي يضفي على الشكل أكثر من معناه الخارجي " ([1]).

فهي إبداع ذهني أي أنها عملية عقلية تعالجها المخيلة وتعبر عن جانبين ، أحدهما فكري وهو الموضوع الذي توحي به من جهة، والثاني وجداني تمثله العاطفة التي أحسها الأديب وكذلك التأثير الانطباعي الذي يسعى إلى ترسيخه في ذهن المتلقي قارئا كان أو مستمعا من جهة ثانية .

وبذلك تكون الصورة الأدبية ـ أيضا ـ رؤية فكرية وأدبية عن واقع ثقافي ما بحيث ينظر إلى الصورة على أنها "مجموعة من الأفكار عن الأجنبي أُخِذَتْ ضمن صيرورة التأديب، أي جعل الشيء أدبيا " ([2]).

ويمكن تصنيف نظرة الأنا إلى الآخر إلى ثلاثة مواقف ، هي :

1ـ الهوس بالآخر أو ما يسمى بـ (La Manie): حيث تَعْتَبِرُ الأنا ثقافة الآخر ثقافة فوقية تكون النموذج الذي يحتذى به على اعتبار أن الثقافة الذاتية ثقافة دونية تدل على الضعف والعجز وحتى العار أحيانا "حيث تسيطر على الأنا المبدعة أو الدارسة مشاعر الدونية ، فتتم من خلالها رؤية الواقع الثقافي الأجنبي في حالة من التفوق المطلق على الثقافة الوطنية الأصيلة وبذلك يترافق التفضيل الإيجابي للأجنبي مع عقد نقص تعاني منها الذات تجاه ثقافة الآخر وأسلوب حياته، فنجد أنفسنا أمام كاتب أو جماعة من الكتاب يعانون من حالة تصل إلى حد الهوس بالآخر، فيسيطر وهم الانبهار على الوجدان مما يؤدي إلى رسم صورة الآخر الأجنبي على حساب الصورة الحقيقية له، إلى درجة نجد بعضهم لم يكتف أن

1/ درويش، العربي حسن : النقد الأدبي الحديث (مقاييسه واتجاهاته وقضاياه ومذاهبه)،ط2،مكتبة النهضة المصرية، 1984م،ص 194 .

2/ حمود ،ماجدة : مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن ، ص 112.

يكون من دعاة الحضارة الغربية بل وجدناه يغض الطرف عن مشكلاتها ، ولا يتبنى أي موقف نقدي تجاهها .." ([1]) .

وبالتالي يصبح الواقع الثقافي الأجنبي متفوقا عن الواقع الثقافي الوطني تفوقا كليا أو جزئيا ، وينظر للواقع الاجتماعي الأجنبي على أنه أكثر تطور وتقدم وازدهار من الواقع الاجتماعي الوطني ،وتكون الثقافة الوطنية ثقافة دونية مقارنة بالثقافة الأجنبية ،إذ "يعد الواقع الأجنبي بالنسبة للكاتب أو الجماعة متفوقا حتما على الثقافة الناظرة ، الثقافة الأصلية، هذا التفوق يؤثر جزئيا أو كليا في الثقافة الأجنبية المنظورة، ومن نتيجة ذلك بالنسبة للثقافة الأصلية أن الكاتب أو الجماعة تعد أقل مستوى في موازاة التفضيل الايجابي للأجنبي هناك رؤية سلبية، انتقاصية للثقافة الأصلية "([2]).

من ذلك ما حدث للإنجليز تجاه الفلاسفة الفرنسيين، أو الروس تجاه الفرنسيين أيضا. وقد درج المثقفون العرب ممن تبنوا هذا الموقف على تمجيد الغرب ، وقد صار بعضهم " يعطي للغرب صورة العالم المنظم ، والمتفوق والعقلاني ، و لا يرى في هذا العالم إلا الجانب الايجابي ، الذي يمنعه من رؤية الحقائق الموضوعية "([3]) .

وربما وجدنا من يمجد الغرب الاستعماري ويرى بأنه صاحب رسالة حضارية إنسانية، ومن هذا القبيل مواقف بعض المثقفين العرب من الحملة الفرنسية على مصر.

2 ـ الرِّهَابُ أو ما يسمى بـ (La phobie): إذ تحدد الأنا علاقاتها على اعتبار أن ثقافة الأنا متفوقة على ثقافة الآخر ، وتسعى الأنا لفرض هذه الثقافة بشتى الوسائل، وقد تلجأ

1/ حمود ،ماجدة : صورة الآخر في التراث العربي ، ط1 ، منشورات الاختلاف ، الجزائر،2010م، ص 28 .

2/ دانيال ،هنري باجو: الأدب العام والمقارن ، ترجمة د. غسان السيد ،منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1997م، ص 101 .

3/ السيد ، غسان : " صورة الغرب في الأدب العربي رواية (فيَّاض) ، لخيري الذهبي أنموذجا " ، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24 ،العدد الثالث +الرابع ،2008م ، ص92 .

إلى استعمال القوة والتشويه والتزوير لتبيين حقارة الآخر ودونيته كما حصل مع اليابان والولايات المتحدة الأمريكية، بحيث" يُنْظَرُ إلى الآخر على أنه في مرتبة أدنى من الذات وهذا الموقف الذي يشتمل على تقييم سلبي إلى الآخر، يحمل في ثناياه إعجابا ايجابيا واعتدادا بالذات سواء أكان فيما يخص واقعها الثقافي أم حياتها الاجتماعية ، إذ ينظر إليها على أنها طرف متفوق في معادلة العلاقة بالآخر "([1]) .

وهي نظرة مؤسسة على تراكمات قبلية لاشعورية عند الذات تجاه الآخر إذ " تسيطر على الأنا المبدعة أو الدارسة مشاعر التفوق على الآخر ، وغالبا ما تعززها العلاقات العدائية مع الآخر عبر التاريخ ، مما يؤدي تشكيل صورة سلبية عن الآخر المعادي ، نظرا للمشاعر العدائية وسوء الفهم، لذا لن يسمح بسماع صوت هذا الآخر، ولن يتاح له حرية التعبير عن ذاته، وبذلك تعد الصورة السلبية وليدة علاقات متوترة تَضَعُ الآخر ضمن إطار واحد مشوّه (تشويها سلبيا)،فمثلا بدت لنا صورة الأوروبي (المُسْتَعْمِرُ)في كثير من نصوص الأدب العربي مشوهة (مادي، غير أخلاقي، يزرع الضغينة حيثما حل "([2]).

غير أن مثل هذا الموقف الصادر من الدكتورة ماجدة حمود ،هو موقف يحمل دلالات ضمنية تبرئ ساحة الأوروبي المُسْتَعْمِرُ؟ !ألم يكن الاستعمار الأوروبي (ماديا، غير أخلاقي، يزرع الضغينة حيثما حل)؟ !وليس بعيدا عنا الاستعمار الأمريكي للعراق، وأدهى منه الاحتلال الصهيوني لفلسطين ولبنان والجولان.

ولعل من أبرز أمثلة هذا الموقف للأنا تجاه الآخر ما حصل بين القوميتين الألمانية والفرنسية، ومثله المواقف الصادر من الأوروبيين والأمريكيين عموما تجاه العرب المسلمين

1/ أحمد ، سيف الدين : صورة المرأة الروبية في روايات د. شكيب الجابري ، ص 04 .

2/ حمود ، ماجدة : صورة الآخر في التراث العربي ،ص27 .

خاصا بعد أحداث الحادي عشر سبتمبر وما نجم عنها من مواقف عدوانية بحق وبغير حق ضد كل ما يشتم منه رائحة العربي المسلم.

فالرِّهَابُ إذن " عكس الهوس ، ويؤدي إلى اعتبار الواقع الأجنبي متدنيا مقابل تفوق الثقافة الأصلية "([1]).

وهذا ما حصل حينما توهمت فرنسا البربرية الجرمانية الألمانية ،والأمر نفسه حصل بين اسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، مما أدى إلى نشوب الحرب بينهما وانتصار الولايات المتحدة الأمريكية واحتلال المستعمرات الاسبانية القديمة عام 1898م (كوبا، بورتوريكو والفلبين ([2]).

وأصحاب هذا الموقف من الكتاب العرب يرون أن الغرب كله شر وأنّ الأنا هي الخير كله، بحيث " يختار الفريق الثاني الاتجاه المناقض للاتجاه الأول، فلا يترك صفه سلبية إلا ويلصقها بالغرب، ويركز بصورة خاصة على ما ينسجم مع اللاشعور الجمعي العربي الإسلامي من حيث وصف الغرب بالكفر والفساد والانحلال الأخلاقي "([3]).

وهذا أيضا موقف فيه كثير من التحامل على الغرب ، يحمل تشويها مقصود منه تعبئة الأنا ضد الغرب والتحذير منه ،فالغرب ليس كله شر و لا هو أيضا جنة الله على الأرض، بل فيه ما هو ايجابي يستحق التمجيد ،وفيه من الانحراف عن الطبائع البشرية الفطرية ما يستحق التنبيه إليه والتحذير منه لتفاديه.

3 ـ الحب أو التسامح أو ما يسمى بـ (La philie): وهي النظرة الواقعية للآخر بحيث تنبني العلاقة بينهما على أساس من الندية والتكامل ،وهو ما يدعو إليه العالم اليوم من حوار بين الثقافات وتسامح بين الأديان ، من أجل ذلك " تسيطر على الأنا المبدعة أو الدارسة الرؤية المتوازنة للذات والآخر، فترسم صورة الآخر بروح موضوعية يسودها

1/ دانيال ، هنري باجو: الأدب العام والمقارن ، ص102 .

2/ ينظر : المرجع نفسه ، ص102.

3/ السيد ، غسان : "صورة الغرب في الأدب العربي رواية (فيَّاض) ، لخيري الذهبي أنموذجا " ، ص93 .

التسامح لذلك لن تنحرف أو تبالغ في تعاملها مع الذات أو الآخر، فيتم تقديم الصورة عبر رؤية واعية، تعتمد العلم ، وتصغي لنبض الإنسان، وبذلك تستطيع أن تنظر للآخر باعتباره ندّا للذات، فينتفي الهوس والانبهار(الاستعارة من الآخر)،كما ينتفي الرهاب الذي ينفي الآخر ويكاد يصل الأمر حد افتراض الموت الرمزي له"([1]) .

وهو الموقف الذي ينظر إلى الواقع الأجنبي، ويحكم عليه بصورة إيجابية، ويدرج ضمن الثقافة الناظرة التي تعد هي بدورها إيجابية ومكملة للثقافة المنظورة. التسامح هو الحالة الوحيدة للتبادل الحقيقي والثنائي ([2]).

وهو الموقف الذي تبناه العديد من المثقفين عبر العالم، وكذلك الكثير من المؤسسات العالمية المختصة في العلاقات الإنسانية والدعوة إلى نبذ العنف وضرورة محاربة كل أشكال العنصرية والإرهاب أيا كان مصدره ، وصار هذا الموقف هو الشائع في مجتمعنا المعاصر. لذلك يقف المثقفون العرب المنتمون إلى هذا التيار موقفا "وسطا بين التيارين يحاول أن يوضح هذه العلاقة الملتبسة مع الغرب ، ويضعها في إطارها التاريخي لينطلق منها بعد ذلك إلى بناء علاقة ايجابية مثمرة تقوم على الأخذ والعطاء، بعيد عن التعصب الذي يعمي البصر والبصيرة " ([3]).

ولعل الحضارة الإنسانية عبر الأعصر المتعاقبة قد تبنت مثل هذا الموقف المتسامح الذي يفرض ضرورة التكامل ،وهو الأمر الذي وقع فعلا، حيث اغترفت الحضارات المتعاقبة من منابع العلم والمعرفة بدءا بحضارة المصريين القدامى مرورا بحضارتي الرومان واليونان ، ثم الحضارة الإسلامية وانتهاء بالحضارة الغربية الحديثة التي اختزلت قرونا من الزمن حينما استندت إلى الحضارة الإسلامية، ولا أدل على ذلك تلك المفارقة التاريخية

1/ حمود ،ماجدة : صورة الآخر في التراث العربي ،ص28 .

2/ ينظر : دانيال ،هنري باجو: الأدب العام والمقارن ، ص102 .

3/ السيد ، غسان : "صورة الغرب في الأدب العربي رواية (فيّاض) ، لخيري الذهبي أنموذجا " ، ص94 .

العجيبة وهي اقتران سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس في أيدي الإسبان سنة 1492م واكتشاف كريستوف كلامبيس للقارة الأمريكية في نفس التاريخ .

فبناء الصورة الأدبية يستند على أحد المواقف السابقة ؛ فقد تتسم بالتشويه والتشويش ، فلا يكون الآخر إلا عدوا لدودا يحذر الكاتب من تأثيره على الثقافة القومية، أو قد يكون الآخر تافها في نظر الثقافة المبدعة أو الدارسة ، فينبه الدارس إلى ضرورة تجنب تقليده ، كما أن الصورة قد تتسم بشيء من الموضوعية تجاه الآخر ، فيدعو الكاتب إلى التسامح والتوافق مع الآخر ، بل قد يدعو إلى أبعد من ذلك ، فيحمس قومه على الأخذ عنه والحذو حذوه ، ومهما يكن من الأمر فإن " الصورة التي يرسمها الأديب لمجتمع أجنبي تنبع أولا وقبل كل شيء آخر من مشكلات الأديب نفسه ، ومن أوضاع مجتمعه القومي ، وهي تلبي بالدرجة الأولى حاجات نفسية أو فنية أو ثقافية للأديب ومجتمعه و لا تلبي حاجات ثقافية أو اجتماعية للمجتمع الأجنبي المُصَوَّر"([1])

وفي جميع الأحوال ، فإنه يجدر بالباحث المقارن المهتم بدراسة الصورة الأدبية عن الآخر أن يستجمع من المعارف ما يعينه على معرفة أحوال الأمم والشعوب وحضاراتها ومزيدا من أدوات النقد الحديث والعلوم المعاصرة كعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ وعلم السلالات وعلم الأنتروبولوجيا، إضافة إلى ما ينبغي أن يتحلى به من صفات الناقد الناجح كالفطنة والنباهة والذوق السليم مما من شأنه أن يسعفه في دراسة صورة الآخر واستنباط جماليات الآثار الأدبية المتعلقة بتلك الصورة .

ولدراسة الصورة الأدبية أهمية بالغة لأنها تساهم إلى حد بعيد في توسيع أفق الذات المبدعة أو الدارسة لكي تسعى إلى تصحيح الفهم المغلوط تجاه الآخر ،ومن خلال ذلك فإنها تعمق فهمنا لذواتنا لأن فهم الآخر يمر حتما عبر ذواتنا ومن خلال ذلك نمتلك القدرة على فهم ذواتنا وفهم الآخرين وتقويمهم تقويما موضوعيا "ولهذا يجب التعامل بحذر مع

1 /حمود ،ماجدة : مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن ، ص 119 .

صورة الآخر التي تقدمها النصوص الأدبية حتى لا تخرج دراستنا عن الضوابط النظرية الضرورية لجعل الدراسة تبتعد عمَّا حذّر منه الباحثون، ويجب أن تدرس صورة الأجنبي على أنها عرض لواقع ثقافي"([1]).

على أن تكون تلك الدراسة موضوعية إلى حد ما لأن السؤال يطرح دائما حول مدى موضوعية الدراسات الإنسانية التي لا ترقى ـ مهما حاول الدارس ـ إلى مستوى موضوعية العلوم التطبيعية أو التجريبية . ولعل هذا يرجع بنا إلى البدايات الأولى لدراسة الصورة الأدبية كفرع من فروع الأدب المقارن ، والتي خطت خطواتها الأولى من فرنسا وتحديدا منذ تلك الزيارة التي قامت بها الأديبة الفرنسية (مدام دي ستايل)(Madame de Staël1766 1817 إلى ألمانيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر في الوقت الذي تصاعدت فيه حدّة التوتر والعداء وسوء الفهم بين الشعبين الفرنسي والألماني حيث رسم كل منها صورة مشوّهة عن الآخر تنزّه الذات وتحقر الآخر وهي صورة مغلوطة تبرز أثر العلاقات العدوانية بين القوميتين؛ فقد اكتشفت (مدام دي ستايل) بعد طول إقامة بألمانيا كثيرا من الحقائق المثيرة عن الشعب الألماني .

فقد توصلت ـ فيما توصلت إليه من حقائق صاعقة مفادها أن الشعب الفرنسي يجهل الكثير من الأمور عن ألمانيا ، فقد رسم صورة لألمانيا غير إنسانية ولا واقعية تشوّه الثقافة والأدب وحتى الطبيعة في ألمانيا، فالألمان في أذهان الفرنسيين شعب فظ غليظ التعامل غير متحضر ولا متمدن ، يتكلم لغة غير جميلة ولا يملك أية انجازات فكرية ولا ثقافية. فقد استطاعت هذه الأديبة من خلال الخبرة الذاتية والمعايشة اليومية للشعب الألماني أن تكتشف مزايا كثيرة يمتلكها الألمان كالطيبة والصدق والاستقامة، وأن الأدب الألماني غني، وأن الفلسفة الألمانية قد بلغت مستوى رفيعا ، مما جعل الأديبة تسعى إلى تصحيح

1/ السيد ، غسان : " صورة الغرب في الأدب العربي رواية (فيَّاض) ، لخيري الذهبي أنموذجا "، ص96 .

هذه النظرة التي يشوبها كثير من التحامل على الألمان ،فألفت كتابا في هذا الموضوع أسمته (من ألمانيا)(De L'Allemagne).

ويعد هذا الكتاب البدايات الأولى لعلم دراسة الصورة أو الصورولوجيا ، وهذا يجعلنا نقول أن أهمية دراسة الصورة تظهر على مستويات مختلفة ، فأمَّا " على المستوى الجماعي فتفيد في تصريف الانفعالات المكبوتة تجاه الآخر أو في التعويض وتسويغ أوهام المجتمع الكامنة في أعماقه ، وكذلك تبين الصورة المغلوطة المكونة عن الشعوب فتسهم في إزالة سوء التفاهم وتؤسس لعلاقات معافاة من الأوهام والتشويه" ([1]).

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن ثمَّة من النقاد من رفض إدراج دراسة الصورة الأدبية ضمن فروع الأدب المقارن؛ منهم على سبيل المثال المقارن الفرنسي الكبير(رينيه إتيامبلRené Etiemble) و(رينيه ويليك René wellek)،وقد أسمتهم الدكتورة ماجدة حمود بـ (أعداء دراسة الصورة الأدبية في الأدب المقارن) حيث تقول:" ثمة من يعارض دراسة الصورة الأدبية ضمن اهتمامات الأدب المقارن، ويراها ممثلة للمدرسة الفرنسية في الدراسات المقارنة التي ترتكز على العوامل التاريخية والمؤثرات الملموسة وهي لذلك تعتمد الوضعية الجديدة كما قال رينيه ويليك منذ عام 1953م في مقاله السنوي للأدب المقارن، بعد ذلك بعشر سنوات ندد إتيامبل في كتابه (comparaison n'est pas raison)* بالدراسات التي تهم المؤرخ وعالم الاجتماع ورجل الدولة ، وعلى رأسها دراسة صورة الآخر "([2]).

ويرجع هؤلاء هذا الرفض إلى خوفهم من أن تتحول الدراسات المقارنة في هذا الباب (دراسة الصورة) إلى ميادين للدراسات التطبيقية الإحصائية كالتاريخ وعلم الاجتماع

1/ حمود ،ماجدة : مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن ، ص 113 .

*/(المقارنة ليست الحقيقة).

2/ المرجع نفسه ، ص 112 .

وتهمل الجوانب الفنية الجمالية للأدب.ويعد رينيه إتيامبل من أشهر المقارنين الفرنسيين الذين انتقدوا المركزية الأوروبية ـ أيضا ـ فقد " حَثَّ المقارنين على تعلم اللغات الشرقية والاطلاع على آدابها بغية توسيع آفاقهم الأدبية وأيد إحياء مفهوم(الأدب العالمي) الذي جاء به (غوته) وطالب بإجراء مقارنات أدبية على المستوى العالمي ،لا يهدف تتبع علاقات التأثير والتأثر واستكمال تاريخ الآداب القومية إنما بغرض التوصل إلى (شعرية مقارنة) "([1]).

ويمكن القول إن دراسة صورة الأنا تتباين عن دراسة صورة الآخر ، بمعني أنه يجب التمييز بين مستويين من دراسة صورة الآخر ،وهما :

أ) ـ صورة شعب في أدبه : أو الآخر القريب الذي يعيش مع الأنا ويقاسمه البيئة والثقافة واللغة والآمال والأهداف ،مثل صورة الفرنسيين في الأدب الفرنسي، أو صورة الجزائري في الأدب الجزائري المعاصر، أو صورة المرأة الألمانية عند أديب ألماني معين، أو صورة المرأة في روايات نجيب الكيلاني ـ وهو موضوع هذا البحث ـ

وهذا النوع من الدراسات لا يتعدى إطاره القومي واللغوي والديني ، وغرضه البحث عن فنيات الأدباء في تناول مثل هذه الموضوعات بالوصف والتحليل، فهي في العموم دراسات نقدية لمواضيع في أدب معين أو لدى أديب بالذات في المجتمع ، فـ " صورة الأنا تستند إلى تجارب وخبرات غنية عاشها الأديب في المجتمع الذي يصوره ، إذ ولد ونشأ في ذلك المجتمع ،وهو يعرف العديد من أبنائه عن كثب، وتربطه ببعضهم علاقات قرابة وصداقة وغيرها من العلاقات الاجتماعية والنفسية ، وهكذا فإن المعرفة العميقة والشاملة بالمجتمع الذي يصوره الأديب تجعل الصورة التي يرسمها في أدبه

1/ عبود ، عبدة : الأدب المقارن (مشكلات وآفاق)، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق، 1999م ، ص81.

غنية ودقيقة وتفصيلية وذلك خلافا لصورة يقدمها أديب لشعب أجنبي لا يعرفه حق المعرفة "([1]).

فصورة الأنا لمجتمعه الذي يرتبط به ماديا واجتماعيا ونفسيا وأخلاقيا وعقائديا تكون صورة يحرص من خلالها الأديب على تجلية الظواهر المعيبة في المجتمع رغبة منه في إصلاحه وتنويره " فقد يرسم الأديب أحيانا صورة سلبية لمجتمعه ، وهذا ما نلاحظه في كثير من الأعمال الأدبية، لكننا نجد وراء تلك الصورة رغبة عارمة في الإصلاح والتغيير نحو الأفضل، وليس الإساءة إلى المجتمع و هدمه ، وهذا لا ينطبق على صلة أديب بمجتمع أجنبي لا تربطه به علاقة توحد قومي "([2]).

وقد نهج كثير من الأدباء هذا المنهج في توعية المجتمع وإصلاحه، وكان للرواية الدور الأساس في تنوير المجتمع وهدايته إلى سبل التقدم والتطور لاسيما في عصرنا هذا الذي عجت فيه انحرافات الشباب وخروجهم عن مألوف مكارم الأخلاق ،وانتشار كثير من الآفات الاجتماعية التي عصفت بعقول الشباب .

ب) ـ صورة شعب في أدب شعب آخر : أو الآخر البعيد الذي لا يشترك مع الأنا لا في الأرض ولا في الهواء، وهو الغربي على وجه عام ويضاف إليه الإسرائيلي الصهيوني ،من ذلك صورة الشعب الجزائري في الأدب الفرنسي ، أو صورة الألماني في الأدب الفرنسي، أو صورة اليهودي في الأدب الفلسطيني أو العكس، وغالبا ما تكون هذه الصورة مزَوَّرَة ومغشوشة بسبب التراكمات العدائية بين الشعوب والقوميات، ولذلك ينبغي أن تكون مبنية على المعايشة الذاتية و التجربة الواقعية والملاحظة العينية" فأغلب الظن أن الصورة المبنية على المعايشة اليومية والتجربة والممارسة أشمل وأوضح وأقرب إلى الواقع ،لأن الشعب المتأثر يتحدث عن تجربة معاشة مارسها زمانا مهما تكن ظروفها الخاصة بها، ومعنى

1/ حمود ،ماجدة : صورة الآخر في التراث العربي ،ص15 .

2/ حمود ،ماجدة : مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن ، ص 109 .

ذلك أن صورة الآخر تختلف عن الصورة الأخرى ،لأن هذه الصورة تكونت بواسطة المعايشة والاحتكاك اليومي "([1]).

غير أن هذه المعايشة لا تحدث في كثير من الأحيان ؛فقد صور بعض الأدباء شعوبا وقوميات لم يعرفوها عن كثب ، ولم تطأ أقدامهم أوطانها ولم يزوروها ولو مرة واحدة، ومع ذلك فقد كتبوا عن تلك الشعوب ونقلوا عنها صورا هي في كثير من الأحيان مستقاة من مخيلتهم أو من القصص والروايات التاريخية التي قرؤوها عن تلك الشعوب ، فقد" لا نجد الصورة مرسومة على أساس المعرفة المباشرة للبلد الأجنبي إذ كثيرا ما ترجع تلك الصورة إلى مطالعات الأديب أو إلى أحاديث سمعها حول البلد الأجنبي مما يؤدي بالصورة إلى الإيغال في الأوهام، وقد وجدنا قسما كبيرا من الأدباء الغربيين قدموا في أعمالهم صورة للشرق العربي الإسلامي دون أن تطأ أقدامهم ذلك الشرق الذي صوروه ! كالأديب الألماني (غوته)* الذي عرف الشرق عبر كتاب (ألف ليلة وليلة) والشعر القديم (المعلقات، الشيرازي ، عمر الخيام) والقرآن الكريم وكتب التاريخ "([2]).

إلا أن هذا لا ينطبق على كل الأدباء الذين كتبوا في الصورة أو صوروا مجتمعات أجنبية عن مجتمعاتهم، فهناك استثناءات تخرج عن هذا المسار ، نذكر على سبيل المثال الأديب الفرنسي (جان ماري غوستاف لو كليزيو) الذي كتب عن الهنود الحمر بعد طول معايشة لهم في بلادهم ؛فقد عاش مدة أربع سنوات مع قبيلتي(الأمبيراس والفوناناس) وهما أكبر قبيلتين في باناما.

1/ حنون ، عبد المجيد : صورة الفرنسي في الرواية المغربية ،د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986م،ص 78 .

*/ يوهان ، فولفغانغ غوته :ولد في (28 أغسطس 1747م - 22 مارس 1832م) هو أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين.

2/ حمود ،ماجدة : صورة الآخر في التراث العربي ،ص 16 .

نذكر أيضا في هذا السياق الأدبية الفرنسية (مدام دي ستايل) التي كتبت عن الشعب الألماني بعد إن عاشت سنوات طويلة في ألمانيا وقد كان لكتاباتها أثر بالغ في تغيير وجهة نظر الفرنسيين عن الشعب الألماني والقومية الألمانية ،حيث أعطت كتاباتها صورة مغايرة لتلك الصورة المشوهة التي كان يحملها الشعب الفرنسي عن الشعب الألماني. كما أنه من المفيد التنبيه إلى أن " الصورة التي يرسمها أديب ما لمجتمع أجنبي لا تعبر عن مشكلات ذلك المجتمع و همومه و قضاياه ، ولا تنبع من التزام الأديب حيال المجتمع الأجنبي ومن رغبته في إصلاحه أو تغييره نحو الأفضل ، وهي ليست وليدة توحد الأديب مع ذلك المجتمع الذي لا يرتبط به قوميا ، فالصورة التي يرسمها الأديب لمجتمع أجنبي تنبع أولا وقبل كل شيء آخر من مشكلات الأديب نفسه ومشكلات قومه في مواجهة الآخر ، لذلك تلبي الصورة الأدبية في الدرجة الأولى حاجات نفسية أو فنية "([1]).

وفي بعض الأحوال فإن الصورة الأدبية تلبي حاجات الأنا والآخر على حد سواء ؛ فهي تلبي حاجات الأنا حيث يبحث من خلال صورة الآخر عن متطلبات اجتماعية ونفسية لا تتوفر في مجتمعه. كما أن الأنا تساهم عن قصد أحيانا من خلال دراسة صورة الآخر في تلبية متطلباته من خلال صورة مشوهة. عن الأنا نفسه كتشويه صورة الإسلام ،وهو ما يخدم الآخر أكثر من خدمة الأنا وهذا ما يفعله الآخر تجاه الأنا أيضا ، ومن هنا " تنشأ علاقة الأنا بالآخر وفق قانون نفسي اجتماعي عقلي ، وبهذا يمكن لأحد طرفي الثنائية من السيطرة وينشأ نوع من القهر لا تتجاوزه الأنا إلا إذا وعت نفسها جيدا وأدركت دوافع سلوكها ويلاحظ هذا الأمر في الأفراد والجماعات التي يكون لديهم شعور بالنقص أمام الآخر"([2]).

1/ حمود ،ماجدة : صورة الآخر في التراث العربي ، ص ص 16.17 .

2/ الجيار ، مدحت : النص الأدبي من منظور اجتماعي ، ط1 ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ، 2000م،ص 135.

ولذلك فإن وعي الذات مرهون بوعي الآخر ، أي أن هذه الذات أو الأنا لا يمكن أن تعي نفسها إلا عبر الآخر وخاصة حينما تشعر بالنقص أو العجز تجاه هذا الآخر، فالآخر هو المرآة التي من خلالها تنعكس صور ذواتنا ،وبالتالي فإن أنماط الوعي بالآخر /الغرب تتعلق أساسا بالكيفية التي يُتَصَوَّرُ بها هذا الغرب، أو يَتَصَوَّرُ بها الأنا الآخر كموضوع غريب جذَّابٍ ، أو كخصم وعدو في الآن نفسها "وهذا لا يستبعد تدخل مجموعة من العوامل الذاتية يمكن أن تلعب دورا في تشكيل الصورة وتوجيه أبعادها الدلالية ،ومن ذلك تجارب المبدع وخبرته المكتسبة من عالم الناس، أو من مطالعاته.

فقد تكون الشخصية / الصورة خلاصة شخصيات حقيقية صادفها الروائي في حياته، أو عايشها أو سمع عنها ،ثمّ أعاد تشكيلها وأضفى عليها من خياله وروحه ووجدانه ومزاجه، من وعيه ولا وعيه، فقد يسقط على هذه الشخصية أو تلك أحلامه واستيهاماته وتطلعاته، كما قد يتّخذ منها حاملا لأفكاره ومعتقداته الإيديولوجية "([1]).

ونتيجة لذلك ينشأ الاقتداء ويتجسد بقوة مما يؤدي إلى هامشية الذات لأن الاقتداء يعد مصدر الخضوع للآخر والاعتراف له بالسيادة ، وهذا ما عبر عنه ريمون كاربانتيه حين قال: "إن الآخر فينا حتى الآن إما أتباع أو أعداء، فالأتباع نعني بهم من نعتمد عليهم ويتحقق بهم اتفاقنا وإياهم طبيعيا وعضويا إما بالتزاوج أو بالعائلية وبالمدنية وبالمستوى المجتمعي،أما الأعداء فنعني بهم منافسينا وخصومنا الذين لا يتميّزون في طبيعتهم العمياء إلا بأنهم أدهى منا حيلة وأكثر منا عددا"([2]).

ولذلك فالذات تواصل تطورها الطبيعي وتتبلور تجاربها من خلال محيطها الخاص بها وبالآخر، ففهم ذواتنا يحتم علينا أن يمر عبر تيار الآخر، وفي ضوء ذلك كله تتعمق رؤيتنا

1/ فعاليات منتدى الروائيين العرب : صورة المرأة في الرواية العربية ، ط1 ، دار سحر للنشر ، تونس ، 2005م ، ص 105 .

2/ كاربانتيه ، ريمون : معرفة الغير ، ط1 ن ترجمة نسيم نصر ، دار منشورات عويدات ، بيروت، 1975م، ص 12 .

للهوية العربية ،ولا بد هنا من الإشارة إلى أن " إشكالية الهوية تشمل جوهريا علاقة العربي بالآخر ومن ثمَّ بذاته عبر الآخر بقدر ما أصبح هذا الآخر محورا موضوعيا للتفكير بالذات أو الوعي بالذات "([1]).

وتعد الرواية الشكل الأدبي الجامع لكثير من التأثيرات نتيجة لحجمها ولتمتعها بإمكانيات كثيرة كالوصف والتحليل ، مما يمكنها من عرض أوضح للصورة الأدبية ، ولكن لا يعني هذا أن الأشكال الفنية الأخرى خالية من صورة الشعوب .

ويعتبر بحثنا هذا أنموذجا يمتزج فيه نوعا الصورة المذكورين آنفا ـ أقصد ـ صورة شعب ما في أدبه وهو لب هذا البحث وأساسه :(تجليات صورة المرأة في روايات نجيب الكيلاني) أي صورة العربي في الرواية العربية ،ولكن لا مانع من أن نتناول صورة الآخر في هذا السياق أيضا لاسيما صورة المرأة غير العربية، لأن "الصلة بين الداخل والخارج وثيقة، فالإنسان لا يخرج عن ذاته ولكنه لا يلبث أن يعود إليها ، فهو لا يحقق أفعاله في العالم الخارجي إلا ليزيد من خصب حياته الباطنية ، فممارسة حريته هو تحقيق لوجوده ضمنيا فتتحول الإمكانية إلى فعل بعد تحطيم وحدة الذات أو عزلة الأنا، وينفي اغترابها من ناحية ويقهر الضرورة من ناحية أخرى "([2]).

لأن معرفة الإنسان بالدوافع النفسية والظروف الاجتماعية والسياسية المحيطة به تمكنه من معرفة أهدافه وأغراضه، ولا شك في أن التعرف على طريقة تفكيره تمكننا من القدرة على التنبؤ المستقبلي بسلوكه .

أما فيما يتعلق بدراسة الصورة الأدبية عند النقاد العرب الذين انكبوا على دراسة صورة المرأة في الرواية العربية ؛ فقد وجدتهم قد اختلفوا في تحديد مفهوم هذه الصورة، حيث سعى كل منهم إلى انتهاج منهج خاص في تصنيف صور المرأة أو نماذجها .

1/ غليون ،برهان : اغتيال العقل ، د. ط ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة رغاية ، الجزائر، 1990م ، ص33 .

2/ الجيار ، مدحت : النص الأدبي من منظور اجتماعي ، ص 134.

فإني وجدت الباحثة مليكة كينا في دراستها لصورة المرأة في خماسية (مدن الملح) لعبد الرحمن منيف اعتمدت في تصنيفها على أساس طبقي جغرافي اجتماعي حيث تشكلت عندها ثلاثة أنماط للمرأة ، وهي (المرأة في عالم البدو ،المرأة في عالم الوافدين، والمرأة في عالم القصر).

أما الكاتبة أروى عبيدات في دراستها لصورة المرأة في الرواية الأردنية، فقد صنفت صورة المرأة تبعا لتواجدها في الريف أو المدينة ، وكان تصنيفا طبقيا أيضا (الطبقة الفقيرة، الطبقة الوسطى، الطبقة الارستقراطية).

ويقترب إلى هذا التصنيف ما سعت إليه الباحثة زينب جمعة في دراستها الموسومة بـ (صورة المرأة في الرواية " قراءة جديدة في روايات إملي نصر الله ") حيث تقول عن هذا التصنيف " وبعد رصد صورة المرأة كان لا بد من التعرف إلى كيفية تشكيل هذه الصورة من خلال النماذج النسائية المختلفة الواردة في الروايات ، فكان الباب الثاني حول تشكيل صورة المرأة ، وتضمن فصلين : الأول استعرضت فيه النماذج النسائية الريفية ، وهي ذات الحضور الغالب في الروايات ، والفصل الثاني تناولت فيه النماذج النسائية خارج إطار القرية أي في المدينة والمهجر"([1]).

كذلك وجدتُ الباحثة (رنا أحمد عبد الفتاح عبد الحليم) قد اتبعت تصنيفا آخرا في دراستها لصورة المرأة في روايات (حنان الشيخ) يركز على ثلاثة أنماط لصورة المرأة هي (التقليدية ، المستبدة وأخيرا المتمردة) وتتفرع عنها تصنيفات جزئية .

ولما كان الأمر بهذا الشكل من التداخل في تصنيف صور المرأة في الرواية عند هؤلاء الباحثين وغيرهم دون اعتماد نماذج موحدة لصورة المرأة تكون منطلقا للدراسة عند الباحثين والدارسين ، حاولت الاجتهاد سعيا مني لانتهاج تصنيف قد يكون أقرب إلى

1/ جمعة ، زينب : صورة المرأة في الرواية (قراءة جديدة في روايات إميلي نصر الله) ، ط1 ، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2005م ، ص 14 .

الدقة ولا يدع مجالا للبس والخلط، فاعتمدتُ على ما كنتُ قد استقرأته من الروايات موضوع البحث ، فتشكلت عندي مجموعة من نماذج صور المرأة منها (نموذج مريم ،نموذج بلقيس، نموذج شهرزاد ، نموذج زوليخا(امرأة العزيز)، ونموذج المرأة غير العربية، وتندرج تحت هذه النماذج صور متعددة للمرأة منها المرأة الأم ، الزوجة ، التاجرة ، المدرسة ، الصحافية ، الفلاحة ،البغي، العاملة ، الداعية ، المجاهدة).

ثانيا ـ المرأة العربية ومكانتها في المجتمع :

جاء في لسان العرب تحت مادة (مرأ) ما نصه : " المُرُوءة كَمالُ الرُّجُولِيَّة مَرُؤَ الرجلُ يَمْرُؤُ مُرُوءة فهو مَرِيءٌ على فعيلٍ وَتمَرَّأَ على تَفَعَّلَ صار ذا مُروءة. وقد أَنَّثوا فقالوا مَرْأَةٌ وخَفَّفوا التخفيف القياسي فقالوا مَرَةٌ بترك الهمز وفتح الراءِ ،وقال سيبويه وقد قالوا مَراةٌ وذلك قليل ونظيره كَمَاةٌ، وقالوا امْرأَةٌ فإذا عرَّفوها قالوا المَرأة و امْرَأَةٌ تأْنيث امْرِئٍ، وقال ابن الأنباري الأَلف في امْرأةٍ وامْرِئٍ أَلف وَصْلٍ، وللعرب في المَرَأَةِ ثلاث لغات يقال هي امْرَأَتُه وهي مَرْأَتُه وهي مَرَتْه وحكى ابن الأَعرابي أَنه يقال للمرأَة إِنها لامْرُؤُ صِدْقٍ كالرَّجل "([1]).

كما جاء في لسان العرب أيضا وتحت مادة (أنث)ما يلي : " الأُنْثى خلافُ الذكر من كل شيء والجمع إِناثٌ وأُنُثٌ ، ويقال للرجل أَنثت تَأْنيثاً أَي لِنْتَ له ولم تَتَشَدَّد ،ويقال هذه امرأَة أُنثى إِذا مُدِحَتْ بأَنها كاملة من النساء كما يقال رجل ذَكَر إِذا وُصِفَ بالكمال، وآنَثَتِ المرأَةُ وهي مُؤْنِثٌ وَلَدَتِ الإِناثَ فإِن كان ذلك لها عادةً فهي مِئْناثٌ والرجلُ مِئْناثٌ أَيضا لأَنهما يستويان في مفْعال ، وزعم ابن الأَعرابي أَن المرأَة إِنما سميت أُنثى لأَن المرأَة أَلْيَنُ من الرجل وسميت أُنثى للينها "([2]).

1/ ابن منظور ، محمد بن مكرم : لسان العرب ،ج1 ، ص 154 .

2/ المصدر نفسه ، ج2 ، ص 212 .

وفي لسان العرب وتحت مادة (رجل) ،نجد أن:" العرب أنثوا لفظة رجل وأطلقوا (رَجُلَة) على الأنثى وقد ورد هذا عند الميداني في بعض أمثاله حيث يقول: إن أول مثل قالته العرب هو(المرأة من المرء وكل أدماء من آدم)"([1]) .

ولا يبتعد معجم (الصحاح) عن هذه المعاني اللغوية لهذه المفردات ، فقد ورد فيه تحت مادة (مرأ)، ما يلي: " مَرُؤَ الرجلُ: صار ذا مُروءةٍ فهو مَرِيءٌ على فَعيلٍ. وتَمَرَّأَ: تَكَلَّفَ المروءةَ. والمَرْءُ: الرجلُ، يقال: هذا مَرْءٌ صالحٌ ومررت بمرءٍ صالحٍ ورأيت مَرْءًا صالحاً. وبعضهم يقول: هذه مرأةٌ صالحةٌ ومَرَةٌ أيضاً بترك الهمزة "([2]).

ولا يوجد في اللغة العربية جمع لكلمة امرأة لذا استخدموا لفظة أخرى تخص المرأة دون الرجل وهي لفظة نساء ، وقد جاءت من نسأ ينسأ ونسيء وهي المرأة المظنون بها الحمل، ويقال مرأة نسيء كالنَّسُوءِ على فعول ونسوة ونساء أي تأخر حيضها ورجي حملها ([3]).

وفي ضوء هذه القراء المعجمية، ومن خلال ما ورد من المعاني نستنتج أن المجتمع العربي ـ منذ القدم ـ كان يميز بين المرأة والرجل من خلال الاستعمال اللغوي للمفردات الدالة على جنس كل منهما، وهذا ما تؤكده الباحثة سعاد الحكيم في حديثها عن المؤنث الحقيقي والمؤنث المجازي من خلال مناقشتها آراء ابن عربي في المرأة، فهي ترى أن المؤنث المجازي " يخضع لكل آليات التصريف التي يخضع لها المؤنث الحقيقي، وهو أمر يكشف عن تصور أن(التذكير) هو الأصل الفاعل ، والمؤنث لا فاعلية له، وبحكم هذه الفاعلية للمذكر من حيث هو الأصل الفاعل تُصِرُّ اللغة العربية على أن يعامل الجمع اللغوي معاملة (جمع المذكر) حتى لو كان المشار إليه بالصيغة جمعا من النساء، بشرط أن

1/ ابن منظور ، محمد بن مكرم : لسان العرب ، ج 11 ، ص265 .

2/ الجوهري ، أبو نصر إسماعيل بن حماد : الصحاح في اللغة ، ج2 ،ص164.

3/ ينظر : المصدر نفسه ، ج1 ، 168.

يكون بين الجمع رجل واحد ،هكذا يلغي وجود رجل واحد مجتمعا من النساء فيشار إليه بصيغة الجمع "([1]).

وقد أرجع بعض العلماء إطلاق مصطلح النساء على الإناث البالغات لعدة احتمالات منها:

1 ـ تأخر خلق المرأة عن الرجل بحسب الأسطورة التي تقول : إن حواء خلقت من ضلع آدم، وهذا التعليل من الموروث الثقافي الدخيل على الثقافة الإسلامية من ثقافة أهل الكتاب.

2 ـ اعتقاد الذكور بحسب الموروث الثقافي الجاهلي أن جنس الإناث متأخر في عقله وفهمه للأمور (ناقصات عقل ودين).

3 ـ تأخر حيض المرأة عن وقته فأطلق على الجنس جمع النساء .

4 ـ بقاء جنس النساء متأخر خلف الرجال في البيوت لتربية الأولاد ، فأطلق عليهن وصف النساء([2]).

وهذا التمييز اللغوي بين الذكور والإناث دليل على ما تعرضت له المرأة عبر التاريخ الطويل من قهر واضطهاد وسيطرة ، وعلى الرغم من التباين بين الحضارات واختلاف بين الثقافات، إلا أن الغالب الأعم هي تلك النظرة التي تقوم على اعتبار أن جنس الذكر هو المتميز وأن جنس الأنثى هو التابع للرجل والخاضع لسيطرته وجبروته .

وقد تأرجحت مكانة المرأة في الحضارات القديمة بين التقديس والتدنيس وبين التأليه والتحقير " ففي مجتمع ما قبل التدوين كانت الأم هي العائلة وكان الأبناء يعيشون في كنف أمهاتهم، وقد أخذ فعل الولادة بِلُبِّ الرجل وشغافه ،ودعا إلى تقديس المرأة وتأليهها، كذلك

1/ الحكيم ، سعاد : " المرأة ولية ..وأنثى (قراءة في نص ابن عربي)" ، مجلة التراث العربي ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، عدد 80، تموز 2000م ، ص07 .

2/ إسلامبولي ،سامر: المرأة مفاهيم يجب أن تصحح، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق،1999م، ص ص112ـ113 .

فعل مجتمع الحضارات القديمة مثل بلاد ما بين النهرين ومصر الفرعونية، مع بعض النساء ورفعهن إلى مرتبة القداسة والعبادة والملك، فكانت الإلهة عشتار والملكة سميراميس والفرعون حتشبسوت "([1]).

ومن هذا المنطلق ربطت المرأة بالألوهية (أصبحت إلهة) و احتلت مكانها السامي، ومن خلال هذه الخاصية أصبح فوق النقد لما تضمنته من معاني عديدة تؤكد أسميتها. وباعتبارها الطبيعة المرافقة للطبيعة الأصلية ومن حيث قابليتها للتحول و التغيير والإخصاب . من ذلك الثالوث الأنثوي (اللات-العزة- مناة) التي تجسد آخر الديانات الوضعية التي عاشت في الجزيرة العربية في ظل الجاهلية والتي اتسمت بأنها ديانات أمومية أنثوية تماما . فلقد جمعت هذه الإلاهات بين الشمس والقمر والحياة والموت وهي رموز تعبر عن الثقافة السائدة في القديم .

فالقراءة المتأنية لدلالات أسماء هذه الإلاهات ،تفيد أن (اللات) تتجذر من أصل (إيل) أو(إلاه)،وهو يحمل معاني العظة والقيمة المرموقة التي كانت تتمتع بها(اللات) ، فهي ترمز إلى الشمس وهذا يؤكد أهميتها المتميزة، بالإضافة إلى أنها كانت زوجة إله القمر اليمني في المقة أو مكة (التي تعني معبد الآلهة) (2).

أما (مناة) فهي لا تشير إلى الموت فقط من المنية بل إنها تتضمن عنصري الحياة والموت معا ؛ فكلمة (مناة) تتضمن المن: " الأصل المنية أو الموت "(3).

وهي أيضا تحمل من خلال اسمها المني: بذرة الحياة . أما فيما يخص:(العزى)فهي :"تشير إلى القوة والعظمة وهي تتضمن ما يتعلق بالحياة و الموت معا " (1).

1/ طه ، جمانة : المرأة في منظور الدين والواقع (دراسة مقارنة) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب،2004م ، ص35.

2/ ينظر : فار ، حسن : أقوال أشهر من قائليها موسوعة في الأقوال المأثورة، ط2 ، وكالة الأهرام للتوزيع، القاهرة، د . ت ، ص54 .

3/ المرجع نفسه ، ص45.

ولكن هذا التأليه والتقديس والتمليك لم يكن الغالب في العصور والحضارات اللاحقة، بل إن المرأة قد تعرضت إلى الكبت والصمت والتهميش، ووقوف الرجال من المرأة مواقف غير إيجابية ،كانت في حالات كثيرة عدائية عدوانية .

وقد نظر بعض الفلاسفة اليونان إلى المرأة نظرة احتقار ؛نذكر على سبيل المثال سقراط وأفلاطون وفيثاغورس وأرسطو الذي كان يرى أن الطبيعة البيولوجية للمرأة تجعلها أقل مكانة من الرجل وأن النساء مثلهن مثل الأطفال يمكن اعتبارهن عاهة ، وهن والأطفال لم يكتمل نموهم العقلي لذلك يجب على الرجال أن تحكم النساء والأطفال وأن يكونوا مسؤولين عنهم ، ويعقد مقارنة بين النساء والرجال ويرى أن النساء أكثر حسدا وأكثر ميلا إلى الكذب والافتراء من الرجال ؟ !

وتتجسد هذه النظرة العدائية الاستعلائية بين الرجل والمرأة من خلال بعض الأساطير اليونانية التي تروي كيفية سيطرة الرجل على المرأة وإحداث الانقلاب الكبير في ميزان القوة والتحكم وهو الانقلاب الذي غير مجرى تاريخ الأمم فيما بعد، بحيث لم تعد المرأة هي المتحكمة في المجتمع الذي تحول من مجتمع أموي إلى مجتمع أبوي " في صباح أحد الأيام وقبل أن يطلق على أثينا اسمها المعروف، أفاق أهل المدينة على حادث عجيب. حيث نبتت في ليلة واحدة شجرة زيتون ضخمة، وعلى مقربة منها انبثق نبع ماء غزير. وأدرك الناس أنَّ وراء ذلك سراً إلهياً، فأرسل الملك يستطلع عرافة معبد دلفي الأمر، فأجابوه بأن شجرة الزيتون هي الإلهة (أثينا) وأنَّ نبعة الماء هي الإله (بوسيدون)، وأنَّ الإلهين يخيران السكان أي الاسمين يطلقون على مدينتهم. فصوتت النساء إلى جانب (أثينا) وصوت الرجال إلى جانب (بوسيدون)،وتمَّ إطلاق اسم أثينا على المدينة لأنَّ النساء كنَّ أكثر من الرجال. وهنا غضب بوسيدون فأرسل مياهه المالحة العاتية فغطت أراضي أثينا. ولتهدئة خواطر الإله الغاضب، فرض رجال المدينة على نسائها

1/ فار ، حسن : أقوال أشهر من قائليها موسوعة في الأقوال المأثورة ، ص46.

ثلاث عقوبات: أولاً لن يتمتعنَّ بحق التصويت العام بعد اليوم. ثانياً لن ينتسب الأولاد بعد اليوم إلى أمهاتهم، بل لآبائهم. ثالثاً لن تحمل النساء لقب الأثينيات ويبقى ذلك وقفاً على الرجال "([1]).

وهكذا أخذ جنس الأنثى منحى الدرجة الثانية بعد جنس الذكر، ولا يخفى ما في هذه الأسطورة من دلالات تاريخية واضحة المعالم.

وقد تأرجحت مكانة المرأة في الحضارة الرومانية بين القبول تارة وبين النفور في أكثر الأوقات لأن العصر الروماني كان يعد عصر الرجل أو العصر الأبوي ، ومع ذلك فقد كانت للنساء سطوة وسيطرة واضحة على الرجال مما جعل أقوى خطباء الرومان وأعظم كتابهم في زمانه (ماركس بورسيوس كاتو Marcus Porcius Cato) الملقب بكاتو الكبير يشكو هذه السيطرة بقوله : " إنَّ الرجال في جميع أنحاء العالم يحكمون النساء، أمَّا نحن الرومان الذين نحكم جميع الرجال فإنَّ نساءنا يحكمننا " ([2]) .

ويرى أن الرجال هم الذين تسببوا في ضياع نفوذهم على النساء بتخاذلهم أمامهن في البيوت، فيقول: " لو أننا كلنا قد استمسكنا في بيوتنا بحقوق الأزواج وسلطانهم، لما تورطنا الآن في هذه المشاكل مع نسائنا. أمَّا ونحن لم نستمسك بهذه الحقوق وهذا السلطان، فإنَّ نفوذنا الذي قضى عليه استبداد النساء في البيت قد وطئته الأقدام وقُضي عليه هنا في السوق. إنَّ الساعة التي يصبحن فيها مساويات لكم هي الساعة التي يصبحن فيها ذوات الأمر والنهي عليكم " ([3]).

ولم يكن الأمر مختلفا كثيرا في الحضارات القديمة الأخرى ، كالحضارة الروسية والفارسية؛ ففي روسيا القديمة كانت تمارس عادة غريبة على النساء ليلة الزفاف، فقد كان

1/ طه ، جمانة : المرأة في منظور الدين والواقع (دراسة مقارنة) ، ص ص 39 ـ 40 .

2/ ول وايزيل ،ديورانت: قصة الحضارة ،ترجمة زكي نجيب محمود ، ج9 ، الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية، القاهرة ، دت ، ص216.

3/ المرجع نفسه ، ص ن.

والد العروس يضرب ابنته بالسوط ليلة زفافها ثم يقدم السوط إلى زوجها ليضربها هو الآخر بدوره لا لشيء سوى لإرهاب الزوجة فتكون بعد ذلك زوجة مطيعة ، تخضع لزوجها خضوعا تاما .

أما في الحضارة الفارسية القديمة، فيذكر أن الرجال كانوا كالرجال العرب يكرهون الإناث ولا يرغبون في إنجاب البنات " إن الرجال لا يدعون الله أن يرزقهم بنات، والملائكة لا تحسبهن في النعم التي أنعم بها على بني الإنسان " ([1]).

كذلك فلم يكن يسمح للمرأة أن تقترب من النار المقدسة على اعتبار أنها كائنا نجسا، وكان يوضع حجاب يفصل بينها وبين النار المقدسة حتى لا تدنس أنفاسها النار المقدسة ، إلا أنها ومع ذلك فقد حظيت ببعض المكانة اللائقة بها " فكانت تسير بين الناس بكامل حريتها سافرة الوجه، وكانت تمتلك العقار، وتصرف شؤونه، وكان في وسعها أن تدير شؤون زوجها وباسمه أو بتوكيل منه، وكان لبعض النساء الفارسيات في جميع الأوقات سلطان قوي في بلاط الملوك حتى العهود المتأخرة "([2]).

ومهما يكن من الأمر ، فإن المرأة عالميا قد قدمت بصورة سلبية سواء في الأساطير أو في التاريخ ، فلم يكن لها وجود يذكر ،ويكفي أن نعلم أن مؤتمرا عقد بأوروبا سنة 586م ليبحث: هل المرأة إنسان أو غير إنسان ؟ !

ولم تكن المرأة العربية بأوفر حظا من غيرها ، فقد كانت في العصر الجاهلي محرومة من كثير من الحقوق المشروعة ،ولقد تعرضت للكبت والصمت وكانت عبارة عن سلعة تباع وتشترى في الأسواق، وكان الرجل يرث فيما يرث من متاع عن أبيه زوجته ؟ !بل أكثر من ذلك ، فقد كان الرجل يجن جنونه ويفقد صوابه إذا ما بشر بالأنثى مما يجعله يدفنها حية تخلصا من العار الذي قد تجلبه للأسرة وللقبيلة .

1/ ول وايزيل ،ديورانت: قصة الحضارة ، ج2 ، ص442 .

2/ المرجع نفسه،ص 216.

وقد صور القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى : " وإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ ي(58) يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59)" ([1]).

أما بعد مجيء الإسلام فقد تحول وضع المرأة تحولا جذريا ، وتغيرت حياة المرأة العربية من خلال دفاع الإسلام عن حقوق المرأة الأساسية ومساواتها مع الرجل في الحياة الإنسانية الكريمة ،فأصبح الرجل أكثر رفقا بالمرأة وأعمق تفهما لمكانتها في المجتمع متبعا ما ورد في التشريعات الدينية من مثل قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(01) ."([2]).

وقد اعتبر الإسلام المرأة شقيقة الرجل تساهم معه مساهمة ايجابية في بناء المجتمع لقوله صلى الله عليه وسلم " إنما النساء شقائق الرجال "([3]) .(رواه أحمد وأبو داود عن عائشة - رضي الله عنها -).

وقد ألف الإسلام من المرأة والرجل عنصرا واحدا فعالا في حياة المجتمع ،إذ كلف المرأة بما كلف به الرجل من الأعمال على اعتبار أنها شقيقته ومساوية له في الجنس والطبيعة الإنسانية فهي إذن لها حق التملك وحق الإرث وحق التعاقد والتصرف في مالها بالبيع والشراء والهبة وحق اختيارا لزوج وحق التعلم . وهكذا فقد رفع الإسلام من شأن المرأة وأعاد إليها الاعتبار ورد إليها الكرامة واعترف لها بحقوقها ، فحررها من العبودية ووضع عنها القيود التي كانت تطوقها وخلص من ظلم الظالمين وأعتقها من اضطهاد المضطهدين .

1/ سورة النحل : الآيتين 58 - 59 .

2/ سورة النساء :الآية 01 .

3/ السيد ، سابق : إسلامنا ، د . ط ، دار الكتب العربي ، بيروت ، د . ت ، ص 210.

وبهذا يكون الإسلام قد حرر العقل البشري ـ العربي وغير العربي ـ من خرافات العصر الجاهلي التي أحالت المرأة إلى دمية في يد الرجل يلهو بها كيفما شاء ومتى شاء ويتركها وقت ما يشاء .ونبه الإسلام على المكانة السامية للمرأة في بناء المجتمع وتصريف شؤونه، وكفل لهل الحقوق وأقر لها الواجبات وأوجب عليها الالتزام بالتعاليم الإسلامية مثلها مثل الرجل لا لشيء إلا للحفاظ على كرامتها والحفاظ على النسل والمحافظة على تماسك الأسرة ولحمة المجتمع .

إلا أن مكانة المرأة العربية قد تراجعت في العصور اللاحقة لصدر الإسلام ،في العصر الأموي وفي العصر العباسي ،حيث كثرت الإماء والقيان وتدحرجت مكانة المرأة إلى الدركات السفلى في سلم المجتمع ، وانحصر دورها في البيت والإنجاب وتربية الأطفال . وبقيت الحال على ذلك عصورا طويلة في الانحطاط والتخلف حتى تشتت أوصال الخلافة الإسلامية، ووقوع البلاد العربية من الخليج إلى المحيط تحت وطأة الاستعمار الأوروبي فعاث فسادا في لبلاد والعباد وتساوى في ذلك الرجال والنساء .

ولم يختلف الأمر كثيرا في المجتمعات العربية بعد تحررها من ربقة الاستعمار وحصولها على نعمة الحرية والاستقلال ، فقد عاودت سطوة الرجل على المرأة إذ جردت من كثير من الحقوق التي كانت تتمتع بها مما اضطرها إلى المطالبة بهذه الحقوق المهدورة. وقد نظر الأدباء والمفكرون العرب إلى قضية المرأة من زوايا مختلفة ، فمنهم من أيد هذا المسعى واعتبره مشروعا ، ومنهم من كان معاديا مناوئا وكل ينطلق من انتمائه الفكري أو الأيديولوجي ، حتى صار بعضهم يرى " أن المرأة ليست شيئا سوى العورة أي ليست إنسانا ، وإنما يصورها ـ أفقهم الضيق ـ مخلوقة حقيرة على استعداد لبيع نفسها لأول عابر سبيل إذا غفل الرجل لحظة واحدة على حراستها ، فالمرأة من دون الرجل مال سايب"([1]).

1/ عبد الباقي ، زيدان : المرأة بين الدين والمجتمع ، د ط ، 1977 م ، ص 496 .

وهي عند بعضهم أسوأ من كل ذلك ، فهي " تملك أصول الشهوات ، وهي الدمار والخذلان ، والمرأة هي الجحيم ، هي البلاء يصبه الله على رؤوس العباد ، هي الكرب الذي يسبق الموت ، والمرأة في جميع أحوالها مصدر فساد ، ولها مداخل إلى الفتنة يعجز عنها إبليس "([1]) .

بل هي عند بعضهم الآخر باب الشيطان، وهي التي أغوت آدم وقد عجز الشيطان على إغوائه، فأخرجته هي بدهائها من الجنة، ويراها العقاد " وثنية لم تتدين قط "([2]). ويراها أيضا " بأنها مظهر القوة التي بيدها كل شيء في الوجود وكل شيء في الإنسان، بل إن هذه القوة تصبح في قوتها وبطشها وظلمها كقوة دولة طاغية"([3]).

ومن الأوروبيين من نظر إلى المرأة نظرة دونية ، فهذا جان جاك روسو يعتقد" أن الرجال يعيشون حياة أفضل من دون النساء ، أما النساء فلا يمكن أن يعشن حياة أفضل من دون الرجال ([4]). ويؤازره الفيلسوف شوبنهاور بقوله " إنه يكفيك أن تنظر كيف تكونت المرأة لتدرك أنها لم تخلق للعمل الجاد سواء أكان فكريا أم كان عضليا ، إن نصيب النساء من الحياة هو التحمل والصبر وليس الفعل "([5]).

ويظهر من هذه المواقف السابقة أن المجتمعات ،ومن خلال بعض مثقفيها وفلاسفتها، قد وصفت المرأة أوصافا سلبية ، وهي في الحقيقة تعكس وعي هؤلاء بالعلاقة بين الرجل والمرأة ، وهي تكاد تكون في مجملها علاقة كراهية وألم وفرار وعذاب وقسوة تجاه المرأة .

1/ السعداوي ، نوال : الوجه العاري للمرأة العربية ، دار مطابع المستقبل، ط 3 ، القاهرة ، 1993م ، ص 55 .

2/ المرجع نفسه ، ص126 .

3/ المرجع نفسه ، ص127 .

4/ المرجع نفسه ، ص ص 40 ـ 44 .

5/ المرجع نفسه، ص 40 .

وقد أسهم هذا الوعي بشكل كبير في ترسيخ الصورة النمطية للمرأة في الأسرة ومن خلال المؤسسات الثقافية والتعليمية التي بنت برامجها على هذا الأساس من التفرقة بين الرجال والنساء " فالمدرسة تساهم في تنشئة الأفراد وفي تعليمهم القيم الاجتماعية السائدة وتساهم في تحديد الدور الاجتماعي للفرد من خلال النماذج التي تقدمها سواء مضمون المناهج والكتب المدرسية أو أسلوب التعليم أو من خلال النشاطات والألعاب، حيث تظهر السمات الاجتماعية التي تليق بالذكور كالاستقلال والميل للمنافسة والطموح والميل للمخاطرة والشجاعة والقوة الجسدية والزعامة والسيطرة، بينما تظهر سمات الإناث كالاتكالية والافتقار إلى المبادرة والضعف والرقة والوقار "([1]).

وقد ساهمت الأسرة العربية في تكريس هذه الصورة النمطية وتنشئة الفتاة على قيم وتقاليد صبغت حياتها الاجتماعية ودفعتها إلى الاقتناع بمصداقية هذه القيم وعدم الخروج عنها قيد أنملة ، وإن فعلت ذلك فهي تحشر في زمرة الفتيات غير المتخلقات.

وفي هذا الشأن يقول الناقد نزيه أبو نضال " تبدأ عملية البرمجة المنظمة للفتاة منذ نعومة أظافرها والقالب الصيني جاهز حتى لا تخرج الفتاة عن حدود مقاسه ، فهناك تقسيم صارم للعمل في إطار الأسرة ؛ فالكنس والطبخ والجلي وصنع القهوة من مهمات البنت ، أما الولد فإنه يكون في هذه الثناء يلعب مع أقرانه في الخارج وإذا ما أرادت أخته مشاركته يصفها المحيط العائلي والاجتماعي بالتعبير الشائع (حسن صبي)،وإذا كانت كبيرة واقتربت من أعمال الرجال أو مارست بعض سلوكياتهم فسيقال عنها على الفور (امرأة مسترجلة) كما تخضع البنت منذ الصغر لرقابة مسلكية وأخلاقية صارمة ،

1/ حداد ، ياسين :" الصورة النمطية للجنسين : مضامينها وأبعادها "، مجلة دراسات ، العدد 15، 1988م، ص 408 .

فصوتها يجب أن يكون خافتا وضحكتها منخفضة، وحركتها هادئة ومشيتها متزنة، ونظرتها منكسة، ولباسها محتشما " ([1]) .

وقد أدت هذه التنشئة إلى إقناع المرأة بأن هذا هو الدور الاجتماعي المنوط بها، وأن الخروج عنه يعد من المحال والشذوذ عن طبيعتها التسوية ، وأنها فعلا أدنى مرتبة من الرجل، بل إن مصيرها مرتبط به ومرهون به ،وأن وجودها معقود عليه " فالمرأة العربية كائن بغيره لا بذاته ، فتتحدد هويتها لكونها زوجة فلان، أو بنت فلان، أو أم فلان ،أو أخته ، ووصفها يرتبط بالنظام الطبقي، فحيث تكون العلاقة بين سيد ومسود يصعب أن تجد فيه المرأة الحرية ، وأن تستعيد فيه إنسانيتها "([2]).

وعلى الرغم من هذه الاعتبارات السلبية للمرأة في تحديد مكانتها الاجتماعية ، نجد في المقابل بعض الآراء التي تدعو إلى إنزال المرأة منزلتها اللائقة بها كانسان ، والمتماشية مع طبيعتها الفطرية ، وأن المرأة لم تعد نصف المجتمع ـ كما يقال ـ فحسب ، بل هي أكثر من ذلك بكثير ، فهي المجتمع كله حينما تقوم بواجباتها وتحقق حقوقها ، فتصبح من هذا المنظور " زينة الدنيا وفتنتها ونضارة الحياة وبهجتها وانتعاش الرغبة واخضرارها ، ولولاها لعمت الرتابة والبلادة ، وأمست الحياة جدباء موحشة ، هي مبدأ الخلق ورحمه ، كيف لا وهي القوام الأجمل، والصورة الأبدع والشكل الأعجب والحس الأروع، وهي الحضور الأشد وقعا وتأثيرا ، والوجه الأكثر فيضا وإشراقا ، وهي التي تجدد للرجل شهيته وتنهض به من انحطاطه ، وتملأ عليه وجوده ، فتحفز إرادته وتوقظ حواسه وتطلق خياله وتلهب عواطفه ، وتشغل خاطره ، وتضيء عالمه، إنها كون من الألطاف الحسنى ؛ إذ هي الألطف وجودا، والآنس حضورا ،والأرق طبعا، والأرفق معاملة، ولأرشق جسما، والأخف روحا، وإن جمالها هو الأسمى ،والشوق إليها هو الأقوى ، والوجد لفقدها هو

1/ نزيه ، أبو نضال : الشرط الاجتماعي وقصور الوعي في الرواية النسوية العربية ، في خصوصية الإبداع النسوي، د . ط ، وزارة الثقافة ، عَمان ، 1997 م ، ص 215 .

2/ قبيسي ، بشرى : المرأة في التاريخ والمجتمع ، ط1 ، دار أمواج ، بيروت ، 1995 ، ص 125 .

الأعظم ، وذكرها هو الأحب ، وعشقها هو الأبهج ، أما وصلها فهو الأمتع وهو أحق وصال ؛ إذ لولاها لما كان ثمة خلق ، ولما كنتَ أنت ، ولا ما كان هو ، ولما كنتُ أنا ، وهو الأنتج لأن المرأة أنفع حرث يؤتى ، وأطيب منبت ينبت فيه غرس، وهو الروع ،إذِ المرأة أروع ما ينفرج وينفتح وأبدع ما يزهر ويتفتّح "([1]).

على الرغم من أن هذه الأوصاف مبالغ فيها إلا أنها الأقرب إلى طبيعة المرأة وأنوثتها، وهي في الواقع تجسيد واضح لمؤهلات المرأة النفسية والجسدية والعاطفية والفكرية.

ولقد أصبح الاهتمام بموضوع المرأة مما يعد قضية أساسية وحاسمة في المعالجات الاجتماعية الإنسانية، وباتت الشغل الشاغل للمرأة ومنظماتها ولقادة الدول والمجتمعات والمؤسسات المدنية وللمختصين والمربين والمصلحين على اختلاف مدارسهم ومناهلهم المادية والروحية، حيث الشعور السائد بين طبقات المجتمع كافة بأن المرأة ما زالت أسيرة الأفكار التي تصادر دورها وتسلط الرؤية الذكورية والأنظمة القمعية التي زادت الأمور تعقيدا نتيجة الاقتتال المفتعل على المصالح الخاصة. وقد ارتفعت دعوات كثيرة في عصر النهضة العربية وبعده رافعة شعارات تحرير المرأة وإعادة حقوقها، وإخراجها من قوقعتها التي فرضتها عليها تقاليد الجهل والظلم، كدعوة قاسم أمين ونازك الملائكة وغيرهما كثير ، مما لا يتسع إليه المجال وقد يخرج بنا عن طبيعة موضوعنا وهدفه .

من خلال سرد تلك المواقف المتناقضة حول ماهية المرأة وطبيعتها ومكانتها في المجتمع، يتضح " أن الصراع بين الرجال والنساء لم يكن في البداية موجودا، أو على الأقل لم يكن واضحا وضوحه اليوم، كما لم يكن هناك عصر نساء ، ولا عصر رجال بالمعنى المطلق لهذه التسمية، فوجود ربات من النساء وحاكمات من النساء، لا يعني أن المجتمع

1/ حرب ، علي : الحب والغناء وتأملات في المرأة والعشق والوجود ، ط1 ، دار المنهل للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، 1990 م ، ص ص 21 ـ 22 .

كان مدينا لسيادة المرأة .كما أن وجود رقيقات من النساء، لا يعني أن المجتمع كان محكوما من قبل الرجال . فالمرأة لم تكن مسيطرة تماما ولا مضطهدة تماما ووضعها عموما مثل وضع الرجل ، مع اختلاف النسب العددية بينهما، فكما أن هناك رجالا قادة وأشرافا ، كان هناك رجال عبيد وأرقاء مسحوقون، فلولا سواعد العبيد لَمَا شيدت المعابد والهياكل والأهرامات "([1]) .

وخلاصة القول في هذا المقام إنه على الرغم من الدعوات الكثيرة والمتكررة التي تصدر عن كثير من النخب والهيئات الاجتماعية الحكومية وغير الحكومية عن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل ، فإن هذه الدعوات لم تبلغ مبلغها من التحقيق على أرضية الواقع، إذ سرعان ما ترتطم بعنت الفكر المتحجر فتتحطم كما تتحطم أمواج البحر على الصخور ؛ ذلك أن النظرة الدونية للمرأة ما تزال متجذرة في العقول ترواح مكانها ولا تبرحه في العديد من المجتمعات العربية ، ولا أدل على ذلك من أن بعض المجتمعات العربية لا تزال تمنع فيها المرأة من المشاركة في الانتخابات وقيادة السيارة وغيرها من أبسط الحقوق الإنسانية .

ثالثا- الرواية العربية : النشأة والتطور :

بالرجوع إلى لسان العرب في مادة (روى) نجد "روى الحديثَ والشِّعْرَ يرْويه رِواية وتَرَوَّاه وفي حديث عائشة رضي الله عنها أَنها قالت تَرَوَّوْا شِعْر حُجَيَّة بن المُضَرِّبِ فإنه يُعِينُ على البِرّ وقد رَوَّاني إياه ورجل راوٍ وقال الفرزدق أَما كان في مَعْدانَ والفيلِ شاغِلٌ لِعَنْبَسةَ الرَّاوي عليَّ القَصائدا؟ وراوِيةٌ كذلك إذا كثرت روايتُه والهاء للمبالغة في صفته بالرِّواية ويقال روَّى فلان فلاناً شعراً إذا رواه له حتى حَفِظه للرِّواية عنه قال الجوهري رَوَيْتُ الحديث والشِّعر رِواية فأَنا راوٍ في الماء والشِّعر من قوم رُواة ورَوَّيْتُه الشِّعر تَرْوِيةً

1/ طه ، جانة : المرأة العربية من منظور الدين والواقع ،ص42 .

أَي حملته على رِوايتِه وأَرْوَيْتُه أَيضاً وتقول أَنشد القصيدةَ يا هذا ولا تقل ارْوِها إِلا أَن تأْمره بروايتها أَي باستظهارها "([1]).

ويفهم من هذه المعاني اللغوية أن الرواية هي نقل الحديث وإنشاد القصيدة واستظهارها.

أما في المصطلح فالرواية تحمل عدة معان منها إن الرواية فن من الفنون النثرية الأدبية التي تعالج مختلف مشكلات الحياة في صور فنية ممتعة .وهي ديوان الحياة الذي يحمل بين طياته كل خصائصها وسماتها " فهي قطعة من الحياة أو هي الحياة نفسها، ولكن صيغت بطريقة فنية تخضع لاعتبارات الفن الروائي وقواعده وتقنياته "([2]).

وهي فن أدبي راق يشكل قطعة متحركة تشكل فسيفساء حية من التاريخ والاقتصاد والاجتماع والسياسة والدين والطب والعلم والجنس والسحر بل الشعر والدراما والقصة والسيناريو والحوار والخطبة والرسائل والوثائق والمقال...الخ. فالرواية بهذا الشكل تعتبر أم الفنون لأنها من الممكن أن تستوعبها جميعها في جعبتها .

ومع ذلك فهي واحدة من الفنون الأدبية النثرية التي تتجاوب بحساسية كبيرة مع ضغوط العصر ومتغيراته، وما يطرأ من تغيير في سلوك الناس وتفكيرهم ، فقد تكونت الرواية في ظل دينامية خاصة لتنظيم العلاقات التي يطرحها الواقعي والاجتماعي والذاتي بما هي علاقات يتبعها التوتر والجدل في الغالب" ([3]) .

مما يجعل الرواية من أرقى الفنون الأدبية، التي اجتاحت الساحة الفنية بشكل كاسح، إذ تناولت مختلف قضايا المجتمع خاضعة في ذلك لمختلف اعتبارات الفن الروائي، وقواعده

1/ ابن منظور ، محمد بن مكرم : لسان العرب ، ج 14 ، ص 345 .

2/ شبلول ، أحمد فضل : الحياة في الرواية، قراءات في الرواية العربية والمترجمة، د . ط ، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية،، 2001م، ص 5.

3/ القصراوي ،مها حسين : الزمن في الرواية العربية، ط 1،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004م ، ص 36 .

وتقنياته، وبهذا فقد ساهمت في إثراء الإنتاج الأدبي بشكل كبير، سواء عند العرب أو الغرب، مما يفتح أمام القارئ آفاقا واسعة للدراسة وتذوق الفن، لذلك كانت " غاية الرواية باعتبارها تعبيرا فنيا هي تجسيد الحياة الإنسانية على نحو أعمق وأخصب "([1]).

إضافة إلى ذلك فقد أصبحت الرواية أداة إدراك معرفي، إذ يمكن أن تزودنا برؤية ناضجة وصحيحة عن عالم الحياة والعلاقات والإنسانية حيث تترك أثرا فنيا لا يمّحي من ذاكرة المتلقي .

ومن الجدير بنا أن نشير بداية إلى نشأة الرواية العربية أو بصورة أكثر شمولية إلى نشأة الفن القصصي العربي، فقد أجمع المنظرون والمؤرخون العرب على أن للقصة جذورا عريقة في القدم، ولكن ما عرفه العرب من قصص لم يكن بشكله الفني الذي سطره النقاد الغربيون ،وإنما هي حكايات وأساطير وخرافات في الغالب الأعم، منها ما له أصل واقعي لكن تصرف فيه الرواة والمحدّثون بالنقص أو الزيادة .

يظهر الواقع التاريخي أن العرب قد عرفوا القصة في مختلف عصورهم، وأنهم توصلوا إلى أنواع مختلفة من القصص، وأفانين متنوعة من الخيال. وربما أنكر بعض المنكرين معرفة العرب للقصة، ذلك أن هؤلاء إنما يتحدثون وفي ذهنهم تلك القصص الفنية الحديثة ـ وهذا تصور مجحف في حق القصة العربية ، لأن القصة بمعناها الفني لم تعرف في الأدب الغربي إلا حديثا، بينما نجد أن " القصة في العربية قديمة قدم هذه اللغة ، ولست أريد هنا القصة المشتملة على العناصر الفنية المصطلح عليها حديثا بين النقاد في مختلف الآداب ،من زمان ومكان وحوادث وحبكة وحوار وعقدة وصراع وحل أو خاتمة ،ولكن أقصد إلى هذه

1/ روجورب ،هينكل : قراءة الرواية مدخل إلى تقنيات التفسير، تر: صلاح رزق، د . ط ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، 2005م ، ص177.

الأقصوصة أو القصة البسيطة التي انبنت على الواقع طورا وعلى الخيال طورا ثانيا وعلى الواقع الممزوج بالخيال طورا ثالثا " ([1]).

فقد عرف العرب القصة بمعناها الواسع في مختلف عصورهم، فقد كان للعرب قصص متنوع في العصر الجاهلي متمثلة في أيام العرب وحروبهم المتكررة كحرب (داحس والغبراء) ،وكانت لهم أيضا أساطير كثيرة يرددونها في منتدياتهم ونوادي أسمارهم الليلية ، كتلك الأساطير التي نسجت حول لقمان عاد " فقد تزوج نساء عدة كلهن خنه، الأمر الذي عقد نفسه حول النساء، وأخيرا تزوج جارية صغيرة لم تعرف الرجال، ونقر لها بيتا في سفح الجبل جعل له درجات بسلاسل ينزل بها ويصعد، فإذا خرج رفعت السلاسل، حتى عرض للجارية فتى من العماليق، وتحايل حتى استطاع أن يصل إليها، وانتهى الأمر بخيانة الجارية وانكشاف الأمر للقمان "([2]) .

كما أن القرآن نزل بنحو خمسين قصة عبرة لأولى الألباب، وقد أولع العرب بهذه القصص، وانطلق المفسرون والقصاصون يفسرون تلك القصص مستعينين بقصص أهل الكتاب .

أما في العصر الأموي، فقد كثر في الحجاز نوع من القصص عبر خير تعبير عن الظروف السياسية والاجتماعية التي ابتلى بها الحجازيون في ذلك الحين وهي تلك القصص التي نسجت حول العشاق ولاسيما العذريين منهم من أمثال قيس ابن الملوح وقيس بن ذريح وجميل بن معمر وكثير عزة ،وهو النوع القصصي الذي أسماه الناقد إبراهيم محمد عبد الحميد بـ (قصص العشاق النثري) ([3]).

1/ مرتاض ، عبد المالك : القصة ، ط 1 ، دار مكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع والنشر لأصحابها مرازقة وبوداود وشركائهما ، الجزائر ، 1968م ، ص 19 .

2/ إبراهيم محمد، عبد الحميد : في الأدب والنقد، د. ط ، الدار القومية للطباعة والنشر، 1966م، ص 15.

3/ ينظر : المرجع نفسه ، ص 16 .

كما وجد في هذا العصر بعض القصص كتلك التي تصور أحداث الفتنة بين الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ ومعاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـو" لاشك في أن للعرب قصصا،

وقد أشار البحث إلى ذلك أكثر من مرة ، فليس العرب بدعا في الأمم ليكونوا شعبا من غير قصة ولا بد من أنهم بدأوا ـ كما بدأ العالم كله ـ بالحكاية ...ولم تلبث الحكاية القصيرة أن صارت حكاية طويلة ...وقد فقد الكثير من هذه الحكايات، كما هو طبيعي في فن يقوم على المشابهة والشعبية، وانصرفت العناية إلى الشعر في الجاهلية وما بعدها "([1]).

أما في العصر العباسي فقد تمثلت في ما كتبه الجاحظ في كتاب (البخلاء) وما كتبه ابن المقفع ولاسيما ترجمته لكتاب (كليلة ودمنة) وأقرب عمل للقصة في العصر العباسي هو المقامة .

أما في عصور الانحطاط فقد كتب العرب عديدا من القصص تمثلت في قصة(الظاهر بيبرس) وقصة (سيف بن ذي يزن) وقصص (ألف ليلة وليلة) وقصة(تغريبة بني هلال) وقصة (علي الزيبق) وقصة (حمزة العرب)... إلى غير ذلك من القصص.

مما جعل الباحث محمود علي مكي يعود بالرواية ونشأتها إلى أصول عربية مستشهدا بآراء الباحث الإسباني(أمريكو كسترو) (AmericoCastro) الذي يرى أن البحث عن أصل الفن القصصي الأوروبي ليس في الملحمة القديمة وإنما في(الأحاديث) القصصية العربية التي عرفتها أوروبا عن طريق إسبانيا ؛ فالقصص بمفهومه الحديث يدين بوجوده للحديث العربي الذي كان يعني حكاية كل ما هو طريف ، بحيث وجد هذا الباحث " أن الأوروبيين ما بين القرن الثامن والثاني عشر كانوا يقبلون على سماع الأحاديث

1/ الطاهر ، علي جواد : مقدمة في النقد الأدبي ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، 1979م ، ص 235 .

التاريخية والأسطورية التي كان يحكيها العرب في مجالسهم، فنقلوها إلى تراثهم ومن ثم انتشرت بين الشعوب الأوروبية، ويستشهد على ذلك بأن لفظة(حديث) العربية المزدوجة الدلالة (فهي تعني ما يحكى و ما هو جديد) وقد انتقلت إلى لغات أوروبا، في الإسبانية والإيطالية تقابلها كلمة (Novel) وتقابلها في الفرنسية القديمة (Nova) وفي لإنجليزية (Novel) وبهذا يستنتج أن الرواية بالمفهوم الأوروبي الحديث لم تولد من الملحمة القديمة ،وإنما من الحكايات الشفوية المنقولة عن الحديث العربي، والأحاديث القصصية العربية"([1]).

وفي أواخر القرن التاسع عشر اطلع العرب على الأدب الغربي ، فقرأوه وتذوقوه، وتأثر كثير منهم بهذا الفن الجديد، وقد رأوا فيه قصصا غير الذي كتبه أجدادهم فولعوا به وساروا على دربهم مقلدين في البداية ثم مجددين أخيرا ، حيث " أدت زيادة الصلات مع الغرب وأدبه إلى ترجمة العديد من الكتابات القصصية الأوروبية إلى اللغة العربية ،ومن ثم اقتباس مثل هذه الأعمال، وبعد ذلك تقليدها إلى أن ظهرت تقاليد عربية حديثة خاصة بالقصة العربية " ([2]).

وقد مرت الرواية العربية في العصر الحديث بمراحل ثلاث: أولها مرحلة الترجمة وتمثلت في المحاولات التي قام بها بعض الأدباء لترجمة ما كان يقرأ من قصص أوروبي " وفي أواخر القرن التاسع عشر من العصر الحديث حين نشطت حركة الترجمة، ظهرت

1/ ينظر : مكي ، محمود علي : " الفن القصصي في إسبانيا "، مجلة عالم الفكر الكويتية ، العدد الثالث، 1972م،ص 43 .

2/ آلن ، روجر : الرواية العربية ، ترجمة حصة إبراهيم المنيف ، المجلس الأعلى للثقافة،بيروت،1997م ، ص31 .

قصص مترجمة عن الأدب الغربي كقصة (مغامرات تليماك) التي ترجمها رفاعة رفعة الطهطاوي رائد الترجمة الحديثة " ([1]).

ثم تلتها مرحلة المحاكاة والاقتباس حيث " تعد قصة (عيسى بن هشام) أول باكورة قصصية تقليدية، فقد اختار المويلحي أسلوب المقامات ورسم صورة شخصياته على ذلك المنحى الذي كان متداولا ومستساغا في ذلك الحين ، وإن جاءت قصصه خالية من الحبكة الفنية وترابط الحوادث، مع أنها مجموعة منسقة من الطرائف والسخرية والفكاهة "([2]) .

ويذهب إلى هذا الرأي الدكتور محمد غنيمي هلال ويصرح بأن : " أوضح مثل للتأثر بفن المقامة العربية إلى جانب التأثر بالآداب الغربية هو قصة (حديث عيسى ابن هشام) لمحمد المويلحي وفيها نجد البطل والراوي عنه وسرد المخاطرات المتلاحقة التي لا يربط بينها سوى شخصية البطل مع العناية البالغة بالأسلوب وتلك وجوه تأثره بالمقامة ، ولكن التأثير الغربي واضح في تنويع المناظر وفي نوع المغامرات وفي التحليل النفسي للشخصيات في صراعها مع الأحداث، ثم دلالة ذلك كله على جوانب النقد الاجتماعي لعهد جديد تتصارع فيه القيم التقليدية مع الوعي الاجتماعي الوليد "([3]).

بيد أن المترجمين لم يتقيدوا بالنص الأصلي لما كانوا يترجمون، فغيروا منه وبدلوا فيه حسب متطلبات مجتمعهم مثلما فعل حافظ إبراهيم في ترجمته لكتاب(البؤساء) (لفيكتور هيجو)(Victor Hugo) ،ومن الأدباء من أباح لنفسه التصرف الكامل في الأثر المترجم

1/ داود ، حامد حفني : تاريخ الأدب الحديث (تطوره، معالمه الكبرى ، مدارسه) ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1983م، ص 160.

2/ الركابي ،جودة : الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، ديوان المطبوعات الجامعية، 1970م الجزائر، ص 391 .

3/ هلال ، محمد غنيمي : الأدب المقارن ، دار العودة ، بيروت، 1983م، ص 243 .

حسب ميول القراء وأذواقهم ومن هؤلاء مصطفى لطفي المنفلوطي في قصة (الشاعر) و(ماجدولين) و(الفضيلة) و(في سبيل التاج) .

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة التأليف والإبداع ويعد محمد حسين هيكل رائد الأدباء العرب المبدعين في هذا الفن، وتعد قصته (زينب) أول قصة مصرية وعربية عموما وضعت على الطريقة الحديثة أو على الشكل الحديث بحيث توفرت فيها العناصر الفنية للقصة الحديثة. وعلى هذا الأساس تعد هذه القصة أول ابتكار عربي في هذا الفن من حيث الموضوع والأسلوب، إضافة إلى ذلك فهي تعبر بصدق عن معاناة الفلاح وتصف الحياة في الريف المصري خاصة.

وهو الرأي الذي ذهب إليه محمد حسين هيكل معتمدا على رأي المستشرق (جيب) الذي يعتبر أن القصة كانت بدايتها متأثرة بنظيرتها الغربية لذلك جعل رواية (زينب) الأولى في تاريخ الرواية العربية رغم حديثه عن(عيسى بن هشام) للمويلحي وقصص شوقي وروايات جورجي زيدان([1]) .

ولا يخرج يحي حقي عن هذا الرأي في تكريس أهمية المعيار الغربي في نشأة الرواية العربية فيعتبر رواية (زينب)أول رواية عربية حديثة ناضجة "من حسن الحظ أن القصة الأولى في أدبنا الحديث قد ولدت على هيئة ناضجة فاستحقت شرف مكانة الأم في أخذ المدد منها والانتساب إليها " ([2]) .

وإن كان مثل هذا الكلام بعيدا نوعا ما عن منطق تطور الأشياء ؛ فلا مجال للحظ في تطور القصة العربية ،وإنما هي نتاج جهد مضني بذله العديد من الكتاب طوال سنين متلاحقة .فالقصة واكبت كل العصور الأدبية العربية، فلم يعدم العرب الخيال المبتكر في أي عصر من العصور، ولم يكن خيالهم ضيقا محدودا بل متنوعا شاسعا واسعا، إذ اتخذت

1/ ينظر : هيكل ، محمد حسين : ثورة الأدب ، دار المعارف ،القاهرة، 1978م ، ص 79 .

2/ حقي ، يحي : فجر القصة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،1975م ، ص 41 .

القصة عندهم أنواعا مختلفة، فهناك القصة ذات الطابع الفلسفي كرسالة (التوابع والزوابع لابن شهيد) والتي " يرى كثير من المستشرقين أنها ذات بذرة فنية مبكرة " ([1]).

وهناك القصص ذات الصبغة الحكائية: كالحكايات الغنائية والحكايات الفخرية، وقد جمع الأستاذ محمد أحمد جاد المولى وزميلاه تلك القصص وصنفوها في كتاب من أربعة أجزاء سموه قصص العرب، وهناك القصص ذات الصبغة الملحمية كقصة عنترة وسيف بن ذي يزن، وهناك القصص ذات الاتجاه الاجتماعي كالمقامات، وهناك القصص ذات المنحى الديني والغاية الهادفة كقصص القرآن، وهذا ما شجع بعض أدباءنا المحدثين إلى القول " إن أمة تبدع حكايات ألف ليلة وليلة، هي أمة القصة في دمها " ([2]).

وعلى هذا الأساس نجد أن الرواية تعددت أنماطها واختلفت ؛ فمن الروائيين من ينصب اهتمامه في الرواية على الجانب العقلي والشعوري لشخصية ما ، فتكون الرواية ذات نمط عقلي شعوري ، وقد ينصرف الاهتمام في روايات أخرى إلى الطبيعة الخاصة لمجتمع من المجتمعات ، أو قد يعتني الأديب بفكرة فلسفية جديدة، يحللها ويناقشها من خلال شخوص الرواية ، وهناك روايات تكون أكثر واقعية، حيث تبلغ فيها الشخصيات درجة من محاكاة الواقع، فتشبه إلى حد كبير الأشخاص الحقيقيين، في حين أن روايات أخرى تركز على العالم الداخلي الذي تتصارع فيه المتناقضات من أمور الحياة فتبدو الشخصيات تعيش في واقع خارق للطبيعة .وبهذا تعددت مضامين الرواية بين روايات تاريخية واجتماعية ونفسية وعاطفية وفلسفية ونضالية تكشف عن الصراع الحضاري بين الأنا والآخر أو بين العرب والغرب .

1/ إبراهيم محمد، عبد الحميد : في الأدب والنقد ، ص 16.

2/ موسى ،سليمان : الأدب القصصي عند العرب، ط 5، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة ، 1983م ، ص 26.

وقد تربعت الرواية في العصر الحديث على عرش الكتابة الفنية ، إذ أصبحت تحظى بمكانة مرموقة بين غيرها من الفنون النثرية ، والرواية فن استحدث في الأدب العربي المعاصر نتيجة الاتصال بالتراث الأوروبي والحضارة الغربية عموما، وهو ما أجمع عليه الكثير من الأدباء والنقاد. ولعل تأخر فن الرواية في البلاد العربية تعود أسبابه لمعالجة مواضع معروفة أو ضيقة. "وظهرت الرواية أول أمرها في ترجمات شتى من الأدب الأوروبي، وظلت على هذا الحال، فلم تحيا إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد هذه الفترة أصبح لها صوت بعيد الصدى نتيجة اتجاه بعض الأقلام نحو التأليف والإبداع الروائي" ([1]) .

ويرجع ذلك إلى جملة الروايات المنشورة متسلسلة في المجلات التي أصبحت تمثل إحدى دعائم المؤسسة الأدبية الجديدة، ومن تلك الجرائد والمجلات نذكر"(الجنان 1830م) لبطرس البستاني، ثم لسليم البستاني، و(المقتطف 1876م) ليعقوب صروف، و(الهلال) لجرجي زيدان، و(الجامعة 1899م) لفرج أنطوان و(الروايات الجديدة 1910م) واسمها وحده يحيل على وعي بكتابة متفردة في حقل الإبداع الروائي"([2]).

ويتضح مما سلف أن الآراء متناقضة ومتضاربة حول نشأة الرواية العربية ، وأنه لا يمكن الجزم برأي قاطع و لا الانتصار لفريق على الآخر ،لاسيما أن الاختلاف كان أكثر وضوح في استعمال المصطلحات بين القصة والرواية ، إلا أنهم كانوا متفقين في أغلبهم على اعتبار رواية (زينب) هي أول رواية عربية مصرية تكتب على الشكل الحديث للفن القصصي الروائي وفق النمط الأوربي. ويظل الخلاف قائما وتستمر الرواية العربية تشق طريقها سائرة لتقطع أشواطا في التطور .

1/ المقدسي ،أنيس : الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة ، ط 3، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م، ص 515.

2/ البيوري ،أحمد : في الرواية العربية التكون والانشغال، ط 1 ، الدار البيضاء ، 2000م ، ص 20.

والحقيقة أن هذه المحاولة المتواضعة للتأصيل للرواية العربية تقدم لنا صورة من صور النقد الروائي في مرحلة ما كان الاهتمام فيها منصبا ـ في أكثره ـ على البحث في الأصل والنشأة، غير أن الشيء الواضح هو أن الرواية العربية الحديثة عرفت قطيعة مع التراث القصصي العربي القديم ، على العكس من الرواية الغربية التي كانت نتيجة تطور واستمرار للنثر الأوروبي القديم .ومما يمكن قوله في هذا الصدد أن الرواية العربية وجه من أوجه الصراح الجاري بين الشرق و الغرب كما أنها شكل من أشكال التعبير الفني الذي صور هذا الصراع وكشف الاختلاف بين الشرق والغرب، وتعد الرواية الحضارية أو رواية المواجهة أهم أشكال الرواية التي جسدت جدلية الأنا والآخر وعكست بشكل واضح صورة الأنا والآخر .

ولقد تصدت الرواية العربية منذ نشأتها لمسألة الصدام بين الأنا والآخر ولعل اللقاء بين الشرق والغرب قد ظهر بشكل مميز وواضح في الرواية أكثر من باقي الأجناس الأدبية الأخرى لقدرة الرواية على عكس العمليات الاجتماعية والثقافية وتمثلها في حركة نموها وتطورها وتعقيداتها إذ "يطمئن الدارس إلى نتيجة تؤيدها كثرة الشواهد الدالة على الرغم من صعوبة الفصل بين وعي الذات ووعي الآخر مثلما تؤكدها دراسات سابقة ، والنتيجة هي أن الرواية العربية قطعت شوطا كبيرا في وعي الآخر من (رحلة الشيخ علم الدين) سنة 1882م لعلي مبارك، و(حديث عيسى ابن هشام) سنة 1898م ـ 1900م لمحمد المويلحي إلى عشرات الروايات التي كتبت في السبعينيات والثمانينيات تقصيا لوضع الآخر في وعي الروائيين العرب "([1]). حيث عالجوا في الرواية وفي الدراسات النقدية أيضا صورة الآخر/الغرب من مختلف الجوانب ؛السياسية والاجتماعية والحضارية ، وقد اختلف دارسو الأدب في طرق أفكارهم حول هذا الموضوع، واهتم كثير منهم بتجليات

1/ أبو هيف ، عبد الله : " رؤى الآخر في الرواية العربية " ، مجلة الموقف الأدبي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق،العدد،380،كانونالأول،سنة2002م،ص01،

عنوان الموقع: www.awu.dam.org/mokifadaby/380.028htlm

الرواية الحضارية لعلاقة الشرق العربي/الأنا بالغرب الأوروبي / الآخر ، أذكر منهم على وجه الخصوص: "محمد كامل الخطيب في كتابه (المغامرة المعقدة) سنة 1976م ، وجورج طرابيشي في(شرق وغرب: رجولة وأنوثة) سنة 1977م ونبيل سليمان في (وعي الذات والعالم : دراسات في الرواية العربية) سنة 1985م ومنصور قيسومة (الأنا والآخر في الرواية العربية الحديثة) سنة 1994م وعصام بهي في (الرحلة إلى الغرب في الرواية العربية الحديثة) سنة 1991م ومحمد نجيب التلاوي في(الذات والمهماز: دراسة التقاطب في صراع رواية المواجهة الحضارية) سنة 1998م "([1]) .ومصطفى عبد الغني في كتابين، الأول بعنوان (الاتجاه القومي في الرواية العربية) سنة 1997م والثاني(قضايا الرواية العربية) سنة 1999م.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن محمد كامل الخطيب وجورج طرابيشي قد نظرا إلى علاقة الغرب بالشرق من خلال تجنيس العلاقات الحضارية، وفي هذا الصدد يقول جورج طرابيشي في كتابه(شرق وغرب: رجولة وأنوثة) وفي الفصل الأول منه تحت عنوان(تجنيس العلاقات الحضارية) :"وزوال الاستعمار بشكله الاستيطاني والاحتلالي المباشر، لا يغير كثيرا في طبيعة العلاقات بين المُسْتَعْمِرِ السابق والمُسْتَعْمَرِ السابق فالذكريات ما تبرح حية دامية، محرقة ، والمشاعر ما تزال متأججة، والاستغلال الاقتصادي الإمبريالي الجديد وغير المباشر ما يفتأ يقوم بنفس دور الاسترقاق الكولونيالي المباشر، ثم إن الأمة المُسْتَعْمَرة سابقا ما تزال بفعل عملية المثاقفة (acculturation)، أي استيراد ثقافة المتروبول، تحس إحساسا ساحقا بدونيتها (المؤنثة) إزاء (رجولة) ثقافة الغرب و(فحولتها).

وما دمنا هنا بصدد الأدب الروائي الذي يتناول بالعرض والمعالجة " العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ، فإن العامل الأخير أي المثاقفة ، يبدو حاسم الأثر

1/ ينظر : / أبو هيف ، عبد الله : " رؤى الآخر في الرواية العربية " ، ص 01 .

في إلباس تلك العلاقات الحضارية المزعومة رداء ومضمونا جنسيين"([1]).ثم يتساءل قائلا:" كيف يرد المثقف الآتي من المجتمع الكولونيالي على عملية مثاقفته في الحواضر المتروبولية ؟"([2]) .

ونجده يجيب عن هذا السؤال بقوله : " فالمثقف الآتي من المجتمع الكولونيالي يصدق أولا لعبة المثاقفة المتروبولية،يؤخذ بها، يسلم بمنطقها، وبتعبير أكثر عيانية : يعترف بتجنيس عملية المثاقفة والرجولة، ويقبل لا شعوريا على الأقل، بأن يقيم علاقة تساوٍ و تماهٍ بين الثقافة والرجولة، وكلما هنالك أنه يعكس المعادلة : فمادامت الثقافة رجولة، فإن الرجولة أيضا ثقافة، أو بالأحرى الذكورة، فإحساسه بالخصاء الثقافي لن يزيده إلا تشبثا بذكورته، ومعاناته من العنة الفكرية لن تزيده إلا تأججا وفحولة. فلئن لم يكن رجلا في مضمار الثقافة فليكن رجلا وأكثر من رجل في مضمار الرجولة الطبيعي"([3]) .

وفي إطار هذه الفلسفة (التجنيسية) ـ إن صح هذا التعبير ـ راح جورج طرابيشي يحلل ويدرس مجموعة من الروايات المواجهة الحضارية وهي (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم و(أحلام يولاند) لفؤاد الشائب و(الحي اللاتيني) لسهيل إدريس و(رصيف العذراء السوداء) لعبد السلام العجيلي و(موسم الهجرة إلى الشمال) لطيب صالح و(السنفونية الناقصة) لصباح محي الدين و(الأشجار واغتيال مرزوق) لعبد الرحمن منيف.يقول جورج طرابيشي عن هذه الروايات: "و ليس من قبيل المصادفة من وجهة النظر هذه أن تكون جميع الروايات العربية التي عالجت مشكلة ما اصطلح على تسميته بالعلاقات الحضارية بين الشرق والغرب، ابتداء من (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم ومرورا بـ (الحي اللاتيني) لسهيل إدريس ووصولا إلى (موسم الهجرة إلى الشمال)

1/ طرابيشي ،جورج : شرق وغرق : أنوثة ورجولة (دراسات في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية)، الطبعة الرابعة ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت،فبراير ،1997م ، ص 10.

2/ المرجع نفسه، ص13.

3/ المرجع نفسه، ص14.

للطيب صالح قد اختارت إطارا مكانيا لها باريس و لندن أي بالتحديد حاضرتي الدولتين المتروبوليتين السابقتين ، فكأن الغرب ليس غربا إلا في هاتين العاصمتين ، وكأن الشرقي ليس شرقيا إلا فيهما"([1]).

أما نبيل سليمان في دراسته المعنونة (وعي الذات ووعي العالم) فقد أضاف معطيات جديدة إلى الدراسات السابقة ، منها خصوصا " تصنيف أنواع الآخر ومنه الآخر الإسرائيلي بعد أن كان مقتصراً في الدراسات السابقة على الآخر الغربي، ومنه اللقاء في الوطن بعد أن كان يتجه الاهتمام باللقاء الآخر على أرض الآخر، فرنسا. بريطانيا، ألمانيا... إلخ، بالإضافة إلى تشخيص ظواهر جديدة في عمليات وعي الآخر، مثل الانكفاء والتدميرية حيث تجسيد الهزائم العربية([2]).

ومن الروايات التي تندرج في هذا الإطار رواية (عمر يظهر في القدس) لنجيب الكيلاني،والتي تجسد العلاقة بين الأنا/العربي ،والفلسطيني خاصة ، والآخر/الإسرائيلي، إذ لم يكن اللقاء بينهما على أرض الغرب ،مثل فرنسا أو إنجلترا، وإنما هي على أرض الأنا، فلسطين، كما أن العلاقة بينهما لم تكنفي إطار تجنيس العلاقات الحضارية وإنما تجاوزتها إلى علاقة أخرى تمثلت في عرض أسباب الهزائم العربية المتوالية والبحث عن السبل الكفيلة بعلاج هذه الأوضاع التي يتخبط فيها المجتمعات العربية منذ استقلالها .

أما عصام بهي الدين فقد اقتصر في بحثه على رواد الرواية العربية ،معيدا الأسئلة المعتادة حول العلاقة بين الشرق والغرب، وقد ركز على التباين الصارخ بين التحضر الغربي والتخلف العربي([3]). وهي من أكثر المسائل التي عالجها الروائيون العرب خاصة في الروايات التي تعكس مرحلة ما بعد استقلال البلاد العربية من ربقة الاستعمار الغربي .

1/ طرابيشي ،جورج : شرق وغرق : أنوثة ورجولة (دراسات في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية)، ص 12.

2/ أبو هيف ، عبد الله : رؤى الآخر في الرواية العربية ، ص 01 .

3/ ينظر : المرجع نفسه ، ص 02 .

أما منصور قيسومة، فقد أوقف دراسته على الروايات الثلاثة المشهورة التي تجسد العلاقة بالغرب والتي عالجها الدارسون، وهي: (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم و(الحي اللاتيني) لسهيل إدريس و(موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح، إلا أنه استطاع أن يخرج بوعي الذات من إطار تجنيس العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب إلى رؤية أكثر تجسيدا لتلك العلاقة.. ([1]).

أما محمد نجيب التلاوي في كتابه (الذات والمهماز)،فقد اختار في دراسته مجموعة من النماذج الروائية حيث بلغت ثلاثا وعشرين رواية من مختلف الأقطار العربية، وقد سبق أن عولج الكثير منها لدى الدارسين السابقين ،ومن تلك النماذج رواية (أصوات) لسليمان فياض و(إلى الجحيم أيُّها الملك) لسميح القاسم و(الثنائية اللندنية) لسميرة المانع و(الحي اللاتيني)لسهيل إدريس و(الضفة الثالثة) لأسعد محمد عليو(عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم و(قنديل أم هاشم) ليحي حقي...الخ ([2]).

وهي في الحقيقة نماذج سبق أن درسها النقاد من قبل ،إلا أن هذه الدراسة- كما يرى الناقد عبد الله أبو هيف - تتميز بأن صاحبها قد مضى عميقاً في تلاوين الذات المهموزة بالآخر- على حد تعبيره أما مصطفى عبد الغني فقد مضى في كتابه (الاتجاه القومي في الرواية العربية) إلى إبراز قضايا متعددة في إطار العلاقة الحضارية بين الشرق والغرب ،وأبرز ما عالجه في هذا الصدد في الفصل الثاني من الكتاب هو موضوع (البحث عن الهوية في الغرب) أو (العلاقة مع الآخر)،وقد درس نماذج روائية من المشرق والمغرب العربيين و" في ضوء ذلك كله تتعمق رؤيتنا (للهوية) العربية عبر نصوص روائية

1/ ينظر : أبو هيف ، عبد الله : رؤى الآخر في الرواية العربية ،ص 03.

2/ ينظر : المرجع نفسه ، ص 02.

كثيرة، لعل أهمها روايات سهيل إدريس والطيب صالح وفتحي غانم وعبد الرحمن منيف وعبد المجيد بن جلون وعبد الله العروي..." ([1]) .

وفي كتابه الثاني الموسوم بـ (قضايا الرواية العربية) ،فقد درس فيه جملة من القضايا التي انشغل بها الروائيون العرب في رواياتهم ،وقد جعلها ثمانية، وهي :قضية المستقبل، قضية الغرب، قضية التغيير، قضية التحول، قضية الهوية، قضية التناص وقضية الدلالة وأخيرا قضية اللغة. وتحت إطار كل قضية من القضايا السابقة درس مجموعة من الروايات؛ فتحت عنوان (قضية الغرب) حلل رواية (الجبل الصغير) لإلياس خوري مبينا أن هذه الرواية تعبر عن أحداث الحرب الأهلية اللبنانية، وتصف تدخل العديد من القوى والتدخل الإسرائيلي والتحالف اللبناني الفلسطيني حيث يقول:" فإذا كانت الرواية قد بدأت من حي الأشرفية في الشرق ـ لبنان ـ فإنها وصلت الآن ـ داخل النص ـ إلى ساحة الكونكورد في الغرب ـ فرنسا ـ ففي هذه الساحة نعثر على الوجه الغربي الخالص دون قناع، وإذا كانت الحضارة الفرنسية قد زعمت أنها إنما جاءت للشرق للقضاء على الرموز الشيوعية والمخربين الفلسطينيين وأنصارهم من الناصريين ،ولنقل حضارة الغرب إلى الشرق... إذا كانت زعمت أنها جاءت للشرق بهدف نبيل، فإنها في الغرب ـ الآن ـ تزعم (وتريد أن نصدقها) أنها تحاول الحفاظ على حضارة الشرق القديم " ([2]).

ومهما يكن من أمر فإن الرواية الحضارية أو رواية العلاقة الحضارية بين الشرق والغرب رصدت تغيرات المجتمع العربي منذ منتصف الخمسينيات ،ثم التغيرات الطارئة بعد استقلال معظم البلدان العربية. وفي ظل المشاكل المتضخمة والأزمات المستفحلة وعدم

1/ عبد الغني ، مصطفى : الاتجاه القومي في الرواية العربية ،ط2،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1998م،ص 96.

2/ عبد الغني ، مصطفى : قضايا الرواية العربية ، الطبعة الأولى ، الدار المصرية اللبنانية ، يناير 1999، ص48 .

تحديد الهوية وازدياد درجة الحرمان المعيشي، وفي المقابل ـ في الغرب ـ كان ظل التطور الغربي وحضارته يمتد إلى مساحات شاسعة في العقل العربي في البلاد العربية.

ذلك جعل الأدباء والروائيين على وجه الخصوص يعبرون عن هذا الواقع بجميع متناقضاته وبما يحمل من اتجاهات فكرية، كما عبر هؤلاء عن مواقفهم من الغرب هذه المواقف التي كانت تحكمها العلاقات السياسية بين العرب والغرب، لاسيما فترة الاستعمار، إذ ظهرت اتجاهات مختلفة من الغرب؛ فمن الأدباء من انبهر بالحضارة الغربية فتماهى فيها، وانصهر في ماديتها، ومنهم من تقوقع على روحانيات الشرق ولم يقبل تغيير جلده ومسخ سحنته، ومنهم من لم تكن له الشجاعة الكافية في إبداء رأي صريح فأمسك بالعصا من وسطها ؛فلا هو ناقم على الغرب، ولا هو متحمس إلى الشرق ،وإنما هو بين هذا وذاك متذبذب، إذ حدث له ما حدث للغراب الذي أراد أن يقلد الحمام فلم يستطع، فأراد أن يعود إلى مشيته الأولى فلم يتمكن من ذلك، فبقي يتدحرج يمينا وشمالا، لا هو من هذه الفصيلة ولا من تلك ...

وعلى العموم فإن الرواية العربية الحديثة شقت طريقها نحو التطور واستيعاب كل المتناقضات الاجتماعية والنفسية والتاريخية والاقتصادية للمجتمع العربي فهي اليوم " ذات الحساسية الجديدة والأفق المشرع على أسئلة متقاطعة ، تتقصد اكتشاف المحتمل والممكن وتشريح (الهوية المحتجبة) للواقع والكائن ،من خلال رصد نبضه المختل والتقاط حبوطاته المتعددة الأشكال، والتعقيدات المتشابكة لنفسيات شوهها غمر التناقض والأزمات المتداخلة، أفضت إلى أزمة هوية للإنسان العربي الذي انكسرت أحلامه مع فجر استقلالات مشروطة ، ثم ازداد الأمر التباسا خلال نكسة 1967م ونكسات أخرى عرفت تجليها مع دخول أمريكا وحلفائها عسكريا إلى منطقة الخليج العربي والشرق الأوسط منذ تسعينيات القرن الماضي ،حيث سقطت مرحلة لتولد أخرى من رماد الاختلافات، تغتسل بكل التبدلات حتى تعطي رؤية روائية تلامس القضايا الحقيقية المسكوت عنها والباعثة على الإدهاش، رؤية كابوسية مطعمة بالسخرية والفانتاستيك

في مجموع الوطن العربي والإسلامي ،سواء في المغرب العربي المشدود إلى القارة الإفريقية المنفصمة عن أي حداثة أو تحديث، أو الشرق الأوسط المشتعل بأطماع الامبريالية والصهيونية "([1]).

وضمن هذا الإطار من المتناقضات التي ينغمس فيها المجتمع العربي والإسلامي ـ شرقا وغربا ـ تندرج روايات نجيب الكيلاني التي اهتمت بالقضايا الاجتماعية والتاريخية والسياسية للأمة العربية السلامية ، وهي الروايات التي سأحاول قدر الإمكان دراستها من حيث صورة المرأة وتجلياتها والدور أو بالأحرى الدوار التي منحها الكيلاني للمرأة العربية ضمن حركية المجتمعات من خلال النصوص الروائية محل الدراسة ، وسأسعى من خلال ذلك أيضا إلى توضيح العلاقة بين الرواية العربية وصورة المرأة عند نجيب الكيلاني.

1/ حليفي، شعيب : شعرية الرواية الفانتاستيكية ، ط2 ، دار الحرف للنشر والتوزيع ، القنيطرة، المغرب ، 2007 ، ص06 .

الباب الأول
نجيب الكيلاني والفن الروائي

الباب الأول
نجيب الكيلاني والفن الروائي

الفصل الأول
سيرة حياته ومصادر ثقافته
الفصل الثاني
إنتاجه الأدبي والفكري
الفصل الثالث
آراؤه النقدية ومواقفه الأدبية

تمهيـــــد

لقد أنجبت الأمة العربية الإسلامية في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين نخبة من الشخصيات العملاقة التي اشتهرت في العديد من مجالات العلم والمعرفة وأثرت في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية والأدبية والدينية.. وقد كانت قضية السبق لمصر العربية التي برز فيها كثير من الأدباء والمفكرين من الذين حملوا لواء النهضة الفكرية، نذكر منهم على سبيل المثال: أحمد شوقي وحافظ إبراهيم ومحمود سامي البارودي ومحمود عباس العقاد وطه حسين ومصطفى صادق الرافعي وحسن البناء وسيد قطب ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وغيرهم كثر.

وكان نجيب الكيلاني جديرا بأن يكون واحدا من هؤلاء إلا أنه همش ولم يحظ بالمكانة نفسها في الأوساط الرسمية على الرغم من كثرة إنتاجه وغزارته ، وذلك ما جعلني اهتم بهذا الجانب وسأخصص هذا الباب الذي اعتبره بابا نظريا أتحدث فيه عن سيرته من حيث المولد والنشأة ومصادر ثقافته وأثاره المتنوعة في الشعر والرواية والقصة القصيرة والمسرح وغيرها وأتوسع في الحديث عن الفن الروائي من حيث مراحل كتابته الرواية وكذلك الأنواع التي اهتم بها وهي على وجه التحديد الرواية التاريخية والاجتماعية والسياسية. ولن أغفل الحديث عن الجوائز التي حظي بها وسأوضح أسباب الإهمال والتهميش وكذلك أسباب سجنه أكثر من مرة.

وأختم هذا الباب بالحديث عن بعض القضايا التي أثارها الكيلاني في رواياته منها على وجه الخصوص قضية الالتزام وقضية اللغة بين العامية والفصحى وغيرهما من القضايا الأخرى، خاصة ما يتعلق بالأدب الإسلامي كالجنس والأدب والدين والفن ومصطلح الأدب الإسلامي في حد ذاته.

الفصل الأول
سيرة حياته ومصادر ثقافته

الفصل الأول
سيرة حياته ومصادر ثقافته

أولا : سيرة حياته

ثانيا : مصادر ثقافته

أولا ـ سيرة حياته:

ولد نجيب الكيلاني إبراهيم عبد اللطيف في اليوم الأول من شهر حزيران (يونيو) سنة ألف وإحدى وثلاثين ميلادية (1931م) ، وكان أول مولود لوالديه وكان مولده بقرية (شرشابة) التابعة لمحافظة الغربية على بعد عشرين كيلومترا من طنطا. ونشأ في أسرة متواضعة كثيرة العدد تتكون من جده لأبيه وجدته لأبيه وعمه عبد الفتاح والسيدة مباركة إحدى زوجات جده الأربعة وأبيه وأمه وأخواته([1]).

وكانت الأسرة تمتلك مساحة قليلة من الأرض لا تفي بأعباء الحياة المختلفة ، كما كان نجيب منذ صغره يمارس العمل مع أبناء الأسرة في الحقول. ولم يكن في قريته الكبيرة إلا مذياع واحد ،ولم تكن الصحف والمجلات تصل إليها إلا في القليل النادر([2]).

وكان والده الشيخ الكيلاني إبراهيم عبد اللطيف يعامله معاملة خاصة تتسم باللطف واللين ، وعلى الرغم من كونه أميا إلا أنه كان متدينا ومؤديا للفروض، أمّا جده لأمه – الحاج عبد القادر الشافعي- فقد كان من كبار تجار القطن في القرية ، حسن السمعة، حافظا للقران الكريم، وقد شجع على تدريس نجيب في المدرسة الابتدائية الأمريكية.

إلا أن أكثر الأشخاص تأثيرا في شخصية نجيب الكيلاني عمه عبد الفتاح الذي كان المتعلم الوحيد في أسرة والده([3]).

ولما بلغ نجيب الرابعة من عمره تلقى تعليمه الأول في مكتب تحفيظ القران الكريم، وكان هذا المكتب يقوم بتحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم بعض مبادئ في القراءة والكتابة " وجدي هو الذي أخذني بنفسه إلى (مكتب القرية) وأنا في الرابعة من عمري، أذكر ذلك

1/ ينظر: سهيل ياسين، توفيق : نجيب الكيلاني روائيا ،رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1985م، ص 01.

2/ ينظر : ديوالي حاجي ، جاسم علي: الخطاب النقدي عند نجيب الكيلاني ، رسالة ماجستير ، جامعة الموصل، العراق،2005م ،ص23.

3/ ينظر : سهيل ياسين، توفيق : نجيب الكيلاني روائيا ، ص 03 .

جيداً، واشترى لي لوحا ومحبرة وقلما من البوص.. كما اشترى لي طباشير ولوحاً من (الأردواز) ومصحفاً.. "([1]).

وحين بلغ نجيب الكيلاني السابعة من عمره كان قد ألم بالقراءة والكتابة ومبادئ الحساب ،كما حفظ قدرا معتبرا من السيرة النبوية الشريفة، كما حفظ معظم القرآن الكريم في هذا المكتب؛ " فما أن بلغت السابعة من العمر حتى ألممت بقواعد القراءة والكتابة، ومبادئ الحساب، وقدرا لا (يستهان به) من القرآن الكريم، وبعض الأحاديث النبوية، وأناشيد دينية ووطنية، وأسماء الله الحسنى، وأسماء الرسول ونسبه وأولاده، وبعض القصص القرآني " ([2]).

وبقي للكُتابْ عند نجيب تأثيره الملازم له حتى بعد دخول المدرسة الابتدائية إذ لم يترك الطفل نجيب الكتاب " وهكذا أصبح مرتبطاً بالكتاب (مكتب تحفيظ القرآن) صباحا، وبالمدرسة الأولية ظهراً ولا يفصل بينهما سوى وقت قصير يكفي بالكاد لتناول طعام الغداء بالمنزل "([3]).

ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية في شرشابة، ومنها أرسل إلى المدرسة الابتدائية الأمريكية بتشجيع من جده لأمه ـ كما سلف ذكره ــ وكانت مدرسة الإرسالية الأمريكية تقع في قرية (سنباط) التي تبعد عن قريته (شرشابة) خمسة كيلومترات، وكان يذهب إليها مشيا على الإقدام ذهابا وإيابا .

وقد اجتاز الامتحان النهائي في مدينة (طنطا) وكان من المتفوقين حيث حصل على الترتيب الخامس، بعد ذلك التحق بالمدرسة الثانوية في مدينة (طنطا)، وقد درس فيها خمس سنوات لأن في تلك الفترة لم تكن المرحلة الإعدادية . أتم الدراسة في المرحلة الثانوية ونجح في امتحان الثانوية العامة في طنطا بمعدل عال من العلامات مما أهله للدخول إلى

1/ الكيلاني، نجيب : لمحات من حياتي ،مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، ج01،1985م ، ص28.
2/ المصدر نفسه ، ص 28.
3/ المصدر نفسه، ص 29 .

كلية الطب في القصر العيني ، بجامعة فؤاد الأول ، جامعة القاهرة حاليا، وكان ذلك عام 1951م ([1]).

تأثر نجيب الكيلاني بفكر جماعة الإخوان المسلمين حيث كان كثير التردد على نادي الجماعة بمدينة طنطا وكان كثير الاطلاع على منشورات الجماعة التي تتناول القضايا السياسية والفكرية والأدبية. على الرغم من انتماء أسرته سياسيا لحزب الوفد خاصة أن أحد أخواله كان سكرتيرا لزعيم الحزب مصطفى النحاس ...

انضم رسميا إلى جماعة الإخوان المسلمين سنة 1948 م وكان عمره آنذاك سبع عشرة سنة (17سنة). حينما التحق بالدراسة بكلية الطب بالقصر العيني، لم يستطع تحمل مناظر الدماء وتشريح الجثث لذلك عزم على ترك الكلية والانتساب إلى كلية الحقوق، إلا أن والده ومدرسيه بكلية الطب أقنعوه بضرورة مواصلة الدراسة بالكلية، و بذل والده جهدا كبيرا في إقناعه بذلك، وقد تم له ذلك. ولم تمنعه الدراسة بالجامعة من الاهتمام بالقضايا السياسية لاسيما أنه صار عضوا فعالا في التنظيم الإخواني حيث كان عضوا في فرع التنظيمات الجماعية وقد سبب له ذلك الدخول إلى السجن مرتين، الأولى عام 1955 م حين كان طالبا في السنة الرابعة وحكم عليه بعشر سنوات بتهمة العمل في الجهاز المالي لجماعة الإخوان المسلمين. وأفرج عنه بعقد صحي بعد قضاء مدة ثلاث سنوات ونصف في 25 نوفمبر 1958.

أما المرة الثانية فكانت عام 1965 م ، ومكث في السجن سنة ونصف ثم أفرج عنه سنة 1966م. تزوج نجيب الكيلاني سنة 1959 م من الأديبة الشهيرة السيدة (كريمة شاهين) ابنة الشيخ محمود شاهين من قريته (شرشابة) وكان حاصلا على الشهادة العالمية من الأزهر، وقد كان نجيب يزوره مرتين في الأسبوع يتعلم على يديه علوم الدين والفقه. أنجب منها ثلاثة أبناء هم : المهندس(حسام الدين) والدكتور(جلال الدين)

1/ ينظر : سهيل ياسين ، توفيق : نجيب الكيلاني روائيا ، ص ص 5 ـ 6 .

والمحامي(محمود)، كما رزق بأنثى واحدة هي الدكتورة (عزة). تخرج نجيب الكيلاني من كلية الطب في سبتمبر سنة 1960م.

بعدها انتقل إلى الحياة العملية، حيث عمل طبيبا في مستشفى (أم المصريين) بالجيزة لمدة سنة واحدة، انتقل بعدها إلى قريته (شرشابة)، فعمل في وحدتها الصحية أكثر من سنة، ثم نقل إلى مستشفى السكة الحديدية ، وبعدها عين رئيسا للقسم الطبي بالمدينة السكنية (أبو زعبل) ([1]). وبقي فيها حتى تم اعتقاله للمرة الثانية سنة 1965م.

وبعد أن ضاق ذرعا من الاعتقالات والسجون، فكر في الخروج من مصر إلى إحدى دول الخليج العربي، وقد شجعته زوجته على ذلك، فقرر السفر إلى الكويت وكان ذلك سنة 1968م حيث أقام بدبي مع أسرته. وعمل طبيبا عاما بالمستشفى الكويتي بدبي، بعدها عين مسؤولا عن مستشفى الأمراض الصدرية، إضافة إلى عمله كرئيس لقسم التثقيف الصحي، وشارك في مؤتمرات وزراء الصحة العرب كعضو في وفد دولة الإمارات الصحي.

وفي سنة 1992م أحيل الأديب نجيب الكيلاني على التقاعد بعد أن عمل طيلة ثلاث وعشرين سنة في الميدان الصحي ، إثرها عاد إلى بلده مصر ليعيش بين أهله وأقربائه، حيث أصيب بداء عضال، أجريت له إثر ذلك عدة عمليات جراحية لم تجد نفعا، فوافته المنية في مصر وبالتحديد في طنطا في مساء الخامس من شوال عام 1415ه الموافق للسادس من مارس عام 1995م .

كان نعم الإنسان المسلم الصابر المحتسب، فقد ذكر نجل الراحل نجيب الكيلاني في حوار خاص لمجلة الأدب الإسلامي وصف فيه صبر والده على معاناة المرض قائلا : " فقد كان صبره وتحمله لآلام السرطان ، ومن قبله مرض الكبد الوبائي لا مثيل له، بل كان يريد أن يتحمل الآلام وحده ولا يشرك معه أحدا، وكان دائما يخفي عمن حوله ما يعاني منه وما يؤلمه، وكان أمله في الله قويا جدا حتى آخر لحظة، ومع ذلك كان مستعدا للقاء الله

1/ ينظر : سهيل ياسين، توفيق: نجيب الكيلاني روائيا ، ص 10 .

راضيا بقضائه، ذاكرا الله في كل لحظة حتى آخر رمق له، وكان يرتل القرآن في غيبوبته، وقد ختم القرآن الكريم عدة مرات في شهر رمضان الماضي – قبل وفاته بعدة أيام –"([1]).

وخصصت مجلة الأدب الإسلامي العددين التاسع والعاشر للأديب الراحل نجيب الكيلاني، حيث تضمنت العديد من المقالات التي تناولت حياته ومسيرته الفنية وإنتاجه بالدراسة والنقد ،كما نشرت عدة قصائد في رثائه ؛ فقد ورد في افتتاحية العددين ما نصه : "... ارتأينا أن نصدر عنه عددا خاصا وهذا أقل ما نقدمه من تكريم له ولأدبه ...ومن هنا قدمنا دعوة مفتوحة في افتتاحية العدد السادس للمشاركة في هدا العدد الخاص، وقد كانت الاستجابة أكبر مما كنا نتوقع؛ فقد توالت الدراسات والأبحاث وعروض الكتب وقصائد الشعر من مصر وسوريا والمغرب والأردن والسعودية وفلسطين والجزائر بالإضافة إلى كلمة سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي رئيس الرابطة والمشرف العام على المجلة .... "([2]).

رثاه كثير من الأدباء والشعراء والنقاد داخل الوطن العربي وخارجه وفي مجموع الأوساط الثقافية الإسلامية ، من ذلك ورد على لسان الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي رئيس رابطة الأدب الإسلامي " وكان نجيب الكيلاني أديب مصر أو أديب المجتمع العربي ،وقد نال الاعتراف الرسمي على إنتاجه، ولكن برحلته إلى الأدب الإسلامي صار أديبا عالميا، وبتبنيه المثل الخالدة سيخلد اسمه وذاكرته، وآثاره ،وتعيش روحه ،وإن لم ينل الاعتراف من دنيا الأدب المادي المحترف وإن التاريخ حافل بذكر الأعلام الذين اضطهدوا، والذين أوذوا في سبيل الحق ،فأغفل التاريخ الذين اضطهدوهم، وخلد آثار ومآثر هؤلاء

1/ أحمد محمد ،عبد الرحمن : "جوانب مضيئة من حياة رائد الأدب الإسلامي المعاصر"، مجلة الأدب الإسلامي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، العدد : التاسع والعاشر، رجب ـ ذو الحجة، سنة 1416هـ ـ كانون الأول(ديسمبر) 1995مـ نيسان (أفريل) 1996م . .

2/ " افتتاحية مجلة الأدب الإسلامي" ، مجلة الأدب الإسلامي ، العددان التاسع والعاشر ، ص 01 .

الأعلام، وحفظ صفحات حياتهم الخالدة لتكون نبراسا للأجيال القادمة " ([1]) .

رثاه العديد من الشعراء من مختلف البلاد العربية من أمثال الشاعر المصري الكبير محمد التهامي، والشاعر الدكتور عدنان علي رضا النحوي ، والشاعر الدكتور حسن الأمراني رئيس تحرير مجلة المشكاة ، ورئيس مكتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية في المغرب ، والذي رثاه بقصيدة عنوانها (وَ مَنْ للأَدَبِ بَعْدَكَ ؟)، والتي يقول فيها:

هَا أَنْتَ تَرْحَلُ فَالقلوبُ وَجيـــــبٌ *** قَد شيَّعتـــــــك مدامعٌ وقلوب

تَبكيك " جاكــرتا " وقد غنيتــهَا *** تبكيك " تركستان " وهي تَذوبُ

يبكيكَ ليلُ " القدس " وَهْيَ أسيرةٌ *** عبثَ البغاةُ بهـــا وعـــــاث الذِّيبُ

تبكيكَ " طَنْطَا " وَهْيَ أُمُّ بَـرَّةٌ *** يَأْوِي الوليدُ لِحُضْنِهَا فَتَشِـــــــيبُ

إلى أن يقول :

وهَتَفَ بالشُّهداء هذا عصــرُكُـــــمْ*** حُلَلُ الشَّهَادةِ نُورُهُنَّ مَهِيـــــــــبُ

وإِذَا يُقَالُ : مَنِ الأَديبُ ؟مَنِ الفَتَى؟** * نَطَقَ الزمانُ و قَالَ : ذَاكَ نَجيبُ([2]).

رحمه الله رحمة واسعة كفاء ما قدم للإسلام والمسلمين ..

ثانيا ـ ثقافته ومصادرها :

يمكن القول إن ثقافة نجيب الكيلاني قد تنوعت مصادرها بين ثقافة إسلامية أو ما يمكن أن نسميه المرجعيات الأصلية والمتمثلة في الثقافة الإسلامية الشاملة من قرآن كريم وفقه وتفسير وسيرة نبوية ، والثقافة النقدية أو ما يمكن تسميتها بالمرجعيات النقدية سواء تعلق الأمر بالثقافة الأدبية العربية أو الأجنبية على حد سواء علما بأن نجيب الكيلاني قد اطلع على بعض الروائع من الأدب العالمي خاصة الأدب الانجليزي والروسي.

كان للأسرة والبيئة القروية التي عاشها نجيب الكيلاني بليغ الأثر في تكوين شخصيته وبناء ثقافته، حيث تربى في كنف أسرة متدينة تحافظ على أداء الفرائض المختلفة، تعمل

1/ الندوي ،أبو الحسن علي الحسني : " تقديم وتقدير "، مجلة الأدب الإسلامي ـ العددان التاسع والعاشر ، ص 03 .

2/ الأمراني ، حسن : "ومن للأدب بعدك "، مجلة الأدب الإسلامي ، العددان التاسع والعاشر ، ص 179.

في الزراعة لتوفير متطلبات الحياة ومواجهة مصاعبها، فلما كان طفلا كان يرتاد حلقات الذكر في المناسبات الدينية ، مثل عيد المولد النبوي الشريف ، وكان يستمع إلى المدائح الدينية المتصلة بهذه المناسبات ،وقد حفظ نجيب الكثير من هذه الأهازيج والأشعار([1]).

وتحدث نجيب الكيلاني عن ذلك بقوله : "في قريتنا النائمة في أحضان المزارع الخضراء، لم تؤسس مكتبات، ولم تقم أندية أدبية، حتى الصحف اليومية والمجلات كانت نادرة ، ففي مكتب القرية نحفظ القرآن والأناشيد، وفي كل عام يحضر شاعر الربابة ليروي لنا بالشعر ملاحم شعبية عن الهلالية، والزير سالم، وعزيزة ويونس ،وأصحاب الطرائق الصوفية يعقدون حلقات الذكر، ويترنم الحادي بأغاني عذبة عن حب الرسول وأهل بيته الكرام ، وعن أولياء الله الصالحين ، أضف إلى ذلك أغاني الأفراح، والترانيم الحزينة في المآتم، وبعض الأغاني التي تقال خصيصا إبان موسم الحج وغير ذلك، ولم تخرج متعتنا الفنية ونحن أطفال عن هذه المصادر... فنشعر بغير قليل من المتعة والسعادة، فضلا عن أن ما فيها من عظات وعبر كان يؤثر في أفكارنا وسلوكنا"([2]).

ولعل القصة القرآنية كانت المعين الأول الذي استقى منها الكيلاني ثقافته الدينية وقد كان يطرب لسماع تلك القصص في طفولته المبكرة والتي كانت ترويها له جدته "كانت جدتي تحكيها لي في الأمسيات الجميلة فوق سطح منزلنا الريفي ، وهي جالسة على سجادة الصلاة، وتضمني إلى أحضانها الدافئة وتربت على رأسي وجسدي في حنان"([3]) .

1/ ينظر: سهيل ياسين، توفيق : نجيب الكيلاني روائيا ، ص 11.

2/ الكيلاني ، نجيب: رحلتي مع الأدب الإسلامي ،الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت،1985م ، ص 09 .

3/ الكيلاني ، نجيب : تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، دار ابن حزم، بيروت، 1991م، ص 14 .

ومن القصص التي كانت ترويها له قصة فرعون وقتله للأطفال وقصة سيدنا نوح عليه السلام والطوفان وقصة يوسف عليه السلام ومحنته مع امرأة العزيز وقصص معجزات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان لتلك القصص الأثر البالغ في نفسية نجيب الكيلاني حيث يقول في ذلك :"ومازالت مؤمنا بعظمة القصص القرآني وتنوعه وشموله لكل جنبات الحياة، وسمو النفس الإنسانية وانحطاطها، وأحلامها وآمالها ، وغرورها وتواضعها، وعنادها وطاعتها، وإيمانها وكفرها " ([1]) .

ويضاف إلى ذلك قصص الربابة والسيرة الشعبية التي كان يحكيها له والده من مثل قصص (أبي زيد الهلالي، والأميرة ذات الهمة، وعنترة بن شداد ، وعزيزة ويونس ، والزير سالم) ،وفي ذلك يقول "كان يروي لي قصص السيرة الشعبية شعرا منغما ، وكان ذلك الشعر سلسا سهل الفهم بين العامية والفصحى" ([2]).

وكانت إحدى عماته تقص له قصص الجن والجنيات والعفاريت وقصص اليهود الذين يخطفون الأطفال ويذبحونهم ويمتصون دمائهم في بعض المناسبات والطقوس اليهودية، إذ يقول :" وعندما كبرت وعرفت كثيرا من الحقائق عن اليهود وذبائحهم، كتبت روايتي المعروفة (دم لفطير صهيون) من واقع ملفات قضية ذبح (البادري توما) إبان حكم إبراهيم باشا لدمشق، عندئذ تذكرت قصص عمتي، وكيف أن بعض القصص الخرافية التي روتها لي ضمت حقائق صادقة مذهلة "([3]).وكان لقصص الواقع المعاش نصيب وافر في ثقافة نجيب الكيلاني، حيث كانت والدته تروي له قصصا وحكايات عن الجرائم التي وقعت في القرية وفي القرى المجاورة وقصص الظلم والإقطاع والمقهورين والمظلومين.

كانت أمه من أكثر أهل أسرته علما ومعرفة واطلاعا على شؤون الحياة الحديثة ولعل ذلك يرجع إلى أن والدها كان يحفظ القرآن الكريم والكثير من الفقه ، إضافة إلى كونه

1/ الكيلاني ، نجيب : تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ، ص 14 .

2/ المصدر نفسه ، ص 15 .

3/ الكيلاني ، نجيب : تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ، ص 16

تاجرا وسياسيا كثير الاطلاع على مجريات الحياة عالما بأوضاع البلد بصورة عامة، وقد استمدت والدته معرفتها وثقافتها منه، فتكفلت برواية تلك الأحداث ، وفي ذلك يقول نجيب الكيلاني :" كانت أمي تروي لي حكايات عن جرائم وقعت في القرية والقرى المجاورة وتذكر قصصا من مكايد النساء وخيانتهن" ([1]). من ذلك قصص (ريا وسكينة) و(وشفيقة و الشاويش متولي) و(الأدهم الشرقاوي) و(سعد اليتيم) و(ياسين وبهية)،

إضافة إلى ما كانت تروي له من قصص عن الوزراء والملوك والباشوات والإقطاعيين والخواجات الأجانب، وقصص ألف ليلة وليلة.

قد كانت هذه القصص لا تخرج عن موضوعات الخيانة والغدر وخسة النفوس وعلى المظلومين والمقهورين ([2]).

وكان نجيب الكيلاني يشغل فترة الإجازة ووجود بعض الشباب المثقف ممن يدرسون في الأزهر ليتزود من أحاديثهم الثقافية التي كانت تتناول في معظمها موضوعات السيرة والأحاديث النبوية والتفسير حيث كانت هذه الدروس تلقى في المساجد في المناسبات الدينية والسياسية ، يقول نجيب الكيلاني في ذلك : " في المسجد ونحن صغار كنا نستمع إلى الدروس التي تحفل بالأخلاق الفاضلة "([3]). وكانت أغلب حكايات تلك الدروس تدور حول الزهد والزهاد والصالحين والأشقياء والكرماء والنساء العفيفات والرجال الشرفاء والأبناء المخلصين.

وكان نجيب الكيلاني كثير التردد على رجال الصوفية متأثر بهم إلى حد كبير من ذلك أنه كان ملازما لشيخ الطريقة الأحمدية في قريته (شرشابة) الشيخ محمود المداح الذي كان كثيرا ما يكلفه بكتابة الرسائل والخطب التي يرسلها إلى أصحابه في المناطق

1/ الكيلاني ، نجيب : تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ، ص17.

2/ ينظر : ديوالي حاجي ، جاسم علي : الخطاب النقدي عند نجيب الكيلاني ، ص 42 .

3/ الكيلاني ، نجيب: تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ، ص 15 .

المختلفة، فلا عجب إذا وجدنا عددا لا باس به من رواياته تتأثر بأقوال مشايخ الصوفية وأعمالهم ([1]).

وفي الأخير يمكن القول إن تلك القصص كان لها الأثر البارز والسمة الواضحة في تكوين شخصية نجيب الكيلاني حيث نجده يعلق على ذلك بقوله :" لقد لاحظت فيما بعد أن الغالبية العظمى التي سمعتها من القصص لها ارتباط وثيق بمفاهيم الإسلام وقيمه ومما يحزن أن عددا من الباحثين الأكاديميين يحاول أن يفصل في دراسته العلمية فصلا تعسفيا بين الدين والتراث الشعبي أو الأدب الشعبي، وهذا أمر غريب غاية الغرابة"([2]).

ومن العناصر المشكلة للمرجعيات الثقافية الإسلامية تعد المطالعة الشخصية عنصرا أساسا ومصدرا معرفيا وثقافيا كبيرا فقد أكب الكيلاني على المطالعة بنهم لتهيئة أرضية صلبة للإبداع فقد قرأ كل ما يقع تحت يديه، يقول في ذلك " تطورت مصادر المعرفة.. وأصبح في الإمكان الحصول على كتب المنفلوطي والرافعي ودواوين شوقي وحافظ.."([3]).

وعندما انتقل إلى مدينة (طنطا) لإكمال تعليمه حدث تحول كبير على ثقافته وفكره، فقد بدأ يدرس الكتب التي يقرأها دراسة معمقة طيلة تلك المدة التي امتدت خمس سنوات " استطعت أن أدرس بالتفصيل دواوين علي الجارم وشوقي وحافظ وإسماعيل باشا والبارودي وبعض دواوين الشعراء الصوفيين والمتنبي وتيمور، وأحاديث الأربعاء لطه حسين ومسرحيات الحكيم ،والرافعي رغم صعوبة أسلوبه، خاصة معاركه الأدبية مع العقاد وطه حسين، وحرصت على قراءة مؤلفات العقاد والمازني، وأحمد حسن الزيات"([4]).

وقد توسعت مطالعته لتشمل الكتب المقدسة الأخرى غير القرآن الكريم ودواوين الشعراء وكتب الفلاسفة، بل إن الكيلاني لم يترك مجالا من مجالات المعرفة إلا واطلع ولو

1/ ينظر : سهيل ياسين، توفيق : نجيب الكيلاني روائيا ، ص 12 .
2/ الكيلاني ، نجيب: تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ، ص 16 .
3/ الكيلاني ، نجيب: رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص 11 .
4/ المصدر نفسه ، ص ن .

على القليل .يقول في ذلك :" أذكر أنني لم أترك موضوعا من الموضوعات إلا وحاولت أن أعرف عنه شيئا.. وكان يؤلمني أشد الألم أن أستمع لمتحدث يتناول موضوعا لا أعرف عنه شيئا ... فاهتممت بالمدينة الفاضلة، وسحرها ووقفت أمام عبقرية أرسطو الفذة، وتابعت المذاهب الإسلامية في التاريخ القديم والفكر الإسلامي المعاصر والسياسة، ولم اكتف بقراءة تفسير القرآن والتراث النبوي الشريف، بل أمسكت بالكتب المقدسة الأخرى محاولا فهمها، حتى الموسيقى والفنون التشكيلية حاولت أن أمارسها وأعرف قدرا من المعلومات عنها، لم أكن أكترث لما يقال عن حرمة شيء من هذا، كنت مؤمنا أن المعرفة المجردة ليست حراما، أن تعرف فهذا عين الحلال ، أما أن تفعل فهنا المسؤولية"([1]).

اطلع نجيب الكيلاني على المذاهب الأدبية الغربية كالكلاسيكية والرومانسية والواقعية وغيرها حتى يتسنى له السير في إبداعاته الأدبية على الطريقة المتبعة والقواعد المتعارف عليها في مجال الفن والأدب يقول الكيلاني في ذلك :" ثم انتقلت إلى دراسة المذاهب الأدبية المعاصرة وكانت هذه نقطة هامة جدا في حياتي الأدبية، وقضيت فترة طويلة أتقصى وأتابع القراءة على الكلاسيكية والرومانسية والواقعية والطبيعية والبرناسية والرمزية والوجودية وغيرها من المذاهب، كذلك كنت أحاول أن أعرف ما يمكن معرفته عن ضياع هذه المذاهب وأعلامها وتراثها المحلي والمترجم... وتبين لي أن كل مذهب نبت في أحضان فلسفة من الفلسفات أو عقيدة من العقائد، حتى (الجماليون) أو أصحاب مدرسة (الفن للفن) "([2]).

وقد أورد هذه المذاهب في كتابه (الإسلامية والمذاهب الأدبية) حيث لخصها ليتسنى للقارئ الاطلاع على أهم مميزاتها وخصائصها وروادها، وقد ختم هذا الملخص بخلاصة جاء فيها : " هذا عرض سريع موجز للمذاهب الأدبية الغربية، رأينا ثبته هنا، لنفسح مجالا للدراسة والمقارنة وقد أخذنا هذا التلخيص عن بعض الكتب التي تكلمت

1/ الكيلاني ، نجيب: رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص ص 101 ـ 102.

2/ الكيلاني ، نجيب : تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ، ص 30.

عن المذاهب الأدبية وأهمها كتاب (الفن ومذاهبه) للأستاذ الدكتور محمد مندور.. ولعل النظر في خطة هذه المذاهب، وما تحتويه من قيم واتجاهات وأفكار كفيل بأن يجعلنا نعود إلى منابع الفكر الإسلامي ونظرة الإسلام الكلية إلى الكون والإنسان والحياة، ومدى ارتباط الفن بالدين، وضرورة التزام أدبنا الحديث بالقيم الإسلامية التي ثبتت فاعليتها وأهميتها وارتباطها بأصل عقيدتنا السمحاء"([1]).

إضافة إلى ما قرأه لكثير من الشعراء والأدباء العرب وغير العرب من أمثال الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعي وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور وأحمد باكثير وطه حسين وأبي العلاء المعري ويوسف إدريس وإحسان عبد القدوس وجورجي زيدان ومصطفى لطفي المنفلوطي ومحمد عبد الحليم عبد الله ،وعباس محمود العقاد كما قرأ تراجم العديد من الشعراء والكتاب الأجانب الفرنسيين والروس وغيرهم من أمثال: مكسيم جوركي، ودستويوفسكي ،وألكسندر دوماس وإميل زولا وتولستوي، وأنطوان تشيكوف وجون بول سارتر وألبير كامو، وأرنست هيمنجواي وأجاثا كريستي وغيرهم .

وتحدث عن بعضهم في كتابه (الإسلامية والمذاهب الأدبية) من ذلك ما قاله في الموازنة التي أقامها بين أحمد شوقي والشاعر الفيلسوف محمد إقبال حيث قال:"... غير أن إقبال شاعر الإسلام وفيلسوفه الكبير وصاحب فكرة إنشاء دولة باكستان الإسلامية، هو أول أديب مسلم في العصر الحديث استطاع أن يستلهم الإسلام في وضع فلسفته المشهورة (فلسفة الذات) أو (خودي) وكان شعره وعاء لهذه الفلسفة التي آمن بها، ودعا إليها في صدق وحرارة، ولم يحظ شاعر أو فيلسوف مسلم بشهرة تصارع شهرة شاعرنا الكبير في هذا العصر.." ([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب: الإسلامية والمذاهب الأدبية ، د.ط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1987، ص 116 .

2/ المصدر نفسه ، ص94 .

أما عن شوقي فيقول " إن أدباء العربية ليس فيهم أديب واحد نستطيع أن نعتبر ممثلا لاتجاه الإسلامية في الأدب في معظم إنتاجه، فمثلا شوقي أمير الشعراء له عديد من القصائد في المناسبات الإسلامية المختلفة كالهجرة والمولد النبوي، وله نهج البردة الشهيرة، وهمزيته الرائعة، وله بعض القصائد التي تترجم عن حياتنا الاجتماعية والسياسية ومشاكلها.. لكن شوقي لم يكن كإقبال ، فإقبال فيلسوف قبل أن يكون شاعرا، ولفلسفته سمات وملامح وشخصية مميزة، عبر عنها شعرا ونثرا، ولم يخرج عنها، وشوقي شاعر وليس فيلسوفا، وشعوره الإسلامي شعور رجل مسلم دارس لأمجاد الإسلام وتراثه، معجب ببطولته وأيامه الخالدة، ومبادئه السامية إعجاب شاعره، وفي اعتقادي أن شوقي أعظم شعراء عصره تحدثا بأمجاد الإسلام ومبادئه، ولم يكن ينقصه غير التخطيط الفكري، أو البناء الفلسفي الذي يصدر عنه كما فعل شاعرنا الكبير محمد إقبال" ([1]).

وهكذا يسير نجيب الكيلاني في الحديث عن هؤلاء الشعراء والأدباء الذين تمثلوا الإسلامية في شعرهم وأدبهم من أمثال حافظ إبراهيم شاعر النيل وقصيدته (العمرية) وأحمد محرم وملحمته الإسلامية الرائعة. ومصطفى صادق الرافعي في كتابه(وحي القلم) وتوفيق الحكيم في مسرحياته الشهيرة التي مزج في مادتها الأدبية بين التاريخ والأساطير مثل مسرحية (أهل الكهف) و(سليمان الحكيم) و(شهرزاد) وغيرها، وعلي أحمد باكثير صاحب (وإسلاماه) مسرحيته الشهيرة، والدكتور طه حسين والعقاد والمازني وشكري وهيكل ومطران ولطفي السيد وغيرهم .

ومن أهم العوامل المؤثرة في شخصية نجيب الكيلاني انتماؤه الفكري والتزامه الديني، ذلك أنه حينما غادر قريته شرشابة إلى طنطا لإتمام تعليمه الثانوي تأثر بفكر جماعة الإخوان المسلمين حيث انتمى إليها رسميا سنة 1947م لأنها كانت أقرب إلى فكره وروحه وأصدق عملا وجهادا، وأنظف مسلكا ونوايا ([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب: الإسلامية والمذاهب الأدبية ، ص95 .

2/ ينظر : ديوالي حاجي ، جاسم علي ، الخطاب النقدي عند نجيب الكيلاني ، ص ص 46 .

والتزم بمبادئ هذه الجماعة وأسسها السياسية والدينية والفكرية، وكان عمره آنذاك سبع عشرة سنة – كما سبق ذكره – فاخذ يطلع على مجلات الجماعة ومنشوراتها كمجلة الإخوان المسلمين، وجريدة الإخوان المسلمين ، مجلة الغدير، مجلة المنار، مجلة الشعاع، مجلة التعارف، مجلة الشهاب، مجلة الدعوة، مجلة الشبان المسلمين ومجلة الفتح، فتشبع بأفكار الجماعة وتزود بثقافة إسلامية هامة في مجالات متنوعة وقضايا مختلفة.

وفي ذلك يقول : "وفي فترة الأربعينيات، ساعدتني الأقدار على التعرف بأحد الإخوة الأفاضل ، فأخذ بيدي إلى مجلة الإخوان المسلمين، وجريدتهم ومطبوعاتهم، فقرأ فيها لعلي أحمد باكثير وصالح عشماوي ومحمد الغزالي، ومحمد عبد الله السّمان، وبالطبع لمرشد الإخوان الإمام الشهيد المرحوم حسن البنا، وكان لأدب الإخوان طابع خاص، كما كانت لهم تجارب نقدية حول ما يقدم من أدب معاصر.. وقدمت بعض المسرحيات الإسلامية سواء في مجتمعات الإخوان أو الشبان المسلمين ، شعرا أو نثرا "([1]).

ومن المعروف أن جماعة الإخوان المسلمين التي تأسست في الإسماعيلية بمصر سنة 1928م على يد مؤسسها حسن البنا (1906م 1949). وقد وجدت رواجا، وسرعان ما انتشرت في مصر والعالم الإسلامي وأصبحت أمل كثير من المهتمين بالشأن الإسلامي، كما تميزت هذه الجماعة بطروحاتها من بين الجماعات الاسلامية الأخرى، حيث كانت تقدم نفسها على أنها فكرة وعقيدة، نظام ومنهاج، لا يحدده موضع ولا يقيده جنس، ولا يقف دونه حاجز جغرافي، لأن مرجعيته هو الإسلام بعالميته وشموليته، وتؤمن بأن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنتظم شؤون الناس في الدنيا والآخرة، بذلك وجد نجيب الكيلاني ضالته في هذه الجماعة التي كانت بالنسبة إليه مدرسة لم تهتم فقط بالدعوة السياسية والفكرة وإنما أيضا اهتمت بالأدب والنقد والصحافة والإعلام، وفي ذلك نجد نجيب الكيلاني يقول :" لا شك أن ظهور الحركة الإسلامية ممثلة في جماعة الإخوان المسلمين، وهي الجماعة الوحيدة التي استطاعت أن تجمع في كتبها ومجلاتها أكبر عدد من

1/ الكيلاني ، نجيب: رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص ص 11 ـ 12 .

الكتاب والأدباء المسلمين سواء في مجال الشعر أو في مجال القصة والمسرح، لأن الصحافة العادية لا تفسح أمام هذه الأدبيات الفرصة لأسباب سياسية معروفة.. ونحن تعلمنا وتتلمذنا في هذه المدرسة الإسلامية.. حيث قرأنا الكثير من الأعمال الأدبية ذات التنوع في المواضيع والمضامين.. وكذلك فقد تربى في هذه المدرسة كثير من الصحفيين المسلمين مثل: رجاء مكاوي، وحسن دوح وفهمي هويدي، وصالح عشماوي، وعبد الحكيم عابدين والأستاذ الشهيد سيد قطب، وبذلك كانت الحركة الإسلامية مدرسة لفنون الأدب المختلفة كالقصيدة والمقالة والتحقيق الصحفي والقصة القصيرة والخبر"([1]).

وفعلا قد كان لذلك الأثر الكبير فيما بعد فيما أنتجه نجيب الكيلاني من روايات خاصة ما تعلق بفكر الإخوان المسلمين ووصف معاناتهم في السجون والمعتقلات من ذلك رواية (رجال وذئاب)و(الكأس الفارغة) و(رحلة إلى الله) . ولعل الأخيرة وهي (رحلة إلى الله) تصور محنة الإخوان المسلمين في سجون عبد الناصر، كانت الأبدع والأكثر تأثيرا ، مما حدا بأحد النقاد، وهو عبد العزيز الدسوقي بالقول بأن نجيب الكيلاني خدم الإخوان المسلمين بهذه الرواية أكثر مما يخدمها هؤلاء الذين يكتبون الدراسات المتشنجة التي تثير الضجيج حول الأحداث دون جدوى ([2]).

وكان نجيب الكيلاني يرتاد كثيرا من المنتديات الأدبية التي كان يتردد عليه كثير من النقاد والشعراء والقصاصين... ولعل أشهر تلك المنتديات ،ندوة الروائي الشهير نجيب محفوظ ، وكان يحضر هذه الندوة أساتذة كبار من أمثال علي أحمد باكثير وعبد الحميد جودة السحار وعباس خضر وأحمد عباس صالح وعبد الله الطوفي، وصالح مرسي، وفاروق منيب، سناء جميل(الممثلة)، وصوفي عبد الله، ونظمي لوقا، وتوفيق حنا...

1/ الكيلاني ، نجيب : رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص12 .

2/ ينظر: ديوالي حاجي ، جاسم علي : الخطاب النقدي عند نجيب الكيلاني ، ص47 .

كما يحضر هذه الندوة كثير من الزوار الأجانب وعدد من الكتاب العرب اللاجئين إلى مصر([1]).

وكانت تلك الندوة تقام أسبوعيا، وقد أصبح نجيب الكيلاني - فيما بعد- سكرتير نجيب محفوظ يستقبل الكتب التي ترد إلى الندوة ويقرأها لنجيب محفوظ ثم يطرحها في الندوة للمناقشة والإجابة عن التساؤلات حول تلك الكتب.

وبذلك اتسعت آفاق نجيب الكيلاني بمخالطة الكثير من الأدباء الذين يرتادون تلك الندوة، حيث يقول نجيب الكيلاني في ذلك :" وإني أقول بأمانة تامة، بأني استفدت كثيرا من ندوة نجيب محفوظ وخاصة أنني في فترة ما قبل اعتقالي كنت بعيدا عن الأجواء الأدبية، وكانت كل علاقاتي بالأدب هي الكتب التي اقرأها.. والحكمة ضالة المؤمن يستفيد منها أنى وجدها، ولقد أعجبني في نجيب محفوظ الحزم الذي أخذ به نفسه والانضباط الذي فرضه على حياته واطلاعه الواسع وخاصة فيما يتعلق بفن القصة وباللغة العربية ونحوها وصرفها... كما كان يحتفي بالأسلوب ويحرص على الفصحى حتى في الحوار، وكان نجاحه ردا مفحما (لدعاة الكتابة بالعامية) "([2]) .

وكان كثير التردد على المكتبات لاسيما مكتبات القاهرة ، كذلك فقد انتسب إلى اتحاد الكتاب ونادي القصة الذي كان يرأسه الدكتور طه حسين رئاسة شرفية ، وكان الأستاذ يوسف سباعي السكرتير العام للاتحاد ونادي القصة – وقد شاءت الصدف أن يكون انتسابه إلى هذه المؤسسة بمناسبة فوزه في مسابقة القصة القصيرة التي أقامها الاتحاد عام 1959م، فقد حصل على الجائزة الأولى بقصته القصيرة (شجاع).

كما تحصل على الميدالية الذهبية التي أهداها إياه الدكتور طه حسين ومنذ ذلك الحين توطدت علاقاته بالأدباء والشعراء والنقاد الذين يرتادون الاتحاد من أمثال القاص الشهير عبد الحليم عبد الله ويوسف إدريس ويوسف السباعي وتوفيق الحكيم ومن

1/ ينظر : ديوالي حاجي ، جاسم علي : الخطاب النقدي عند نجيب الكيلاني ، ص 48 .
2/ ينظر : المرجع نفسه، ص 49 .

الشعراء صلاح عبد الصبور وفوزي الفتيل وأحمد زكي وأحمد رامي وكامل أمين وعبد المعطي حجازي ومن النقاد آنذاك محمد مندور ويحي حقي وغيرهم كثير...وبهذا يكون نجيب الكيلاني قد استطاع أن يكوّن علاقات أدبية وصداقات مع هؤلاء المبدعين والفنانين الذين وفروا له حصيلة كافية من المعرفة والثقافة كانت القاعدة الأساسية والخلفية الصلبة للانطلاق في عالم الإبداع الأدبي والنقدي.

يضاف إلى ما سبق ما تحصل عليه الكيلاني من رصيد معرفي علمي أكاديمي وعلى وجه الخصوص ما تعلق بميدان عمله كطبيب لمدة تجاوزت ثلاثين سنة كان فيها كثير السفر إلى المؤتمرات العلمية الأكاديمية في مجال الطب والصحة عموما وقد أمده ذلك بزاد لا باس به من الثقافة الطبية والمعرفة الصحية التي كثيرا ما وجدنا آثارها في إنتاجاته الأدبية الروائية منها والطبية على وجه خاص، فكثيرا ما نعثر على مصطلحات طبية في ثنايا أعماله الأدبية من مثل (حكايات طبيب) و (رجال وذئاب) و(عمر يظهر في القدس) وكذلك ما نجده في إنتاجه النقدي كما في (مدخل إلى الأدب الإسلامي وتجربتي الذاتية في القصة الإسلامية).

وكذلك ما نجده في إنتاجه في مجال الطب والوقاية الصحية عموما حيث تجاوزت مؤلفاته في هذا السلك الأربعة عشر مؤلفا، منها على وجه الخصوص: (التحصين وقاية لطفلك ـ الدفتيريا عدو الأطفال ـ الدواء سلاح ذو حدين ـ الغذاء والصحة، الخ...).

كان للرحلات دور فعال في تنمية قدرات هذا الأديب وتوسيع أفقه المعرفي حيث أمدته بمعارف كثيرة فقد زار فلسطين عام 1954م ، حيث زار القدس والضفة الغربية وكثيرا من الأراضي الفلسطينية الأخرى، كما عاود زيارته إلى فلسطين سنة 1965م في وفد من الفنانين والأدباء. وكان هدف الزيارة هو الاطلاع على أوضاع اللاجئين الفلسطينيين وحالتهم وقد تبين لذلك الوفد ما يعانيه الفلسطينيون في المخيمات من غبن وقهر ومرض وضعف وجوع وحزن وألم وحيرة ومدى مكابدة مصاعب الحياة من أجل لقمة العيش، وكان لتلك المشاهد المؤلمة كبير الأثر في دفع الكيلاني إلى كتابة العديد من

القصص والروايات والأشعار في وصف تلك المعاناة ودعوة العرب إلى مؤازرة إخوانهم الفلسطينيين ومساعدتهم في محنتهم ، من ذلك رواية (عمر يظهر في القدس)، ورواية (أرض الأنبياء)، ورواية (دم لفطير صهيون)، ورواية(الطريق الطويل) و(رمضان حبيبي) والعديد من القصائد والمجموعات الشعرية.

وفي ختام الحديث عن مصادر ثقافة الكيلاني يجب أن أعرج على المرجعيات النقدية التي اعتمد عليها الكيلاني في بناء نظريته النقدية ، والأسس التي ارتكزت عليها نظراته في الأدب الإسلامي أو إسلامية الأدب ، ولعل أول ما يلفت الانتباه في هذا الشأن هو التأثر البالغ الذي وقع على نجيب الكيلاني حين قراءته لديوان (ضرب الكليم للشاعر الباكستاني محمد إقبال)،ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار محمد إقبال أول المنظرين الإسلاميين الذين تأثر بهم الكيلاني، علما بان محمد إقبال هو شاعر وفيلسوف من أشهر الفلاسفة المسلمين المعاصرين.

فقد قرأ للفلاسفة القدامى، ثم توسعت مطالعته لتشمل الفلاسفة المحدثين من أمثال (نتشبه) و(هيجل) و(شوبنهاور) و(برغسون).وقارن بين هؤلاء جميعا والفلاسفة المسلمين من أمثال: (ابن سينا) و(ابن رشد) و(ابن عربي) و(الشيرازي) وغيرهم. وقد أبدع فلسفة أو نظرية فلسفية أسماها فلسفة(الذات) أو(خودي) وأساسها الفرد الذي يتميز بشخصية قابلة للتطور والارتقاء، ولعل هذه الفلسفة ترتكز على الآية القرآنية الكريمة (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

كان لإقبال نظرات فلسفية في الدين والفن والحرية والشعر والكثير من القضايا التي كانت محل نقاش آنذاك ومن الملفت للنظر أن أول معرفة للكيلاني بالشاعر والفيلسوف محمد إقبال كان عبر قراءته لديوانه (ضرب الكليم) ، وكان ذلك أثناء سجن الكيلاني وقد أحدثت تلك القراءة انقلابا في حياة الكيلاني الفكرية وفي ذلك يقول : " وجدت لدى الشاعر الفيلسوف العلامة (محمد إقبال) ضالتي المنشودة، لقد استولت كلمات إقبال عقلي ووجداني، إن الكثير من أشعاره تبدو وكأنني كنت أريد أن أقولها .. استطعت من

خلال ما كتبه إقبال أن ألتقط الكثير من الخيوط حول ما نسميه اليوم بـ (الأدب الإسلامي)" ([1]) .

وهكذا فقد أعجب الكيلاني بأشعار محمد إقبال وما حوله عن فلسفة الذات وما ضمته أيضا من إشارات إلى الأدب الإسلامي ، وبذلك يكون إقبال المُنَظِّرَ الأول للأدب الإسلامي حيث كان له الأثر البالغ على شخصية نجيب الكيلاني وتوجهه نحو الأدب الإسلامي تنظيرا وإبداعا. وقد بلغ من إعجاب الكيلاني بإقبال أن أفرد له مؤلفا خاصا أسماه (إقبال الشاعر الثائر) الذي أصدره سنة 1959م .

وهناك شخصية ثانية بارزة في حياة الكيلاني الفكرية وهو محمد قطب، وبحكم انتماء نجيب الكيلاني إلى جماعة الإخوان المسلمين فقد كانت بينه وبين محمد قطب علاقة صداقة وتعاون حيث يقول الكيلاني :" ولقد كانت تربطني بالأستاذ محمد قطب في تلك الفترة (1959 – 1965) صلة قوية وثيقة، فقد كان محل ثقتي واحترامي وتقديري ، ولم أكن أخفي عنه خصوصياتي "([2]).

وقد تأثر الكيلاني بالكتاب القيم الذي أصدره الأستاذ محمد قطب تحت عنوان (منهج الفن الإسلامي) وقد قرأ الكتاب بحماس فياض وكان من المشاركين في توزيع نسخ منه إلى بعض النقاد والأدباء آنذاك ، وفي ذلك يصرح نجيب الكيلاني " وقد كنت حريصا أن أحمل عددا من نسخه – كتاب منهج الفن الإسلامي – إلى بعض النقاد الذين أعرفهم ومنهم الدكتور عبد القادر القط (الحائز على جائزة الملك فيصل) والمرحوم الناقد أنور المعداوي وغيرهما"([3]).

وعلى الرغم من شدة إعجابه بهذا الكتاب وتقدير لصاحبه الأستاذ محمد قطب إلا أنه كان مثال الناقد الموضوعي، إذ أنه لم يخف ملاحظاته وانتقاداته لما ورد فيه، وقد ضمن تلك الانتقادات في كتابه (الإسلامية والمذاهب الأدبية) وقد تمثلت تلك الملاحظات في

1/ الكيلاني ، نجيب : رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص ص 35 - 37 .
2/ ديوالي حاجي ، جاسم علي : الخطاب النقدي عند نجيب الكيلاني ، ص 67 .
3/ الكيلاني ، نجيب : رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص 34.

قوله :" ... وقد لاحظت في كتاب (منهج الفن الإسلامي) أن المؤلف لم يقم بعملية (مسح أدبي) يحصر فيها ما يسمى بالأدب الإسلامي في القديم أو الحديث، سواء في عالم القصة أو المسرحية أو الشعر، ومن جهة أخرى عندما أراد أن يقدم بعض النماذج للاستشهاد بها لم يجد سوى قليلا من الأدب العربي والإسلامي، ومن ثم استشهد ببعض إنتاج لطاغور، والكاتب المسرحي الإيرلندي (وهما ليسا من المسلمين) .. وكان في الإمكان أن يجد في أدبنا الحديث ما يعوضه عن ذلك، أضف إلى ذلك أنه لم يشر بكلمة إلى رجال لهم مكانتهم الأدبية والفكرية في أدبنا، أذكر منهم على سبيل المثال الرافعي وبعض إنتاجه، وشوقي وحافظ وشعرهما الإسلامي، والأستاذ باكثير ورواياته وبعض مسرحياته، والشاعر أحمد محرم وما أسماه بالملحمة الإسلامية، وتوفيق الحكيم وبعض قصصه القصيرة وبعض مسرحياته، ولا شك أن كتابا كبير الحجم ككتاب(منهج الفن الإسلامي) ما كان يجب أن يغفل هذا، فضلا عن أن الأستاذ محمد قطب لم يحاول أن يبسط أمامنا المذاهب الأدبية الغربية ومفاهيمها حتى يقدم لنا دراسة مقارنة بين مفهوم الفن الإسلامي وبين هذه المذاهب، والمقارنة لها دور كبير في تحديد قيمة ما ندعو إليه من فن إسلامي . ونقطة أخرى هي أن الجانب الأكبر في الكتاب كان دينا أكثر منه فنا .. ومع ذلك فقد ملأ الكتاب فراغا هائلا في الدراسات الإسلامية وأدى خدمة جليلة للفن والدين على حد سواء" ([1]).

وقد استند الكيلاني إلى هذه الملاحظات التي أبداها على كتاب محمد قطب (منهج الفن الإسلامي) لتكون اللبنات الأساسية لكتابه(الإسلامية والمذاهب الأدبية) ،وكأن الكيلاني يريد أن يعلل تلك الملاحظات أو أن يكمل ذلك النقص الذي لاحظه على الكتاب حيث كانت محاور ذلك الكتاب كالتالي: الدين والفن ـ خصام بين الفن والدين ـ بين الحرية والالتزام ـ أدب الاستمتاع ـ الالتزام في الأدب العالمي ـ الإسلامية والأدب ـ مشكلة اللغة ـ مع الأدب الإسلامي القديم ـ مع الأدب الإسلامي الحديث ـ أهم المذاهب

1/ الكيلاني ، نجيب : الإسلامية والمذاهب الأدبية ، ص ص 6 ـ 7 .

الأدبية في الأدب العربي ـ الفصل الأخير: نماذج(وقد تنوعت هذه النماذج بين القصة القصيرة والشعر، وكانت أول قصة لنجيب محفوظ بعنوان (نصف الدين) و قصة (أنا الموت) لتوفيق الحكيم، وقصة (الشيخ صابر) بقلم نجيب الكيلاني وتمثيلية بعنوان(إمام عظيم) لعلي أحمد باكثير، وأخيرا قصيدة (مع الغرباء) للشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد، ثم قصيدة بعنوان (صيحة لاجئ) لنجيب الكيلاني، وفي أخر النماذج قدم نماذج الشاعر أحمد محرم وثلاثة قصائد لشاعر العوضي الوكيل كانت على التوالي (شوق) و(شمس الحقيقة) و(عابد الشمس) وختم النماذج بقصيدة لشاعر إبراهيم محمد نجا بعنوان (مزيدا من النور).وقد برر أسباب اختياره لهذه النماذج وفي ذلك يقول مثلا في اختيار قصة (نصف الدين) لنجيب محفوظ ما يلي :" واختيارنا لقصة (نصف الدين) يعتمد أساسا على وجهة النظر التي ننادي بها في الأدب الإسلامي، فبطل القصة شاب انتهازي كل همه الصعود وتحقيق أطماعه من أي طريق وليكن طريق الزواج من أية فتاة لأبيها أو أخيها أو قريبها خطوة ما..."([1]).

أما الشخصية الثالثة التي أثرت في نجيب الكيلاني هي شخصية المفكر الإسلامي (سيد قطب) - وهو شقيق الأستاذ (محمد قطب) الذي تحدثنا عنه سالفا – وقد اطلع الكيلاني على ما ألفه سيد قطب وما نشره من مقالات في المجلات والصحف، وقد كان أول لقاء مباشر لنجيب الكيلاني مع سيد قطب، وكان ذلك اللقاء بحضور زوجة الكيلاني وكذلك الأستاذ محمد قطب شقيق سيد قطب، ويقول الكيلاني عن هذا اللقاء : " وفي هذا اللقاء دار حديث حول أدب الدعوة الإسلامية وضرورة الاهتمام به ومن المعروف أن سيد قطب كان من أكبر نقاد وأدباء عصره، كما أن مقاله السياسي كان في القمة وأذكر أنني قلت له: " لقد قرأت كتابك (أصول النقد الأدبي)، وكم كانت دهشتي عندما فهمت أنك تميل إلى مذهب (الفن للفن) فكيف يتفق ذلك وأنت داعية إسلامي كبير..؟ فابتسم – رحمه الله- وقال: " إن الطبعة الجديدة لهذا الكتاب قد

1/ الكيلاني ، نجيب : الإسلامية والمذاهب الأدبية ، ص 118.

تم تعديلها وسوف أخبر شقيقي محمد بأن يسلمك نسخة منها ... وأخذ يوضح لي وجهة نظره القديمة (في الطبعة الأولى) وكيف تغيرت، وأهمية قيام أدب إسلامي على أسس راسخة وضرورة تقديم نماذج قادرة – فنا ومضمونا – على ملء الفراغ، واكتساب احترام النقاد " ([1]) .

ولا يخفى على القارئ أن نجيب الكيلاني من خلال هذا اللقاء يبدي استياءه من مذهب الفن للفن وقد اندهش من ميل سيد قطب إلى هذا المذهب، مما جعل هذا الأخير يشرح وجهة نظره ويعد نجيب الكيلاني بمراجعة هذا الموقف في الطبعة الجديدة للكتاب ويكلف شقيقه بتسليمه نسخة منه، وذلك ما حصل بالفعل حيث صدر الكتاب في طبعته الجديدة وضمنه سيد قطب تغيرات وتنقيحات بحسب ما أحب نجيب الكيلاني وفي ذلك يقول :" وعندما صدرت الطبعة الأخيرة من كتاب الأستاذ سيد قطب عن النقد الأدبي، وجدت فيها بعض إضافات أهمها محاولة لتعريف الأدب الإسلامي أو الفن الإسلامي، وكان أبرز ما قاله هو ما أسماه بـ (التصور الإسلامي) للكون والإنسان والطبيعة، و أن الأديب المسلم هو الذي يعبر عن كل هذا تعبيرا فنيا(من خلال تصور إسلامي)" ([2]).

وقد تأثر نجيب الكيلاني بفلسفة سيد قطب وبنظراته في الأدب الإسلامي عموما والقصة الإسلامية على وجه الخصوص وبالتحديد القصة القرآنية التي تحدث عنها سيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن) وقد سار الكيلاني على نهجه يقتفي آثاره مع كثير من الإبداع الشخصي " فالكيلاني في مؤلفه (حول القصة الإسلامية) يشير بكثرة إلى القصة القرآنية وتميزها وتفردها عن القصص الأخرى وقمة طابعها الفني، وضرورة الاحتذاء بها، فالقصة القرآنية شغلت حيزا كبيرا في صفحات القرآن واعتمدت وسيلة من وسائل الدعوة، وهي تفتح الآفاق أمام العقل البشري، وتأخذ قضايا ونماذج تتسم

1/ الكيلاني ، نجيب : رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص ص 33 ـ 34 .
2/ الكيلاني ، نجيب : الإسلامية والمذاهب الأدبية ، 06 .

بالشمول والعمومية، والقصة القرآنية المعجزة المتميزة فيها صفحات وسمات وفضائل وشمولية وإضاءات وتأثيرات وإقناع ونسق إلهي فريد" ([1]).

يضاف إلى كل ما سبق مشاركة نجيب الكيلاني في المؤتمرات العالمية وانتمائه إلى كثير من النوادي والجمعيات الأدبية، ولا يخفأن المشاركة في المؤتمرات تزود الأديب بالخبرات حيث يحضرها الأساتذة الأكاديميون والنقاد والمؤرخون والمفكرون والمبدعون، فقد شارك نجيب الكيلاني في عدة مؤتمرات منها على وجه الخصوص :

* مؤتمر كتاب آسيا وإفريقيا بالقاهرة سنة 1962م. * مؤتمر الأدب الإسلامي في المدينة المنورة الذي انعقد سنة 1981م .

* المؤتمر الأول للفن الإسلامي الذي انعقد بمدينة قسنطينة (الجزائر) سنة 1990م.

وقد كان لهذه المؤتمرات أو على الأقل لبعضها أثر في إنتاج بعض مؤلفات نجيب الكيلاني؛ فقد استوحى من مؤتمر الفن الإسلامي بقسنطينة كتابه (تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية) وكذلك كتابه (مدخل إلى الأدب الإسلامي) ([2]).ويقول الكيلاني في هذا :" سميت هذا الكتاب باسم مدخل إلى الأدب الإسلامي حيث أبرزت فيه الأسس الفكرية لهذا التوجه الإسلامي، وحاولت أن أتناول أهم القضايا والمشاكل التي كانت تطرح في الندوات العالمية التي عقدت بخصوص(الأدب الإسلامي) التي كانت تثار في أروقة بعض الجامعات وعلى صفحات بعض المجلات المتخصصة والصحف، وفي الندوات النقدية المختلفة "([3]).

وكان يشارك في تلك المؤتمرات بصورة فعالة إذ كثيرا ما كان يثبت توصيات تلك المؤتمرات في مؤلفاته حيث كان مهتما بما يقدم فيها من بحوث ودراسات حول الأدب الإسلامي. كما كان لا يفوته إبداء ملاحظاته حول محتوى تلك الأعمال التي كانت تقدم، فها هو يتحدث عن مشاركته في المؤتمر الإسلامي الذي عقد بالمدينة المنورة فيقول :"

1/ ديوالي حاجي ، جاسم علي : الخطاب النقدي عند نجيب الكيلاني، ص 77.

2/ المرجع نفسه ، ص 79.

3/ الكيلاني، نجيب: رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص ص 78 ـ 79 .

أغلب البحوث كان منصبا على المضمون والقليل منها حول الشكل الفني، وقد حذرت في هذه الندوة من غلبة المضمون الظاهر، والأداء المباشر على الشكل الفني، وذلك قد يطمس المعالم المحددة لكل لون من الألوان الأدبية.. لأن الشكل الفني هو الذي يحدد في النهاية قدرة الكاتب على التمكن من فنه، ولأن المضمون يكاد يكون متفقا عليه، ثم إن الشكل والمضمون كل لا يتجزأ " ([1]).

ونخلص إلى القول في هذا المجال إنه تضافرت عدة عوامل في تشكيل الخلفية الثقافية لنجيب الكيلاني كما أن تأثره في الجانب النقدي لاسيما الشق التنظيري منه بكثير من شخصيات الأدب في هذا المجال من أمثال محمد قطب وسيد قطب وعز الدين إسماعيل من خلال كتابه (الأدب وفنونه) والناقد محمد مندور من خلال كتابيه (الأدب ومذاهبه) و(النقد الأدبي ومذاهبه) وكذلك الناقد عماد الدين خليل في كتابه (في النقد الإسلامي المعاصر) يضاف إلى ذلك حضوره العديد من المنتديات الأدبية المتخصصة في الأدب الإسلامي ونقده...

1/ الكيلاني، نجيب: رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص 82 .

الفصل الثاني
إنتاجه الأدبي والفكري

الفصل الثاني
إنتاجه الأدبي والفكري

أولا ـ مراحل التجربة الروائية عند الكيلاني

ثانيا ـ روايات نجيب الكيلاني (أنواعها وموضوعاتها)

ثالثا ـ آثاره

رابعا ـ غزارة إنتاج نجيب الكيلاني

خامسا ـ الميداليات والجوائز التي تحصل عليها

أولا ـ مراحل التجربة الروائية عند الكيلاني

بدأت رحلة نجيب الكيلاني مع الفن الروائي ككل قارئ تتعدى نظرة الإعجاب والشغف بقراءة الروايات فقد " بدأت موهبة نجيب الكيلاني الروائية منذ ذلك اليوم الذي كتب فيه رواية (الطريق الطويل) وعلى الرغم من أنها أول أعماله فإنها قد حازت على جائزة وزارة التربية والتعليم عام 1376هـ / 1957م.

وقد بقي عطاؤه الروائي متميزا على عطاءاته الأدبية الأخرى من ناحية الكم والكيف معا، حيث بدأ في كتابة الرواية في فترة مبكرة من عمره وظل وفيا لها حتى آخر عمره، وكانت رواية (مملكة البلعوطي) آخر نتاجه الروائي " ([1]).

مرت تجربة نجيب الكيلاني الروائية بمراحل ثلاثة أوردها الكيلاني نفسه في كتابه (رحلتي مع الأدب الإسلامي).

ففي المرحلة الأولى التي سماها أحد النقاد بـ (خطوات على الطريق) حيث "يسترجع نجيب الكيلاني طفولته الأولى والمؤثرات التي ساعدت على توجهه نحو الإبداع الأدبي " ([2]).

ومن بين تلك المؤثرات قصص القرآن حيث يقول عن تأثيره:" لعل القصة القرآنية كانت من أوائل القصص التي طربت لها في طفولتي وكانت جدتي تحكيها لي في الأمسيات الجميلة فوق سطح منزلنا الريفي وهي جالسة على سجاد الصلاة "([3]).

1/ العريني، عبد الله بن صالح :" نجيب الكيلاني في رحلته الروائية" ،مجلة الأدب الإسلامي، العدد التاسع والعاشر، ص 27.

2/ الغزاوي ، سعيد : "من الفرادية والتصادم إلى التحاور والتساكن استقراء لتطور الشخصيات في روايات نجيب الكيلاني الإسلامية" ، مجلة المشكاة ، العدد23، السنة السادسة ، 1416هـ/1996م ، ص52 .

3/ الكيلاني، نجيب : تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ، ص 10.

ثم قصص الربابة والسيرة الشعبية " أما أبي رحمه الله فقد كان يروي لي قصص السيرة الشعبية شعرا منغما " ([1]).ومن المؤثرات القصصية أيضا قصص الجن حيث يقول عنها : " ولقد تكفلت برواية هذا النوع من القصص لي إحدى عماتي، كانت ترعبني قصصها فأندس بين ذراعيها وأتشبث بها. وأذكر أنها كانت تروي لي قصصا عن اليهود الذين يخطفون الأطفال ويذبحونهم ويمتصون دماءهم، وعندما كبرت وعرفت كثيرا من الحقائق عن اليهود وذبائحهم كتبت روايتي المعروفة (دم لفطير صهيون"([2]).

ويضاف إلى ذلك قصص الواقع المعيشي التي كانت ترويها له أمه وكذلك قصص الوعاظ والزهاد والصالحين والأبطال، ويذكر الناقد سعيد الغزاوي في دراسته أن :" أوان جني ثمار هذه المرويات تأخر نسبيا، ولم يظهر إلا في مرحلة ثانية، أما في هذه المرحلة الأولى من حياة نجيب الكيلاني الأدبية، فقد بدأت مواهب الشعر منذ المرحلة الابتدائية وإلى العام الرابع من دراسته العليا في كلية الطب، وكانت نتيجته مجموعة شعرية أولى" ([3]).

فقد بدأ الكيلاني حياته الأدبية شاعرا، حيث كانت باكورة إنتاجه ديوانه الأول (نحو العلا)، وساعده على ذلك دراسته المعمقة لدواوين كثير من الشعراء من أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وعلي الجارم وغيرهم، لذلك غلب على إنتاج نجيب الكيلاني في هذه المرحلة الشعر حتى أنه لم يكن يعرف الكثير عن القصة حتى عام 1950م الذي هو نهاية هذه المرحلة، ولم تكن له فلسفة محددة ، بل لم يكن مطلعا على المذاهب الأدبية والنقدية اطلاعا مفصلا ، وقد غلب عليه الانتماء إلى التيار الإسلامي..([4]).

1/ الكيلاني، نجيب : تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ، ص 11.

2/ المصدر نفسه ، ص 12

3/ الغزاوي ، سعيد : "من الفرادية والتصادم إلى التحاور والتساكن استقراء لتطور الشخصيات في روايات نجيب الكيلاني الإسلامية "، ص 53.

4/ ينظر : الكيلاني ، نجيب : رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص ص 9 ـ 19 .

أما المرحلة الثانية من مراحل السيرة الفنية الروائية لنجيب الكيلاني والتي أسماها الناقد (من الشعر إلى القصة عبر الخطابة) فقد ذكر فيها " أن نجيب الكيلاني لم يسجن نفسه في شكل أدبي واحد بل ترك موهبته تختار الشكل الأدبي الملائم مع تجاربه الذاتية وحاجات المجتمع المصري، وكان مقتنعا بأن الأدب الذي يفرزه الفنان لا يمكن فصله عن حياته وهمومه وأفكاره وعقيدته، هذا من جهة ومن جهة ثانية، فإن مشاركة نجيب الكيلاني في الحياة السياسية قد أثرت على اختيار الشكل الأدبي فتحول من الشعر إلى الخطابة والمقالة منذ انتمائه إلى حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس باشا، ثم انضمامه إلى صفوف حركة الإخوان المسلمين حوالي سنة 1947م " ([1]).

وفي هذا كله يقول الكيلاني :" رأيت أن القصة أنسب لأن أعبر بوضوح و قوة بعيدا عن الغموض والتهويمات والأحاجي والألغاز، ولهذا غلب على قصصي فيما بعد الطابع السياسي، امتلأت قصصي الطويلة والقصيرة بأحداث السجون والمعتقلات وما فيها من إهدار للإنسانية والكرامة والحرية حتى أطلق عليَّ النقاد المرموقون بأنني (أديب السجون والمعتقلات) "([2]).

وقد بدأت هذه المرحلة منذ عام 1951م وهي الفترة التي شهدت تقلبات سياسية هامة في مصر كتشكيل الوزارات والثورة على الإنجليز سنة 1952م. وقد سجن نجيب الكيلاني في هذه الفترة في سجن أسيوط حيث حكم عليه بعشر سنوات حيث قرأ فيها كتاب محمد مندور (النقد الأدبي ومذاهبه) وقد استفاد منه في مساره الإبداعي والتنظيري. ([3]) .

1/ الغزاوي ، سعيد : "من الفرادية والتصادم إلى التحاور والتساكن استقراء لتطور الشخصيات في روايات نجيب الكيلاني الإسلامية "، ص 54.

2/ الكيلاني ، نجيب : رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص 22 .

3/ ينظر : المصدر نفسه ، ص ص 22 ـ 30.

ومن أهم كتاباته القصصية في هذه الفترة التي تعتبر المرحلة الثانية للكيلاني مع الأدب الإسلامي، قصته (الطريق الطويل) التي كتبها في سجن أسيوط سنة 1956م، إلى جانب قصص أخرى ذات طابع اجتماعي منها قصص (الربيع العاصف) و(الذين يحترقون) و(حكايات طبيب). وقد استمر عطاؤه على هذا النحو فحصل على جوائز عدة وهو في السجن، ويذكر نجيب الكيلاني أنه نما وتدرج ببطء مع التجارب وساعده على النماء أكثر تناول عدد من النقاد لإبداعاته، حتى استوعب الشكل الفني الذي يرتضيه لنفسه والمضامين المرتبطة بمعتقداته، وعاش أهم سنوات عمره مع الأدب الإسلامي في هذه المرحلة ([1]).

أما المرحلة الثالثة من رحلة نجيب الكيلاني مع الفن الروائي فقد أسماها الناقد سعيد الغزاوي (مرحلة القصة من رؤية إسلامية)، وفي ذلك يقول الدكتور عبد الله بن صالح العريني : " فقد فطن إلى أهمية كتابة الرواية الإسلامية، فقد لفت انتباهه حرص الشيوعيين على نشر الأدب الشيوعي وترويجه وتشجيع قرائه، وأن قصة (الأم) لمكسيم جوركي على سبيل المثال هي أفضل في الدعوة إلى الفكر الشيوعي من كتابات: ماركس وأنجلز ولنين وتروتسكي وغيرهم من الشيوعيين.

وقد أحدث ذلك الموقف هزة نفسية عنيفة للدكتور نجيب الكيلاني فراح يسائل نفسه: لم لا يستفاد من هذه الأداة في نقل مضمون خير بناء؟ لم لا توصف (الرواية) هذه الأداة المؤثرة في الدعوة إلى الخير والحث عليه والترغيب به، والنهي عن الفحشاء والمنكر وبيان ضررهما على الفرد والمجتمع؟ لم يصبح فن الرواية حميّ مستباحا للدعوات من كل جنس وتحرم منه أكرم دعوة، وأشرف رسالة " ([2]).

1/ ينظر : الكيلاني ، نجيب : رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص 30 .

2/ العريني، عبد الله بن صالح ،نجيب الكيلاني في رحلته الروائية ،ص 27.

وبهذا كانت تلك المرحلة مرحلة التطبيق لنظرية (الأدب الإسلامي) حيث كان من الضروري أن يكون هناك أدب منبثق من الإسلام ويخدم دعوته، وقد وجد الكيلاني الخطوات العريضة للأدب الإسلامي في ما أنتجه الشاعر (محمد إقبال) وبالخصوص في ديوانه (ضرب الكليم)، وانطلاقا من هذه القناعة وهذا الوعي بالوظيفة الدعوية للأدب الإسلامي عموما والقصة خصوصا فقد " ارتاد نجيب الكيلاني آفاق الأدب الإسلامي مبشرا بمصطلح الإسلامية والأدب الإسلامي وممارسا للدعوة من خلال الأدب وكتب الروايات الإسلامية عن وعي وإدراك بريادته لهذا الفن " ([1]).

وقد كتب عددا كبيرا من الروايات في هذه المرحلة خاصة بعد سفره إلى الخليج عام 1968م. من أهمها:(عذراء جاكرتا)و(ليالي تركستان)،(عمالقة الشمال)،(دم لفطير صهيون)،(طلائع الفجر)،(أرض الأنبياء)،(النداء الخالد)،(قاتل حمزة)،(على أبواب خيبر)،(اعترافات عبد المتجلي)،(امرأة عبد المتجلي) و(ملكة العنب). فضلا عن ديواني شعر هما:(كيف ألقاك)و(عصر الشهداء).وقد عالج في هذه الروايات مشكلات العالم الإسلامي المختلفة ففي (عذراك جاكرتا) على سبيل المثال، صور المعارك الضارية بين الشيوعيين والإسلاميين في إندونيسيا، وكانت بطلة القصة فتاة مسلمة، وفي (ليالي تركستان) عالج قضية الاحتلال الصيني والسوفياتي لهذا البلد الإسلامي. وفي(عمالقة الشمال) يكشف الروائي عن المؤامرة الصليبية ضد المسلمين في نيجيريا...

أما في رواية(عمر يظهر في القدس) فقد صور فيها الصراع في فلسطين بين العرب المسلمين والصهيونية العالمية.

1/ الغزاوي ، سعيد ، "من الفرادية والتصادم إلى التحاور والتساكن استقراء لتطور الشخصيات في روايات نجيب الكيلاني الإسلامية" ، ص 53 .

ثانيا ـ روايات نجيب الكيلاني (أنواعها وموضوعاتها):

مرّ إنتاج نجيب الكيلاني الروائي بمراحل أو مستويات يمكن أن نصنعها في ثلاثة إطارات حسب الموضوعات التي عالجها في رواياته وهذه الإطارات هي : الإطار الاجتماعي، والإطار التاريخي والإطار السياسي والاستشرافي.

أ) ـ الروايات الاجتماعية وموضوعاتها:

وهي تمثل بشكل كبير عالم الرواية الواقعية الرومانسية التي " عبر من خلالها عن هموم الناس والعلل الاجتماعية المتفشية بينهم، مثل الفقر والجهل والأمراض المتوطنة والسلبية والتخلف، ومزج ذلك بالعواطف المشبوبة والخيالات الحالمة والآمال المجنحة"([1]).

ومن رواياته التي تنضوي تحت هذا الإطار نذكر على سبيل المثال:(الربيع العاصف)،(الذين يحترقون) ،(في الظلام)،(عذراء القرية)،(حمامة السلام)،(طلائع الفجر)،(ابتسامة في قلب شيطان)،(حكاية جاد الله)، (أميرة الجبل) و(ليل الخطايا).

وقد عالجت هذه الروايات الواقع الاجتماعي في مصر بكل سلبياته وإيجابيات وذلك منذ مطلع ستينيات القرن الماضي، وركز الكيلاني في رواياته الاجتماعية على معالجة قضايا الريف المصري، حيث ظهر ذلك جليا في روايات:(حمامة سلام)،(الربيع العاصف)،(الذين يحترقون)و(أميرة الجبل)،إذ رصدت بعض هذه الروايات حركة التفاعل بين القرية والمدينة كما في روايتي(أميرة الجبل) و(الربيع العاصف) ، بينما دارت أحداث رواية (حمامة سلام) كليا في القرية دون أي تفاعل مع المدينة.

والجدير بالذكر أن رواية (أميرة الجبل) لم تدر أحداثها في ريف مصر وإنما كانت في عشيرة (الشموخ) بالقرب من منطقة (رأس الخيمة) في الخليج العربي، وتشبه بيئتها ببيئة

1/ القاعود، حلمي محمد : الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني ، (دراسة نقدية)،ط1،دار البشير، عمان ،1992 ، ص 13.

الريف المصري. وقد عكست هذه الروايات الأربعة تأثر نجيب الكيلاني ببيئة القرية ولا غرابة في ذلك فقد ولد وترعرع في قرية (شرشابة) وعايش ما كانت تعانيه من مشكلات وقضايا، كذلك فإن الكيلاني خلال مساره العملي بسلك الطب عين في العديد من القرى كطبيب، لذلك شكل العمل الطبي وواقع الأطباء والممرضين، ورجال الدين، والمحققين والسجانين ،رصيدا من الأحداث والشخصيات التي بنيت عليها رواياته، فشخصية الطبيب مثلا وردت ثلاثة وعشرين مرة في ثلاثة عشرة رواية، ووظف شخصية الممرضة والممرض تسع مرات في ست روايات ،بينما تكررت شخصية رجل الدين أو الصوفي سبعة عشر مرة في سبعة عشر رواية، ووظفت شخصية المحقق أربعة عشرة مرة ، في اثنتي عشرة رواية، أما السجان فشخصيته كانت حاضرة عشر مرات ،في سبع روايات.

يضاف إلى ذلك الروايات الاجتماعية التي عبرت عن قضايا الجيل الجديد والمرحلة الراهنة من حياة مصر والتي يمكن أن يطلق عليها اسم روايات(الواقعية الإسلامية) والتي " يعبر فيها عن القضايا الاجتماعية التي تهم جموع المستضعفين في الوطن ويبرز فيها ما يلقاه الناس من ظلم وقهر واضطهاد، ويتخذ من تفاصيل الحياة اليومية والاجتماعية عناصر أساسية للأحداث وموقفه من قضايا الحرية والعدل والأمن والرخاء والمستقبل"([1]).

وتندرج تحت هذا الإطار الروايات التالية:(اعترافات عبد المتجلي)، (امرأة عبد المتجلي)،(قضية أبو الفتوح الشرقاوي)و(ملكة العنب). وهي الروايات التي تعالج قضايا اجتماعية تدور أحداثها في الريف المصري وبعضها في المدينة، فمثلا رواية (اعترافات عبد المتجلي) تبدأ أحداثها وسط القاهرة. من خلال حادثة غريبة وفريدة ومثيرة للدهشة والاستغراب تتعلق بسرقة(ونش ضخم) كان يستخدم في مشروع إنشاء مترو الأنفاق في القاهرة.

1/ القاعود، حلمي محمد : الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني ، ص 14.

ب) ـ الروايات التاريخية وموضوعاتها:

إن المطلع على أعمال نجيب الكيلاني الروائية خاصة، يتبين له منذ الوهلة الأولى أن الكاتب كان اهتمامه منصبا على التاريخ منذ بداية مشواره، مما يدفع للتساؤل عن هذا الاهتمام؟ وهل يعد الرجوع إلى التاريخ هروبا من الواقع وتفاديا لمشكلات الحاضر؟ أم أنه حنين للماضي ورجاء لعودته في هذا الزمن الرديء زمن العيوب والمآثم والضعف والاغتراب الثقافي والنكسات السياسية؟ أم أن الكيلاني أصولي تقليدي لا يؤمن بالحداثة والتطور يتمسك بأهداب الماضي خوفا من مآسي الحاضر؟..

لعلنا نجد بعضا من الإجابات عن هذه التساؤلات في أعمال نجيب الكيلاني نفسها مثل كتاب (تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية)و(رحلتي مع الأدب الإسلامي) و(الإسلامية والمذاهب الأدبية) حيث نجده يوضح منذ البداية مقاصده ونواياه و أسباب عودته إلى التاريخ. مما جعل الناقد محمد حسن بريغش يقول عنه : " أما نجيب الكيلاني فقد لجأ إلى استدعاء التاريخ الإسلامي بصورته الناصعة ليعالج من خلاله قضية معاصرة، قضية إسلامية، تعد في ذروة القضايا التي تستحق من المسلمين الاهتمام وبذل الجهد والجهاد في سبيلها وهي قضية القدس والمسجد الأقصى، والحرم القدسي الشريف وفلسطين بشكل عام"([1]).

وعلى هذا الأساس اهتم نجيب الكيلاني بالرواية التاريخية في فترة مبكرة من إنتاجه الروائي حيث ألف أول رواية تاريخية (طلائع الفجر) ما بين سنتي (1955-1958) وهي فترة اعتقاله.

وقد اتكأت رواياته التاريخية على أحداث التاريخ العربي والإسلامي منذ فجر الدعوة الإسلامية حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي حيث استلهمت السيرة النبوية

1/ بريغش، محمد حسن: في القصة الإسلامية المعاصرة ،(دراسة وتطبيق)، ط1،دار البشير، عمان، 1993م، ص 53.

الشريفة والتاريخ الإسلامي عموما، كما استدعت التاريخ من خلال نماذج إنسانية مشرقة من حضارتنا العربية الإسلامية وعموما فإن " استلهام التاريخ في الرواية عند(نجيب الكيلاني) كان إبرازا لمعطيات الإسلام العظيمة، و إمكاناته الهائلة في تحويل الإنسان المسلم إلى صانع حضارة وباني مجد وجندي ظافر في معاركة ضد الشر المتوحش" ([1]).

من ذلك ما نجده في رواية (عمر يظهر في القدس) حيث لجأ نجيب الكيلاني إلى استدعاء شخصية الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ واستحضاره إلى القدس ليفتح أبصار المسلمين على هذه القضية وعلى سبل حلها بعدما لعبت بها السياسة لعبة القذارة؟ فأحيانا توضع في إطار وطني، وأحيانا في إطار قومي ، وأحيانا كثيرة في إطار إقليمي وعالمي، فرأى نجيب الكيلاني أن توضع هذه القضية، قضية فلسطين في إطارها الحقيقي، وهو الإطار الإسلامي ليكون الحل جذريا ؟. ومن أبرز الروايات التي تندرج تحت إطار الرواية التاريخية ، نذكر مثلا الروايات:(نور الله)،(قاتل حمزة)، (أرض الأنبياء)،(دم لفطير صهيون)،(مواكب الأحرار أو نابليون في الأزهر)، (اليوم الموعود) و(عمر يظهر في القدس).وقد عالج الكيلاني في هذه الروايات قضايا كثيرة من أهمها فكرة الجهاد من منظور إسلامي وقد ظهر ذلك بشكل بارز في روايات(اليوم الموعود)،(مواكب الأحرار)،و(طلائع الفجر) كذلك فقد طرح فكرة الحرية الإنسانية ومفهومها وفلسفتها الإسلامية من خلال رواية (قاتل حمزة) على وجه الخصوص. كذلك فقد أثار فكرة العداء الصهيوني للعالم العربي والإسلامي بل عداءها للإنسانية جمعاء وقد ظهر ذلك بشكل جلي في روايات(نور الله)،(دم لفطير صهيون) و(عمر يظهر في القدس).

ج) ـ الروايات السياسية والاستشرافية وموضوعاتها:

إن الأحداث السياسية التي مرت بها الأمة العربية الإسلامية فرضت نفسها على الرواية العربية الحديثة، ذلك أن الرواية هي الشكل الأكثر قدرة على استيعاب تلك

1/ القاعود، حلمي محمد : الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني ، ص 13.

الأحداث و إعادة صياغتها وللتعبير عن المشكلات السياسية بشكل واسع يضم ما تنعكس عن تلك المشكلات من قضايا اجتماعية وثقافية وفكرية واقتصادية، وقد عبرت الرواية السياسية عن جملة من القضايا كقضية الاستعمار والاستبداد والكفاح الوطني والدعوة إلى التحرر والاستقلال من ربقة الاستعمار وطغيان المستبدين وكبت الحريات.

وقد ألهمت تلك القضايا الروائيين العرب، فعبروا عنها بأشكال روائية مختلفة . ولم يخرج نجيب الكيلاني عن مسار غيره من الروائيين العرب، فقد كان للأحداث السياسية التي عصفت بمصر كبير الأثر في إثراء تجربة الكاتب، إذ انكب على الواقع السياسي الذي يعيشه بلده، واهتم اهتماما كبيرا بهذا الواقع وقد انبثق عن ذلك كتابة العديد من الروايات عالج فيها محاور ثلاثة هي: محور القضايا المصرية ومحور القضية الفلسطينية وأخيرا محور قضايا العالم الإسلامي أو ما يمكن تسميته بالرواية الاستشرافية.

فقد تناول في محور القضايا المصرية الواقع السياسي في مصر بجميع متناقضاته حيث ركز في هذا الجانب على حركة المقاومة الوطنية للشعب المصري في مواجهة الاستعمار الإنجليزي البغيض وكشف النقاب عن الخونة والمتعاونين معه من المصريين والعملاء المحليين ومن أبرز الروايات التي تعالج هذا الإطار روايات: (الطريق الطويل)([1])،(رأس الشيطان)،(النداء الخالد)،والتي عالج فيها حركة المقاومة الوطنية للشعب المصري ضدا لاحتلال الإنجليزي والتصدي للعملاء والخونة، وفي(الظلام) جسدت المقاومة السرية ضد الملك فاروق في الفترة الممتدة ما بين سنتي (1947 – 1952) وكشفت خيانة الملك فاروق من خلال تزويد الجيش المصري بأسلحة فاسدة كما وصفت حياة المعتقلين في السجون. أما في رواية (رأس الشيطان) فقد تحدثت عن عهد وزارة صدقي باشا وفترة إلغاء الدستور سنة (1930م – 1335م). كما جسدت رواية (النداء الخالد) ثورة مصر سنة 1919م في مواجهة الإنجليز والسلطة الحاكمة.

1/ هذه الرواية هي أول أعماله الروائية ،كتبها في سجن أسيوط سنة 1957م، وقد فازت بجائزة التربية والتعليم سنة 1957م .

بينما تناولت رواية (رمضان حبيبي) أحداث حرب 06 أكتوبر 1973م (10 رمضان) وتحطيم أسطورة(إسرائيل التي لا تهزم) من خلال تحطيم (خط برليف الشهير) وعبور القناة. بينما تناولت روايات (ليل العبيد) و(رحلة إلى الله) و(حكاية جاد الله) الوضع السياسي عموما في مصر وكذلك الصراع بين السلطة والإخوان المسلمين، كما جسدت الرواية الأخيرة التفكك الذي أصاب المجتمع المصري والذي كان سببا في هزيمة حزيران سنة 1967م ([1]) .

وتشكل القضية الفلسطينية المحور الثاني للرواية السياسية عند نجيب الكيلاني، ولا غرابة في ذلك فقد شغلت القضية الفلسطينية الرأي العربي والعالمي إثر النكبات المتكررة التي ألمت بالأمة العربية، تلك الانتكاسات التي كانت أسبابها الفرقة بين الإخوان من الوطن الواحد، ففي الوقت الذي كانت فيه إسرائيل تسعى جاهدة لاحتلال الأراضي الفلسطينية والعربية كانت سجون مصر ومعتقلاتها تعج بالسجناء السياسيين من التوجهات المختلفة ؟ من الشيوعيين وجماعة الإخوان وحزب الوفد وعدد كبير من أحرار مصر. وقد مثلت رواية (أرض الأنبياء) هذا المحور حيث جسدت الصراع العسكري بين العرب واليهود منذ 1948م ، كما تطرق بشكل دقيق إلى تفاصيل حياة الشعب الفلسطيني ومعاناته اليومية في ظل الاحتلال الصهيوني. بينما عالجت رواية (عمر يظهر في القدس) ([2]) قضية فلسطين بالالتزام الشديد بالحل الإسلامي، الذي يراه الكاتب الحل الأوحد بعدما جربت حلول كثيرة، كالحل الوطني والقومي والإقليمي والعالمي. وذلك من خلال استدعاء شخصية الخليفة عمر بن الخطاب باعتباره تربطه صلات قديمة بالقدس فهو الذي فتحها واستلم مفاتيحها ...كما جسدت هذه الرواية تخلف المسلمين وتخاذلهم عن القضية الفلسطينية بعد حرب 1967م، مما دعا الكاتب إلى الدعوة من خلال هذه الرواية

1/ ينظر : سهيل ، ياسين توفيق : نجيب الكيلاني روائيا، ص ص 127 ـ 131 .

2/ لقد ذكرت هذه الرواية ضمن محور الروايات التاريخية ، وذكرناها هنا ضمن محور الروايات السياسية ، لأنها جمعت بين الوصفين؛ تاريخية(من حيث استدعاء شخصية عمر بن الخطاب) وسياسية (من حيث الهدف وهو الدعوة إلى مقاومة الاحتلال الصهيوني).

وعلى لسان عمر بن الخطاب إلى الكفاح المسلح باعتباره الحل الجذري لهذه القضية التي طال عمرها.

أما المحور الثالث فقد تمثل في القضايا الإسلامية أو ما اصطلح على تسميته بالرواية الاستشرافية التي :"عبر فيها عن هموم المسلمين خارج حدود العالم العربي (دول آسيا الوسطى التي كانت أو مازالت تحت الستار الحديدي الشيوعي من الاتحاد السوفياتي و الصين – إثيوبيا – اندونيسيا – نيجيريا) واستطاع أن يكشف للعالم مأساة دامية أصابت ملايين المسلمين المنسيين الذين لا يتحدث عنهم أحدا إلا نادرا، ولا يعرف عنهم المسلمون في العالم العربي إلا القليل، وفي الوقت ذاته توقع انتصارهم وتحررهم، وهو ما حدث بالفعل في أكثر من مكان وبخاصة في الدول الإسلامية التي استقلت أو تحاول الاستقلال بعد انهيار الاتحاد السوفياتي " ([1]).

ومن أشهر الروايات التي تصب في هذا الإطار روايات:(عذراء جاكرتا) ، (عمالقة الشمال)،(ليالي تركستان) و(الظل الأسود) ،وقد تناولت الأحداث السياسية والعسكرية في أربع مناطق في كل من آسيا و إفريقيا؛ فرواية (عذراء جاكرتا) تجسد الصراع بين الحزب الشيوعي والحكومة الإندونيسية من جهة، والقوى الإسلامية والجيش الإندونيسي من جهة أخرى، كما كشفت أيضا تواطؤ الرئيس (أحمد سوكارنو) مع الشيوعيين ضد المسلمين ...

أما رواية (ليالي تركستان) فقد تحدث فيها عن الصراع المرير الذي يخوضه المسلمون في تركستان الشرقية ضد كل من الصينيين والروس، والجدير بالذكر أن أغلب شخصيات هذه الرواية كانت حقيقية سواء منها الشخصيات الإسلامية أو الصينية. وفي رواية (عمالقة الشمال) يتحول الكيلاني من آسيا إلى إفريقيا وبالضبط إلى نيجيريا حيث عبرت هذه الرواية عن التآمر الغربي على بلاد نيجيريا، يضاف إلى ذلك التدخل

1/ القاعود، حلمي محمد : الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني ، ص14.

الإسرائيلي في شؤون هذه الدولة عن طريق الشركات والخبراء لاسيما في مجال الزراعة واستصلاح الأراضي الزراعية. وقد عملت إسرائيل على التحريض على انفصال إقليم (بيافرا الشرقي) عن نيجيريا وتدعيم سكانه ذوي الأغلبية المسيحية بالأسلحة... ويظهر التدخل الأجنبي الغربي في شؤون دولة الحبشة من خلال رواية (الظل الأسود)، فقد طال ذلك التدخل كل المجالات الاقتصادية و الثقافية والسياسية حيث لعبت الكنيسة المسيحية دورا كبيرا في هذه المؤامرة التي انتهت بخلع الإمبراطور المسلم (إياسو) وتنصب الإمبراطور المسيحي (هيلاسيلاسي) بدلا منه مما سهل احتلال إيطاليا للحبشة سنة 1935 م .([1]).

ومما سبق يمكن القول إن نجيب الكيلاني قد توصل إلى نتيجة مفادها أنه لا يمكن الفصل حينما يكتب بين السياسة والحياة العامة والخاصة وعالم الفكر، فاندفع يبحث عن مفاهيم ترسم له خط سيره وهو يستلهم قضايا مجتمعة كمواضيع لرواياته محاولا تجاوز التبعية التي نادى بعض الكتاب إلى تخطيها، فراح يتناول المواضيع الإنسانية والوطنية والتاريخية برؤية إسلامية، لأنه رآها الوحيدة القادرة على التعبير عن آلام وأحلام مجتمعه الصغير مصر ومجتمعه الكبير العالم الإسلامي ككل من خلال شكل فني قادر على استيعاب كل تلك الأحداث وهو فن الرواية.

وتجدر الإشارة إلى أن تلك الروايات ذات الرؤية الإسلامية أو كما أسماها البعض الروايات الاستشرافية كان قد لامس بها مضامين الروايات الحضارية بشكل أو بآخر، ذلك أن " الكاتب موفق عندما اختار موضوعات قصصه بحيث تواكب الخط الممتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ومن الشرق إلى الغرب، فكأنه أراد أن يرمز بهذه القصص لحاضر العالم الإسلامي ومشكلاته و امتداده، وتعالج قضية الإنسان المسلم

1/ ينظر : سهيل ، ياسين توفيق : نجيب الكيلاني روائيا ، ص ص 136 ـ 137.

الذي يقف أمام الطغيان ليدافع عن حريته وكرامته ووجوده، ويحمي عقيدته التي تمثل القيم الإنسانية كلها " ([1]) .

وهذا ما حققته تلك الروايات خاصة الروايات الأربع التي سبق الحديث عنها، والتي جسدت الصراع بين الحق والباطل بين الشيوعية والإسلام...

ثالثا ـ آثاره :

إن المتتبع لأدب الكيلاني يقف على حقيقة مفادها أن إنتاجه تميز بالغزارة والتعدد فقد فاق إنتاجه بصورة كلية مائة مؤلف بين الدواوين الشعرية والقصة والرواية والدراسات النقدية والفكرية والسيرة الذاتية و المؤلفات الطبية، وأغلب هذه الآثار تنطلق من خلفية إسلامية، وعلى العموم يمكن تفصيل القول فيها على النحو الآتي:

ا) ـ الروايات :

1 – نور الله (الجزء الأول) .

2 – نور الله (الجزء الثاني) .

3 – الطريق الطويل .

4 – اليوم الموعود .

5 – قاتل حمزة .

6 – مواكب الأحرار أو (نابليون في الأزهر) .

7 – النداء الخالد .

8 – دم لفطير صهيون .

1/ بريغش ، محمد حسن : في الأدب الإسلامي المعاصر، (دراسة وتطبيق)، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،1998م ،ص78.

9 – عذراء جاكرتا.

10 – ليالي تركستان .

11 – عمالقة الشمال.

12 – الظل الأسود .

13 – ليالي السهاد -

14 – رجال وذئاب .

15 – في الظلام .

16 – ليل الخطايا .

17- ليل وقضبان أو (ليل العبيد) .

18- رأس الشيطان .

19 – عذراء القرية .

20 – الذين يحترقون .

21 – الربيع العاصف .

22 – طلائع الفجر .

23 – أرض الأنبياء .

24 – عمر يظهر في القدس .

25 – رحلة إلى الله .

26 – رمضان حبيبي .

27 – على أبواب خيبر .

28 – حمامة سلام .

29 - حكاية جاد الله .

30 – اعترافات عبد المتجلي .

31 – امرأة عبد المتجلي .

32 – ملكة العنب .

33 – قضية أبو الفتوح الشرقاوي .

34 – مملكة البلعوطي .

35 – أهل الحميدية .

36 – الرجل الذي آمن .

37 – ابتسامة من قلب الشيطان .

38 – لقاء عند زمزم .

39- الرايات السوداء .

40 – أميرة الجبل .

41 – الكأس الفارغة ...(مفقودة).

42 – أرض الأشواق .(غير متوفرة).

ب) ـ المجموعات القصصية :

1 – عند الرحيل .

3- موعدنا غدا .

4- الكابوس .

5- حكايات طيب .

6- دموع الأمير .

7 – فارس هوازن .

ج) ـ المسرحيات:

1 – على أسوار دمشق .

2 – حسناء بابل .

3 – الجنرال علي .

4 – محاكمة الأسود العنسي .

5 – الوجه المظلم للقمر.

*كل المسرحيات المذكورة فقدت سواء أثناء فترة اعتقال الأديب أو لأسباب أخرى عدا المسرحية الأولى (على أسوار دمشق) فهي متوفرة .

د) ـ التراجم والسير :

1 – لمحات من حياتي (الجزء الأول) .

2 – لمحات من حياتي (الجزء الثاني) .

3 – لمحات من حياتي (الجزء الثالث) .

4 – لمحات من حياتي (الجزء الرابع) .

5 – لمحات من حياتي (الجزء الخامس).

6 – لمحات من حياتي (الجزء السادس) .غير متوفر.

7 ـــ إقبال الشاعر الثائر .

8 – شوقي في ركب الخالدين.

هـ) ـ الدواوين الشعرية :

1 – نحو العلا.

2 – أغاني الغرباء .

3 – عصر الشهداء .

4 – كيف ألقاك .

5 – مدينة الكبائر .

6 – مهاجر .

7 – أغنيات الليل الطويل .

8 – لؤلؤة الخليج ...(ديوان لم يكتمل).

و) ـ المؤلفات النقدية :

1 –آفاق الأدب الإسلامي .

2 – أدب الأطفال في ضوء الإسلام .

3 – الإسلامية والمذاهب الأدبية .

4 – تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية .

5 – حول القصة الإسلامية ، مؤسسة الرسالة .

6 – نحو مسرح إسلامي .

7 – رحلتي مع الأدب الإسلامي .

8 – مدخل إلى الأدب الإسلامي.

9 – القصة الإسلامية وأثرها في نشر الدعوة .

ز) ـ المؤلفات الفكرية:

1 – الإسلام وحركة الحياة (جزاءان) .

2 – الإسلامية والقوى المضادة .

3 – أعداء الإسلامية .

4- تحت راية الإسلام .

5 – حول الدين والدولة .

6 – الطريق إلى اتحاد إسلامي .

7 – المجتمع المريض .

8- نحن والإسلام .

9 – الثقافة في ضوء الإسلام .

ح) ـ المؤلفات الطبية:

1 – احترس من ضغط الدم .

2 – التحصين وقاية لطفلك.

3 – التيفويد .

4 – الجذري والجدري .

5 – الدفتيريا عدو الطفل .

6 – الدواء سلاح ذو حدين .

7 – الدين والصحة .

8 – الصوم والصحة .

9 – الغذاء والصحة .

10 – في رحاب الطب النبوي .

11 – مستقبل العالم في صحة الطفل .

12 – قصة الإيدز .

13 – الثقافة الصحية.

14 – رعاية المسنين في الإسلام .

ط) ـ بعض المقالات الفكرية والأدبية التي نشرت في بعض المجلات والدوريات :

1 – الأدب الإسلامي وعلاقته بالمجتمع، مجلة الجامعة الإسلامية س 61 ، ع 62، 1984م.

2 – الأدب الإسلامي وقضية الإبداع، مجلة الأمة، عدد 58.

3- الأدب الإسلامي ومصادر القوة الصاعدة – مجلة الأمة ، عدد 24 .

4- الأدب التنصيري، مجلة الأمة ، العدد 46 .

5 – الأدب له عائد مذهل على الفكر العالمي، مجلة المجتمع، س 17 ،عدد 784، 1987م.

6 – الإسلامية والأدب، مجلة البحث الإسلامي، س9 ، 1964م .

7 – حول أزمة الفكر العربي المعاصر، مجلة الأمة، س3 ، عدد 35 ، 1983م.

8 – الرمز في أدبنا المعاصر، مجلة الأمة ، س3 ، ع 35 ، 1983م .

9 – الفكر المعاصر ومستوى الشعارات، مجلة الأمة، ع 52 .

10 – القصة القرآنية و الأدب الإسلامي، مجلة الأمة، س5 ، ع 56 ، 1985م .

11- الوجه الحضاري للأدب الإسلامي، مجلة الأمة س2 ، ع 18، 1982م .

12 – وظيفة النقد في المجتمع الإسلامي، مجلة الأمة، س3 ، ع 31، 1983م .

ي) ـ وهناك عدد من المؤلفات المفقودة بين رواية ومسرحية وديوان شعر منها نذكر:

13 – الكأس الفارغة (رواية).

14 – الرافعي في موكب البحث (رواية) .

15 – حسناء بابل (مسرحية) .

16 – عذراء القرية (رواية) ([1]).

إضافة إلى ما سبق فقد خصصت ملحقا سجلت فيه الإنتاجات الأدبية والنقدية التي كتبت حول نجيب الكيلاني و أدبه وهي متنوعة بين مقالات وحوارات لا يتسع المقام لذكرها، هذا ويمكن القول بأن كثيرا من أعمال الكيلاني خاصة الروايات، قد ترجمت إلى عدة لغات عالمية كالإيطالية والتركية والروسية؛فقد ترجمت له أعمال كثيرة؛ كرواية (الطريق الطويل) إلى اللغتين الإيطالية والروسية . وترجمت روايات (ليالي تركستان)و(عمالقة الشمال) و(عذراء جاكرتا) و(نور الله بجزأيها) و(رحلة إلى الله) و(عمر يظهر بالقدس)، إلى الإنكليزية والأفغانية ، ومن الممكن أن نقول إن كثيراً من روايات الكيلاني ترجمت إلى أغلب لغات دول العالم الإسلامي والأفريقي([2]). وترجمت بعض رواياته كذلك إلى اللغة الكردية كما ذكر الباحث ديوالي حاجي جاسم([3]).

رابعا ـ غزارة إنتاج نجيب الكيلاني :

1/ ينظر : سهيل ياسين ، توفيق : نجيب الكيلاني روائيا ، ص 40ـ وينظر : مجلة الأدب الإسلامي، السنة الثالثة ، العددان التاسع والعاشر ، رجب ـ ذو الحجة ، سنة 1416هـ ـ كانون الأول(ديسمبر) 1995مـ الأول(ديسمبر) 1995مـ نيسان (أفريل) 1996م ، ص ص190ـ192 ـ وينظر أيضا : ديوالي حاجي جاسم علي، الخطاب النقدي عند نجيب الكيلاني، ص ص 187 ـ 193 .

2/ ينظر : الكيلاني، نجيب : تجربتي مع القصة الإسلامية، ص 37.

3/ ينظر : ديوالي حاجي، جاسم علي: الخطاب النقدي عند نجيب الكيلاني، ص 24.

إن المتتبع لإنتاج الأديب نجيب الكيلاني يلاحظ أن إنتاجه كان غزيرا ملفتا للنظر مقارنة مع أدباء آخرين حازوا الشهرة ونالوا الأوسمة، ولكن الأدب قد تحكمت فيه المصالح والتوجهات التي شلت مسيرته وأصبحت تتحكم فيه ترفع من تعلو أصواتهم بالهتافات والتأييد وتسقط أو تهمش من لم ينحن ويسير وفق تلك المصالح.

ونجيب الكيلاني كان واحدا ممن رصد الواقع بعين محايدة تماما بعيدة عن زعيق الشعارات أو الانهيار بمرحلة على حساب مرحلة، وعموما فسأتحدث عن أسباب تهميش الكاتب في مبحث لاحق، أما فيما يتعلق بإنتاجه فكما سبق ذكره فهو غزير ومتنوع، فقد خاض نجيب الكيلاني في مختلف فنون الأدب بين شعر وقصة وخطابة ورواية ومسرحية إلى جانب بعض الدراسات الأدبية والنقدية والفكرية والاجتماعية والطبية. وله في كل فن نصيب من المؤلفات.

والجدير بالذكر في هذا المجال أنها تنطوي في أغلبها تحت إطار الأدب الإسلامي أو ما أسماه بالإسلامية، وهو المنهج الذي اختاره الكيلاني لمؤلفاته المختلفة. وبلغة الإحصاء والأرقام : يمكن القول إن لنجيب الكيلاني اثنتين وأربعين رواية، وسبع مجموعات قصصية وخمس مسرحيات، وسبعة كتب في السيرة الذاتية، وثمانية دواوين شعرية وتسعة مؤلفات في الدراسات النقدية وتسعة مؤلفات فكرية، وأربعة عشر مؤلفا طبيا وثلاثة عشر مقالا فكريا و أدبيا نشرت في بعض المجلات.

يضاف إلى ذلك العديد من المقالات والدراسات التي كتبت حول الكيلاني فلقد كتبت عنه اثنان وعشرون مقالة وسبع دراسات وثلاث حوارات. كما أن هناك العديد من الرسائل الجامعية التي أعدت حول أدبه بين ماجستير ودكتوراه في كل من السعودية ومصر والأردن واندونيسية والعراق والجزائر. وقد طبعت بعض مؤلفاته أكثر من خمسة عشر مرة منها على وجه الخصوص الروايات التالية(عذراء جاكرتا) (عمالقة الشمال) (ليالي تركستان) و(الظل الأسود)أو ما اصطلح على تسميته بسلسلة روايات إسلامية معاصرة.

هذا وإن هناك أعمالا لنجيب الكيلاني قد فقدت سواء في السجن أو لأسباب أخرى منها نذكر: رواية (الكأس الفارغة) ورواية (الرافعي في موكب البحث) ورواية (عذراء القرية) ومسرحية (حسناء بابل).وتظل هذه القائمة أولية ونسبية وليست نهائية ذلك لصعوبة الوصول إلى كل ما ألف الكاتب لأن هناك من المؤلفات ما نفدت بعد طبعها ولا توجد نسخ منها في مكتبته، كما أن أسرته تعثر من حين لأخر على بعض كتاباته فتقدمها للنشر، من ذلك ما قامت به دار(المختار الإسلامي) من نشر كتاب له في 1996م أي بعد عام من وفاته بعنوان (سراييفو ... حبيبتي) يتحدث فيه عن مأساة البوسنة والهرسك كما أن هناك مؤلفات تم تهريبها من السجن ولم تطبع إلى حد الآن وتتمثل في ديوان موجود عند أحد أصدقاء الكيلاني في الكويت وهو بصدد نشره.

خامسا ـ الميداليات والجوائز التي تحصل عليها:

تبدأ رحلة نجيب الكيلاني مع الجوائز والميداليات التكريمية جراء ما قدمه من أعمال تستحق التكريم ، منذ أن شارك في مسابقة المواد العلمية التي أقامتها مدرسة طنطا الثانوية الجديدة خلال دراسته للتوجيهية العامة، وقد شارك في هذه المسابقة أربعة عشر تلميذا، فكان الناجح الوحيد في الاختبار الكتابي ثم سافر إلى القاهرة لإجراء الامتحان الشفوي وكان أحمد أمين(الكاتب المعروف) أحد أعضاء لجنة التحكيم وقد فاز الكيلاني بجائزة مالية معتبرة. ومنذ ذلك الحين ما فتئ الكيلاني يحصد الجائزة تلو الأخرى، فقد نال بعض الجوائز وهو في السجن، وملخص الحديث عن تلك الجوائز يكون كالتالي:

*في سنة 1957م فازت روايته (الطريق الطويل) التي كتبها في السجن بجائزة وزارة التربية والتعليم، وقد قدم لتلك الرواية الأستاذ فتحي رضوان وزير الثقافة والإرشاد آنذاك.

*وفي سنة 1959م قررت تلك الرواية للتدريس في السنة الثانية ثانوية بكل من مصر وسوريا وبعض الدول العربية. كما أن هذه الرواية ترجمت إلى أكثر من لغة، وطبعت أكثر من خمسة عشر طبعة .

*في سنة 1957م أيضا، وفي مسابقة التربية والتعليم فاز كتابه (إقبال الشاعر الثائر) بجائزة التراجم والسير.

*وفي عام 1957م أيضا فاز بجائزة القصة القصيرة في مسابقة لمجلة (الشباب المسلمين).
*وفي سنة 1958م فاز بجائزة وزارة التربية والتعليم عن التراجم والسير بكتاب (شوقي في ركب الخالدين).

*وفي سنة 1958م حاز على جائزة وزارة التربية والتعليم في مجال الدراسات الاجتماعية عن كتابه(المجتمع المريض) وهو دراسة متميزة عن مجتمع السجون.

*وفي سنة 1959م نال جائزة وزارة التربية والتعليم عن الرواية بروايته (في الظلام).
* فاز في نفس السنة بجائزة القصة القصيرة لنادي القصة القصيرة (اتحاد الكتاب)، ثم فاز بالميدالية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين في نفس العام عن قصته(شجاع) وسلمها إياه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في احتفال كبير.

*و تحصل على جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأدب عن روايته (اليوم الموعود) والتي قررت على طلبة المرحلة الثانوية عام 1960م، كما أخرجت مسلسلا إذاعيا بإذاعة الكويت عام 1963م وقد أعدت كمسلسل تلفزيوني (إنتاج مصري ليبي مشترك) لتعرض في شهر رمضان (1414 هـ) تحت اسم (ياقوتة ملحمة الحب والسلام) وتدور أحداثها حول الحروب الصليبية أيام الملكة (شجرة الدّرّ).

* ونال شرف الميدالية الذهبية المهداة من الرئيس الباكستاني الأسبق (ضياء الحق)، في ذكرى الشاعر إقبال المئوية عام 1977م، وذلك عن كتاباته الكثيرة عن إقبال وبالذات

كتابه (إقبال الشاعر الثائر). الذي تحدث فيه عن هذا المفكر الإسلامي الكبير الذي دعا إلى إنشاء دولة باكستان...

*تحصل على جائزة مجمع اللغة العربية في سنة 1982م عن روايته (قاتل حمزة) التي تعرض قضية الحرية عرضا دراميا من خلال التصور الإسلامي. وقد ترجمت إلى عدة لغات وطبعت ثلاثة عشر طبعة.

*وحولت روايته (ليل وقضبان) إلى فيلم سينمائي، وقد نال الفيلم الجائزة الأولى في مهرجان طشقند الدولي.

*وقد أقامت الرابطة الإسلامية العالمية مهرجانا بالقاهرة لتكريم نجيب الكيلاني بدرع الرابطة بوصفه رائد للأدب الإسلامي وقد كان ذلك بجمعية الشباب المسلمين في 15 – 18 / شعبان 1414 هـ الموافق لـ 27 – 30 كانون الثاني (يناير) 1994م أي قبل سنة من وفاته.([1]).

1/ ينظر : مجلة الأدب الإسلامي ، العددان التاسع والعاشر ، ص ص190 ـ 192 .

الفصل الثالث
آراؤه النقدية ومواقفه الأدبية

الفصل الثالث
آراؤه النقدية ومواقفه الأدبية

أولا : قضايا مثيرة في أدب نجيب الكيلاني

أ) ـ الحرية والالتزام في الأدب

ب) ـ الدين والفن

ج) ـ الأدب والجنس

د) ـ مشكلة اللغة أو بين الفصحى والعامية

ثانيا ـ مفهوم الأدب الإسلامي عند نجيب الكيلاني

أولا : قضايا مثيرة في أدب نجيب الكيلاني :

لقد انطلق الكيلاني في مسيرته الفنية من خلال إحساسه بوطأة الواقع الذي يعيشه، فقد تجاذبت هذا الواقع تيارات شتى تضاربت وتصارعت فيما بينها، فمن داعية إلى القومية العربية والعصبية الجاهلية أو إلى الفرعونية المصرية ، إلى داعية إلى الليبرالية والاشتراكية وغيرها، وهو واقع اتسم بالتضييق على أصحاب المشروع الإسلامي حيث علت فيه شعارات القومية والاشتراكية وعجت السجون بالمفكرين المعارضين لهذا الخطاب " الأمر الذي لا يمكن تجاهله في هذه الفترة أيضا هو ما دأب عليه بعض المتفرنجين واليساريين من هجوم على الدين ورجاله وعلمائه، وتصويرهم تصويرا منفرا يدعو إلى السخط والاستنكار بأساليب متنوعة منها ما هو مباشر ومنها ما هو غير مباشر، وقد كان لسلامة موسى وطه حسين، وكتاب اليسار والوجودية قاطبة، كان لهؤلاء وغيرهم محاولات ضارة بفكر الشباب وسلوكياته..." ([1]).

وإن كان بعض الروائيين قد حاول قراءة التاريخ من منظور تلك الإيديولوجيات المتصارعة ولكنه بعيدا عن المنظور الإسلامي الحق. فقد رأينا نجيب محفوظ يحاول الاهتمام بتاريخ مصر من خلال بعث التاريخ الفرعوني في روايته (عبث الأقدار) ورواية (كفاح طيبة) ورواية (رادوبيس)، ومن قبله كرس جورجي زيدان كل جهوده للرواية التاريخية أو(روايات تاريخ الإسلام).

وقد حظيت هذه الروايات بالذيوع والانتشار غير أن جورجي زيدان قدم تاريخ الإسلام كتاريخ للهو والصراع على السلطة " ولم يكن هدفه أن يمكن للعقيدة وينشر مبادئها، ويجلي الغبار عن عظمتها وآثارها الإيجابية على المسيرة الإنسانية، بقدر ما كان يهدف إلى التقاط الأحداث المثيرة الجذابة والمسلية دون النظر إلى قوة الرواية التاريخية

1/ الكيلاني ، نجيب: رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص 13 .

أو ضعفها، أو نزاهة المؤرخ أو كذبه وانحيازه، وقد ركز على خلافات الرجال، والصراعات العنيفة الدامية بين المسلمين، وعدا الانتصارات الكبيرة والأمجاد الرائعة إلى ميل في العواطف الرخيصة أو رشوة لعبد من العبيد، أو غانية من الغواني، أو جاسوس من الجواسيس، وأعطى صورة قاتمة مزرية للخلافات المذهبية والفكرية والسياسية..."([1]).

هذا البحر الزاخر بالإيديولوجيا والأفكار التغريبية هي التي حفزت الكيلاني – المنتمي إلى التيار الإسلامي – إلى الاهتمام بالتاريخ وبالتاريخ الإسلامي تحديدا وإعادة صياغتة روائيا ؟ كشفا عن دوره وبحثا عن عناصر القوة فيه بعد أن كادت أن تطمسها تأويلات العلمانيين، هذا وإن الكيلاني سعى إلى ترسيخ مفهوم الأدب الإسلامي، فكان بذلك رائد الأدب الإسلامي، من خلال كتاباته مثل كتابه(الإسلامية والمذاهب الأدبية). متجها في دراسته وجهة أدبية جمعت بين النظرية والتطبيق" فتجاوز تبني مصطلح الأدب الإسلامي، إلى معادلة تحديد مفهومه ومقدماته " ([2]).

كما أصدر سلسلة من الأعمال الروائية التي توظف خصائص الأدب الإسلامي وتبرهن على وجوده وقد حاول الكيلاني مناقشة جملة من القضايا المتعلقة بالأدب والنقد منها على وجه الخصوص قضايا الحرية والالتزام في الأدب، الدين والفن، الأدب والجنس، وقضية اللغة بين الفصحى والعامية وقضايا كثرة أخرى.

أ) ـ الحرية والالتزام في الأدب:

اهتم الكيلاني بمبدأ الالتزام في الأدب وعبر عن رؤيته الخاصة للالتزام في كثير من مقالاته التي نشرها في كتاب الإسلامية والمذاهب الأدبية وكذلك في كتابه (رحلتي مع الأدب الإسلامي)، وقد اعتبر كثير من النقاد مبدأ الالتزام تقييدا لحرية الأديب في الخلق

1/ الكيلاني ، نجيب: رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص ص 14 ـ 15 .

2/ اليعقوبي ، علي يوسف : "مصطلح الأدب الإسلامي في النقد الحديث بين القبول والرفض" ، مجلة الجامعة الإسلامية ، المجلد 19 ، العدد 02، يونيو 2011م ص 180.

والإبداع. أما الكيلاني فيرى عكس ذلك إذ يقول:" الأدب في ظني يجب أن يكون ملتزما، والالتزام ليس قيدا على الأديب إذ أنه أساسا ينبع من معتقداته أو من موقفه الذاتي، وهو في أساسه اختيار ما يؤمن به ثم يلتزم "([1]).

فالكيلاني يدعو إلى أدب إسلامي يرتكز على أسس وتصورات إسلامية، فالأديب المسلم ملتزم بمنهج شامل في الحياة يعبر عنه قولا وعملا، ويتمثله في وحدته مع نفسه وفي اندماجه مع أفراد مجتمعه. وهذه الشمولية في التصور الإسلامي تمنح الأديب الحرية في نظرته للإنسان والكون والحياة، ولا يرتبط بأية بقعة على وجه البسيطة دون غيرها، ولا بدولة ذات مذهب معين وإنما يتسم هذا المنهج بسمات، إنسانية عالمية شاملة تتسع لبني البشر أجمعين، وتمجد الفضائل البشرية من حب وأخوة وتعاون وشجاعة ورحمة دون تشويه، ولا تحريف للقيم والمثل الإنسانية كما فعلت بعض المذاهب الأدبية الحديثة التي طمست معالمها وشوهت نقاءها ([2]) .

ويخلص نجيب الكيلاني إلى القول بأن الأدب كلون من ألوان النشاط الإنساني الذي يهدف إلى إسعاد الإنسان، يجب أن يكون ملتزما ليلعب دوره الخطير من أجل الفرد والمجتمع. وبهذا " الفهم المعقول يبدو لنا الالتزام وكأنه ليس نقيضا للحرية وعدوا لها، و إنما هو شيء منظم لها، وصمام أمن يحرص انحرافاتها، ويبرز لها معالم الطريق، ويقودها إلى مشارف السعادة الحقيقية، سعادة العقلاء المتزنين، لا سعادة المجنون الذي تركوه في مصنع للزجاج على حد تعبير الشاعر الفيلسوف محمد إقبال "([3]).

وأخيرا فإن الكيلاني يفرق بين الالتزام والإلزام، فالتزام الأديب المسلم نابع من عقيدته ومبادئه وهو التزام تجاه خالقه. أما الإلزام فهو خضوع وخنوع لسلطة أو قانون

1/ الكيلاني ، نجيب : آفاق الأدب الإسلامي ، ط1، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1985، ص 8 .

2/ ينظر : الكيلاني ، نجيب : الإسلامية والمذاهب الأدبية ، 31 .

3/ المصدر نفسه ، ص 30 .

أو إرادة أو أية قوة تفرض الآراء وتحدد الاتجاهات بما يخدم مصالحها الضيقة، ولهذا نجد نجيب الكيلاني يهاجم مذهب (الفن للفن) لأنه مذهب غير ملتزم ويتناقض تماما مع الأدب الإسلامي، لأن الأديب المسلم "محاسب على كل قول أو فعل...والمتحدث بالكلمة، والباحث عن الحقيقة... كل أولاء مسؤولون عن نظافة الوسيلة وشرف المقصد" ([1]).

كما أن الأدب الإسلامي له دور حيوي في تثبيت الوعي الاجتماعي، إذ يجب أن يكون له دور فعال في ترسيخ ثوابت الأنا وتثبيت قيم المجتمع، بالإضافة إلى التوجيه والإرشاد ومحاربة الآفات الاجتماعية وترسيخ المثل العليا، بما في ذلك إبراز المبادئ والأفكار الإسلامية والدعوة إليها والدفاع عنها. وإلا كان كل ما يكتب يدرج في خانة الفن العبثي أو الفن للفن أي فنا من أجل اللذة فحسب، بعيدا عن قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اهجوهم وروح القدس معك ـ.

ب) ـ الدين والفن :

كلمة الدين كلمة كانت مدار اهتمام الآلاف من العلماء و الأدباء والمفكرين والفلاسفة، فالدين يدخل في صميم حياتنا ويلعب دورا فعالا فيها، أما الكيلاني فيعرف الدين بقوله:" إن الدين كما نفهمه عقيدة شاملة لتنظيم الحياة وتفسيرها، واستجابة لحاجات النفس البشرية، ومشعل يضيء الطريق أمام الناس ويبلغ بهم غايات السعادة والاستقرار، ووسيلة لتقويم العلاقات العامة والخاصة، أو بمعنى آخر الدين مثل أعلى لا يتنافى مع واقع الحياة، ولا يصادم نوامسها، ومن ثم فإن الجمود ليس من طبيعته وتزييف المشاعر الإنسانية لا يصدر عنه في أية واقعة من وقائعه" ([2]) .

1/ الكيلاني ، نجيب : الإسلامية والمذاهب الأدبية ، ص 32 .

2/ المصدر نفسه، ص 11.

وكلمة الفن أيضا كلمة عرفها الكثير من الأدباء والمفكرين كل وفق وجهة نظر قد تخالف غيره وقد توافقه في بعض عناصره أما الكيلاني فيقول عن الفن بأنه " ...تعبير رائع ممتع عن النفس والحياة، يتميز بالأصالة والصدق، تعبير عن التجارب الإنسانية في شكل (فني) متعارف عليه في أغلب الأحيان سواء أكان هذا الشكل قصة أو قصيدة أو مسرحية أو قطعة موسيقية ...

وإذا كان الفن عاريا من الصدق فقد تهدمت دعامة كبرى من دعائمه، فتنهار كل مقوماته، ويفقد أغلى قيمة يعتز بها أي فن من الفنون، ويصبح تعبيرا زائفا عن النفس والحياة وتزويرا لواقع عاشته، أو تعيشه البشرية " ([1]).

فنجيب الكيلاني يرى أن قصة التقاء الدين بالفن قصة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ البشري، وأن الفن لصيق بالدين حتى قبل مجيء الأديان السماوية حيث كان الناس في العهود الأولى يؤدون صلواتهم وهم يرقصون في ساحات المعابد، وكانوا يغنون حول الهياكل والمعابد متقربين لآلهتهم الممجدة، وكانوا يقرعون الطبول ويشعلون النيران في الكهوف المقدسة عندهم.

وقد ظهر ارتباط الفن بالدين بشكل واضح في الأساطير الإغريقية القديمة ، فقد نسجت الملاحم عند هوميروس وإيروبيدس وغيرهما شخصياتها من الآلهة التي تنوعت بين آلهة للحب وأخرى للخير والجمال وآلهة للحرب والشعر والموسيقى.

أما الخصام المزعوم بين الدين والفن فمرده إلى ظروف تاريخية قاسية وأخطاء فردية وجماعية تشابكت ملابساتها المختلفة فنتج عن تلك الظروف عداء مقيت بين الفن والدين يرى كل منها حياته في فناء الآخر، فقد وقف بعض رجال الدين في الكنيسة مواقف معادية للحريات الفردية وللعلم والإبداع وحركات الإصلاح وناصر هؤلاء أيضا

1/ الكيلاني ، نجيب : الإسلامية والمذاهب الأدبية ، ص11 .

الملوك والإقطاعيين وانعكس كل ذلك على الفن بصورة سلبية ؛ حيث ظهر رجال الدين في الأدب الأوروبي بتلك الصورة النمطية، صورة تمثل الانحلال الخلقي والرذيلة والتخلف والجهل ، والوصولية والانتهازية ...

وقد تأثر الأدباء العرب بالقصص الأوروبي ونسجوا على منوال القصة والرواية في العصر الحديث ومن العجيب أن هؤلاء لم يتأثروا بالشكل الفني فحسب بل أيضا نسجوا على منوال النماذج الأدبية التي تأصلت في الأدب الأوروبي الحديث ، من ذلك نموذج رجل الدين الذي اتسم عندهم أيضا بالسذاجة والتخلف والرجعية وأصبح كل رجال الدين مثل قس (أحدب نيوتردام) لفيكتور هيجو الذي نسي الله والترانيم والتبتل ويجري خلف فتاة غجرية فاتنة ويسلك كل الطرق لنيلها . وأعطيت لرجل الدين في أدبنا العربي المعاصر نفس السمات المعروفة في الأدب الأوروبي فغدا رجل الدين رمزا للسذاجة والقذارة والشعوذة ونموذجا للسلبية والانعزال، ومن أمثلة ذلك رجل الدين في رواية (الأرض) لعبد الرحمن الشرقاوي (الشيخ الشناوي) الذي يفهم الدين فهما ضيقا ويسم بالكفر كل من يعارضه وفي المقابل يماليء الخونة والمستغلين. ومثاله (الشيخ الجنيدي) في رواية (اللص والكلاب) لنجيب محفوظ والذي يعيش غائبا عن المجتمع متقوقعا حول نفسه غارقا في تسابيحه وترانيمه والمجتمع من حوله يكاد يحترق وهو شارد لا يحرك ساكنا، لا يكترث بعذاب الناس من حوله.

وقد حاول الكيلاني من خلال بعض رواياته أن يبرز صورة رجل الدين من خلال نموذجين ؟ الأول رجل الدين المثقف الذي يتأثر بما حوله و يؤثر في الناس من حوله ويقف ضد الظلم والقهر والتسلط أيا كان مصدره، ورجل الدين المنغلق الفكر الذي يعوم في ترانيم التصوف بعيدا عما يدور حوله في المجتمع من ظلم واستغلال وقهر .

ج) ـ الأدب والجنس:

لقد وجه الكيلاني عدة انتقادات للأدباء الذين أفرطوا في تصوير مشاهد الجنس ومواقف الغريزة في رواياتهم ، أولئك الذين أسرفوا في تصوير مشكلة الجنس في أعمالهم الروائية " فقد خرج بها عن دائرة الفن، ولم يبق فيها غير الإثارة البشعة، فجسمت المشكلة تجسيما مبالغا فيه، وأوقعت كثيرا من الأغرار في حمئة الخيالات الجنسية المؤرقة.." ([1]).

ويرى الكيلاني أن الإسلام لا يحارب الحب، ولا يقتل غريزة الجنس، ويعتقد أن الأدب يعالج ويصور مواطن الضعف البشري المتعلقة بغريزة الجنس ولكنه دون السقوط في حضيض الرذيلة بل يجب على الأديب أن يعنى بتصوير الجوانب المشرقة لشخصية الفرد التي تصمد في مواجهة عواصف الغريزة القوية وهو أمر ممكن واقعي إذا ما دار الصراع بين العفة والفضيلة فليكن النصر للفضيلة، وقد ضرب الكيلاني مثلا على ذلك من القصص القرآني متمثلا في قصة سيدنا (يوسف) عليه السلام .

وقد عرض الكيلاني تلك القصة باختصار وأبدى إعجابه بأسلوبها قائلا:" إنها قصة جنسية بكل مقومات القصة، لكن أي جنس و أية قصة ؟؟؟ الظلال الموحية، موسيقى الألفاظ، المواقف الدرامية، عنصر التشويق والمتابعة، ثم الانتصار لفضائل الإنسان وقوة الروح في النهاية، حتى امرأة العزيز الخاطئة انتصرت فيها قوى الخير، وعادت إلى رشدها، وطأطأت رأسها إجلالا وتوقيرا لإنسان كبير وقف صامدا كالعلم في مواجهة الثورة الغريزية الجارفة، وانتصر ... "([2]) .

ويرى الكيلاني أيضا أن أدب الجنس أو أدب الفراش – كما يسميه – بصورته الفاضحة لا يتفق مع الإسلامية التي نؤمن بها، وأن الأديب المسلم يجب أن ينهج نهج القصص

1/ الكيلاني ، نجيب: الإسلامية والمذاهب الأدبية ، ص 57.

2/ المصدر نفسه ، ص ص 60ـ 61 .

القرآني في هذا النوع من الأدب لينجو من وصمة الحيوانية والإثارة المدمرة، حتى يبقى الإنسان ذلك الكائن الذي ميزه الله بعقله على سائر الكائنات .

د) ـ مشكلة اللغة أو بين الفصحى والعامية :

نجيب الكيلاني من الروائيين العرب المؤيدين لاستخدام اللغة الفصحى في الرواية وهو يعيب على دعاة العامية ترويجهم لهذا الاتجاه لأن " استخدام اللهجات العامية أمر في غاية الخطورة ويجب منعه، أو التصدي للمروجين له، فالفصحى هي لغة العلم والكتابة، لا مراء لذلك، ولا جدال، وسوف يستطيع انتشار العلم والثقافة ووسائل المعرفة المتنوعة القضاء على دعوى الكتابة بالعامية نهائيا مع مرور الزمن"([1]).

وهو لا يدعو إلى الفصحى لغة القواميس المهجورة منذ سنين ذات الكلمات التي عفى عنها الزمان ولم تعد مناسبة لعصرنا الحاضر وإنما يدعو إلى لغة فصحى سلسة مفهومة، وهو يرى أن العربية غنية بألفاظها وتعبيراتها التي تؤدي الغرض. وقد فند مزاعم دعاة العامية في الرواية نافيا أن تكون دولة من الدول تستخدم ازدواجية اللغة الفصحى والعامية .

ومن جهة أخرى فإن دعاة العامية قد نما نشاطهم بعدما صار الأديب الذي يكتب بالفصحى يقرأ له القراء من مختلف أنحاء العالم العربي بل إلى الدول الإسلامية هي غير العربية كإندونيسيا وباكستان وأفغانستان وماليزيا وغيرها لا يعرفون إلا الفصحى التي تعلموها في المدارس أو في الأزهر، وهي بالنسبة إليهم لغة ثانية بعد لغتهم الأصلية لغة البلد.

يضاف إلى ما سبق أن دعاة العامية ممن يزعمون أنهم يكتبون للشعب فهم واهمون لأن الفلاح الأمي الذي يركب الحمار أو يقود البقرة لا يحمل في يده رواية أو مسرحية بالعامية

1/ الكيلاني ، نجيب : رحلتي مع الأدب الإسلامي ،ص 68 .

ولا يطلب من أحد أن يقرأها له.." وبالتالي فإن مصلحة هذا الشعب أن نكتب له بالفصحى التي يفهمها وذلك بالابتعاد عن التعقيدات اللغوية المختلفة " ([1]).

ثانيا ـ مفهوم الأدب الإسلامي عند نجيب الكيلاني :

الدعوة إلى وجود أدب رفيع حديث يستمد قيمه ومعاييره من المنهج الإسلامي الصحيح ، دعوة مؤسسة على آراء تبلورت عند نجيب الكيلاني بعد اطلاعه على المذاهب الأدبية الغربية التي استندت في رؤاها على فلسفات وإيديولوجيات متنوعة ومتضاربة بين كلاسيكية مترمتة ورومانسية حالمة وجودية وواقعية واشتراكية وغيرها من المذاهب التي طبعت الأدب والفكر عموما بطابعها ،لذلك لم يجد الكيلاني مانعا في أن يحاول التخطيط للإسلامية في الأدب. وقد أطلق الكيلاني دعوته هذه منذ الخمسينيات من القرن الماضي.

وتنطلق دعوته هذه " في إطار من الإدراك الواعي، والفهم المستنير، لماهية هذا الأدب ورسالته، وأهدافه البناءة في خدمة الأمة الإسلامية والعالم أجمع، دون تعصب أو جمود، مع الحفاظ على القيم الجمالية والإنسانية الصحيحة.."([2]).

لذلك نجد الكيلاني يصر على ضرورة اهتمام الأدباء العرب والمسلمين بهذه القضية وإعطائها الأولوية حين يقول عن هذه الدعوة بأنها " يجب أن تحظى بالأولوية المطلقة في الأقطار الإسلامية، لأن الأمر له جوانب عقائدية وفكرية وفنية ترتبط بحركتنا في عالم اليوم، انطلاقا من أن الآداب أسلحة ذات فعالية وتأثير في جهادنا الدائب، من أجل

1/ ينظر : الكيلاني ، نجيب : الإسلامية والمذاهب الأدبية ، ص ص 76 ، 77 .

2/ لغزيوي ، علي :" نجيب الكيلاني رائد الأدب الإسلامي" ، مجلة الأدب الإسلامي ، العددان التاسع والعاشر، ص37.

إعلاء كلمة الله، وخلاص المسلمين خاصة والبشرية عامة من أدوائها وأرزائها وانحرافاتها."([1]).

بهذه الكلمات يعبر الكيلاني عن أهمية وخطورة هذا الأدب، وجعله وسيلة عظيمة للوصول إلى الأهداف السامية من خلاله، ليس على صعيد الأمة الإسلامية فحسب وإنما للعالم أجمع. وهذه تتمحور حول رؤية نجيب ورسالته التي استمدها من تصوراته الإسلامية. وإذا كان الأدب الإسلامي كما يصفه الأستاذ محمد قطب في كتابه (منهج الفن الإسلامي) بأنه "تعبير فني عن الكون والإنسان والحياة والطبيعة من خلال تصورات إسلامية"([2]).

فإن الكيلاني يستدرك عليه، ويتوسع في المفهوم بقوله " فإننا بدورنا لا ننكر دور الصياغة الفنية، والتجربة البشرية تاريخية كانت أو أسطورية، فردية أو جماعية، ولا ننكر أن الأدب نقد وجبيرة للحياة، ونلتزم أيضا بالتصورات الإسلامية ، وبالنور الإلهي الذي يكشف الطريق الصحيح أمام أقلامنا وأفكارنا وسلوكنا العملي ويقودنا إلى الحق والخير والجمال "([3]).

وبهذا يكون الكيلاني قد سعى منذ وقت مبكر" إلى لفت الانتباه إلى مميزات المذهب الإسلامي في الأدب، وإلى الإسهام فيه دراسةً وإبداعاً، وقدم نماذج كثيرة شامخة تمثل أبرز فنونه، وفي مقدمتها القصة والمسرحية والشعر... ولم يكتف بذلك، بل اضطلع بمهمة فتح باب مهم في الأدب الإسلامي الحديث ، وهو مجال الدراسات المقارنة "([4]).

1/ الكيلاني ، نجيب : رحلتي مع الأدب الإسلامي، ص 5 .

2/ الكيلاني ، نجيب : الإسلامية والمذاهب الأدبية، ص 9.

3/ المصدر نفسه ، ص 09.

4/ لغزيوي ،علي : نجيب الكيلاني رائد الأدب الإسلامي ، ص 37 .

وقد ظل الكيلاني يدافع عن تلك الدعوة المتمثلة في ضرورة الربط بين الفن والدين، والالتزام في أدبنا الحديث بالقيم الإسلامية ويستشهد بمن سبقه من بقية الأفكار والمعتقدات التي سخرت أقلامها لخدمة ما تذهب إليه؛ فإذا كانت المذاهب الغربية قد استندت إلى فلسفات وأيديولوجيات من صنع البشر فلماذا لا نستند نحن ـ المسلمين ـ في أدبنا وفننا عموما إلى مبادئ وقيم من تنزيل رب البشر، ذلك أن " ارتباط الفن بالرسالة ليس غريبا في عصرنا، وقد استطاعت المذاهب السياسية والاجتماعية بل والفلسفية أيضا. أن تستخدم مختلف الفنون في الترويج لأفكارها حتى تشد الرأي العام لمناهجها "([1]).

ومع ذلك فإن الكيلاني لم يكن من الذين يقفون موقف العداء من الشعوب الأخرى وثقافاتها، بل إنه يعتقد جازما أن هناك الكثير من القواسم المشتركة الفكرية والمشتركات الثقافية بين كل الشعوب والأمم باعتبار أصلها الإنساني الواحد "ومما لاشك فيه أن ثقافتنا لا تقف موقف العداء لثقافات الأمم والشعوب، ففي تلك الثقافات جوانب مضيئة، وايجابيات مؤكدة، لا يمكن التنكر لها "([2]).

إلا أن ثقافة الآخر ليست كلها خير ، وإنما فيها جوانب أخرى قاتمة لا تتناسب ومبادئنا وقيمنا الإسلامية، والعربية ، فقد انبهر بعض الكتاب العرب الوافدين العرب إلى أوربا الذين تنكروا لأصالتهم وانساقوا في لهاث أعمى خلف المشبوه من الأفكار المستوردة التي تفد " إلينا من خلالها أفكار وآداب ذات هوية مشبوهة، وبعثاتنا التي نبعث بها إلى الخارج، تعود إلينا وقد تشبعت (بالإثم الفني)، وخلعت عنها رداء شخصيتها وأصالتها، وعادت مسخا مشوها، يخدم مخططات خبيثة من حيث تدري أو لا تدري...."([3]).

1/ الكيلاني ، نجيب : آفاق الأدب الإسلامي ، ص 72.

2/ الكيلاني ، نجيب : الإسلام وحركة الحياة ، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت ،1992م الجزء الثاني، ص 70.

3/ الكيلاني ، نجيب : نحن والإسلام ، ط1 ، مؤسسة الرسالة، بيروت ،2001م ، ص 106.

ثم يفصل الكيلاني ذلك الفن المشوه والمستورد، ويشرح كيف جنى على شباب الأمة ويؤكد هذه الحقيقة فيقول: " لقد صور لنا الفن المستورد الحياة العصرية من جانبها المنحل؛ فالزوجة تراقص رجلا غير زوجها، وتخاصره ويخاصرها، واشتداد الأزمات معناها أن يهرع البطل إلى زجاجات الخمر كي يطفئ غضبه وقلقه..."([1]).

وقد عدّ الكيلاني هذا النوع من الفن من أخطر التحديات التي واجهت حركة إحياء الفن الإسلامي الأصيل، بعيداً عن الفلسفات الموفدة حيث يصرح قائلا: " لكن أخطر العوامل التي عطلت مسيرتنا كانت نابعة من تلك الفلسفات الحائرة أو الجانحة التي غزت عالمنا واستطاعت أن تخطف أبصاره وتوازنه ببريقها وصيغها الساحرة الفاتنة([2]).

ثم يرد على أولئك الذين ينكرون إمكانية تحقق دعوته إلى قيام أدب إسلامي في ميادين ومحافل الثقافة والأدب، فيقول " وقد يتساءل القارئ؛ هل هناك أدب إسلامي حقيقي كامل نستطيع أن نستخلص منه القواعد لما تسميه بالإسلامية ؟؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول: إذا لم يكن هذا الأدب الإسلامي بصورته الكاملة فهناك الدين الإسلامي الذي نستلهم منه هذه القواعد والأصول."([3]).

من هذه النظرة المتفحصة الدقيقة انطلقت جهوده في إرساء دعائم هذا الأدب، فكانت له من المؤلفات التي اصطبغت بهذه الصبغة ما يزيد على ثمانية، وله عشرات المقالات والندوات والمحاضرات التي نبه بها على قيمة هذا الأدب ودوره الخطير في نشر الدعوة الإسلامية لا بل ودوره الفعال في ترسيخ مبادئ الدين الحنيف وقيمه في نفوس القراء. كما وأسهم بشكل فاعل أيضا في بلورة هذه الأفكار من خلال مختلف الأجناس الأدبية فأوجد واقعاً حياً لهذا الأدب من خلال عشرات الروايات القيمة والمجاميع

1/ الكيلاني ، نجيب : نحن والإسلام ، ص 107.

2/ الكيلاني ، نجيب : مدخل إلى الأدب الإسلامي ، ط 2 ،دار ابن حزم ، للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1992،ص 64 .

3/ الكيلاني ، نجيب : الإسلامية والمذاهب الأدبية، ص 8 .

القصصية، والمسرحيات، والدواوين الشعرية. لذلك يعد " نجيب الكيلاني الروائي الإسلامي الأول في اللغة العربية، إذ قدم للمكتبة العربية عدداً كبيراً من الروايات والقصص القصيرة، وهي غالباً محكومة بالتصور الإسلامي وصادرة عنه" ([1]).

وفي مجال القصة الإسلامية واقعا تطبيقيا لهذه الدعوة المباركة يظل نجيب رائداً لها من غير منازع كما أشرنا حين تقلد درع رابطة الأدب الإسلامي التي ساهم بإنشائها فقامت الرابطة بتكريمه وكان ذلك في العام(1415هـ -1994م) أي قبل عام واحد من رحيله متأثراً من مرض عضال ألم به حيناً من الدهر.

ويعتبر نجيب الكيلاني بحق واحد من رواد الأدب الإسلامي إن على مستوى الإبداع أو على مستوى التنظير ، فمن حيث الإبداع ، فهو كاتب ، روائي وشاعر صال وجال في شتى الفنون الأدبية من قصة ورواية وشعر ومسرح، وقد سار في أغلب مؤلفاته الإبداعية على منوال المذهب الذي يؤمن به وهو التصور الإسلامي .

وإن كان في بعض أعماله الروائية والقصصية لا نلمس هذا التوجه الإسلامي ؛ فقد تأرجح التطابق بين ما يدعوا إليه الكيلاني في آرائه التنظيرية للأدب الإسلامي وما كتبه من روايات، بل يكاد أحيانا ينافي الرؤية الإسلامية التي التزمها . فقد نجد الرؤية الإسلامية بارزة بكل وضوح في بعض أعماله القصصية والروائية من مثل رواية (عمر يظهر في القدس) ورواية (أهل الحميدية) ورواية (نور الله) بجزأيها الأول والثاني) ورواية (ملكة العنب) ورواية مملكة البلعوطي) ورواية (الرجل الذي آمن) و قصة (الكابوس)،في حين تكاد تختفي تلك الرؤية الإسلامية في بعض أعماله من مثل رواية (الربيع العاصف) ورواية (ليل وقضبان) ورواية (في الظلام) ورواية (الذين يحترقون).

وهناك روايات أخرى تكون فيها الرؤية الإسلامية مشوشة وغير واضحة تماما من ذلك على سبيل المثال رواية (رحلة إلى الله) و (رجال وذئاب) . وقد كان هذا الاتجاه

1/ القاعود، حلمي محمد : الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، ص15.

واضحا بشكل دعوي في الروايات التي أسماها بروايات إسلامية معاصرة، وهي رواية (عمالقة الشمال) التي تحدث فيها عن المؤامرات التي تحاك ضد الإسلام والمسلمين في نيجيريا ، ورواية(عذراء جاكرتا) وتحدث فيها عن صراع الشعب الإندونيسي المسلم مع الحزب الشيوعي الإندونيسي، ورواية (ليالي تركستان) وتحدث فيها عن بلاد كانت للمسلمين فاغتصبت من قبل الشيوعيين الروس من جهة والشيوعيين الصينيين من جهة ثانية فكانت بمثابة الأندلس الثانية التي ضاعت من أيدي المسلمين بتكالب قوى الشر والإلحاد، ورواية (الظل الأسود) التي تحدث فيها عن كفاح شعب الحبشة المسلم ووصف فيها الحرب الأهلية المدمرة واستيلاء الإمبراطور(هيلاسيلاسي) على الحكم بالنار والقوة .

يضاف إلى هذه الأعمال الروائية المسرحية الأخيرة التي كتبها قبيل مدة قصيرة من وفاته تحت عنوان (سراييفو حبيبتي) والتي كما يدل عنوانها تتحدث عن المجازر التي ارتكبت في حق المسلمين في البوسنة والهرسك عل مرأى ومسمع من العالم المتحضر .

وهذا لا ينتقص من إسلامية روايات الكيلاني في شيء بل يدل على أن أدبه خضع إلى المرحلية حيث يكتمل النقص بعد تأصل التجربة عند الكاتب والاستفادة مما يتلقاه من نقد وتوجيه من أصدقائه أو حتى من أعدائه ،فقد كانت للأديب نظرة استشرافية بعيدة المدى لمستقبل الأدب الإسلامي أو ما تصير إليه إسلامية الأدب في السنين اللاحقة في ضل التحديات الداخلية والخارجية ، ونلمس هذا في حوار أجراه مع الصحافي المصري جمال السيد حول تحديات الأدب الإسلامي، حيث سأله عن أهم التحديات التي تواجه الأدب الإسلامي في الوقت الحاضر ، وتحد من تأثيره ؟فأجابه الكيلاني بأن تلك التحديات تتمثل فيما يلي :

1 ـ إن كثيرا من الكتاب والمفكرين ووسائل الإعلام تتجاهل الأدب الإسلامي ، وقد يصل هذا التجاهل إلى ذروته فينقلب إلى عداء وحرب ضده وضد أصحابه ، مما جعل

كثيرا من الأدباء يعزفون عن الخوض في هذا الأدب لتجنب تلك الحرب وذلك التجاهل. ومع ذلك فإن هناك عشرات الرسائل الجامعية حول الأدب الإسلامي ليس في الدول الإسلامية فحسب بل حتى في أوروبا، ويذكر أن آخرها جاءه طالب من السويد يقوم بالإعداد لرسالة دكتوراه حول الأدب الإسلامي .

2 ـ بعض الأدباء يجهلون بان الأدب الإسلامي هو أدب أمة وليس بأدب حزب أو جماعة ، مما يزيد الصفوف انقساما حول أمور فردية ما كان ينبغي الانقسام حولها ، لأن الأدب الإسلامي لكل العصور وللإنسانية جمعاء .

3 ـ افتعال الخصومة بين الأدب الإسلامي والأدب العربي ... رغم أنهما كللا يتجزأ؛ فالأدب العربي جزء من الأدب الإسلامي ، جمعتهما لغة القرآن ، ومشاعر المسلمين وطموحاتهم ومشكلاتهم وتطلعاتهم ... وكذلك الخصومة المفتعلة بين الأدب الإسلامي والفنون الأدبية الأخرى ..وبينه وبين حرية الإبداع والتفكير.

4 ـ استفزاز بعض الكتاب الإسلاميين للسلطة والحكام بتناول موضوعات معينة ، الأمر الذي يعرض بعضهم للاضطهاد والمحاكمة .

5 ـ صعوبة النشر وضعف الإمكانات المادية والفنية اللازمة لهذا النشر على الرغم من الجهود التي تبذلها رابطة الأدب الإسلامي العالمية في خدمة الأدب الإسلامي إلا أنها تعاني من ضعف الإمكانات، مما يلقي بمسؤولية التمويل على رجال المال المسلمين .

6 ـ اتسام أدب بعض الأدباء الإسلاميين بالحماسة والحدة ، فيكون مجرد نصائح ومواعظ دون مراعاة للقواعد والأصول المتفق عليها في بناء الفنون الأدبية .. مما يتيح الفرصة لهواة خلط الوراق، وتصيد الأخطاء للإسلاميين .

7 ـ تركيز بعض الأدباء الإسلاميين على بعض الفنون الأدبية بعينها دونما محاولة الاستفادة من بقية الفنون الأدبية واستغلالها، رغم مالها من تأثير قد يفوق فنونا أدبية تحظى بالاهتمام الأكبر.

8 ـ هذا إلى جانب مغالاة بعض النقاد في تصيد الأخطاء للإسلاميين ، خاصة عندما يصورون الحب والعواطف ، إضافة إلى قسوة هؤلاء في التعامل مع النص الأدبي الإسلامي على الرغم من أن هذه الأمور طبيعية ن وموجودة في الغرائز الإنسانية ، فليس كل البشر نسخة واحدة ، وليسوا كلهم ملائكة لا يخطئون.. والأدب الإسلامي مطلوب منه أن يعبر عن واقع المسلمين بما فيه من سلبيات وإيجابيات بصدق وموضوعية ([1]).

ويؤكد الكيلاني على أن الأدب الإسلامي ليس معزولا عن العالم ، وأن الأديب الإسلامي ينبغي عليه الاطلاع على ما كتبه الآخرون في الآداب العالمية دون ان يكون هنا تعارضا بين اتجاهات الأديب الإسلامي واطلاعه على الإنتاج الأدبي لغير المسلمين وخاصة الآداب الغربية ، التي تعبر عن أفكار مجتمعات بعيدة عن الإسلام، لذلك نجده يصرع بكل وعي " إنّني أرى أن الأديب الإسلامي من الواجب عليه الاطلاع على آداب الآخرين بلا حدود، فيأخذ الصالح منها ليستفيد منها في زيادة خبرته ويفيد منه القراء " ([2]) .

وكانت قراءات نجيب لا تبتعد كثيراً عن علاقاته المتعددة والمتنوعة، فقد كان يقرأ لكتابات أدبية مختلفة كما يروي عن نفسه " ولقد لاحظت أن بعض زملاء الدراسة في كلية الطب، ممن ينتسبون إلى التنظيمات الشيوعية ،كانوا يتداولون بعض المطبوعات التي يحرصون على قراءتها ، أمكنني معرفة بعضها ، وكان أهم هذه الكتب رواية (الأم) لمكسيم جوركي ، ورواية (كوخ العم توم) وبعض القصائد الشعرية المخطوطة... وقرأت

1/ ينظر : السيد ، جمال : "حوار قبل الرحيل "، مجلة الأدب الإسلامي" ، العددان التاسع والعاشر، ص ص 153 ـ 154 .

2/ ينظر : المرجع نفسه ، ص155.

رواية (الأم)، ودهشت لبراعة كاتبها الذي يدعو إلى مذهبه بأسلوب قصة مكتملة الأداء، مثيرة إلى أبعد حدود الإثارة ، شيقة بصورة كبيرة "([1]).

وقد أعجب الكيلاني بمثل هذا الإنتاج الروائي الغربي وامتدحه وتعجب من شدة تأثيره على الرأي العام الاجتماعي وخصوصا فئة الشباب ، فيقول " وعندما بدأت حركة البعث الأدبي في روسيا، وظهرت إلى الوجود روائع تولستوي ودستوفسكي ومكسيم غوركي وتورجنيف، بدا أن هؤلاء العمالقة المفكرين لم يكتسبوا شهرتهم الأدبية بسبب التفوق الفني الشكلي فحسب، بل يضاف إليه تلك المضامين الفكرية المشرقة المؤثرة، وذلك الالتزام بوجهة نظر معينة "([2]). مما جعله يتساءل بينه وبين نفسه لماذا لا يكون للعاملين في حقل الدعوة الإسلامية مثل هذه الأدوات الفعالة ؟ولماذا لم ينتبه القائمون منهم على أمور التربية والتوجيه إلى التخطيط لبزوغ أدب جديد يترجم عن الإسلام وقلب المسلم وفكره وهمومه وآماله وطموحاته ؟؟([3]).

تلكم هي طموحات نجيب الكيلاني في إرساء قواعد ثابتة لما أسماه بالأدب الإسلامي أو الإسلامية ، وقد سعى إلى تثبيت تلك القواعد بما أنتجه سواء على مستوى التنظير أو على مستوى الإبداع ، فأما أعماله التنظيرية فتمثلها كتبه الأدب الإسلامي، مثل : (مدخل إلى الأدب الإسلامي) و(الإسلامية والمذاهب الأدبية) و(تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية) و(آفاق الأدب الإسلامي) و(حول المسرح الإسلامي) و(القصة الإسلامية وأثرها في نشر الدعوة) وغيرها من الكتب. وأما الأعمال الإبداعية فقد زاد

1/ الكيلاني ، نجيب: رحلتي مع الأدب الإسلامي، ص 33 .

2/ المصدر نفسه ، ص 34 .

3/ ينظر : الكيلاني ، نجيب: رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ص 33.

عددها عن الخمسين بين قصة ورواية ومسرحية، مما حدا بالأديب الكبير نجيب محفوظ أن يقول عنه: " إن نجيب الكيلاني هو منظر الأدب الإسلامي الآن"([1]).

وهذا رأي فيه كثير من الصواب، وهي شهادة حق في رجل كرس حياته لقضية كان يؤمن بها إيمانا لا يتزعزع، وقد كلفته تلك القضية ضياع سنين طوال من عمره في السجن ، لدفاعه عن حقيقة آمن بها وسعى إلى تثبيتها في الوجود ...

1/ ينظر : حامد ، أبو أحمد ، " نجيب الكيلاني بين أدباء العصر" ، مجلة الأدب الإسلامي ، العددان9-10، ص 15.

الباب الثاني
قضايا المرأة العربية في روايات نجيب الكيلاني

الباب الثاني
قضايا المرأة العربية في روايات نجيب الكيلاني

تمهيد

الفصل الأول

الحرية الشخصية وتحقيق الذات

الفصل الثاني

حق المرأة في التعليم والعمل

الفصل الثالث

قضية إكراه المرأة على الزواج

الفصل الرابع

قضية العنوسة والطلاق

تمهيـــــــد

إن قارئ روايات نجيب الكيلاني يجد حشدا كبيرا من النساء في هذه الأعمال: الأمهات والأخوات والزوجات والخادمات والوصيفات والعاملات والمثقفات وغيرهن كثير.

ومن خلال تلك القائمة المطولة للنسوة عرض الكيلاني جملة من قضايا المرأة منها على وجه الخصوص قضايا : الحرية الشخصية وإثبات الذات والتعليم والعمل وقضايا الزواج والطلاق وإكراه المرأة على الزواج بمن لا تحب وقضية عدم المساواة بين الجنسين (الذكر والأنثى) في الحقوق التي منحها الإسلام إلى كل منهما، مثل حرمانها من الإرث والتصرف في أموالها الخاصة وقضية الأخذ بالثأر حيث غالبا ما تكون المرأة هي التي تحرض على ذلك خاصة الأم ، وقضية زنا المحارم التي انتشرت في المجتمع نظرا للجهل والفقر، إذ تكون المرأة الضحية الأولى لهذه الجريمة الشنعاء .

إلا أن بعض تلك القضايا لم يرق إلى مستوى الظاهرة العامة التي تشكل الأنموذج لذلك فقد خصصت هذا الباب لدراسة بعض منها حسب ما توفر في الروايات التي بني عليها هذا البحث على سبيل التمثيل .

الفصل الأول
قضية الحرية الشخصية وتحقيق الذات

الفصل الأول
قضية الحرية الشخصية وتحقيق الذات

أولا : نضال المرأة من أجل الحرية الشخصية

ثانيا : المرأة والسعي إلى الحرية وتحقيق الذات في روايات نجيب الكيلاني

أ ـ (صابرين) في رواية (النداء الخالد)

ب ـ (جليلة) في رواية (رمضان حبيبي)

أولا : نضال المرأة من أجل الحرية الشخصية:

لم يكن الكيلاني بدعا في الأدباء ،فيما يخص الحديث عن حرية المرأة وهي القضية التي أسالت حبرا كثيرا وشغلت اهتمام الكتاب والروائيين والمؤرخين وقد برز الحديث عن حرية المرأة وحقوقها منذ مجيء الإسلام فقد" كانت دنيا المرأة في الجاهلية تغص بالمفاسد الموروثة والتقاليد البالية والمعالم والشرور، إلى أن جاء الإسلام بهديه ووحيه وبنظمه وتعاليمه ونصائحه وتوجيهاته وقيمه ومثله، وعلاقاته الإنسانية السامية فقضى عليها بعد أن حرمها ونهى عنها." ([1]).

فقد كانت المرأة في الجاهلية تعاني من سطوة الرجل وهيمنة المجتمع الذي أجحف حقوقها وأولها حقها في الحياة، فقد كانت المرأة متاعا يفرض عليها الزواج كما يفرض عليها الزنا والبغاء؟ لم يكن لها الحق في طلب الطلاق، ولا ترث بل كانت تورث كما يورث متاع البيت والأرض والماشية، لا تحق لها الحضانة ولا تستطيع التصرف في أموالها، وفوق كل ذلك كانت تدفن حية عند بعض القبائل العربية ولما أشرقت أنوار الإسلام غطت ظلاله على حياة المرأة وأخرجتها مما كانت فيه، إذ أعاد لها الإسلام حقوقها وعلى رأسها حقها في الحياة، فقد أصبحت إنسانا معترفا به قانونا بعد أن كانت إنسانا لا يعترف بها قانونا، كما منحها الإسلام الحق في اختيار الزوج وحقها في طلب الطلاق وحق الملكية والإرث والتصرف في أموالها وحق الحضانة ولم يساو بينهما في بعضها الآخر.

إن الإسلام قد ساوى بين الجنسين في كل ما يتعلق بالإيمان والتقوى ووحدة الأصل والجزاء أو العقاب على الفعل، كما ساوى بينهما في التكريم" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَّاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(01)"([2]).

1/ خيرت ، أحمد : مركز المرأة في الإسلام ، ط 3، دار المعارف ، 1983م ، ص 17.

2/ سورة النساء : الآية 01 .

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا على حساب التقوى والإيمان "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13)"([1]).

وتكريم الإنسان لم يكن بسبب لونه أو أصله أو عرقه، و إنما لما يتمتع به من تقوى و إيمان فحسب. فالإسلام ساوى بين الرجل والمرأة في أهلية التكليف وتحمل الأمانة التي عرضها الله تعالى على السموات والأرض والجبال، والمتمثلة في قوله تعالى: " إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً(72) "([2]).

والواضح من هذه الآية الكريمة أن الإنسان مقصود به المرأة والرجل على حد سواء. وقد عاشت المرأة عقودا من الزمن بل قرونا من الزمن تمارس فيها تلك الحقوق التي أقرها لها الإسلام؛ تتعلم وتأخذ نصيبها في المال والإرث والعمل والخروج إلى ميدان الحرب. وبذلك انتصف الإسلام للمرأة ومتعها بالتملك والمال الموروث شأنها شأن الرجل لقوله تعالى:" لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (07) "([3]).

وقد تتميز الشريعة الإسلامية على سائر الشرائع الأخرى وعلى القوانين والنظم الوضعية بأنها فرضت على الرجل أن يدفع لمن يقترن بها مهراً و يطلق عليه الصداق وذلك في حدود إمكانياته المالية، وفي هذا الخصوص يقول الله تبارك وتعالى " وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (04) ([4]).

1/ سورة الحجرات: الآية 1

2/ سورة الأحزاب : الآية72

3/ سورة النساء : الآية 07.

4/ سورة النساء : الآية 04.

والمهر هو عطاء خالص من الزوج لزوجته وهذا العطاء هو نحلة أي ليس أجرا أو ثمنا بل هو عطاء يوثق المحبة ويربط القلوب ويديم العشرة وهذا الصداق يصبح حقا خالصا للمرأة وحدها تتصرف فيه كما تتصرف في سائر أموالها.

هذا، وقد ساهمت المرأة في عهد الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في الشؤون العامة إلى جنب الرجل، حتى أنها شاركت في الجهاد لتوسيع رقعة الدولة الإسلامية سواء في غزوات الرسول ـ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أو في حروب المسلمين ضد الفرس والروم خارج الجزيرة العربية حيث كانت المرأة تداوي الجرحى في ميادين القتال أو بعيدة عن ميادين القتال فقد كانت (كعبة بنت سعد) تقيم خيمة بالقرب من المسجد النبوي تداوي فيها الجرحى فقد عالجت (سعد بن معاذ) من جروحه يوم غزوة الخندق.

كما كانت لـ (روفيدة الأسلمية) خيمة قرب المسجد النبوي بالمدينة تداوي فيها الجرحى وهي أول ممرضة في الإسلام ، وهي أشهر امرأة ممرضة في الإسلام. بل إن بعضهن شاركن في القتال جنبا إلى جنب مع الرجال منهن(أم سليم) التي جاهدت في معركة (أحد) حيث قال عنها رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ " ما التفت يمينا ولا شمالا يوم أحد إلا وأنا أراها تقاتل دوني "([1]).

وتذكر كتب السير أن كثير من النساء المسلمات شاركت في الحروب والفتوح الإسلامية ومنهم من اشتهرت بفروسيتهن فقد كانت (خولة بنت الأزور) أخت ضرار بن الأزور قد شاركت في معارك كثير ضد الروم و اشتهرت بالفارس الملثم. فقد نسجت حولها القصص وكانت ضرب الأمثال في الشجاعة والإقدام والتضحية والبطولة.

كما لعبت المرأة دورا فعالا في المجالات السياسية والاجتماعية والمعرفية، تشارك في الحياة العامة برأيها حيث كانت تناقش أمور الدين والاقتصاد والاجتماع والسياسة، وأحسن مثال على ذلك أمّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي كانت معينا للصحابة يأخذون

1/ العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز - محمد فؤاد عبد الباقي ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت ، الجزء السادس ، ص 79 .

عنها أحاديث الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وكانت مرجعا للعلماء في الفتوى فقد قال فيها الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ " خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء" ([1]) .

وشاركت في المجال السياسي أيضا ، وكان لها موقفها المعروف من الفتنة التي وقعت بين الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ ومعاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – حيث شاركت في واقعة الجمل. وقد تولت المرأة في صدر الإسلام أمور التجارة فقد كانت أمثّا ـ خديجة رضي الله عنها ـ تسير تجارتها بنفسها وتقوم على شؤون أموالها. وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يستشير إحدى قريباته المسماة(الشفاء بنت عبد الله) يستشيرها في أمور التجارة والإشراف على الأسواق.

إلا أن المرأة لم تحافظ على هذه المكانة المرموقة التي منحها إياها الإسلام خاصة في صدر الإسلام، فقد تقهقر دورها الاجتماعي بعد صدر الإسلام نظرا لما طرأ على المجتمع الإسلامي من تغيرات طغت عليها التقاليد والأعراف التي ابتعدت عن تعاليم الدين الحنيف.

والواقع يؤكد أن الإسلام بريء كل البراءة من أي تمييز ضد المرأة ، وانه ليس مسؤولا عن الممارسات الخاطئة لدى بعض المسلمين الناشئة عن قصور فهم للإسلام أو موروثات اجتماعية وثقافية خاطئة توارثها البعض دون إعادة النظر أو التفكير فيها ظنا منهم أنها هي الإسلام نفسه، مثل هؤلاء نجدهم في قوله تعالى"بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ(22) "([2]).

وتغيرت نظرة الرجل إلى المرأة مما ألحق ضررا بوضعيتها الاجتماعية، حيث همشت وتراجع دورها ومشاركتها في المجتمع، وطغت نظرة اللامساواة بين الرجل والمرأة وقد زاد في تكريس هذه النظرة التفسيرات والفتاوى المتعددة لبعض آيات القرآن لاسيما ما تعلق بالقوامة والجهاد والعمل والطلاق وغيرها من الأمور.

1/ العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، الجزء الأول، ص 951 .
2/ سورة الزخرف : الآية 22 .

إلا أن الإسلام ومع كل ذلك لم يمنح المرأة المساواة بالرجل في كثير من الحقوق وهو ما أثار كثيرا من الجدل والنقاش خاصة فيما يتعلق بالقوامة والإرث والشهادة والطلاق؛ فقد جعل الإسلام القوامة للرجل على المرأة في قوله تعالى :"الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (34)"([1]).

وقد أعطيت تفسيرات مختلقة ومتعددة للفظة (القوامة)، فقد جنحت بعض التفسيرات إلى الجانب الجسمي البيولوجي، ومنهم من جعلها قوامة نفسية سيكولوجية، وفريقا آخر ذهب إلى أن القوامة تتعلق بالجانب الاجتماعي والاقتصادي. وهي على الرغم من اختلافها، إلا أنها في رأيّ لا تبتعد عن المفهوم الحقيقي للقوامة وهو سمو درجة الرجل عن المرأة وهو ما زكاه الله تعالى في قوله:" وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228)"([2]).

وتنبثق عن هذه القوامة والدرجة والفضيلة التي منحها الله للرجل ثلاثة مجالات تظهر فيها الدرجة، وهي : الشهادة والميراث والطلاق. حيث جعل الله تعالى شهادة الرجل على المعاملات الاقتصادية والمالية، وغيرها ، مساوية لشهادة امرأتين وذلك لقوله تعالى : " ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ

1/ سورة النساء : الآية 34 .

2/ سورة البقرة : الآية 228 .

وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)([1]).

وجعل الإسلام نصيب الرجل ضعف نصيب المرأة في الإرث حيث قال تعالى :" يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ (11) "([2]) .

ويمنح الإسلام حق الطلاق للرجل إلا في بعض الحالات القليلة وقد ورد ذلك في آيات منها قوله تعالى :" الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(229)"([3]).

وقد انعكست هذه القوامة وتلك الدرجة على منع المرأة من الاشتغال ببعض الوظائف التي كانت حكرا على الرجال كالخلافة والإمامة والقضاء. وقد ثار خلاف كبير بين الفقهاء حول تفسير الآية الكريمة :(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ).

فقد رأى بعضهم أن القوامة قد انحصرت في الرجال دون النساء لأن الرجال يتمتعون بصفات قلما توجد عند النساء كحسن التدبير والرأي والقوة، وما دام الرجل هو الذي يتولى شؤون المرأة ويقوم عليها فلا يجوز لها أن تتولى ولاية عامة لتكون صاحبة سلطة وقوامة على الرجل بل لا يمكن أن تكون حتى مشاركة له في القوامة .

1/ سورة البقرة : الآية 282 .

2/ سورة النساء : الآية 11 .

3/ سورة البقرة : الآية 229 .

بل إن أصحاب هذا الرأي يرون أنه القوامة حتى وإن دلت على مسؤولية الرجل داخل الأسرة فقط، فإن هذا المعنى يبقى دليلا على أن المرأة لا تستطيع القيام بمسؤولية الأسرة فمن المنطقي أن تكون عاجزة عن إدارة شؤون الناس والفصل في أمورهم.

أما أصحاب الرأي الثاني وهو معارض للرأي السابق في تفسير الآية السابقة باعتبار أن العلاقة بين الرجل و المرأة في الشؤون العامة هي علاقة ولاية عامة بينما القوامة والدرجة تتعلقان بعلاقة الرجل والمرأة في تدبير شؤون الأسرة والتي تلزم الرجل بتحمل المسؤولية وأن عدم تكليف المرأة بمسؤولية الأسرة والبيت ليس دليلا على عدم أهليتها أو عجزها عن ذلك وإنما الأمر لا يعدو أن يكون من باب تقديم الأصلح للأسرة.

كما يرى أصحاب هذا الرأي أيضا أن القوامة تنحصر في الإنفاق على الزوجة والعيال فإن لم يقم الرجل بواجبه تجاه المرأة كان لها حق طلب الطلاق. و أن قوامة الرجل على المرأة ليست مطلقة.

كما اختلف الفقهاء حول الآية السابقة (الرجال قوامون على النساء) ،كذلك تفرقوا في تفسير الحديث النبوي الشريف حول ولاية المرأة، والذي رواه البخاري حيث جاء فيه" لما بلغ النبي – ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أن فارسا ملكوا ابنة كسرى قال: لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة "([1]).

حيث ذهب فريق إلى أن الحديث يشمل كل النساء ومختلف الولايات العامة. إلا أن بعضهم رأى أن الحديث خاصة بالخلافة فقط دون غيرها من الولايات الأخرى أي بما يسمى في عصرنا الحاضر برئاسة الدولة وهي الولاية العامة العليا والتي تقتصر على الرجل دون المرأة لما تتطلبه من صفات يتحلى بها الرجل كرباطة الجأش وتغليب المصلحة العامة على العاطفة والتفرغ التام لمعالجة قضايا المجتمع.

1/ ا العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، الجزء الأول، ص 304.

وهذا ما لا تستطيعه المرأة لأنه خارج عن طبيعتها وتفوق قدرته. لأن رئيس الدولة أو الخليفة في الإسلام هو قائد المجتمع ورأسه المفكر، وهو قائد الجيوش في الحروب، وهو خطيب الجمعة وإمام الناس في صلواتهم، وهو الذي يقضي بين الناس في الخصومات.

فإذا نظرنا إلى هذه المهام وتلك الوظائف، وجدناها لا تتفق والتكوين الفيزيولوجي والنفسي والعاطفي للمرأة وقد استند كثير من الفقهاء على حديث النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في النساء والذي جاء فيه " يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وأَكْثِرْنَ الاِسْتِغْفَارَ .فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فقالت امرأةٌ منهن، جَزْلَةٌ : وَمَا لَنَا يَا رَسُلَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ؟ قال : تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الَعِشيرَ، وَمَا رَأَيْتُ مَنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبِّ منكنَّ .قالت يا رسول الله : ومَا نُقْصَانُ العَقْلِ وَالدِّينِ ؟ قال: أَمَّا نقصان العقل : فَشَهَادَةُ اِمْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ .فَهَذَا ،نُقْصَانُ العَقْلِ .وَتَمْكُثُ اللَّيَالِي مَا تُصَلِّي .وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانِ .فَهَذَا نقصانُ الدِّينِ "([1]).

حيث ركز الفقهاء في تفسير هذا الحديث على التكوين الطبيعي للمرأة من حيث اعتبارها ناقصة عقل ودين وخلق وأن هذه الصفة لصيقة بأنوثة المرأة وميلها إلى العاطفة، وتغليب هوى النفس على العقل والمنطق. وبالتالي فإن هذا النقص يحول دون الاضطلاع بالمسؤولية الاجتماعية والقيام بأعباء المجتمع.

وقد استدلوا على ذلك من أن المرأة في عهد الرسول ـ صلّى الله عليه وسلم ـ وفي عهد الخلفاء الراشدين لم تول ولاية عامة ولا قضاء ولا ولاية إقليم ، وقد ذهب مذهبهم السلف ومن جاء من بعدهم.

1/ أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري : صحيح مسلم ،كتاب الإيمان ، الباب (34): باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق؛ الحديث رقم 132(79)، طبعة مزيدة ومنقحة ،دار الآفاق العربية، القاهرة ، 1426هـ-2005م،ص،124.

إلا أن بعض الفقهاء يرون أن الحديث السابق (لن يفلح قوم ولوا امرأة) حديثا يفسر في سياق ما ورد فيه أي في الزمن الذي قيل فيه وفي الحادثة التي كانت سببا فيه، فقد روى أن كسرى مزق كتاب النبي ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ إليه ، فدعا عليه النبي بأن يمزق ملكه، فسلط الله عليه ابنه فقتله، ثم قتل إخوته، ثم مات مسموما، فتولى أمرهم ابنة كسرى، فثبت دعاء النبي وتمزق ملكهم كل ممزق . فالحديث إذن عند هؤلاء خاص بقصه كسرى ويقوم فارس.

ومن الفقهاء من يرى أن المرأة يمكن أن تتولى الولاية العامة فالرئاسة والقضاء وقد استدل بعضهم على بما ورد من القران الكريم من قصة (بلقيس) ملكة سبأ التي كان تتولى أمور قومها وتحكمها بالشورى وقد تميزت فيما تميزت به بالحكمة وسداد الرأي والتدبير.

وقد أجاز كثير من الفقهاء للمرأة تولي الحكم وكذلك الإفتاء والقضاء ومن هؤلاء ابن جرير الطبري وابن رشد و ابن قدامة وابن حزم وغيرهم .

وأكد الشيخ محمد الغزالي هذا الرأي بقوله :" يجوز أن تتولى المرأة رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء، ومسألة ولاية المرأة للحكم ليست من اختراعي، و إنما قال بها من قبل عدد من الأئمة، من بينهم ابن حزم و ابن جرير الطبري، فقد رأوا أنها يمكن أن تكون حاكمة أو قاضية، لكنهم اتفقوا على أنه لا يجوز أن تكون المرأة خليفة للمسلمين "([1]).

وقد شكل هذا التشريع الذي طغت عليه كثير من التأويلات والتفسيرات الخاطئة صورة للمرأة توارثتها الأجيال عبر الأعصر، نسجت حولها الأساطير الشعبية التي دلت على دونية المرأة وضعفها حيث فرض الرجل سيطرته على المرأة منذ العصور الموالية لعصر الخلافة الراشدة.

وبقيت المرأة أسيرة هذه التفسيرات والفتاوى للآيات السابقة والأحاديث النبوية، وعاشت في العصور الإسلامية تعاني من سيطرة الرجل الذي يرسم لها حياتها ويحدد لها

1/ الغزالي ، محمد : قضايا المرأة ، د.ط ، دار الشروق ، القاهرة ، 1990م ، ص92 .

أسلوب عيشها وأنماط تصرفاتها بين ما ينبغي لها وما لا ينبغي، فقد كانت كل الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتى الدينية يديرها الرجال دون النساء يضعون قراراتها ويحددون قوانينها وأسسها ولم يكن للمرأة حيال ذلك من خيار إلا أن تخضع لتلك المؤسسات وتنصاع لمشيئة الرجل باعتبارها تابعة له ومنفذة لأوامره دون نقاش ولا جدال.

كذلك كانت المرأة داخل الأسرة في المجتمعات العربية عموما تفرض عليها وظيفة واحدة هي وظيفة البقاء بين جدران البيت طوال حياتها تابعة لإرادة الرجل سواء أكان والدها أو أخيها أو زوجها، لا تعدو وظيفتها أن تكون ولادة الأطفال ثم تربيتهم ومراعاة شؤون الزوج وحاجاته.

أمّا الدول والحكومات العربية الإسلامية ـ عموما ـ فإنها لم تعر المرأة الاهتمام اللائق بمكانتها ولم تبوأها مناصب في دواليب الحكم، إذ كانت كل المناصب في الحكومة من احتكار الرجل؛ إذ لم تشارك الرجل في وضع التشريعات والقوانين إلا في القليل النادر من الحالات الشاذة التي لا تشكل حكما عاما ولا قاعدة شاملة.

ولم تشارك في المسؤولية الدينية، فلم تكن تملك حق التشريع ولا حق تأويل النصوص الدينية، حتى أن بعضهم ذهب إلى أنه ليس الدين وحده الذي لم يسعف المرأة ومنعها من المساواة مع الرجل في بعض الحقوق السالفة الذكر .

بل إن اللغة أيضا تقف حاجزا في تحقيق تحرر المرأة من هيمنة الرجل، وأنها لا تسعف المتشدقين بتحرر المرأة حيث ترد المعاني اللغوية للفظة (مرأة) عند الخليل بن أحمد الفراهيدي بالدلالات التالية: "إن كلمة المرأة في اللغة مشتقة من فعل(مرأ) أي طعم، وهذه إشارة إلى علاقة المرأة بالطعام، ويقال مرأ فلانا مرءا أي صار كالمرأة هيأة أو حديثا، كما أن المرأة تجمع على غير اشتقاقها فيقال نساء ونسوة وتعرف المرأة بأنها مؤنث الرجل، والنساء تعني (المناكح)، وهذه إشارة إلى علاقة المرأة بالجنس وأصل (النساء) منبثق من فعل : نسا، ينسو، ومعناه ترك العمل، وهذه إحالة إلى معنى البطالة و كأن المرأة تعني البطالة وعدم الشغل.

يضاف إلى ذلك أن معاني المرأة ترتبط بعدة أفعال منها فعل (حرم) ويعني (منع) والحرم هو النساء لرجل واحد، وحرمة الرجل تعني حرمه وأهله. وكلمة (حرامي) مشتقة من الفعل نفسه، ومعناه من يفعل الحرام، كذلك فعل (جمع) الذي يشتق منه الجامع ومؤنثه الجامعة، وكذلك الجماع أي مواطأة المرأة، وأيضا فعل(زوج) أي البعل والزوجة أي الناكح أو الناكحة.([1]).

ويستخلص من المقبوسة السابقة أن" اللغة يمكن أن نستعملها وسيلة لصياغة خطاب تحرري تحدد مسبقا موقع المرأة ووظائفها داخل المجتمع، أي أنه قبل وضع القوانين التي تسعف الرجل في تدجين وتسبيح حضور وإيقاع المرأة ككائن، فإن اللغة تقدم له بشكل أولي، ما يرنو إليه، فالمرأة إذن حضور كائن ينحصر دوره في الإشباع الجنسي والعطالة وترتيب شؤون المؤسسة لاستمرارية النوع والنظام العام الذي يحكمه الرجل" ([2]). فحتى الذين يريدون الدفاع عن حقوق المرأة وتخليصها من سطوة الرجل، هؤلاء الذين انبروا للكتابة عن قضايا المرأة فإن اللغة تقف لهم بالمرصاد حيث لا تسعفهم في خطاباتهم في كثير من الحالات " فإن الكتابات العربية المتعلقة بمسألة المرأة سواء قام بها الرجال أو النساء والتي تريد أن تعطي لنفسها أبعادا تحررية، تنسى أن اللغة لا تسعفهم في الحديث عن التحرر" ([3]).

ومع ذلك فإن أن كثيرا من الكتابات العربية قد تبنت الخطاب التحرري المتعلق بالمرأة من حيث حقوقها ودورها في المجتمع منذ فجر النهضة العربية الحديثة، نتج عنه كثير من المفهومات، ولعل أكثرها تداولا في أوساط تلك الكتابات مفهوم تحرر المرأة أو ما يعبر عنه البعض بقضية تحقيق الذات أو قضية الحرية والمساواة، وما نجم عنها من مصطلحات وتسميات تصب كلها في حرية المرأة ومساواتها بالرجل في الحقوق والواجبات.

1/ ينظر : أفاية، محمود نور الدين : الهوية والاختلاف (في المرأة والكتابة والهامش)،د.ط ، دار إفريقيا الشرق، د.ت ، ص ص 35-36 .

2/ ينظر : المرجع نفسه ، ص 36.

3/ المرجع نفسه ، ص 37 .

فإذا رجعنا إلى المعاجم اللغوية القديمة والحديثة على حد سواء نجد معاني تحرير المرأة تدور حول مدلولات متنوعة ومختلفة، والملاحظ هنا أن كلمة (تحرير) لا توجد بهذه الصيغة في المعاجم القديمة بل نجد بعض جذور هذه الكلمة.

ففي لسان العرب نجد أن" المرأة الحرة، هي الكريمة من النساء" ([1]). وفي الرائد نجد "امرأة حرة أي هي المرأة الطليق"([2]). وفي (المعجم الوسيط)، نجد أن لفظة (حرية) لها معاني " الخلوص من الشوائب أو الرق أو اللؤم ، والحُرِّيَة كَوْنُ الشَّعْب أَو الرِّجُلِ حُرًّا، والحُرِّيَة (في الاقتصاد) : مذهبٌ اقتِصاديّ يرمي إلى إعفاء التجارة الدوليَّة من القيود والرُّسوم"([3]).كما أنها تعني التصرف بملء الإرادة والاختيار.

أما مفهوم تحقيق الذات فيعني تحقيق الحرية الفردية للمرأة بمعنى تحريرها من كل الضوابط الاجتماعية والدينية والاقتصادية التي ترسخت في المجتمع عبر العصور والأزمنة، وهي أيضا تعني صراع المرأة النفسي الذي تعانيه جراء الاضطهاد الذي تخضع إليه ؛ فالمرأة تعيش ازدواجية الشخصية فهي من جهة ترغب في تحقيق ذاتها و إثبات وجودها ومن جهة أخرى فهي تستسلم بوعيها وبلا وعيها إلى سجنها الداخلي الذي تقبله والذي ترسخ في أعماقها.

ويضاف إلى هذا صراعها الخارجي في محاربة أولئك الذين يعارضون سعي المرأة إلى التحرر من المفاهيم التقليدية البالية لمعنى الأنوثة القائم على الثالوث المحدد لدور المرأة في حدود الأمومة والزوجة والإنجاب.

ولا شك أن مفاهيم الحرية وتحقيق الذات والمساواة هي مفاهيم انبثقت عن الاحتكاك العربي الغربي منذ الحملة الفرنسية على مصر، وعن طريق البعثات العلمية واحتكاك المثقفين العرب بأفكار الثورة الفرنسية(الحرية والأخوة والمساواة).

1/ ابن منظور، جمال الدين : لسان العرب ،المجلد الرابع ، ص 215 .

2/ جبران، مسعود : الرائد ،ط 2 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 2001م ، ص 125.

3/ مصطفى إبراهيم وعبد القادر حامد والنجار محمد : المعجم الوسيط ، ط2، دار الدعوة، اسطنبول، 1987م ن 175.

حيث دخل مصطلح تحرير المرأة الوجود العربي عن طريق نخبة من المفكرين والمثقفين والدعاة الذين تزعموا الإصلاح الاجتماعي والديني والسياسي في العالم العربي والإسلامي من أمثال(جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده) و(رشيد رضا)و(عبد الحميد بن باديس) و(البشير الإبراهيمي)و(قاسم أمين) و(الطاهر حداد) و(علال الفاسي).

وعلى الرغم من الاختلاف بينهم في طريقة طرح أفكارهم إلا أنهم يجمعون على ضرورة البحث عن أسباب تخلف المجتمعات العربية وسبل بعث النهضة الفكرية والاجتماعية وأن أسباب هذا التخلف هو الظلم والاستبداد وانعدام العدالة الاجتماعية والمساواة بين أفراد المجتمع .

وقد اختلف رواد النهضة في التعبير عن آرائهم حيال قضايا متعددة منها على وجه الخصوص موضوع بحثنا هذا، أعني قضية تحرر المرأة .ولعل من نافلة القول أن مصطلح تحرير المرأة قد دخل إلى الثقافة العربية الحديثة بوجود كوكبة من المفكرين العرب من أمثال قاسم أمين الذي كان يرى أن مفهوم التحرر هو النهضة بالمرأة فكريا وثقافيا وضرورة تعليمها القراءة والكتابة لتكون متأهلة لأداء مسؤولياتها الأسرية والاجتماعية جنبا إلى جنب مع الرجل، حيث دعا إلى ضرورة البحث عن سبل الرقي بالمرأة وإصلاح المجتمع "كل محب للحقيقة أن يبحث معي في حالة النساء المصريات، وأنا على يقين من أنه يصل وحده إلى النتيجة التي وصلت إليها وهي ضرورة الإصلاح فيها" ([1]).

لذلك فقد ربط بين قضية المرأة وقضية الوطن، وارتقاء الأمم، فارتقاء الأمم يحتاج إلى عوامل مختلفة متنوعة من أهمها ارتقاء المرأة. وانحطاط الأمم ينشأ من عوامل مختلفة ومتنوعة أيضا من أهمها انحطاط المرأة، فهذا الانحطاط في مرتبة المرأة عندنا هو أهم مانع يقف في سبيلنا ليصدنا عن التقدم إلى ما فيه صلاحنا([2]).

1/ قاسم ، أمين : الأعمال الكاملة، تحرير المرأة ، تحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،1976 ص 97.

2/ ينظر : المرجع نفسه ، ص98 .

وقد اعتبر كتاب قاسم أمين " تحرير المرأة، من أخطر الكتب التي أحدث جدلا واسعا في أوساط المثقفين المصريين وعلى الرغم من أنه استند في آرائه على مبادئ الدين الإسلامي فهو لم يطالب بإلغاء الحجاب بحد ذاته و إنما طالب بإعادته إلى ما نصت عليه الشريعة الإسلامية حيث أورد كثيرا من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة لتدعيم آرائه منها ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :" إن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلم ـ وعليها ثياب رقاق فقال لها :" يا أسماء إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه "([1]).

على الرغم مما ذكر عن الكتاب إلا أنه تعرض إلى ردود وهجوم بشدة من قبل رجال الأزهر الذين كانوا يساندون الحكم السياسي في ذلك الوقت، ويؤازرون حكم الخديوي عباس المستبد والمتعاون مع الاستعمار الإنجليزي، كما هوجم الكتاب بشدة من قبل رجال السياسة المحافظين وبعض الأدباء. وقد أحدث هذا الكتاب زلزلة بمصر وأثيرت حوله ضجة وعاصفة من الاحتجاجات والنقد، ورد على قاسم أمين محمد طلعت بكتاب(فصل الخطاب في المرأة والحجاب)،ومحمد فريد وجدي بكتاب (المرأة المسلمة)، وكان أشد المعارضين، وعلى رأسهم (مصطفى كامل) الذي كتب في جريدة (اللواء) مقالا سنة 1901 يهاجم فيه الدعوة إلى تحرير المرأة، وأصدر محمد أحمد السولافي كتابا بعنوان (الجليس الأنيس في التحذير مما في تحرير المرأة من التلبيس).كما أصدر عبد الحميد خيري كتابه ضد تحرير المرأة تحت عنوان(الدفع المتين في الرد على قاسم أمين) .

1/ سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي أبو داود ، سنن أبي داود ، الباب 33 (فيما تبدي المرأة من زينتها) الحديث رقم 4106 ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الجزء الأول ، المكتبة العصرية ،بيروت ، د . ت ، ص 314.

ولكن قاسم أمين لم يتزعزع أمام النقاد وواصل في إصدار الكتب والمقالات ، إذ ردّ على معارضيه بكتاب (المرأة الجديدة) الذي أصدره سنة 1901م ، طالب فيه بإقامة تشريع يكفل للمرأة حقوقها، وخاصة الحقوق السياسية ، وأهداه إلى صديقه الزعيم سعد زعلول.

وعلى بعد قاب قوسين من هؤلاء المعارضين المتشددين ، الداعين إلى بقاء المرأة في الخدور، وقف في الطرف المقابل مجموعة من الأدباء التقدميين وعلى رأسهم أحمد لطفي السيد الذي استطاع مع زملائه أن يعبروا عن الفكر المتقدم في صحيفتهم (الجريدة)، كما ناصر الدعوة إلى تحرير المرأة في هذه الفترة سعد زغلول ولطفي السيد، وولي الدين يكن ومحمد حسين هيكل، وطه حسين، وسلامة موسى، ومصطفى فهمي، وفرح أنطوان، أحمد حسين الزيات، ومصطفى المنفلوطي.

أما في المغرب العربي فقد واكب رواد النهضة والأدباء حركة تحرير المرأة ولكنهم كذلك اختلفوا في طرحهم لهذه القضية بين محافظ ومتقدم حيث أعاد مفكرو النهضة العربية في المغرب العربي ومن جاء بعدهم الاعتبار إلى المرأة وطالبوا بحقوقها وربطوا مكانة المرأة بالوضع الاجتماعي عامة ، نذكر على سبيل المثال علال الفاسي الذي أصدر كتابا بعنوان (النقد الذاتي) سنة 1952م ،وقد رأى أن الانحطاط الذي أصاب المغرب والعالم الإسلامي، قد أدى إلى تأخر في مكانة المرأة التي أصبحت مجرد متعة. ودعا إلى ضرورة إرساء قواعد المساواة بين الجنسين حيث قال : " إن من حق المرأة أن تتساوى مع الرجال المساواة التي لا تتنافى مع طبائع الأشياء، لذلك يمكنها أن تشارك في الصالح العام بالخدمة والفكر والإرشاد، يمكنها أن تشغل مراكز العمل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في الجماعة وفي الدولة، وكل ما يدعيه الناس نقصا على المرأة عن مستوى القدرة الموجودة عند الرجل فليس إلا من آثار ما صنعته أجيال الاضطهاد وعصور الانحطاط، وأن المرأة القادرة إذا تركت وشأنها أن تصل للقيام بجلائل الأعمال ومهمات الأمور"([1]).

1/ الفاسي ، علال : النقد الذاتي ، مطبعة الرسالة ، الرباط، 1979م ، ص 305.

وفي تونس فقد أحدث كتاب (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) للشيخ الطاهر الحداد، الذي أصدره سنة 1930م ضجة كبرى كتلك التي أثارها كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين في المشرق العربي فقد ورد فيه أن " المرأة هي أم الإنسان، وهي نصف الإنسان، وشطر الأمة عددا وقوة في الإنتاج مع عامة وجوهه، فإذا كنا نحتقر المرأة ولا نعبأ بما هي فيه من هوان وسقوط فإنما ذلك صورة من احتقارنا لأنفسنا، وإذا نحبها ونحترمها فليس ذلك إلا صورة من حبنا واحترامنا لأنفسنا "([1]). وقد استند في آرائه إلى النصوص التشريعية ليخرج بخلاصة مفادها أن النصوص القرآنية لا يوجد فيها ما يمنع المرأة من تولي أي عمل في الدولة والمجتمع مهما كان هذا العمل عظيما.

وقد انتقد الشيخ عبد الحميد بن باديس هذا الكتاب حينما قرأه حيث قال :" كان صاحب هذا الكتاب حدثنا عنه أيام إقامتنا بتونس بالصيف الماضية، ففهمنا من حديثه أنه يتكلم فيه عن النهوض بالمرأة نهوضا صحيحا وتعليما تعليما مفيدا في حدود إسلامها التي هي بنظر كل عاقل منصف حدود الإنسانية الكاملة، وما توقعنا منه أن يكون ممن يدعون إلى الذهاب بها في تيار المدنية الغربية إلى ما يخرجها عن حدود دينها ووظيفة أنوثتها، فإذا بنا لما أهدى إلينا كتابه وطالعناه وجدنا ما هو أدهى من ذلك وأمر، وجدناه يدعو إلى إبطال أحكام عديدة من أحكام القرآن الصريحة القطعية الاجماعية، وتعطيل آيات عديدة من آياته بدعوى أنها غير لائقة بالنساء في هذا العصر" ([2]).

وهذا أمر طبيعي، لأن رأي ابن باديس في المرأة يختلف عن رأي كل من علال الفاسي والشيخ الحداد ودعاة تحرر المرأة من المشارقة، فمن المعروف عن الشيخ بن باديس آراؤه المعتدلة التي تخلو من الغلو والمبالغة فهو يرى أن " المرأة خلقت لحفظ النسل، وتربية الإنسان في أضعف أطواره (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) فهي ربة البيت

1/ الحداد ، الطاهر : امرأتنا في الشريعة والمجتمع ،الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1980م ، ص 15.
2/ الطالبي ، عمار : ابن باديس حياته وآثاره،ط2 ، الجزء الثالث ، دار الغرب الإسلامي ، 1985م، ص475.

وراعيته والمضطرة بمقتضى هذه الخلقة للقيام به. فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها، ونربيها على الأخلاق النسوية التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل ونصف امرأة. فالتي تلد لنا رجلا يطير خير من التي تطير بنفسها" ([1]).

وهو لا يرى مانعا في تعليمها حتى تستطيع تربية أبنائها خلقيا وتعليمهم كي يمكن تدارك التدهور الخطير في أخلاق المجتمع الجزائري حيث يقول :" البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال وتدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتها في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن" ([2]).

ذلك أنه عندما أسس جمعية التربية والتعليم سنة 1930م، نص في قانونها الأساسي على أن البنات يتعلمن مجانا بخلاف البنين إذ قال :" فأما البنون فلا يدفع منهم واجب التعليم إلا القادرون، وأما البنات فيتعلمن كلهن مجانا لتتكون منهن – بإذن الله – المرأة المسلمة المتعلمة" ([3]).

إن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى حرص الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس على ضرورة إخراج المرأة من غياهب الجهل والظلام، والأخذ بيدها عن طريق التعليم إلى آفاق المعرفة الواسعة لتكون عضوا فعالا في مجتمعها ..

أما الشيخ راشد الغنوشي فقد كانت له آراء كثيرة عن تحرير المرأة وعن أوضاعها الاجتماعية أوردها من خلال كتابيه (الحريات العامة في الدولة الإسلامية) الذي صدر سنة 1993م، عن مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، حيث جاء فيه على وجه الخصوص بأن الموقف المعارض لمشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية غير مبرر شرعا وليس في الإسلام ما يمنع المرأة من الولاية العامة أو القضاء أو الإمارة.

1/ الحداد ، الطاهر : امرأتنا في الشريعة والمجتمع ، ص 469.

2/ تركي ، رابح : الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر ،ط3 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ،1981م ، ص 293.

3/ المرجع نفسه ، ن ص.

وقد استند راشد الغنوشي في كثير من آرائه هذه إلى ما جاء عند بعض الفقهاء القدامى من أمثال (ابن جرير الطبري) والإمام (أبي حنيفة) والفقيه (ابن حزم) الذي أجازوا للمرأة لا مجرد المشاركة في الانتخابات أو الانتماء إلى الأحزاب أو القيام ببعض الوظائف في الدولة كالكتابة والوزارة بل أجاز لها تولي القضاء وهو من الولاية العامة التي تقاس شروط الإمامة عليها ([1]).

أما في كتابه الثاني الذي عنوانه(المرأة بين القرآن وواقع المسلمين) الذي صدر عن دار الشروق سنة 2012م، فنجد فيه جملة من الآراء الجريئة الداعية إلى ضرورة إعادة قراءة النصوص الشرعية بما يتماشى مع الواقع المعاصر وأن بعض التأويلات التي صدرت عن فقهاء العهود السابقة كانت متماشية مع تلك الفترة قاصرة على تلبية حاجات الفترة الراهنة حيث يقول في ذلك :" إن عددا كبيرا من المفاهيم المتعلقة بالمرأة تحتاج إلى إعادة نظر في ضوء النصوص الثابتة وتقدير أن الصورة التي اتخذتها المرأة في بعض العصور الإسلامية ليس إلا صورة من الصور الممكنة التي عبر بها المسلمين عن دينهم في ظروف سياسية واجتماعية خاصة... فإذا تغيرت تلك الظروف كان للمسلمين أن يترجموا عن دينهم في صورة اجتماعية أخرى تكون أكثر أمانا للنصوص الثابتة (من قرآن وسنة) وملبية لمطالب المرحلة "([2]).

ولعل هذا يرجع إلى أن حركة الشيخ راشد الغنوشي كانت أكثر تقدمية من حركة الإخوان المسلمين في مصر، حيث أن الشيخ راشد الغنوشي يرى بأن المرأة شخص كامل "من حيث إنها إنسان مساوية للرجل، وهي مخاطبة مثل بتكاليف الشريعة، فهي مسؤولية كاملة، لا يحمل عنها في الدنيا ولا في الآخرة تبعات أعمالها غيرها... فهي تحدد مصيرها بنفسها، فتبرم باختيارها الشخصي مختلف العقود : عقدا مع الله فتؤمن به وتطيعه

1/ ينظر : الغنوشي، راشد : الحريات العامة في الدولة الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، 1993م، ص ص 128 ـ 130.

2/ الغنوشي، راشد : المرأة بين القرآن وواقع المسلمين ، ط1 ، دار الشروق ، القاهرة ، 2012م ، ص70.

أو ترفض ذلك، ومع الرجل الذي تختاره زوجا، وتتصرف فيما تملك بكل حريتها من دون تدخل من أي جهة كانت"([1]).

ثم أورد قوله تعالى:" إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35) "([2]). ثم علق على هذه الآية بقوله :" فما ذكر الرجال في موطن خير إلا ذكر النساء على حد سواء "([3]).

فإن الله عز وجل سوى بين الرجال والنساء في الأعمال والأفعال كما سوى بينهما في المغفرة والأجر العظيم. فلا تفاضل بينهما في العمل ولا فرق بينهما في الجزاء والعقاب.

ولم تقتصر الدعوة إلى تحرير المرأة على الرجال فقط بل إن النساء أيضا كان لهن حظ وافر في الدفاع عن حرية المرأة وقضاياها الاجتماعية والاقتصادية. ذلك أن المرأة العربية شاركت بقلمها منذ بداية معركة التحرر وقد برز في هذا النطاق نساء كثيرات من مختلف أقطار البلاد العربية، فقد برزت عائشة التيمورية (1840- 1902) بقلمها الذي جمع بين الأدب التركي والعربي والفارسي في الشعر والنثر.

وقامت زينب فواز (1845 – 1914) ـ وهي كاتبة تحررية لبنانية ـ بالمحاولات الأولى للتعريف بالكتابات النسوية والتراث النسائي، حيث جمع إنجازات ما يزيد عن أربعمائة وست وخمسين امرأة من الشرق والغرب ووثقت عملها تحت عنوان (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور). وأصدرت كتابا آخر تحت عنوان (الرسائل الزينبية) الذي دعت فيه إلى حقوق المرأة في الثقافة والعمل والمواطنة .

1/ الغنوشي، راشد : المرأة بين القرآن وواقع المسلمين ، ص 70 .

2/ سورة الأحزاب : الآية 35 .

3/ الغنوشي ، راشد : المرأة بين القرآن وواقع المسلمين ، ص 71.

واشتهرت في هذه الفترة الكاتبة مالك حفني ناصيف المشهورة باسم (باحثة البادية)(1886- 1917). والتي شاركت بقلمها في الدعوة إلى تحرير المرأة، ومع أنها عاصرت قاسم أمين إلا أن آرائها تعد متممة لدور رفاعة الطهطاوي(1801- 1873). وقد نبغت ملك حفني ناصيف في التأليف إلى حد أن لطفي السيد قال أن كتاباتها صورة للكاتبات العربيات اللاتي تفوقن على كثير من الكتاب الرجال.

وقد أكدت ذلك سهير القلماوي حيث ذكرت أن الدعوة عند باحثة البادية سميت إصلاحا وسماها قاسم أمين تحريرا ذلك أن رفاعة الطهطاوي لم يدع علنا إلى سفور المرأة وتحررها، وإنما دعا إلى تعليمها والمساواة بينها وبين الرجل.

وتذكر كتب التاريخ الأدبي أنها كانت أول خطيبة مصرية في نادي حزب الأمة، فهي التي أسست (الاتحاد النسائي التهذيبي). كما نادت سنة 1911م، بإصدار تشريع يكفل للمرأة حقوقها الاجتماعية والتعليمية، إلا أن موقفها من الحجاب والسفور كان كما - أسلفت الذكر- متمما لموقف رفاعة رفعت الطهطاوي، حيث كانت محافظة من هذا الجانب لأنها ترى أن الوقت لم يحن أوانه بعد، وأنها متمسكة بالموقف الديني في هذه القضية وقد صرحت بذلك في قولها:

أما السفور فحكمـــــــــــه *** في الشرع ليس بمعضـــــــــــل

ذهب الأئمة فيـــــــــــه *** بين محـــــــرم ومحـــــــــــلل

ويجوز بالإجماع مـــــــــنه *** هم عند قصـــــد تأهـــــــــل

من بعد أقـــــــــوال الأ *** ئمة لا مجـــــــــال لمقـــــولي

وقد قرنت دعوتها لإصلاح المرأة بالدعوة إلى الثورة وطلب الحرية. ([1]).

ومن النساء اللاتي برزن في مجال الدعوة إلى تحرير المرأة نجد كلا من : نبوية مصطفى ولبيبة هاشم والأميرة فاطمة إسماعيل، التي كانت من المتحمسات لتأسيس

1/ ينظر: وادي ، طه : صورة المرأة في الرواية المعاصرة ، ط4 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1994م ، ص 32.

الجامعة المصرية بالقاهرة حيث تبرعت بالكثير من ماله الخاص للجامعة ومنهن أيضا هدى الشعراوي والأميرة (عين الحياة) ...([1]).

وتعد الأديبة مي زيادة واحدة من أبرز النساء اللاتي دافعن عن حقوق المرأة في الحرية والتعليم " فهي المرأة العربية التي استطاعت رغم تخلف نظرة المجتمع للمرأة أن تنشئ صالونها الأدبي في القاهرة (1915م- 1916م) وكان يحضر ندوتها الأدبية كل ثلاثاء طائفة من الأدباء والمفكرين المصريين والعرب، وكانت في العشرين من عمرها، ومع ذلك استطاعت بفكرها الناضج الذكي أن تجمع حولها شيوخ الأدب والفكر في مصر" ([2]) .

وقد لعبت الصحافة العربية دورا رائدا في نشر الوعي النسوي وظهور بعض الكاتبات والشواعر وغيرهن، مما خلق وعيا أدبيا أدى إلى تطور فكر المرأة و إشراكها مع الرجل في إبداء الرأي.

فقد استطاعت الكاتبة السورية (هند نوفل) إصدار المجلة النسائية الأولى سنة (1892) بعنوان (الفتاة)في مدينة الإسكندرية . كما ظهرت مجلات عدة تهتم بشؤون المرأة وقضاياها الاجتماعية والاقتصادية منها على سبيل المثال : مجلة (أنيس الجليس) ومجلة (فتاة الشرق) ومجلة (الحياة الجديدة). وقد ظهرت في تلك الفترة ما يربو عن خمس وعشرين مجلة نسوية في العالم العربي تملكها وتحررها وتنشرها نساء، وقد دعت في معظم كتاباتها إلى تعليم المرأة ومشاركة الرجل في صراعه لتحرير الوطن العربي، وقد أظهرت المرأة العربية آنذاك جرأة نادرة في التعبير عن آرائها.

وتجدر الإشارة في هذا الإطار إلى أن ظهور الأدب النسوي والدعوة إلى تحرير المرأة كان وثيق الصلة بحركة التحرر النسائية في الغرب والتي أطلق عليها مصطلح (النسوية) التي "في أصولها حركة سياسية تهدف إلى غايات اجتماعية تتمثل في حقوق

1/ ينظر: وادي ، طه : صورة المرأة في الرواية المعاصرة ، ص 31.

2/ السعداوي ، نوال: دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، ط2 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ،1990م،ص806.

المرأة وإثبات ذاتها ودورها، والفكر السنوي بشكل عام أنساق نظرية من المفاهيم والقضايا والتحليلات تصف وتفسر أوضاع النساء وخبراتهن، وسبل تحسينها وتفعيلها وكيفية الاستفادة المثلى منها" ([1]).

وهي حركة نسوية ثارت ضد القمع والقهر الاجتماعي الذي تمارسه سلطة الذكور على الإناث، وهي تضم كل جهد عملي أو نظري لاستجواب أو تحدي أو مراجعة أو نقد أو تعديل النظام البطريركي (الأبوي) السائد طوال تاريخ الحضارة الغربية، وقد ظهرت هذه الحركة في الوطن العربي بداية القرن العشرين، حيث دعت الحركات النسوية إلى ضرورة إتاحة الفرص المناسبة لتعليم المرأة، معتقدة أنه سيؤدي إلى تطوير وضعها الاجتماعي وقد بدأ استعمال هذا المصطلح (النسوية) في مصر في حدود سنة 1920م .

ونخلص من كل ما سبق أنه تعددت الكتابات الداعية إلى تحرير المرأة سواء تلك التي ألفها الرجال أم التي أنشأتها النساء وبتعددها اختلفت من حيث اتجاهاتها وفلسفتها وأهدافها، ونتج عن ذلك ظهور تيارات في الكتابات التي تناولت قضايا المرأة ؛ تيار سلفي محافظ يرى أن الغلبة للرجل وأن المرأة يمكن أن تكون حرة ولكنها حرية مقيدة بطبيعتها الأنثوية، وتيار يغلب النظرة النسوية ويرى أن المرأة حرة حرية مطلقة، وأنها قادرة على أن تأتي بما لم يأت به الرجال.

ومن هنا تنوعت الكتابات بين كتابات ذكورية وأخرى أنثوية، وللتميز بين الاتجاهين يمكن القول بأن" كل كتابة تعطي الأولوية للرجل على المرأة تدخل ضمن الاتجاه الذكوري، وكل كتابة تعترف بالمساواة بين الجنسين أو تمنح الأولوية للمرأة على الرجل تدخل ضمن الاتجاه الأنثوي، وتشير كلمة الأولوية إلى معان ودلالات كثيرة، كالأولوية في الخلق والقوامة والدرجة والحق في الطلاق والعمل والتعددية والحق في الملكية...وغيرها من

1/ الخولي ، يمنى طريف :" النسوية وفلسفة العلم" ، مجلة عالم الفكر ، العدد02، المجلد 34 ، أكتوبر- ديسمبر 2005م ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ،ص 12.

الدلالات والممارسات التي تعبر عن تفوق الرجل على المرأة أو العكس، فهذه الدلالات والممارسات تشكل حقولا يحتدم فيها الصراع بين الاتجاهين الذكوري والأنثوي" ([1]).

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن كل الكتابات التي أنتجها الأدباء والفقهاء والشعراء والفلاسفة والعلماء والتي تحدثوا فيها عن المرأة أيا كانت الموضوعات والقضايا التي تناولتها تلك الكتابات سواء أكان وصفا جسديا للمرأة أو سلوكيا أو تعبيرا عن حقوقها وواجباتها أو ما تناقلته الكتابات من نوادر وحكايات وممارسات بعض الرجال مع النساء....كل ذلك يدخل ضمن الكتابات المعبرة عن صورة المرأة ويندرج ضمن تلك الكتابات كل ما كتبه عباس محمود العقاد، علال الفاسي ، راشد الغنوشي، ابن باديس، الطاهر الحداد ، عبد الواحد وافي، مصطفى السباعي وعبد الحميد خيري وأحمد البولاقي وغيرهم من الأدباء والمفكرين والعلماء.

وحري بنا هنا نشير إلى أن هؤلاء قد يختلفون في مواقفهم من حرية المرأة فيما يتعلق بالعمل والتعليم، حيث أن بعضهم قد يعترف بحقها في التعليم دون حقها في العمل إذ يرفض خروجها من البيت إلا أنهم يتفقون في المسائل الشرعية والقانونية ؛ فيتفقون جميعهم على عدم مساواتها المطلقة للرجل في عدة مسائل كالشهادة والإرث ومسألة القوامة والدرجة، وبالتالي فهم على الرغم من اختلافهم في بعض المسائل المتعلقة بقضايا المرأة إلا أنهم يرون أولوية الرجل على المرأة وهذا ما يجعلهم يمثلون التيار الذكوري.

أما الاتجاه الأنثوي فيمثل كل الكتابات التي تدعو إلى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة أو أنها تفضل المرأة على الرجل في بعض المجالات ولا فرق في ذلك بين ما كتبه الرجال أو النساء، إذ " يمكن القول بأن هذا الاتجاه قد اهتم بكل قضايا المرأة بدءا بجسمها وجنسها وانتهاء بحقوقها، ولا شك أن اهتمام هذا الاتجاه بكل قضايا المرأة قد استلزم منه إنتاج خطابات مستفيضة اتهم فيها الإسلام تارة والتاريخ تارة أخرى. كما أن تلك

1/ أفرفار ، علي : صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني ، ط1 ،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ، 1996م، ص91.

الخطابات قد اتخذت في بعض الأحيان صفة القدح والهجوم على كل فرد لا يعترف بالمساواة التامة بين الجنسين "([1]) .

فكل الكتابات التي أنتجها الأدباء والشعراء والعلماء والتي تخوض في قضايا المرأة الاجتماعية والاقتصادية والتي تغلب أولوية المرأة على الرجل أو تساوي بين المرأة والرجل هي كتابات أنثوية حتى وإن كان أصحابها ذكورا.

ويمكن القول أيضا إن أصحاب هذا الاتجاه هم غالبا ممن تأثروا بالحضارة الغربية أو بالنموذج الغربي لاسيما الفرنسي منه في الدعوة إلى الحرية والمساواة والأخوة أي مبادئ الثورة الفرنسية. كما أن بعض أصحاب هذا الاتجاه من الأدباء الذين زاولوا دراساتهم الجامعية بجامعات أوروبا وأمريكا.

وهذا لا يمنعنا من أن نقول أيضا إن أدباء النهضة العربية هم الذين مهدوا لدعوة تحرير المرأة ومنحها حقوقها التي أمرها إياها الإسلام نذكر من أولئك الرواد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده الذي أرجع ضعف المسلمين إلى جهل المرأة ولذلك دعا إلى ضرورة تعليمها، كما هاجم التعددية في الزواج وطالب بالقضاء على نظام الجواري.

ورفاعة رفعة الطهطاوي الذي دعا في كتابيه (المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين) الذي صدر سنة 1872م والذي دعا فيه بحماس إلى وجوب تعليم المرأة، وفي كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الذي أصدره سنة 1905م ، والذي دعا فيه إلى ضرورة المساواة بين المرأة والرجل. وأحمد فارس الشدياق في كتابه : (الساق على الساق فيما هو الفرياق) الذي صدر سنة 1852م، و(كشف المخبأ عن فنون أروبا) الذي صدر سنة 1854م ، حيث تحدث فيهما عن حقوق المرأة ووظيفتها الاجتماعية.

ومنهم أيضا علي مبارك الذي دافع عن حق المرأة في التعليم من خلال كتابه (طريق الهجاء والتمرين على اللغة العربية) والذي أصدره سنة 1871م.

1/ أفرفار ، علي : صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، ص 96.

إلا أني أعتقد أن أكثر الأدباء جرأة في طرح قضايا المرأة كان قاسم أمين في كتابيه (تحرير المرأة) الذي صدر سنة 1898م والذي بحث فيه حالة النساء المصريات والدعوة إلى تعليم المرأة، وكتابه (المرأة الجديدة) الذي أصدره سنة 1901م الذي كان فيه أكثر تقدمية والذي أحدث جدلا واسعا ليس في مصر وحدها بل في الأقطار العربية كلها.

أما من النساء اللاتي ينضوين تحت هذا الاتجاه فنذكر على سبيل المثال الرائدات الأوائل من أمثال : عائشة التيمورية وباحثة البادية (ملك حفني ناصيف) ومن المعاصرات نذكر: سلوى الخمّاش في كتابها(المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف) الذي صدر سنة 1973م. والذي عالجت فيه كثيرا من قضايا المرأة المعاصرة مثل قضية الذكورة والأنوثة وقضية التعددية وقضية المساواة بين الجنسين، وقد اتسمت آراؤها بالجرأة وباتهام الدين الإسلامي بالتحيز إلى الرجل على حساب المرأة حيث تقول :" إذا أخذنا الصورة التي ترسمها الأفكار الدينية للمرأة في ذهنية الرجل، نجد أنها تمثل المرأة مخلوقا ضعيفا يخشى عليه من الزلل، ولابد من حمايتها نفسيا وجسميا، وسترها عن الأعين، ووجوب أن يكون الرجل الوصي القوام عليها الذي له الحق أن يستمتع بها، سواء كانت زوجة أو أمة أو جارية وسواء كان هذا الاستمتاع مقصورا على زوجة واحدة أو أكثر، ووجوب الطاعة له وعدم إباحة حتى بوادر النشوز "([1]).

لست هنا بصدد الردّ على هذا مثل هذا الهراء من الآراء، ولكني لا أستطيع السكوت إزاء هذه المغالطات والتفسيرات الهوائية لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، وأقول في عجالة إن مثل هذه الآراء مبنية أساسا على سوء فهم لمبادئ الدين الإسلامي ككل وللعلاقة الصحيحة والسليمة بين الرجل والمرأة مثلما نصت عليها الشريعة الإسلامية.

ولعل أبرز من مثلت هذا الاتجاه من النساء المعاصرات نوال السعداوي من خلال مؤلفها (دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي) والذي يتضمن خمسة أجزاء تحت

1/ الخمّاش، سلوى : المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف ،ط3، دار الحقيقة ، بيروت ،1973م، ص15 .

العناوين التالية: (المرأة والجنس) و(الأنثى هي الأصل) و(الرجل والجنس) و(المرأة والصراع النفسي) و(الوجه العاري للمرأة العربية).

وقد عالجت في هذه الأجزاء كثيرا من القضايا المتعلقة بالمرأة والرجل، بجرأة متناهية ربما لا يقدر الرجال على طرحها لأنها لا تزال من الطابوهات المحرمة، وكأن نوال السعداوي تريد من خلال معالجة هذه الموضوعات أن تبيّن بأنها أكثر جرأة وشجاعة من الرجل، وهذا ربما يثبت أفضليتها على الرجل، عكس ما كان متداولا عبر العصور والأزمنة..

فهي ترى أن المرأة تشكل خطرا بارزا يلاحق الرجل، إذ " تمثل المرأة الأنثى للرجل خطرا وخوفا قديما مرتبطا بالجنس ، ويريدها كالملاك الضعيف المستكين ، يريدها طاهرة كاملة أو غير أنثى ، ولكنه في الوقت نفسه يريدها ويشتهي فتنتها وسحرها ، لكن يفزع من هذه الفتنة التي يقع أمامها صريعا فاقد القوى " ([1]).

ليس هذا فحسب بل إن نوال السعداوي قد طعنت في الفروق البيولوجية بين الأنثى والرجل واعتبرت أن المرأة هي الأصل حيث تقول : " إن البحوث الجديدة في علم الأجنة أثبتت خطأ الفكرة التي قالت بأن الجنين يكون في أول تكوينه مزدوج الجنس، وقد وجد أن الجنين في كل الحيوانات الثدية يكون في أول مراحله أنثى، وكذلك في حالة الإنسان . فإن الجنين ينشأ في الأصل أنثى، ويستمر حتى الأسبوع السادس حيث يبدأ الهرمون الجنيني الذكري فعله حتى الشهر الثالث من حياة الجنين " ([2]).

إلى غير ذلك من القضايا التي أثارتها الكاتبة ومن خلالها أرادت إثبات أسبقية المرأة وأولويتها على الرجل ويظهر هذا حتى من خلال الدلالة السميائية لعنوان الكتاب (دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي) فقد قدمت المرأة عن الرجل وكذلك الأمر

1/ السعداوي ، نوال : دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي ، ص 799.

2/ المرجع نفسه ، ص 184.

بالنسبة إلى عناوين أجزاء الكتاب حيث تحدثت في واحد منها فقط عن الرجل والبقية كلها عن المرأة وقد سبق ذكر تلك العناوين.

فهي ترى أن وجود الإلاهات الإناث (كاللات والعزى) لدليل على مكانة المرأة في تلك المجتمعات أو عند تلك القبائل تقول في ذلك :" وكان وجود الإلاهات الإناث (كاللات) و(العزى) انعكاسا لارتفاع مكانة المرأة في تلك القبائل العربية، وانعكاسا للمجتمع الأموي الذي كان موجودا عند بعض القبائل في ذلك الوقت "([1]).

لست أدري أي مجتمع أموي تتحدث عنه الكاتبة ونحن نعلم أن المرأة في تلك الفترة (العصر الجاهلي) كان الناس يتساءلون هل هي إنسان أم لا ؟ بل إنها كانت بضاعة تباع وتشترى وتورث كما يورث المتاع، أي مجتمع أموي تحكي عنه نوال السعداوي؟ وكانت المرأة تؤد فيه حية دون رحمة ولا رأفة من أبيها.

وعموما فإن أصحاب هذا الاتجاه الأنثوي يسعون من خلال كتاباتهم عن المرأة إلى إبراز قيمة المرأة وتفوقها على الرجل من جوانب عدة جسدية وعقلية وعاطفية وجنسية ونفسية، إضافة إلى ذلك فإنهم يطالبون بإعادة قراءة النصوص الشرعية وتفسيرها بما يناسب العصر، لاسيما فيما يتعلق بالقضايا التي تتميز فيه الرجل عن المرأة في كالقوامة والدرجة وحق الطلاق والإرث والولاية..

وهي القضايا محل الجدال والخصومة. ويرى أصحاب هذا الاتجاه أيضا أن الرجل لجأ إلى سن هذه القوانين الشرعية حتى يسيطر من خلالها على المرأة التي هي أقوى منه وتخيفه " فقد اتضح أن الرجل لم يستطع أن ينتزع من المرأة سيادتها التي أعطتها لها الطبيعة إلا عن طريق ادعاء قوانين إلهية جاءت من عند الآلهة وباحتكار الآلهة ومعابدهم للذكور، وتحريم دخولها على النساء، وظهر أن الرجال لم يحتكروا الآلهة والمعابد إلا حينما شعروا بقوة المرأة في الحياة الدنيا "([2]).

1/ السعداوي ، نوال: دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي ، ص 327

2/ المرجع نفسه ، ص 397.

وبالرغم من رؤية كل تلك الجعجعة فإن الطحين لم يُرَ ؛ ذلك أن أصحاب هذا الاتجاه لم يستطيعوا تجاوز التشريع الإسلامي أو تغيره لأن الواقع الاجتماعي متشبث به ومنصاع إليه، وهذا ما يجعل دعواهم تبقى متأرجحة كصخرة سيزيف، أو مترنحة كسير الغراب.

وقد انقسم الأدباء والشعراء – كما سلف الذكر – بين مؤيد لهذه الأفكار التحررية دون قيد ولا شرط، وبين قابل لبعض ما جاء فيها دون تجازوا للشرع، أعني أن بعض الأدباء اكتفى بالدعوة إلى حرية المرأة في العمل والتعليم واختيار الزوج وممارسة بعض النشاطات الاقتصادية وبعض الوظائف بما يتماشى والشرع.

وقد تناول نجيب الكيلاني قضايا المرأة العربية في أغلب رواياته حيث دافع عن حقها في الحياة والحرية والعمل والتعليم والعيش بكرامة، وقد استطاع أن يجسد صراع المرأة مع العادات البالية والقيم المتزمتة التي حالت دون تحقيق أحلام المرأة خاصة الريفية التي حددت دورها في أعمال البيت أو الحقل. ولعل نجيب الكيلاني سعى من خلال النماذج التي سنوردها إلى كشف تلك الحقائق وربما تصحيح تلك النظرة الخاطئة إلى مكانة المرأة ودورها في المجتمع .

وقد عالج نجيب الكيلاني قضية تحرر المرأة من خلال نماذج نسائية متعددة عبر كثير من رواياته الاجتماعية والسياسية والتاريخية ولا يسعنا المجال لإيراد كل تلك النماذج، إنما سوف نكتفي ببعضها لإبراز وجهة نظر الكاتب لهذه القضية.

ثانيا : المرأة والسعي إلى الحرية وتحقيق الذات في روايات نجيب الكيلاني:

ولعل من أبرز النماذج التي جسدت هذا الدور في روايات نجيب الكيلاني، أعني قضية تحرير المرأة نجد شخصية(صابرين) في رواية (النداء الخالد)،وشخصية (جليلة) في رواية (رمضان حبيبي).

أـ (صابرين) في رواية (النداء الخالد) : في هذه الرواية رصد الكاتب الواقع السياسي لمصر إبان الحرب العالمية الأولى وما جرته من ويلات على حياة الشعب المصري لاسيما في الريف، كما رصدت هذه الرواية المقاومة الوطنية للإنجليز وقيام ثورة 1919م. وقد

جسدت الرواية الممارسات الوحشية للإنجليز ضد المصريين خاصة ما تعلق بإجبار الشباب والرجال الأشداء على العمل في خدمة المعسكرات الإنجليزية وتهيئة الطرقات والسكك الحديدية وتغريب هؤلاء الشباب عن ديارهم بالقوة.

في غضون هذه الظروف المأساوية يربط الكاتب بين حرية الوطن وحرية المرأة فيقدم لنا شخصية صابرين على أنها فتاة ريفية تلقت مبادئ القراءة والكتابة منذ صغرها على يد محصل الضرائب في القرية " لطيف أفندي " وأصبح في مقدرتها أن تقرأ الجرائد والكتب كالمأثورات النبوية وقصص (الأميرة ذات الهمة) و(الزير سالم) و(سيف بن ذي يزن) وبعض الصحف والمجلات، وقد خلقت لها الكتابة والقراءة عالما جميلا رائعا وخاصة بعد أن احتجزها أبوها داخل أسوار البيت بعد أن بلغت سن النضج، ولم تعد ترى الناس إلا من خلال قضبان النوافذ والأبواب الشبه مغلة "([1]) .

في هذا السجن العالي الأسوار والمغلق الأبواب نشأت (صابرين) ابنة عمدة قرية (شرشابة) من مركز(زفتي)، نشأت تتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، وتقرأ الكتب، ولعل الملفت في النظر أن هذه الفتاة الريفية المحدودة الثقافة تقرأ كتابا من كتب (قاسم أمين) وتتأثر بأفكاره فيما يخص تحرير المرأة، ليس هذا فحسب بل إنها تجسد هذا الواقع من خلال صراعها مع الظروف القاسية، وتدافع عن حريتها وأهليتها في التعلم، مما يجعلها تنتقد بشدة النظرة القاسية لها كفتاة حصر دورها في منزلها، وتطالب بالتغيير وقد عبرت عن ذلك في رسالة بعثت بها إلى (أحمد أفندي شلبي) وهو باش مهندس تخرج من جامعة القاهرة وشارك بقوة في المقاومة ضد الإنجليز، وقد نشأت علاقة حب بينه وبينها على الرغم من العداوة التي كانت سائدة بين العائلتين، قبل أن يتدخل الشيخ عنبة لإصلاح ذات البين بين الأسرتين، لاسيما بعد توبة العمدة وإقلاعه عن ما كان يقوم به من أعمال استبدادية ضد الفلاحين.

1/ الكيلاني ، نجيب : النداء الخالد ، د.ط ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2005م، ص ص 52 - 53.

فقد كتبت تقول في الرسالة : "... إن بنفسي حديثا أريد أن أفضي به إليك، وقد يكون حديثي عن الحب ، لكنه ليس خارجا عن معاني الثورة الشاملة... أشعر يا أحمد أنني أتغير يوما عن يوم.. لم أعد (صابرين) التي تعرفها في السنوات الماضية... إنني أضيق بالسجن الذي أعيش فيه... أضيق بالتقاليد القاسية التي أرزح تحت عبئها... أشعر أن ثورة أخرى تثور في دمائي. وليس ذلك من الانحراف في شيء... إنني إنسانة حية ذات كيان يلتهب ومشاعر وأفكار، إن (قاسم أمين) الذي قرأت يكتب كلاما غريبا عن المرأة وحقوقها.. لكنه ليس غريبا بالنسبة لي فإنني أحس باستجابة حقيقية لكلمات هذا إنه يطالب بتعليم المرأة، وهذا حق لا أثر فيه للباطل، ويطالب باحترام إنسانيتها الرجل.. ومشاعرها.. إعطائها الحرية للتعبير عن نفسها في حدود الأخلاق المرعية...وهذا حق أيضا...ويريدها أن تحمل جزءا من التبعة الملقاة على عاتق المجتمع نساء ورجالا... لكنني لا أوافق (قاسم أمين) في مسألة السفور، هذا رأيي، وباختصار فإن هذا الرجل عظيم يرسي قواعد ثورة اجتماعية إلى جانب الثورة السياسية كما يقول أحد الذين كتبوا عنه، وعن مقالاته في الصحف.

ـ أخي أحمد .

يجب أن أكون أنثى حرة متعلمة "([1]) .

هذه هي جملة الأفكار التي تؤمن بها هذه الفتاة الريفية، وهي أفكار تنم عن وعي وجودي راسخ وإثبات للذات المفردة المستقلة، وهو وعي يستدعي مقاومة اليقين الذكوري الراسخ بأن لا جدوى من تعليم المرأة طالما أن مآلها في النهاية إلى بيت الزوجية. وقد ولد هذا الوعي بالحرية وبالوجود الذاتي المستقل صراعا عنيفا مع محيطها وكان الصراع بدءا مع والد صابرين الذي لا يعترف أصلا بهذه المبادئ التي جاء بها هذا الرجل– الكافر – في معتقده.

1/ الكيلاني ، نجيب : النداء الخالد ،ص 134.

ويظهر هذا الصراع الفكري بين صابرين ووالدها من خلال هذا الحوار الذي دار بينهما:

- فيم كنت تقرئين ؟

ـ وصلتني جريدة الجمهور .

ـ .. إنها جميلة و إن كانت ناقصة.

- ما وجه النقص فيها؟ إنها جريدة محلية صغيرة .. ثم إنها تجربة .. مجرد تجربة.

قالت صابرين:

- ليس فيها شيء عن المرأة .. ليتهم يعيدون كتابة مقالات "قاسم أمين" فيها.

قال أبوها في اعتراض :

- أعوذ بالله... إنه رجل خارج عن الدين .

- من قال ذلك يا أبي؟ نحن نظلمه.

- يا بنيتي .. الحريم للبيت ولخدمة أزواجهن وأولادهن ولا شيء غير ذلك.

قالت صابرين:

- ثلاثة أرباع نساء القرية يذهبن للعمل في الغيظ.

- وماذا في ذلك؟

- أعني أن الغيظ كالمدرسة ... كالدواوين.. فكيف نصرح للمرأة بالذهاب إلى الغيظ ولا نسمح لها بأن تتعلم أو تتوظف؟. ([1]) .

وينتهي الحوار على هذه الشاكلة، فكل منها متشبث برأيه؟ فأبوها رجل فلاح غير متعلم لا يرى إلا ما تمليه عليه تقاليده التي لا يمكن أن يتنكر إليها، وهي متشبعة بآراء قاسم أمين ولا تريد أن تحيد عنه قيد أنمله، وترى أن هذه الأفكار لا تخرج عن الدين ولا تتعارض مع التربية الإسلامية..

1/ الكيلاني ، نجيب : النداء الخالد ،ص ص146 ـ 147.

وهذه الفتاة تملك جرأة نادرة الوجود في محاورة أبيها ومجادلته في موضوعات تعتبر في تلك القرية من الموضوعات المحرمة أو لأقول من الموضوعات التي لا تجرأ الفتيات القرويات على الاقتراب منها أو حتى التفكير فيها، ومع ذلك فإننا نجد (صابرين) تصدح برأيها الرافض لزواجها من ابن خالها لأنها لا تحبه وإنما ترغب في الزواج من أحمد شلبي الذي تحبه.

لذلك نجدها تقول لوالدها بكل جرأة :

" - أنا لا أريد أن أتزوجه.

وانتفض أبوها جالسا، وقال وهو يرمقها بنظرات حائرة:

- لعلك تمزحين ؟

- أنا أعي ما أقول.. لا أريد أن أتزوجه"([1])

ولا تكتفي بهذا الرفض بل إنها تجادل والدها وتذكره بأنه الشرع يفرض على ولي الأمر أن يأخذ رأي الفتاة في زوجها. مما يغضب والدها فيصرح قائلا :

- جميل.. جميل .. خزعبلات ملأت بها رأسك من الكتب والمجلات الخليعة. هذه هي نتيجة مبادئ (قاسم أمين) ومن على شاكلته " ([2]).

ثم يخبرها في صرامة أنها سوف تتزوج ابن خالها على الرغم منها لأن أباها قد قال ذلك وأن كلامه كلام رجل...

ومع ذلك فهي لا تتوقف عن الجدال لتقول مرة أخرى:

- كنت أحسبني أطالب بحقي الشرعي... من أبي الذي يحبني ويرجو سعادتي.

وهو ما جعل أباها يثور قائلا :

- الشّرع أنا الذي أعرفه لا أنت.. وسعادتك أعرف أين تكون، أنت طائشة تعيشين في عالم من الخزعبلات والبدع. ([1]).

1/ الكيلاني ، نجيب : النداء الخالد ، ص 148 .

2/ المصدر نفسه ، ص149 .

وقد كانت لهذه الفتاة من الشجاعة والقوة النفسية ما جعلها تخبر أباها عن الفتى الذي تريد الزواج منه، وهو الأمر الذي جعل الأب يجن جنونه ويتمنى في تلك اللحظة أن ينقض على عنقها ويعتصره اعتصارا، وقذف بكوب الليمون في وجهها صارخا :

- أخرجي من أمامي يا عاهرة...أخرجي ([2]).

لكن هذا الأب الغاضب يناقش مع زوجته زواج ابنته ويبحثان الموضوع من كل زواياه، وتوصلا إلى نتيجة مفادها أن (صابرين) قليلة الأدب ومخطئة ووقحة وأن العمدة قد سبق أن قطع على نفسه وعدا بتزويج ابنته من أبن خالها، إلا أنهما يريان بأن أحمد أفندي شاب ممتاز ويفضل على ابن الخال، وقد حاول الشيخ (عنبة) ـ إمام القرية ـ هو الأخر إقناع العمدة بزواج ابنته (بأحمد أفندي) وهو ما تنتهي به الرواية.

إلا أننا عند قراءة هذه الرواية لاحظنا بعض الأخطاء الفنية التي وقع فيها الأديب، منها على وجه الخصوص عدم تناسب الأدوار مع الشخصيات التي أسندت إليها ، والربط غير المنطقي للأحداث، والمبالغة في سرد بعضها، وغير واقعية بعض ما روي من حوادث ؛ من ذلك أنه أسند دور الفتاة الواعية، المتحررة إلى صابرين وهي فتاة ريفية لا تكاد تعرف المبادئ الأولى للقراءة والكتابة، وقد تعلمتها من محصل الضرائب فهي لم تطأ قدماه المدرسة ، فكيف يعقل أن تقرأ هذه الفتاة كتب قاسم أمين وتفهم مبادئه وتسير على منوالها.

كما أن بعض الأحداث لا تتماشى والعادات والتقاليد التي درجت عليها القرية، علما أن تلك الأحداث وقعت حوالي سنة 1914م أي عند وقوع الحرب العالمية الأولى، وفي مجتمع مصري محافظ، فكيف تجرؤ فتاة على مناقشة والدها العمدة في أمر زواجها؟ هذا من جهة. ومن جهة ثانية، نجد أحمد أفندي شلبي ـ وهو الفتى المتعلم ـ وعلى الرغم من حبه لصابرين، لا يجرؤ على الحديث مع والده أو حتى أمه في أمر خطوبة صابرين، ويلجأ إلى

1/ الكيلاني ، نجيب : النداء الخالد ، ص 148 .

2/ المصدر نفسه ، ص ن .

الشيخ (عنبة) ليتوسط له عند والده، فعندما قرأ (أحمد) رسالة صابرين أحس بأنها أكثر منه شجاعة حيث " لم تعد صابرين في نظره مجرد فتاة ريفية ساذجة، وهذا ما ينمي به حبه لها، وتقديره لشخصيتها، بل إنه رأى أنها أكثر شجاعة وثورية منه، لأنه لم يجرؤ على أن يفاتح أباه في أمر زواجه."([1]).

وهناك مفارقات كثيرة لا تكاد تتكئ على منطق ولا موضوعية منها مثلا ادعاء الكاتب أن المرابي اليهودي الخواجة (بيني) يمتلك خمارة بوسط القرية وقد كان السبب في إفلاس(عبد المتعاطي الشافعي) وغيره من أهل القرية " وكانت هذه الفرصة الذهبية للخواجة (بيني) ورفاقه.. كانت الخمارة التي يديرها الخواجة تقع في أوسع وأهم شارع من شوارع القرية.." ([2]).

وهذا أمر نشك في حدوثه في قرية مصرية أيام الحرب العالمية الأولى، فكيف يسكت أهل هذه القرية الطيبة على منكر كهذا..

ب ـ (جليلة) في رواية (رمضان حبيبي):

أما رواية (رمضان حبيبي) والتي كانت تدور أحداثها حول الصراع العربي الإسرائيلي في حرب (06 أكتوبر ـ 10 رمضان سنة 1973م).وقد امتزجت فيها الأحداث السياسية بالأحداث العاطفية المتمثلة على وجه الخصوص في قصة الحب التي عاشتها (جليلة) مع (أحمد)، والتي لم تتوج بالزواج إلا بعد تذليل ما كان بينهما من خلافات في وجهات النظر، لاسيما ما يتعلق بفهم كل منهما للحرية ووجودها، ذلك أن جليلة تنظر إلى الحرية بمعناها الواسع الذي لا تحده حدود، فهي امرأة متأزمة نفسيا ترفض أن تنطمس هويتها ضمن هذا المجتمع الذي لا يعترف لها بشخصيتها المستقلة، فهي فتاة مريضة بالانفتاح.

1/ الكيلاني ، نجيب : النداء الخالد ، ص135 .

2/ المصدر نفسه ص 45 .

ولذلك تسعى إلى إثبات الذات المنفردة " إن لجليلة نظرتها الخاصة للحياة ، ودراستها الاجتماعية والنفسية إلى جانب عملها كأخصائية اجتماعية، قد جعلا منها فتاة مريضة بما يسمى (الانفتاح)... الانفتاح على الحياة والناس والأفكار، وتعتقد جليلة أنه من الضروري أن تدرس كل شيء، وتتمعن في أي حدث، وتدرس كل شخصية، وتحاول جاهدة أن تبحث عن الدافع وراء كل سلوك أو تصرف...فهي في نظر نفسها متفتحة متعمقة، ولا يهم بعد ذلك أن يرى الناس عكس ذلك، ولا قيمة لأن يكون انفتاحها ضربا من التحلل أو أن يكون تعمقها غرورا أكثر منه حقيقة، إنها تستمتع بشخصيتها... بانفتاحها وتعمقها للشخصيات والأحداث" ([1]).

فهي تعاني من الأزمة الوجودية على الرغم من انفتاحها وتعمقها، فهي تعيش صراعا خطيرا في نفسها، وتحاول أن تختار بين طرفين نقيضين، بين (أحمد عبد الفتاح) " ذلك الشاب الهادئ الوديع الخجول المتدين"([2]) وبين (فتحي) صديق شقيقها الذي له "سوالف طويلة، وشعر مرجل، ويدخن نوعا من السجائر الفاخرة مستوردة من الخارج، خال من العقد والقيود والمخاوف..." ([3]).

لذلك فهي دائمة المقارنة بينهما ، حيث " شعرت بشيء من الحرج، ووجدت نفسها تقارن بينه وبين (فتحي) صديق شقيقها " ([4]).

إن جليلة تمارس حريتها على نطاق واسع ودون حدود، حتى وإن كان ذلك مخالفا لبعض القيم الدينية والاجتماعية، فهي لا تمانع في أن يخطبها (أحمد) من نفسها في غرفة

1/ الكيلاني، نجيب: رمضان حبيبي، ط4، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، ، 1999م ، ص 11.

2/ المصدر نفسه ، ص04 .

3/ المصدر نفسه ، ص 05 .

4/ المصدر نفسه ، ن ص .

الأخصائية الاجتماعية بالمدرسة الخاصة " وقال أحمد في بساطة غريبة :(جئت طالبا يدك..) " ([1]) .

ولعل جليلة تفهم الحرية على أنها الخروج عن ضوابط الأسرة أو بالتخلي عن التقاليد الاجتماعية لذلك فهي لا ترى حرجا في أن تمضي أوقاتا للمتعة والتسلية مع (فتحي) في كازينو الشجرة "وهرعت جليلة إلى الخارج، كان فتحي، صديقها وصديق أخيها في انتظارها، كازينو الشجرة مكان هادئ جميل على شاطئ النيل، صفحة الماء تمتد على مساحة كبيرة ...وعلى صدرها التجعدات والتنهدات والنسمات والذكريات ... كان في انتظارها .." ([2]).

فحريتها لا تمنعها من الاستمتاع حينما يخفض الرجل رأسه ويقبل يدها " تناول يدها وصافحها في حرارة .. ثم قبل ظاهر يدها... ابتسمت... لكم يحلو لها أن ترى رجلا يخفض رأسه من أجلها، ويلثم يدها كالعابد الخاشع"([3]).

إن جليلة تعيش بمنطق أن وجودية الإنسان تتمثل في حريته ورفض ما هو مفروض عليه من المجتمع، هذا المجتمع الذي تتذمر منه، وتحلم بمجتمع جديد، له تقاليد وعادات جديدة، " لشد ما تتضايق من السكون والتزمت والتقاليد ...كانت دائما تحلم بمجتمع جديد له تقاليد وآداب جديدة من صنع أفكارها، وعلى هوى خيالها "([4]).

تلكم هي جليلة المتحررة الراغبة في تحقيق وجودها الإنساني، الباحثة عن تحقيق ذاتها بوعي وإرادة وخيار حر بغض النظر عن أي اعتبار آخر وتلكم هي وجودية سارتر التي أعلنت أن الإنسان سيد مصيره، وأنه قادر على خلق ذاته وحيدا مستقلا عن الآخرين يختار هذه الذات في حرية تامة لا يؤمن إلا بصنع يديه، ونتاج عقله، ويعيش في تضاد بين الصدق واليقين.

1/ الكيلاني، نجيب: رمضان حبيبي ، 07 .

2/ المصدر نفسه ، ص 13 .

3/ المصدر نفسه ،ص 13 .

4/ المصدر نفسه ، ص 05.

لذلك تخرج جليلة من كازينو الشجرة وهي أكثر قلقا مما كانت عليه قبل دخولها الكازينو " ومضت في طريقها.. المدينة ذات الوجهين.. ليل ونهار.. صدق وكذب ..خير وشر...أحمد وفتحي.. وأنا المنحوسة جليلة أعيش في منطقة شبه الظل، أتأرجح بين النظريات والأفكار التي أقرأوها عن الأخريين، وأتذبذب بين أذرع الراقصين، وقبلات الخاطفين، وبين تزمت أحمد وانطلاق فتحي، وإيمان أمي وعصيان صديقتي ، أحل مشاكل الناس وأنا نفسي مشكلة عويصة أعقد من مشكلة الشرق الأوسط " ([1]).

وتبقى جليلة أسيرة الحيرة والقلق تنقاد لنزواتها ورغباتها وتنصاع لرغبات (فتحي) الذي يطلب منها السفر معه إلى بيروت، فلا تمانع وتسافر دون أي اعتراض من أهلها على الرغم من أنها تخبرنا في بداية الرواية بأن أمها متدينة "كانت الرحلة مذهلة بالنسبة لجليلة، كانت بيروت تكتظ بالناس، والمجالس غاصة بالمغامرين والتجار ورجال السياسة والأدب والإجرام وأسواق الرقيق، حرية مخيفة، وانفجارات وأحيانا اغتيالات ، ذهب ودماء وورق وبضائع، وغابات من الوحوش الأنيقة، والناس يأكلون ويشربون ويغنون ويصخبون ويسبون ويبيعون ويشترون "([2]).

إلا أن الملفت للنظر في هذا السفر أن جليلة لم تعبث في شرفها على الرغم من أن السفر دام ثلاثة أسابيع ومع رجل مثل فتحي الذي عرف عنه بأنه يسعى جاهدا لتحقيق شهواته المادية ولو على حساب كرامته، وخيانة وطنه، فقد كان عبدا لأهوائه ونزواته ومطاردته النساء، فهو القائل " لم أكن أفكر في وطن ولا شرف ولا كرامة ..كان أمامي المال والنساء والرجال المتأنقون لم يكن يربطني بالناس أو بالوطن شيء يذكر .. ولا أعرف الله المعرفة الحقيقية "([3]).

1/ الكيلاني، نجيب: رمضان حبيبي ، ص 18.

2/ المصدر نفسه ، ص 23 .

3/ المصدر نفسه ، ص 81 .

كيف تنجو فتاة ضعيفة مثل(جليلة) من براثن هذا الوحش البشري؟ الذي يعيش معها ثلاثة أسابيع في بيروت، ويدعها تعيش في غرفة خاصة في فندق (بلاز) بشارع الحمراء " ولم ينل منها فتحي سوى الجلسات والرقصات والقبلات المسروقة التي لم تشعر لها بطعم.."([1]) .

فالحقيقة أن مثل هذه التصريحات التي نجدها على لسان الروائي نجيب الكيلاني من خلال السارد لا تستقيم وهي بعيدة عن الواقع الذي تعيشه جليلة.

ونجد في نهاية هذه الرواية أن(جليلة) تتعرض إلى صدمة موجعة تزعزع كيانها وتجعلها تعيد حساباتها وتغير نظرتها إلى كثير من النظريات التي كانت تؤمن بها، فقد ألقي القبض على فتحي بتهمة الخيانة الكبرى أو التجسس على الوطن لحساب العدو وقد حكم عليه بالإعدام أولا ثم خفف عنه الحكم عندما اعترف بكل شيء وقد ساعد ذلك التحقيق والقبض على كل المتورطين في تلك القضية، وهذه الصدمة أثرت إيجابا على(جليلة) هذه الشخصية النامية المتطورة عبر أحداث الرواية.

كذلك فقد تأثرت جليلة بالحوارات والجلسات التي كانت تجلسها مع(عبد الفتاح) والد (أحمد) وكذلك الحوارات المتكررة مع أحمد في قضايا الحب والدين والوطن والجهاد والاستشهاد، مما جعل جليلة تغير موقفها من(أحمد) الذي كانت تتهمه بالرجعية والتعصب والتخلف، إذ أصبحت تميل إليه وتبتعد عن صديقها السابق فتحي ذلك الإنسان المهزوم المتخاذل الذي كان رمزا للسقوط الفكري والانحلال الخلقي والتردي السياسي، حيث كان همه الوحيد هو جمع المال الوفير عن طريق العمل جاسوسا لحساب إسرائيل .

كل ذلك جعل "جليلة تخوض معتركا نفسيا عنيفا، التجربة مريرة، فتحي وخديعتها فيه، ذهابها إلى لبنان بغرض الفسحة ، الخونة يتخذونها ستارا لمطامعهم الدنيئة.. لولا

1/ الكيلاني، نجيب: رمضان حبيبي ، ص 42.

لطف الله لنشرت صورتها في الصحف، وتناولتها الألسن في كل مكان، وتلوثت سمعتها، إن حادث فتحي كان كالصفعة القوية المباغتة التي أيقظتها من غفلتها.."([1]).

وتستيقظ جليلة من غيها وتدرك أن لها دورا ينبغي أن تقوم به لخدمة هذا الوطن، فتشارك في المقاومة الشعبية بالسويس حيث تشتغل بتمريض جرحى الحرب، فكانت " تضمد الجرحى، وتنتقل من مكان إلى مكان في عربة الإسعاف، وكانت القذائف تنهال على السويس صباح مساء..." ([2]).

وينهي نجيب الكيلاني الرواية نهاية سعيدة حيث توافق جليلة على الزواج من أحمد ، ويتضح ذلك من خلال هذا الحوار الذي دار بينهما حلال زيارة جليلة لبيت أحمد بعد خروجه من السجن الإسرائيلي:" وعندما أوشكت من الاقتراب منه همس قائلا :

- متى يا جليلة ؟

- اسأل أمي ...

- لماذا تماطلين.

- ابتسمت وقالت : لقد انتهت المعركة.

- المعركة لم تنتهي بعد..

قالت في غضب مفتعل :" إذن لا زواج بعد المعركة.

- منذ متى توقفت المعارك؟ لابد أن نتزوج، وننجب أطفالا أصحاء ليواصلوا المعركة وينتصروا. قالت وهي تخفض رأسها في حياء:

- موافقة.

صاح بطريقة أفزعتها :

- بشرط .

-ما هو ؟

1/ الكيلاني، نجيب: رمضان حبيبي ، ص 92.

2/ المصدر نفسه ، ص 107.

قال أحد :

- الزّيّ الشرعي .

- هذه مسألة شكلية.

- الشكل والمضمون يا جليلة كيان واحد...

طأطأت رأسها ثانية وقالت :

- موافقة .

أخرج المصحف من جيبه ثم وضعه فوق أيديهما وهو يقول :

-هذا عهد الله.." ([1])

وبهذا تكتمل صورة (جليلة) التي وقفت مواقف مختلفة امتزجت فيها الحرية المطلقة دون مراعاة لأية قيمة اجتماعية أو مبدأ ديني، وبين مواقف ملزمة فيها بدورها الاجتماعي المنوط بها وفق ما ترسمه الشريعة الإسلامية .

ولعل الروائي أراد من خلال هذه الشخصية ومن خلال النهاية السعيدة التي رسمها لها أن يؤكد على أن الشر نهايته قريبة ومؤلمة وأن الخير هو الذي ينتصر في النهاية.

ويظهر ذلك على مستويات مختلفة ومن خلال حوادث الرواية وشخوصها ؛ أولها أن فتحي صديق جليلة السابق تنتهي حياته نهاية بفاجعة مأساوية ، حيث أقدم على الانتحار، بعد إلقاء البوليس القبض عليه بتهمة التجسس لحساب العدو الإسرائيلي، وثانيا انتهاء حرب رمضان بانتصار العرب على اليهود ، وربما على العالم كله من خلال ما أبدوه من اتحاد وقوة في المشاركة في الحرب سواء من خلال العمليات العسكرية على جبهات القتال أو عن طريق قطع العلاقات الدبلوماسية مع الدولة المساندة لإسرائيل، أو قطع البترول على الدول المؤيدة لإسرائيل. مما أحدث شرخا عميقا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، داخل دولة إسرائيل نفسها، وهو الأمر الذي وضع حدا ونهاية لأسطورة الجيش الذي لا يقهر أمام زحف الجيوش العربية ؟

1/ الكيلاني ، نجيب : رمضان حبيبي ، ص ص 126 ـ 127 .

وأخيرا انتصار(جليلة) على نفسها والخروج من حياة الاغتراب والقلق والاكتئاب النفسي إلى حياة الأمن والاستقرار، والتصالح مع الذات، فلم تعد جليلة المنحوسة التي تعيش في الظل بل صارت جليلة التي "يغرقها طوفان من السعادة "([1]). جليلة الممرضة التي تقدم يد العون إلى مرضى وجرحى الحرب ، جليلة الاجتماعية المقبلة على الحياة الزوجية مع أحمد وكلها أمل في مستقبل واعد، لا تشوبه شائبة ولا يعكر صفو أيامه معكر ولا منغص.

1/ الكيلاني، نجيب: رمضان حبيبي ، ص 126 .

الفصل الثاني
حق المرأة في التعليم والعمل

الفصل الثاني
حق المرأة في التعليم والعمل

أولا : مطالبة المرأة بحقها في التعليم والعمل

ثانيا : المرأة والمطالبة بحق التعليم والعمل في روايات نجيب الكيلاني

أ ـ الحكيمة (فضيلة علاَّم) في رواية (رجال ذئاب)

ب- الممرضة(رجاء) في رواية (عمر ظهر في القدس)

ج – الفنانة (صافي) في رواية (ليالي السهاد)

د- المدرِّسة (نبيلة عبد الله) في رواية (رحلة إلى الله)

هـ ـ الصحافية (صفاء) في رواية (رأس الشيطان)

أولا : مطالبة المرأة بحقها في التعليم والعمل:

لقد تعرضت المرأة فيما مضى في المجتمعات العربية إلى أبشع صور الاستغلال من طرف الرجل الذي كان يمتلك جميع الأدوات التي تمكنه من إحكام سيطرته وفرض هيمنته على المرأة ،ومن تلك الأدوات : العادات، التقاليد والأعراف الجائرة التي خولت للرجل التحكم في مصير المرأة و توجيهها إلى الوجهة التي يراها. تلك العادات التي انحرفت عن المسار الحقيقي لتعاليم الدين الإسلامي الذي كرم المرأة واعتبرها مخلوقا مساويا للرجل ولم ينظر إليها كإنسان من الدرجة الثانية .

ولقد لعبت العلوم الحديثة دورا فعالا في تكريس هذه الهيمنة بشكل أو بآخر، ولعل الأمرّ في هذا المجال هو تلك النظريات الفلسفية التي تكرس دونية المرأة و تمكن الرجل من السيطرة الاقتصادية والسياسية ،لذلك كان مطالبة المرأة بحقها في العمل من أوليات إثبات وجودها والاعتراف بحريتها ذلك أن العمل يوفر لها نوعا من الحرية الشخصية ، فاعتمادها على نفسها اقتصاديا يجعلها في موقف قوة تجاه الرجل الذي كان يستضعفها لا لشيء سواء لأنه هو الذي يعمل على إعالتها وأطفالها ومساعدتها على استمرار حياتها وحياتهم .

وفي ذلك تقول نوال السعداوي: "لم يكن ممكن التحكم في أجساد النساء والعبيد من الرجال الأجراء في الأرض دون حرمانهم و حرمانهن من القوة الاقتصادية والسياسية والفكرية . لا يمكن التحكم في الجسد الإنساني دون التحكم في العقل والروح. هكذا تم تحكم الفكر الفلسفة أو الدين على النساء العبيد و فرض عليهن العمل دون أجر في الأرض أو في البيوت..." ([1]) .

1/ السعداوي ، نوال : توأم السلطة والجنس،ط2، مكتبة مدبولي،القاهرة،2006 ،ص 12.

فقضية عمل المرأة شكلت رصيدا كبيرا للروائيين العرب رجالا ونساء في القضية الاجتماعية الأكثر تداولا في الأعمال الروائية " فالمرأة كما يقال نصف المجتمع، وهي كالرجل لها أذواقها وآمالها وتنتابها عوامل القوة والضعف والنصر والهزيمة وتستقيم وتنحرف ولها مشاكلها كعضو في الهيئة الاجتماعية، لكن رسالتها الأولى ترتبط بواجباتها الزوجية وبالأمومة ، ولقد وضع الإسلام لها الإطار الصحيح الذي تسعد به، وينعكس على المجتمع بالخير والفلاح ،كما أوضح لها حقوقها المختلفة في الزواج والطلاق والميراث والتعليم و غير ذلك من الأمور التي لا مجال للاستطراد فيها"([1]).

هذا هو الدور الذي يسنده الكيلاني للمرأة فهي عضو فعال في المجتمع بما تتربع عليه من مكانة اجتماعية لم تكن لتصل إليها لولا تمكنها من المشاركة في الحياة الاجتماعية بما تقدمه من أعمال سواء داخل البيت أو خارجه . وقد اختار الكيلاني صورا متعددة للمرأة العاملة لأن العامل الاقتصادي ـ كما سلف الذكر ـ يعد أمرا مهما في تحرير المرأة، واستقلال شخصيتها لأن خروجها للعمل ومشاركتها الرجل في بناء اقتصاد الأمة كفيل بتنمية شخصيتها و جعلها أكثر حرية واستقلالية لأنها بالعمل سوف تساهم في إدارة الجانب الاقتصادي للأسرة إذ تشارك في الإنفاق على الأسرة وبالتالي تكون ندا للرجل .

وقد تناول نجيب الكيلاني هذه القضية من خلال مجموعة من النسوة العاملات في مختلف المجالات الاقتصادية، الاجتماعية، فهناك الطبيبة مثل (الحكيمة نادية)، والطبيبة (فضيلة) في رواية (رجال و ذئاب).وهناك الممرضات من أمثال : (منال) في(الربيع العاصف) و(كاميليا) في(الذين يحترقون) و (رجاء) في رواية (عمر يظهر في القدس) وغيرهن . وهناك المرأة الخادمة التي اضطرتها ظروف الحياة إلى العمل في بيوت الأثرياء من ذلك (بسيمة) الخادمة في رواية (الطريق الطويل)،كما نجد المرأة الفنانة التي احترفت

1/ الكيلاني ، نجيب : مدخل الى الأدب الإسلامي، ص107 – 108.

التمثيل مثل (صافي) في(ليالي السهاد) كما نجد الراقصة(شمس) في رواية (الرجل الذي آمن)، و(نجمة الليل) في (ليالي تركستان) و(زمردة أو ياقوتة) في (اليوم الموعود)،كما نجد من النسوة من امتهنت الصحافة مثل (صفاء) في (رأس الشيطان)،يضاف إلى هؤلاء جميعا المرأة التاجرة كـ (أم صابرين) في (امرأة عبد المتجلي)،وهناك المدرّسة مثل (نبيلة) في (رحلة إلى الله) وكذلك نجد الفلاحة مثل (براعم) في(ملكة العنب) .

والجدير بالذكر أن هناك كثيرا من العوامل التي تدفع المرأة إلى العمل منها الحاجة والفاقة، وقد يكون العامل موت المعيل زوجا كان أو أبا، وهناك من يدفعها سعيها إلى تحقيق ذاتها عن طريق العمل، ومن هن من تعاني من الاغتراب في أسرتها و لذلك ترى في العمل مخرجا لعزلتها واندماجا في مجتمعها.

والملاحظ أن مجال الطب والأطباء والمستشفيات والعيادات الطبية والممرضات تشكل كلها محورا رئيسيا في أعمال نجيب الكيلاني الروائية ،حتى صارت ظاهرة تستحق الدراسة المستفيضة ،ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن الكاتب كان طبيبا ، فأثرت حياته المهنية على نتاجه الأدبي بصورة عامة، ليس هذا فحسب بل إن حياة السجن كان لها حضورا وافرا في رواياته أيضا.

كذلك النضال السياسي لجماعة الإخوان المسلمين ...فالمتتبع لروايات الكيلاني وقصصه يدرك دونما كبير عناء أن الروائي لا شك في أن له علاقة وطيدة بعالم الطب والأطباء أو أن الرجل على دراية واسعة بهذا الجانب ذلك أن كثيرا من الشخصيات في رواياته كانت تعمل في حقل الطب أو في ميدان الصحة عموما ، فمنهم الأطباء و الطبيبات والممرضات وطلبة الطب والصيدلية.

وأن كثيرا من أحداث رواياته دارت في المستشفى أو في المراكز الصحية أو الوحدات الصحية، وبلغة الأرقام والإحصاء الدقيق يمكن أن نقول : إن شخصية الطبيب تكررت ثلاثا وعشرين مرة في ثلاث عشرة رواية ،وهذا يعني أن هذه الشخصية قد تتكرر أكثر من مرة في العمل الروائي الواحد. ومثال ذلك رواية (عمر يظهر في القدس)

ورواية (أهل المحمدية) ورواية (رجال وذئاب) حيث تكررت في كل منها ثلاث شخصيات للطبيب، وقد تنوعت هذه الشخصيات بين رئيسية وثانوية وبين ثابتة ونامية. ومثل ذلك بالنسبة إلى شخصية الممرضة التي كانت لصيقة بالطبيب بطبيعة العمل الطبي، حيث وردت هذه الشخصية تسع مرات في ست روايات.

ثانيا : المرأة والمطالبة بحق التعليم والعمل في روايات نجيب الكيلاني:

وقد وجد في روايات نجيب الكيلاني نماذج متعددة للشخصيات النسوية التي تمثل المرأة المطالبة بحقها في التعليم والعمل ، لذلك اقتصرت في الدراسة التطبيقية لتلك النماذج المتوفرة في روايات على مجموعة من الشخصيات النسوية ،هي : الحكيمة (فضيلة علام) في رواية(رجال و ذئاب)،والممرضة (رجاء) في رواية (عمر يظهر في القدس)،والفنانة (صافي) في رواية (ليالي السهاد)،والمدرِّسة (نبيلة عبد الله) في رواية (رحلة إلى الله)، والصحافية (صفاء) في رواية (رأس الشيطان).

وهي النماذج الأكثر تعبيرا عن قضية مطالبة المرأة بحقها في التعليم والعمل ، وسنعرض لها بشيء من التفصيل:

أ ـ الحكيمة (فضيلة علاَّم) في رواية (رجال ذئاب) :

يصفها السارد في خلاصة فيقول :"فضيلة تخطت الخامسة والعشرين ،كانت أصغر البنين و البنات، أختها رندة خريجة الآداب ، مدرسة إنجليزي، متزوجة من ضابط بالجيش برتبة مقدم ، وسميرة صيدلانية، وتزوجت من طبيب نسائي وولادة بمستشفى الجلاء، وأخوها سعد صحفي بدار أخبار اليوم تزوج هو الآخر من صحفية زميلة ..."([1]) .

وهي طبيبة بالقصر العيني يطمح زميلها الدكتور عادل فتوح في الزواج منها، فهو معجب بأخلاقها، ويطمع في أن يحظى بالجاه والمكانة لما تتميز به عائلة فضيلة من مكانة

1/ الكيلاني، نجيب: رجال وذئاب، طبعة جديدة منقحة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، التوزيع بيروت، 2001،ص 30.

اجتماعية مرموقة " فالحجاب الذي تلبسه يحمل الالتزام والصدق ،لقد حاول إقناعها بخلقه فرفضت، لم يتضايق كثيرا، لأن تمسكها بالحجاب يدعو إلى الطمأنينة الكبيرة، فضلا عن أنه لا يعني انتماءها لاتجاه سياسي بعينه ... لا ينكر أنها مسلمة مستنيرة ..."([1]) .

وهذه إشارة من الروائي إلى أن هذه الطبيبة ملتزمة بالحجاب و هو لم يمنعها من أداء وظائفها على أكمل وجه، ومن جهة ثانية فليس كل متحجبة تنتمي إلى تيار سياسي معين، ويقصد هنا جماعة الإخوان المسلمين، فقد أكسبها عملها ثقة بالنفس وقدرة على اتخاذ القرار. فأبوها الشيخ (علام العيسوي) حينها علم بأنها تبدي رغبة في الزواج من زميلها الدكتور عادل فتوح، فمنحها ثقته وترك لها الحرية في اتخاذ القرار على الرغم من معارضة أخيها الصحفي الذي طلب منها التريث إلى حين التحري عنه ومعرفة أحواله الاجتماعية والسياسية .

لكن والدها فكر بضع لحظات ،ثم قال في هدوء: " أعلم أنها مسألة مصيرية ،ثم إن الفقر ليس عيبا، وهذا الشاب يمتلك من الميزات والمؤهلات – حسب قولك- ما يجعله زوجا مناسبا ... وأنت في حالة من الرشد والعلم والخبرة تجعلك قادرة على الاختيار الصحيح، والقرار المناسب، وتحمل المسؤولية .... ومن ثم فان الرأي رأيك"([2]).

غير أن الدكتورة فضيلة لا تتزوج من الدكتور عادل فتوح الذي أحبته وهو أيضا يبادلها الحب، بعدما ظهر في سماء حياتها زميلها الدكتور رشدي القصاص، الذي هو على النقيض من عادل فتوح إذ يتميز بأخلاق عالية فهو مسلم ملتزم ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين ،فقد بدأت مشاعرها تتحول إليه بعدما تبينت صدق إحساسها نحوه " بقيت وحيدة إلا من أساها العميق، لشد ما تتألم من أجل رشدي القصاص، الزميل الطيب

1/ الكيلاني، نجيب: رجال وذئاب ،ص،11،12 .

2/ المصدر نفسه ، ص،44.

الأمين، وكادت تبكي من شدة الحزن عندما أكد لها الأستاذ خبر اعتقاله ... فقد كانت تشعر نحو رشدي بمشاعر إنسانية خالصة " ([1]).

ولا عجب في تلك المشاعر فهو تلميذ والدها الشيخ علام العيسوي ،وهو يحمل كثيرا من صفاته ومميزاته وقد ازداد تعلقها به خاصة حينما أعتقل و زج به في السجن" فقد صارت فضيلة غير قادرة على الهرب من التفكير في شأن رشدي القصاص كلما حاولت إبعاد صورته من ذهنها عادت إلى الإلحاح عليها من جديد..." ([2]).

وهذا ما جعلها تحتار ويتنامى عندها هذا الشعور، القلق يعصف بقلبها، أين تتجه وأيهما تختار، عادل، أم رشدي ، أيهما يتوافق مع ما تؤمن به من مبادئ ، فقد قارنت بينهما وأعلنت اختيارها لاسيما أن والدها "كان مصرا على ترك الحرية الكاملة لابنته كي تختار، ربما تعرف أكثر منه في هذا المجال، إمكاناتها أوسع، وخبرتها أحدث، لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، وعقل يفكر ويحلل، وقلب يخفق ثم إنها لا ينقصها الحذر والتريث ،وإرادة الله العليا فوق كل شيء، لشد ما يتألم لحيرتها !! لكنه لن يسلك غير ذلك الأسلوب الذي حدده بالنسبة لمستقبل أولاده الأسري"([3]) .

لذلك كان على فضيلة التفكير جيدا قبل اتخاذ القرار الحاسم ،عليها مشاورة أفراد أهلها وتقليب الأمور على أوجهها الستة، وأن تواجه نفسها بصراحة وتحدد موقفها بكل وضوح فقد "كان من الصعب على فضيلة أن تنام ليلتها، الأحداث القديمة تنثال بلا رحمة، وتذكرها بما مضى، وتحاول أن تهرب حتى تنام، ولكن بلا جدوى، كان رشدي وعادل يقفان قبالتها في ظلام الغرفة الدامس، وهي قاض يجلس على أريكة ذهبية ... لقد ألقت بنفسها في ظلام الحيرة المعذبة ،ولم تجر بنظراتها ، إلا في اتجاه واحد"([4]).

1/ الكيلاني ، نجيب : رجال و ذئاب ، ص ص 107 ـ 108 .

2/ ا المصدر نفسه ، ص 123.

3/ المصدر نفسه ، ص،151.

4/ المصدر نفسه ، ص،229.

وعندما تقتنع باختيارها تفصح به أمام الجميع "وجاءت كلمات فضيلة الهادئة كالدوى الهائل :- (رشدي القصاص)-"([1]).

وهو الاختيار الذي باركه والدها الشيخ العيسوي الذي كان يسمع الحوار ،فخرج من غرفته القريبة، يقطع الصمت والذهول بقوله: "هذا ما توقعته ... نِعْمَ من اخترت يا فضيلة"([2]).

وهو الأمر الذي شجعها على مواصلة الكلام بتبرير هذا الاختيار، وقد انشرح وجهها بهذا الرأي الذي شجعها على المضي في قرارها مبينة الدوافع التي جعلتها تختار رشدي القصاص " فعلا... إنه لدي من الدوافع والأسباب التي جعلتني اتخذ هذا القرار... وليس في ذلك خداع أو خيانة ... إنه أولا وأخيرا صِدْقٌ مع النفس"([3]).

وبهذا تكون فضيلة قد شعرت بالاستقرار النفسي إثر هذا التحول ... فالعمل جعلها ندا للرجل، فهي شخصية نامية تتفاعل مع أحداث الرواية من البداية إلى النهاية، حيث تنتهي بزواجها من الدكتور رشدي القصاص.

ب- الممرضة رجاء في رواية (عمر ظهر في القدس) :

(رجاء) هي إحدى الممرضات التي تعمل في المستشفى العربي بالقدس الشرقية، وقد تزامن ظهورها في الرواية مع دخول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- المستشفى هكذا يقول عنها الراوي "ودخلت فتاة ممشوقة القوام، رائقة البشرة، حلوة السمات تغطي رأسها بغطاء أبيض ، وترتدي زيا محتشما سابغا، لا يبدي سوى جزء من عنقها

1/ الكيلاني ، نجيب : رجال و ذئاب ، ص،233.

2/ المصدر نفسه الكيلاني ، ص ن.

3/ المصدر نفسه ، ص،234 .

ويديها والجزء الأسفل من ساقيها ،و على وجهها ابتسامة واعدة يشوبها حزن غامض ، واقتربت من عمر بمقياس الحرارة "([1]).

فقد ركز الراوي في هذا الوصف على جوانب ثلاثة ، وهي: الجمال الخلقي، واللباس المحتشم الذي ينبئ عن فطرتها الإسلامية، وإن لم تكن ملتزمة باللباس الشرعي، ثم الابتسامة في وجه المريض- وهي من سمات الممرضة الناجحة، لذلك فهي لم تتعجب من ظهور الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه ـ وآمنت دون تردد حيث كانت تقول : " لا أعرف يبدو أنني أحببت هذا الرجل .سمعته يهمس وسط الضجيج : أسرجوا شعلة الحق بزيت المعرفة، ورطبوا القلب بعذب اليقين... واطفأوا وهج الضلال بأنفاس الندم والتوبة .. وابدأوا كما ولدتكم أمهاتكم أحرارا ، واشدوا باللحن العظيم، لا إله إلا الله ،محمد رسول الله"([2]).

وقد تأثرت بكلماته و آمنت به ، و سعت جاهدة لتبليغها والدعوة إليها، ونشرها بين بنات جنسها : لأنها كما تقول "رأيت نور اليقين على وجهه وقرأتُ في عينيه الصدق، وسمعت في كلماته الإخلاص والإيمان ،كانت روحه تشملنا وتحلق فوقنا، لقد آمنت بصدقه.. لم أر في حياتي قط شبيها له "([3]).

وبما أن رجاء فتاة متعلمة فإن عملها أكسبها القدرة على التعبير عن أفكار الكاتب ، ورؤيته للعالم من حوله فهي شديدة التأثر بالبيئة الاجتماعية المحيطة بها، كما أنها أيضا شديدة التأثير في وسطها الاجتماعي، وفي محيط عالمها وعصرها ، وذلك لما صار لها من قوى فكرية خاصة ومواهب روحية ونفسية متميزة ،لقد" اندمجت الحكيمة رجاء في المعاني

1/ الكيلاني ،نجيب :عمر يظهر في القدس،ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،1981،ص،89.

2/ المصدر نفسه ،ص،107.

3/ المصدر نفسه ، ص 102.

الكبرى التي أفاضها عليهم أمير المؤمنين، خلقت خلقا آخر، كانت تتكلم بحساب ،وتتحر عن وعي ، وأهم شيء أنها كانت تفكر.. أدركت أن الفكر روح الحياة، وما أكثر القضايا التي طرحتها كلمات أمير المؤمنين: الله ..الإنسان ..الإسلام .. العلاقات بين الإنسان والإنسان، وبين خالق الكون وإنسان الكون، الدين والعلم، وذلك العصر وما يتصارع فيه من قيم وأفكار وعواطف.." ([1]).

وعلى هذا الأساس من الفكر المتعمق في القضايا الإنسانية "وجدت رجاء نفسها تخوض تغييرا كبيرا في نظرتها للأشياء... وفي ملبسها ومأكلها ..ونومها ويقظتها ... وعلاقاتها بزميلاتها وزملائها ... وأحوالها الأسرية ... ثم الشيء الهام واجبها في نشر ما تؤمن به من أفكار وخاصة بين بنات جنسها كان لها نشاط مستمر ودور كبير " ([2]) .

وبهذا تكون رجاء نموذجا للمرأة الفلسطينية العاملة التي أخذت على عاتقها مسؤولية الصمود والكفاح ، فقد شاركت زملاءها الرجال في كثير من المهام الجسيمة التي ناءت بها كواهلهم دفاعا عن الوطن وتشبثا بالأرض ، فها هي تعتقل من قبل المخابرات الإسرائيلية بتهمة الاعتداء على الفتاة اليهودية (راشيل) ،فقد " اعتقل رجال الأمن عددا كبيرا من العرب من بينهم الدكتور عبد الوهاب والدكتور وهيب والممرضة رجاء وعددا من الفراشين والتومرجية .." ([3]) .

فقد أثبتت صلابة وبطولة وصمودا وتضحية إزاء محاولات التحطيم والإذلال المبرمج الذي تمارسه سلطات الاحتلال عليها وعلى غيرها من النساء في المعتقلات الصهيونية، لذا تبدو رجاء مستعدة لكل الاحتمالات ، وقد هيأت نفسها لتلك الأيام السوداء التي يمكن أن تكون فيها إحدى نزيلات السجن، كما أنها كانت حريصة كل الحرص على الحفاظ على حياة الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه - وليست غريبة

1/ ا الكيلاني نجيب : عمر يظهر في القدس ،ص216 .

2/ المصدر نفسه ،ص ن.

3/ المصدر نفسه ،ص،201.

أن تكون فكرة تهريبه خارج القدس من اقتراحها، وقد همست بذلك للدكتور عبد الوهاب: "يجب أن نسبق تفكيرهم، لا أمل في الصهيونيين، فلندبر خطة للهرب من هنا ، قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه ... "([1]) .

ذلك لأن عمر يمثل بالنسبة لهم الماضي والحاضر والمستقبل وكلها مرتبطة بالأرض، التي تتمسك بها رجاء كما تمسك بها الآباء و الأجداد من قبل ، فقد كانت تقول " كان أبي – رحمه الله- ينصحنا دائما بألا نترك أرضنا مهما كانت الظروف، هذه أرضنا وعليها نحيا و عليها نموت ... لو بقي شبر واحد من أرضنا لبقيت فيه .. من يدري البذرة الصغيرة قد تنشق عنها الأرض وتخرج شجرة ضخمة ... تسمو أغصانها إلى أعنان السماء"([2]).

فقد طرأت على حياتها تغييرات كثيرة منذ أن دخل الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- المستشفى الذي تعمل فيه، فقد كانت قبل ذلك مسلمة و لكنها كغيرها من آلاف المسلمين الآخرين لا تعرف كثيرا عن الإسلام كما يقول الإمام عبد الحميد بن باديس- رحمه الله- لا تعرف إلا الإسلام الوراثي، فكل معرفتها كانت سطحية لا ترقى ، إلى مستوى المعرفة الحقيقية أو كما يقول الإمام بن باديس أيضا: الإسلام الذاتي الذي ندركه بالعقل والتدبر لذلك كانت رجاء تقول عن نفسها :" كنت أعرف أمورا سطحية تافهة عن النار والجنة وسيرة المحاربين العظماء ... كان تاريخ الرسول يشبه في مخيلتي قصيدة جميلة لكن كلمات الخليفة جاءت بسيطة مذهلة تفيض بالروعة والتأثير ... وضعت يدي على مواطن الحق والخير ومنبع الجمال الخالد ... لم أستطع من قبل أن أفهم الإسلام على أيدي المحترفين ... أو لعلي في أغلب الأحيان لم أكن لأحاول ذلك .."([3]) .

1/ الكيلاني نجيب : عمر يظهر في القدس ، ص،214

2/ المصدر نفسه ، ص ص،219 ـ 220.

3/ المصدر نفسه ،ص،221 .

وقد امتد التغيير في شخصية رجاء إلى علاقاتها مع زملائها الأطباء، وخصوصا علاقتها مع خطيبها الدكتور و هيب عبد الله الذي كانت تحبه، فقد "كانت تلك العلاقة في الماضي همسات حلوة ونظرات والهة وأحاديث طويلة في التليفون وسهرات في السينما، ونزهات في شتى الأماكن الجميلة، وأحلام عن المستقبل والبيت السعيد ، والأبناء الذين طال انتظارهم في عالم الغيب ،وأثاث حجرة النوم والاستقبال والطعام وشهر العسل، وآخر الموديلات في الثياب والشعر وأصباغ الزينة ، وكلمات قليلة بائسة عن الحرب و إسرائيل واللاجئين " ([1]) .

هذا ما كانت عليه رجاء قبل أن يطرأ عليها التغير والتطور نحو الأفضل، أمّا اليوم فقد " أصبحت رجاء شيئا آخر تماما ... الوجه يلفه حزن غامض وقور يلوح بالإصرار، والملابس محتشمة ضافية واعية "([2]). وكل ذلك لم يكن عائقا أمام استمرار علاقتها الطاهرة مع الدكتور وهيب" لم يكن يطفئ الحب الطاهر الذي يثير الدفء في الحنايا ، و يضفي على دنياهما جمالا رائقا " ([3]) .

وكلما تذكر رجاء ما كانت عليه من فكر ساذج لا يتعدى الحديث عما ذكرته من أشياء لا ترقى الى مصاف الأفكار الواعية، كلما تذكرت ما كانت عليه علاقتها مع الدكتور وهيب انتابها الخجل والحياء، فهي تصرح: "كلما تذكرت الماضي انتابني خجل شديد"([4]). ونظرا لمواقفها البطولية المشرفة والتي قدمت من خلالها صورة حية أمينة للمرأة الفلسطينية العاملة التي تعتمل في جوانحها أهداف نبيلة، وينبض قلبها بأحلام واعدة، المرأة التي تعي تماما هذه الأهداف التي لا تحيد عنها حتى وإن تعرضت بسببها للسجن والتعذيب ،لأنها أهداف سامية وأحلام مشروعة واقعية.

1/ الكيلاني نجيب : عمر يظهر في القدس ، ص،216 .

2/ المصدر نفسه ، ص 217.

3/ المصدر نفسه ، ص ن.

4/ المصدر نفسه ، ص 216 .

وتلك هي النهاية التي انتهت إليها الحكيمة رجاء التي اعتقلت و حكم عليها بالسجن خمس سنوات حيث يخبرنا السارد بذلك حينما يقول : " أما أنا و رجاء ووهيب ومحمود العناني، فقد حكم علينا في إحدى المحاكم العسكرية بالسجن خمس سنوات لاشتراكنا – كما يزعمون ـ في شبكة جاسوسية خطيرة يتزعمها شيخ فدائي يغلب الظن أنه من الزعماء الروحيين"([1]) .

ج – الفنانة (صافي) في رواية (ليالي السهاد):

يبدأ الحديث عن الفنانة (صافي)في الرواية منذ الصفحة السابعة والسبعين بوصف الراوي الحي الذي تسكن فيه والمنزل الذي تقيم فيه حيث جاء على لسانه :" ذهبت إلى الحي الهادئ في مصر الجديدة ...كانت الفيلا التي تسكنها (صافي) تبدو كقصر فخم رائع الأثاث ، بها قدر من التحف الثمينة التي لا تقدر بمال، والأرض مفروشة ببسط عجيبة تبعث على الانبهار، إن هذا البذخ يزيد كثيرا عما توقعته فهي فنانة كبيرة لكنها ليست في القمة ، ولكن ليس من رأى كمن سمع ... جلست أنا والحاج في قاعة الانتظار الجميلة التي تتدلى في وسطها الثريات الثمينة المستوردة ..."([2]) .

فهي فنانة تحظى بمكانة مرموقة في المجتمع المصري، بل ان هذا الدور الاجتماعي يتعداه الى دور سياسي خطير فهي تستطيع التأثير على موقف السلطات تجاه السجناء السياسيين وهذا ما حدث مع (عبد القادر) بطل الرواية، وهو سجين سياسي سابق ، دخل السجن بسبب انتمائه إلى جماعة الإخوان المسلمين ثم خرج من السجن ليجد نفسه محاصرا ومنبوذا من قبل السلطات السياسية حيث يضايق حتى في طلب رزقه، رفضت جميع المؤسسات والدوائر الحكومية توظيفه أو حتى التعامل معه لأنه(خريج سجون) على الرغم من أنه مهندس معماري...

1/ الكيلاني نجيب : عمر يظهر في القدس ، ص،234 .

2/ الكيلاني، نجيب: ليالي السهاد، د.ط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،2005،ص77.

وعندما يجد وظيفة عند الحاج (علي محمود) المقاول بوساطة المعلمة (بسبوسة)، يتعرف على الفنانة (صافي) وهي ممثلة شهيرة ولها علاقات مرموقة مع السلطات ،حيث تؤثر على حياة (عبد القادر) بل إنها تؤثر على مواقف السلطة منه، فعندما يدخل السجن مرة أخرى ،تخرجه صافي بإشارة من يدها، فهي جميلة إلى حد كبير، يقع في أسرها كل من يعرفها يقول عنها السارد "ولم يَطُلْ انتظارنا... فقد قدمت (صافي) متألقة الوجه كملكة ... تدخل في ملابسها الحريرية الشفافة ،وحليها ومجوهراتها، كانت امرأة جميلة وفاتنة، آسرة ... تختلف عما أراه على شاشة السينما والتلفزيون والصحف والمجلات، كان أريجها يملأ المكان ويطرح بعيدا ما عداه...."([1]).

ليس هذا فحسب، بل إنها أيضا مثقفة وواعية بواقعها ومجتمعها، فهي تناقش قضايا المجتمع والقضايا السياسية والدينية والفنية، ولها آراءها في كل جوانب الحياة ؛ هي تعلق على الفن بقولها : " مأساة الفن في بلدنا أنه تحول إلى تجارة حتى الذين يزعمون أنه فن هادف ما هو إلا صراخ بشعارات سياسية و اجتماعية زاعقة ... إنه تجارة أيضا، لكنه من سوق السلطة ... "([2]).

وهو الكلام الذي صدم (الراوي عبد القادر) بل إنه صعقه، ليس لكونه رأي في الفن، أو لأنه موقف شجاع ،لا هذا ولا ذاك بل لأنه رأي يقدح في السلطة ومع ذلك لن تحاسب عليه، ولو أن هذا الكلام قيل من قبل أحد الإخوان المسلمين لوجد نفسه متهما بتهمة خيانة الدولة ولقضى عشر سنوات على الأقل في أحد السجون، قال السارد : " صدمت بما تقول ، إنه كلام خطير تحاسب عليه لو سمعها سيادة المفتش في المباحث العامة لساقها إلى سجن القناطر ولو أني قلت هذا الكلام، لقضيت عشر سنوات في السجن على الأقل"([3]).

1/ الكيلاني، نجيب : ليالي السهاد ، ص 80.

2/ المصدر نفسه ، ص 79.

3/ المصدر نفسه ، ص ص،81/80.

إن هذا الكلام يعكس الواقع السياسي المصري المتعفن آنذاك، ويدل على كيل السلطة المخابراتية بمكيالين ؛ فمن الناس من لا تحاسبه السلطة مهما قال ومهما فعل كأمثال الفنانة (صافي) فهم يعبرون عن وجهة نظرهم بمنتهى الحرية دون أن يصيبهم أدنى أذى، بينما يحاسب غيرهم من أبناء الشعب حتى على الهمسة يهمسونها، وخاصة من كانت لهم انتماءات سياسية مناوئة لسياسة الدولة حينذاك كالإخوان المسلمين وغيرهم من المغضوب عليهم من المعارضين وغير المعارضين ...

إن الفنانة (صافي) نموذج المرأة الحرة التي تعبر عن آرائها بكل صراحة، إضافة إلى أنها امرأة مثقفة فهي خريجة كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية ويظهر، فهي".. تختار موضوعاتها التمثيلية بنفسها، وأنها ترفض الكثير من المواد الأدبية التافهة ،وأنها مهتمة بالنقد منذ أن كانت طالبة في كلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية ،وأن لها رأيها في الندوات الفنية ،وتعبر عن وجهة نظرها بصراحة مطلقة، ولا يهمها من يغضب أو يسر" ([1]) .

أما رأيها في السياسة فقد عبرت عنه بقولها:" السياسة كالزواج الكاثوليكي لا طلاق فيها ،ولا فكاك منها ... وأصحاب العقائد السياسية كأصحاب العقائد الدينية ... لا يمكن أن يتخلصوا نهائيا منها ... فما بالك وأنت رجل تعتبر السياسة جزءا من الدين ..."([2]) .

فصافي الفنانة لها باع طويل في المجتمع وذلك بفضل عملها كممثلة حيث ربطت علاقات اجتماعية مع كثير من فئات المجتمع من مقاولين، وفنانين، وضباط مخابرات ومفتشي شرطة وغيرهم . فقد أصبح لها نفوذ اجتماعي قوي وفوق ذلك كله فصافي بحكم عملها كفنانة فهي تتمتع بجرأة لا تقاس بل بوقاحة لا يمكن أن نطبق عليها المقاييس الأخلاقية.

1/ الكيلاني، نجيب : ليالي السهاد ، ص ، 84.

2/ المصدر نفسه ، ص 90.

فهي كانت تحاصر الراوي (عبد القادر) وتحاول بكل الطرق إغراءه وإيقاعه فيما لا يحمد عقباه ،فقد كانت تصدمه من حين لآخر بكلمات عارية من الأخلاق فهي أحيانا تقول له بنبرات عاشقة " إن وجهك وسيم "([1]) . وأحيانا أخرى تقول له :" عيناك عالم ساحر "([2]).

بل إنها تمادت في ذلك الإغراء على طريقة الممثلات حيث بدأت تجس نبضه، فقد حاولت ذات مرة حينما لعبت الخمر بعقلها أن تقترب منه محاولة جره إلى الفاحشة مما جعل السارد يتهرب من قبضتها مذعورا فقد "دارت بي الأرض وهي تجلس على ركبتي وتطوِّق عنقي بذراعيها وتقبل نحو شفتي" ([3]) فعندما احتج على تصرفها هذا وأنبها قائلا: "هذا لا يليق .. أنت سيدة محترمة مثقفة .. وأنا.."([4]) .

ردت عليه صارخة " أعرف... أنت متزوج "([5]) ولما استعصى عليها استدراج الراوي (عبد القادر) إلى مخدع العار ،لجأت إلى حيلة الزواج، حيث طلب منه صراحة أن يتزوجها على سنة الله ورسوله -كما يقول- عند الحديث عن الزواج .

لقد لجأت إلى وسائل عدة للضغط عليه لقبول الزواج منها ،فقد حرضت صاحب العمل الحاج علي محمود الذي تغيرت معاملته له حيث كان يحرضه على الزواج من (صافي) لما فيه من فوائد بالنسبة إلى الحاج محمود علي وحتى بالنسبة الى (عبد القادر) فقد كان يقول له :" أنت جامد ...تعيش في عصر غير العصر، وهذا هو السبب

1/ الكيلاني، نجيب : ليالي السهاد ، ص 99.

2/ المصدر نفسه ، ص ن

3/ المصدر نفسه ، ص 95 .

4/ المصدر نفسه ، ص ن.

5/ المصدر نفسه ، ص 96 .

في البلاء الذي يصب على رأسك ألا تعلم أن (صافي) تستطيع أن تقذف بك وراء الشمس مرة أخرى ؟؟ إنها مركز قوة لا يستهان به..؟"([1]) .

وهكذا لم يستطع (عبد القادر) مقاومة جبروت الفنانة (صافي) و لم يقو على التصدي لمضايقاتها من جهة ولا الوقوف أمام إلحاح الحاج علي محمود الذي كان دائما يقول له : " أيها الأبله تزوجها.. لن تخسر شيئا .. تزوجها سرا هي تريد ذلك، ولن تستطيع الصحف أن تنشر خبر زواجها منك .. إنها تستمتع بحصانة خاصة كالحصانة التي يستمتع بها رجال الأمن والمخابرات.. وتأكد أن زوجتك لن تعرف شيئا .."([2]) .

وتستمر المضايقات التي تطوق (عبد القادر) إلى أن يدخل السجن مرة أخرى، وهنا تتوسط الفنانة (صافي) وتخرجه بعد ادعائها أمام المخابرات بأنه خطيبها. فتفرض على (عبد القادر) أمر الواقع وترغمه على الزواج منها بل إنها تحدد وقت وقوعه أيضا " تذكر أنك خطيبي ... وأن هذا أصبح مسجلا رسميا في المخابرات ... أنت تعرف وسنتزوج الليلة ... لقد أعددت كل شيء"([3]) .

ويتم الزواج في السر دون أن تعلم به زوجته (بدرية) وعلى الرغم من أن (عبد القادر) قد سيق إلى هذا الزواج رغم إرادته إلا أنه بعد مضي وقت يتأقلم مع هذا الزواج ويمضي مع الفنانة (صافي) أوقاتا ممتعة داخل مصر و خارجها حينما سافر إلى باريس إلا أنهما يعودان بسرعة أثناء قيام حرب حزيران 1967 .

وإثر الهزيمة يتأكد (عبد القادر) أن أسبابها السلطة المصرية أو النظام المصري الذي كان يخدر الشعب بالخطابات الحماسية التي جعلت الشعب يأمل في النصر ولكن العكس هو الذي يحدث حيث تنسحب الجيوش العربية تجرّ ورائها الخيبة . مما جعل (عبد القادر) يسأم العيش في مصر لاسيما أن الأوضاع لم تتغير وأن الاعتقالات

1/ الكيلاني، نجيب : ليالي السهاد ،ص،107.

2/ المصدر نفسه ، ص، 109.

3/ المصدر نفسه ،ص، 128.

السياسية باقية على حالها مثلما كانت قبل الحرب. ذلك ما يجعل الراوي يعدّ العدّة للرحيل والهجرة إلى دبي . ويتحقق له ذلك بمساعدة أحد الأصدقاء الذي يرسل إليه رخصة الإقامة وعقد العمل فيهاجر هو زوجته و أولاده و يترك للفنانة (صافي) ورقة الطلاق.

وبالتالي ينتهي كابوس هذا السارد الذي مل الدخول إلى السجن بسبب انتمائه إلى جماعة الإخوان المسلمين وكانت من أهم الأسباب التي دفعت به إلى الهجرة هو اكتشاف حقيقة الفنانة (صافي) ؛ فإن ذلك النفوذ كله بسبب انتمائها إلى جهاز المخابرات وامتهانها التمثيل والرقص حيث جاء على لسان الراوي: " إن أمر (صافي) كان يحيرني دائما، إنها فنانة من نوع فريد، فهي تهتم بأمور السياسة لدرجة مبالغ فيها، وتقرأ الكثير من الكتب وتحرص على قراءة الصحف والاستماع إلى الخطب والبيانات الرسمية، ولها نشاط نقابي واسع في نقابة السينمائيين وتتصدر نشاطاتها السياسية والاجتماعية مما يجعلها أحيانا تهمل عملها الفني إهمالا تاما بالإضافة الى شركتها ذات الإنجازات الكبيرة، ثم أنها ترتبط بعلاقات وطيدة مع رجالات السلطة في أكثر من موقع "([1]) .

وهو الأمر الذي حيّر الراوي وجعله يود معرفة السر الكامن وراء ذلك ،فقد كان يشك في كثير من تصرفاتها، إلى أن انتهز الفرصة المناسبة ليسألها بصراحة:" أنا زوجك ومن الواجب أن أعرف أكثر "([2]). فتخبره بأنها أوشكت أن تدخل السجن لأن قيادات عسكرية وحربية كثيرة تعرضت للمحاكمة بعد الهزيمة في الحرب، ثم تهمس في أذنه قائلة :" إن ما أقوله يجب أن لا يعرفه أحد، وإلا ضعنا تماما.."([3]) .

1/ الكيلاني نجيب: ليالي السهاد،ص،202.

2/ المصدر نفسه ، ص ن .

3/ المصدر نفسه ، ص،203.

ثم تخبره بالحقيقة التي تصدمه وتزلزل كيانه حينما تقول له: " أنه تنظيم غير الحزب الذي يعرفه الناس ... وأسمح لي أن أقول إنني أحد أركانه .. نحن القوة الفاعلة والمؤثرة ... وأظنك الآن عرفت الكثير عن أسرارنا.. " ([1]) .

فيداري (عبد القادر) دهشته وخوفه في آن واحدة ، ويتظاهر أمامها بأنه يحبها أكثر من أي وقت مضى وهو في المقابل يخطط في سرية تامة للهجرة إلى دبي ... وعندما تحلق به الطائرة يقول متنهدا في ارتياح :" لقد نجونا " ([2]) .

مما جعل زوجته بدرية تبكي بحرقة مما أدهش عبد القادر الذي يسألها :"أهي دموع الفرح؟"([3]) . فترد عليه وعيناها محتقنتان بالدموع: " لماذا لا أبكي ؟؟ إن أصعب الأمور بالنسبة للمرأة أن ترى أخرى تشاركها في زوجها..."([4]).

فيقع كلامها كالصاعقة على رأس (عبد القادر) الذي يفهم أن زوجته كانت على علم بزواجه من الفنانة (صافي) إلا أنها كتمت الأمر وتحلت بالصبر محافظة على تماسك الأسرة، فيخبرها بأنه ترك لها ورقة الطلاق التي ستستلمها غدا.

وبذلك تنتهي مأساة (عبد القادر) بهجرته إلى دبي ،وتبدأ معاناة الفنانة (صافي) التي تتوعد (عبد القادر) بالانتقام ذلك ما أخبره به الحاج علي محمود في الرسالة التي كتبها له، إلا أن (عبد القادر) لا يعير الأمر أهمية فقد نام لأول مرة قرير العين دون سهاد إلا أنه مازال يتساءل في خوف "ترى هل ذهبت ليالي السهاد إلى غير رجعة " ([5]).

1/ الكيلاني، نجيب : ليالي السهاد ، 204.

2/ المصدر نفسه ، ص،206.

3/ المصدر نفسه ، ن ص .

4/ المصدر نفسه ، ص،207 .

5/ المصدر نفسه ، ص،208 .

ومع ذلك تبقى الفنانة صافي صورة للمرأة المثقفة ، للمرأة العاملة أو بالأحرى للفنانة المبدعة التي اختارت ربما عبودية الفن على عبودية الرجل ،حيث كانت تحيا متمردة خارج أسوار شروط المجتمع الذي لا يعترف بالمرأة المتفوقة إلا تحت عصا السلطة ووطأة المصلحة الشخصية .

د- المدرّسة (نبيلة عبد الله) في رواية (رحلة إلى الله):

(نبيلة عبد الله) تمثل صورة المرأة المثقفة العاملة أيضا ؛ فهي متخرجة من كلية الآداب وتعمل مدرسة للتاريخ الإسلامي وكان أول ظهور لها في الرواية حينما وصفها السارد من خلال حديثه عن شخصية عطوة الحلواني خطيب نبيلة الذي كان رافضا لفكرة الزواج ثم عدل عن رأيه عندما رأى نبيلة يقول الراوي في ذلك : " لكنه بعد أن رأى نبيلة (شعر بقليل من الارتباك واحتقن وجهه وأذناه، كما شعر بقلبه يدق كانت قمحية اللون، ناعمة البشرة، رائعة العينين، ذات وجه مثير ،ونبرات صوتها آسرة وعودها الممشوق يوحي بالفتنة والأنوثة والنضرة والعطاء... "([1])،

ولأنها متعلمة، فهي تحب القراءة وتعتب على خطيبها عطوة الذي لم يقرأ إلا الكتب المقررة على حد تعبيره، فالقراءة بالنسبة إليها هي الحياة. فعلا فقد علمتها القراءة أن لا تكون رخيصة الثمن، ألا تكون لعبة مسلية بين يدي خطيبها عطوة الذي اعتقد أنه بمجرد إتمام الخطوبة يمكنه أن يتسلى بها وأن يعبث بها كما يشاء ،فقد أوقفته عند حده عندما أراد أن يقبلها وقد آلمه ذلك أيما إيلام لأنه وبحكم كونه عسكريا فقد تعود ألا يعصي أوامر قادته كما أنه لا يحب أن يعصى له أمر: " لقد تمت خطبته لنبيلة، وهو يعتقد أنه ربح بذلك معركة كبرى ،أو كسب أروع صفقة في لعب الورق الذي يدمنه، لكن الشيء الذي آلمه أشد الألم أنها ترفض الاستجابة لعبثه، لقد أراد أن يقتنصها بسرعة، جذبها إليه،

1/ ا الكيلاني، نجيب : رحلة الى الله ، طبعة جديدة منقحة ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ،2000ص 09 .

فنفرت منه ،حاول تقبيلها فتمنعت، جرها إلى السرير فانتزعت نفسها منه انتزاعا وهو يلهث، صرخ فيها كوحش مفترس....

-"ما معنى ذلك؟؟"

- خطيبتك نعم ...لكني لست زوجتك .

وهي بذلك تريد أن تغير كثيرا من المفاهيم الخاطئة التي علقت بفكر خطيبها عطوة الذي اتخذها قوانين تسيير حياته العامة والخاصة ،فهو يكره الناس ولا يريد الظهور بين أفراد هذا المجتمع الحقير - على حد تعبيره - فهو لا يظهر في الأماكن العامة إلا تحت ظروف وشروط معينة ،إنه يرى نفسه رجلا مهما من رجال الدولة فعندما تطلب منه خطيبته نبيلة الفرح معها في الجيزة والجري حول الهرم وركوب الخيل والجمال أو التسلية في حديقة الحيوانات ،أو الجلوس على شاطئ النيل ....الخ يقول لها: " لم كل هذا؟" هذه تصرفات الطبقات السفلى ،لسنا سوقة يا نبيلة أنا رجل لي مركزي .. ألا تتركين هذه الخرافات ..يجب أن تصعدي معي إلى حيث أنا ..افهميني يا حبيبتي...؟"([1]) .

لذلك ترفض نبيلة دوما الذهاب معه إلى بيته خوفا من أن يفترسها، فضاق منها ذرعا لأنه يريدها لقمة سائغة ،خادمة مطيعة لا تقول له لا ،لذلك فهو يرى نفسه عاجزا أمام نبيلة التي صارت تشكل مشكلة صعبة بالنسبة إليه " أما المشكلة العويصة اليوم فهي نبيلة لأنها لم تستسلم له، ولأنها تريده أن يفكر من جديد ،والكارثة أنها تحاول جاهدة أن تغير من مفاهيمه وأفكاره التي آمن بها ... الغريب أنها عزلاء من أية قوة، فليس لها المال الكثير، ولا المنصب الضخم – مجرد مدرسة - ولا الأسرة العريقة ،لقد أيقن من زمن بعيد ... أن القوة تحل المشكلات، مهما تعقدت، هي لا تملك غير الجمال الآسر و الروح المسيطرة، فكيف يقهر هذا الجمال بقوته "([2]).

1/ الكيلاني نجيب : رحلة الى الله ،ص،40.

2/ المصدر نفسه، ص،46 .

نبيلة امرأة قوية بعلمها، قوية بجمالها، وقوية بعملها أيضا ،امرأة وقف عطوة أمامها مهزوم النفس، خيالها يحاصره حصارا عنيفا، جعله يفكر في مصدر القوة التي تمتلكها، على الرغم من أنها مجرد امرأة لا أكثر ولا أقل . لكنها ليس مثل أية امرأة أخر، كم من النساء من بعن أنفسهن بالمال، أو أغراهن الجاه والمنصب، وكم من النساء حُمِلْنَ إليه بالقوة عن طريق جنوده ورجاله وكم ... وكم ... " لكن هذه الفتاة التي لم تتجاوز عامها الرابع والعشرين تبدو خلقا آخر . إنه يشعر أمامها بالعجز والحيرة و الغيظ أيضا"([1]).

لذلك فكر في أن يطردها أو ربما يركلها بقدميه، إلا أن نفسه لم تطاوعه، وفكر في أن يضربها، لكنها من أسرة ومثقفة ،ظل يفكر أن ينساها لكنها فرضت نفسها عليه حيث لم يستطع الإفلات من سيطرتها وسلطانها وهو " الذي كان يعتقد في نفسه أنه أقوى الأقوياء ،وجبار الجبابرة فكيف استطاعت امرأة أن تسلبه إرادته، فتملي عليه شروطها، وتحقق ما تعزم عليه بمجرد كلمة أو موقف عادي "([2]).

لذلك قرر بينه وبين نفسه أن يمارس عليها سلطته وقوته كرجل دولة له نفوذ وتأثير فاستنجد بالمخابرات فلفقت لها تهمة بشعة مفادها أنها تقوم بنشاط معاد لأمن الدولة لا سيما وهي مدرسة تاريخ، وقد كان له ذلك " هرول عطوة إلى الخارج ... اصطدم بعويس الذي كاد يسقط على الأرض، ذهب عطوة إلى أحد أصدقائه (المخلصين) في المخابرات ... اختلى به بضع لحظات ثم قدم له ورقة بعد أن كتب فيها سطورا قليلة... وضحك عطوة كما ضحك صديقه... وتصافحا في ودٍّ بعد أن تعانقا .. وقال له صديقه وهو يودعه: مع السلامة يا نمس ... دائما أقول عنك الرجل الذي لا يقهر.." ([3]).

وهكذا تعتقل المخابرات المدرسة (نبيلة) وذلك بإيعاز من خطيبها عطوة ،وقد شعرت بالمذلة والهوان قبل بدء التحقيق معها، حيث جعلها رجال المخابرات تنتظر

1/ الكيلاني نجيب : رحلة الى الله ، ص،16 .

2/ المصدر نفسه ، ص ن .

3/ المصدر نفسه ، ص ص 46.

لساعات طوال دورها في التحقيق، وهو نوع من التعذيب النفسي الذي يمارس على كل متهم بحيث :" وقفت في غرفة التحقيق حائرة، تنتظر إلى هذا فلم يكترث لها، ثم تنتقل إلى آخر فلا يعيرها التفاتا، وتحاول أن تسعل أو تتنهد كي تشد انتباه الثالث فيهملها... إنها تشعر بالهوان، كما تشعر بالقلق ،كان جمالها يدير الرؤوس، وكانت ثقافتها الواسعة تفرض الاحترام لها في أي مجتمع تأتي إليه، ولهذا كان اعتزازها بشخصيتها ورأيها دون صلف أو غرور. ومن ثمّ أحبت الناس وأحبوها .. أما هنا فلا قيمة للإنسان، الإنسان الذي كرمه الله..."([1]) .

بعد تلك المعاناة الشديدة أثناء التحقيق وأثناء الزج بها في الزنزانة ، يظهر خطيبها عطوة رئيس السجن، ويدّعي بأنه لم يعلم بخبر اعتقالها إلا منذ ساعة، فقد أمضى اليوم كله مشغولا، ويخبرها أنه حالما علم الخبر من أهلها أسرع لإنقاذها من براثن المحققين، متظاهرا بتأنيب رجال المخابرات وتهديدهم بالعقاب الشديد "ما هذه المهزلة ؟؟ هل وصلت بكم النذالة لحد القبض على خطيبتي من أجل تقرير كله افتراء ..كتبه عميل تافه ... المسألة لن تمر بسلام .. قسما لأبلغ الرئيس بكل ما جرى..."([2])

وبهذه المسرحية يظهر عطوة في صورة البطل المغوار والفارس المنقذ، فتستكين إليه نبيلة معتقدة أنه جاء من أجل تخليصها من هذا العذاب ولم يخطر ببالها قط أنه هو المدبر لمسألة اعتقالها ،وقد فعل ذلك حتى تتحسن صورته أمامها ويزداد احترامها له ، وتقتنع بأنه فعلا رجل مهم في سلم الدولة، لذلك ما إن تراه حتى ترتمي بين أحضانه شاكية باكية سوء ما حدث لها " وسرعان ما ألقت بنفسها بين ذراعيه وهي تنتحب، فأخذ يلامس شعرها ويجفف دموعها ،ويقبل وجنتيها " ([3]) .

1/ الكيلاني نجيب : رحلة الى الله ،ص 62

2/ المصدر نفسه ، ص،68.

3/ المصدر نفسه، ص ن .

وأخذ يسألها لماذا لم تخبر المخبرين بأنها خطيبته، فتخبره بأنها فعلت ذلك ولكن لا أحد يصدقها، وأخبرها أيضا أنه سينتقم منهم وأن حسابهم سيكون عسيرا، إلا أن نبيلة بعد عودتها إلى البيت تصاب بانهيار عصبي جراء ما أصابها من غيظ وهوان أثناء اعتقالها، فينصحها الطبيب بالنقاهة والراحة والسفر .

وفعلا تسافر إلى الإسكندرية و هناك تكتب رسالة إلى رئيس الدولة تصف فيها أوضاع السجناء وطرق تعذيبهم وإهانتهم ،ويبدو أن ما ورد في تلك الرسالة من أفكار هي في الحقيقة ما يريد الأديب نفسه إيصاله إلى الرئيس، وقد جاء في تلك الرسالة ما نصه " أن هذا لا يمكن .يعني لا يصح أن يحدث في عهدك ... يا من ثرت على الطغيان، وأنهيت حكم الملكية وخطوت خطوات واسعة نحو العدل الاجتماعي الذي ينشده الجميع، فكيف يتفق هذا مع اغتصاب الأبرياء ،والقسوة على أبناء الشعب دون مبرر معقول، ونحن جميعا إخوتك وأخواتك وأبناؤك وبناتك، وإذا كان البعض يحلو له أن يبالغ في إجراءات القمع باسم الحفاظ على أمن الدولة وحماية أرواح المسؤولين، فإني أعتقد أنك لن ترضى بمثل هذه التصرفات التي لن تخلف وراءها سوى الحقد والخوف والسلبية، وقهر المواهب، وكبت الآراء الحرة، مادام مجرد الرأي أو النقد البناء سوف يعرض صاحبه للانتقام أو السجن أو الفصل من العمل... و أخيرا لك يا سيادة الرئيس كل حب وتقدير، ودعاء من الأعماق بأن يوفقك الله لما يحب ويرضى..."([1]).

وبسبب هذه الأفكار الصريحة التي أدلت بها نبيلة إلى الرئيس من خلال هذه الرسالة تتعرض نبيلة مرة أخرى إلى مضايقات واستجوابات المخابرات، كما تكتشف أن خطيبها لا يرغب فعلا في الزواج منها بقدر ما يطمع في قضاء نزواته الجريئة، فقد لاحقها إلى الإسكندرية و اقتحم عليها غرفتها و تهجم عليها، مما جعلها تقتنع باستحالة العيش معه كزوج، بل أبعد من ذلك فقد أيقنت ألا حياة هنيئة في مصر كلها، لذلك قررت الهروب والسفر

1/ الكيلاني نجيب : رحلة إلى الله ،ص،10 .

خارج مصر ، لاسيما عندما زارها الدكتور سالم الذي حكت له ما شاهدته في السجن الحربي من أهوال ، وما فعله عطوة بها، وأخبرته بأنها لن تتزوج عطوة. فحذرها من رد فعله ونصحها بأن تداريه وتتعامل معه بلطف ريثما يدبر لها حيلة للخروج من مصر والسفر إلى الكويت، وهو الأمر الذي تحمست له، لكنها سرعان ما سألت الطبيب سالم لماذا لا يرحل هو الآخر لكنه أجابها بابتسامة عريضة ذات معنى قائلا :" حسنا كيف تكون حال البلد لو هاجر منها كل الأحرار والشرفاء... سيبقى ملايين من الناس لا يجدون من يقف إلى جوارهم ... أنا باق هنا لأؤدي رسالتي في الطب وغير الطب"([1]). ولما أخبرها الطبيب بأن له أخا صدر ضده حكم بالأشغال المؤبدة من محكمة الشعب، تراجعت عن رغبتها في السفر والهروب من عطوة وقررت أن تجابهه مثلما يجابه هذا الطبيب مصيره في أحلك الظروف ،إلا أن الطبيب نصحها بالسفر لأن كل منهما يؤدي دوره في المكان المناسب.

اقترب منها الطبيب و قال :

ـ " مستحيل !؟ "

ـ " و لماذا أنت تبقى ؟ "

ـ "كل له مكانه و دوره"

ـ ودوري أنا الهروب..

ـ أبدا ... سوف تجدينهم في الخارج لا يكفون عن العمل ليل نهار من أجل قضية الحرية... سيكون لديك المال والقلم وحرية الحركة ... والوقت المناسب دونما ضغوط أو تهديد وكل ميسر لما خلق له... أنا هنا .....وأنتم هناك، لابد أن تستقيم الأمور على هذا النحو ...هل اقتنعت !؟"([2]).

1/ ا الكيلاني نجيب : رحلة الى الله ، ص،154 .

2/ المصدر نفسه ،ص،146 .

يبدو من خلال هذا الحوار أن الكاتب يبرر هروب نبيلة التي تنتقل إلى الكويت لمواصلة التحدي، و يبقى الطبيب داخل مصر ،وهذه في الحقيقة عملية إسقاط على شخصية الأديب نفسه، فنجيب الكيلاني كما هو معروف في سيرته الذاتية أنه بعد خروجه من السجن للمرة الأخيرة قرر السفر إلى الكويت و بقي هناك مدة من الزمن يعمل بالمستشفى، لذلك فهو يريد أن يبقى هذا الطبيب صامدا في مصر. لعل ذلك يخفف ربما من شعوره بالذنب عندما اضطرته الظروف ترك مصر والسفر إلى الكويت لبضع سنين ريثما تهدأ الأوضاع ليعود ..

والجدير بالذكر هنا أن الكيلاني منح لهذه الفتاة دورا يفوق قدرتها أو بالأحرى يفوق حجمها الحقيقي، فكيف يعقل أن تهرب فتاة ضعيفة مثل نبيلة من مصر دون أن يثير ذلك الشبهات حولها فكيف لا ينتبه خطيبها إلى ما تخطط له ،ثم عند انتقالها إلى الكويت وتركيا ولبنان قامت بدور فعال في تنظيم جماعة الإخوان المسلمين حيث أنها كانت تتصل بالإخوان المسلمين في مصر دون إثارة انتباه رجال الأمن المصري، وقد صورها المؤلف تقوم بأعمال وتؤدي أدوارا خطيرة يعجز الرجال عن القيام بها ؟...

وأخيرا نقول أن نبيلة كانت بحق بطلة رواية (رحلة إلى الله) دون منازع وقد عانت القهر والذل من خطيبها ومن المخابرات المصرية مما اضطرها إلى الهجرة هربا من المعاناة التي لاقتها في مصر، حيث هاجرت إلى الكويت ، تركيا ثم لبنان ثم عادت مرة أخرى إلى الكويت .

ولم تكف المخابرات المصرية عن ملاحقتها بل إنهم حاولوا قتلها :"... وفي أثناء سيرها في ذلك الشارع الجانبي الذي تسكن قرب منتصفه أفاقت من شرودها على طلقات رصاص متتابعة ...وقفت لحظة ودارت بنظراتها في خوف... ووجدت شبحا يتوارى مسرعا ... أدركت على الفور بغريزتها أن شيئا خطيرا يحدث ...جرت بأقصى ما

تستطيع من قوة ،وما إن دلفت إلى الداخل وهي تلهث حتى أخذت تتحسس جسدها... لم تكن تصدق أنها نجت"([1]).

فعلا لقد نجت من بطش الظالمين، مما اضطرها إلى تغير مكان إقامتها، وفي النهاية تصل إلى مبتغاها وتتحقق لها أحلامها، ذلك أن الدكتور سالم قد هاجر هو الآخر إلى الكويت، وها هو ذا يطلب يدها إلى الزواج، وتوافق دون تردد، فقد انتظرت هذا اليوم السعيد طويلا، وها هو الحلم يتحقق ببداية قصة جديدة كما قال الدكتور سالم...

وتكون بذلك نبيلة عنوان المرأة العربية المتعلمة والعاملة التي يبلغ عندها الوعي الوطني مداه فتساهم في مساعدة السجناء، سيما سجناء الرأي الذين ينتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين، حيث تعاطفت مع سلوى زوجة أحد المساجين وساعدتها بالمال، وقد وصل هذا الوعي إلى الذروة حينما هربت إلى خارج مصر، وبالضبط إلى الكويت واستطاعت أن تنشر كتابا تشرح فيه أوضاع السجناء السياسيين ومعاناتهم، كما تحدثت فيه عن معاناتها الشخصية في السجن الحربي.

وأخيرا تصدح برأيها بكل صراحة فاضحة بذلك الممارسات الاستبدادية للسلطات المصرية فتقول: " إنني واحدة من آلاف البشر المعذبين..." لم أكن من الإخوان المسلمين... إنني أدعو المتحمسين للثورة، وبعض رجال القضاء والمحاماة في العالم العربي أن يشكلوا وفدا منهم ويطلبوا من الحكومة المصرية السماح لهم بزيارة المعتقلين في المعتقلات والسجون... إن القضية ليست قضية الدعوة الإسلامية فحسب ولكنها قضية إنسانية كبرى.. أنا لا أخاف شيئا ... ولست أملك سوى عقيدتي وقلمي وذكرياتي المريرة... لقد وهبت نفسي لله ... ومرحبا بأي شيء أقدمه في سبيل مبدئي..." ([2]) .

1/ الكيلاني، نجيب : رحلة إلى الله، ص،316 .

2/ المصدر نفسه ، ص،271.

هـ – الصحافية (صفاء) في رواية (رأس الشيطان):

تجسد شخصية " صفاء " نموذجا آخرا المرأة المتعلمة العاملة، وهي إحدى شخصيات رواية "رأس الشيطان" التي هي رواية سياسية تدور أحداثها في مصر في الفترة الممتدة ما بين (سنة 1930م – 1935م) عند تولي صدقي باشا الوزارة، وألغى الدستور(دستور سنة 1923م) مما أحدث رد فعل شديد من قبل المعارضة والشعب على حد سواء، فقد شن حملات اعتقال وتقتيل في صفوف قوى المعارضة.

وركزت الرواية على المقاومة السرية لسياسة الإنجليز وحكومة صدقي باشا التي اعتبرتها خائنة لمطالب الشعب المصري، وقد شارك في محاربة الإنجليز كل فئات الشعب بما فيها الفلاحين في القرى والأرياف من خلال رفض القوانين الاقتصادية الجائرة التي فرضتها حكومة صدقي باشا على الفلاحين مما أوقعهم في مشاكل اقتصادية واجتماعية كبيرة إلا أن ذلك لم يثن من عزيمة الشعب المصري في التضامن والتلاحم القومي مع نضال الشعب المصري فقد وجدت من بين شخصيات الرواية شخصيات من غير المصريين.

وكشفت أحداث الرواية القناع عن بعض الوصوليين الذي لا تهمهم مصلحة الوطن بقدر ما تهمهم المصلحة الشخصية ومن أمثال أولئك الصحافي (بركات الزناتي) الذي تميز بالوصولية والخيانة لمبادئ الثورة .

وفي غضون هذه الأحداث المتشابكة تظهر شخصية (صفاء) بطلة رواية (رأس الشيطان) حيث يقدمها لنا السارد بقوله: " ألقت 'صفاء' بجسدها النحيل فوق الكرسي، ثم أسندت رأسها إلى راحتيها، وشردت إلى بعيد لم يكن يخفي القلق المرتسم في عينيها السوداويين الواسعتين، والبادي في طرقعة أصابعها من آن إلى آخر، والتنهدات التي تفلت منها دون أن تنتبه إلى نفسها " ([1]).

1/ الكيلاني نجيب : رأس الشيطان، د.ط، مؤسسة الرسالة لطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت ، ، 2005م، ص 20.

مما يوحي بأنها تعيش حلما جديدا ترنو إلى تحقيقه، ذلك يبين بأن (صفاء) تحمل هما كبيرا برأسها قد يكون ذلك الهم التفكير في وطنها الذي يئن تحت وطأة الإنجليز وجبروت الوزير عثمان باشا هذا الإقطاعي الثري الذي نسج خيوط استبداده من عرق الفلاحين حتى وصل في النهاية إلى منصب الوزير . وتعتبر شخصية عثمان باشا شخصية رئيسية في هذه الرواية أيضا ، شخصية مؤثرة في أحداثها .

وقد بدأت الرواية بوصف قصر هذا الباشا الذي " يبدو تحت جنح الظلام وكأنه قلعة حصينة والصمت الرهيب يسود أرجاءه الفصيحة... وخلف القصر امتدت حديقة كبيرة مليئة بأشجار المانجو والجوافة والعنب والموالح، يسورها سور من الأسلاك الشائكة ... الريح تصفر في الخارج وكأنها غضبة الطبيعة ، والقمر يختفي خلف قوافل السحب التي تزحم السماء، و البرد قارس يجمد الأطراف" ([1]) .

بهذا الوصف الذي امتزجت فيه معالم الطبيعة وكأنها تبدو غاضبة، نستنتج أن الروائي يضع القارئ في أجواء الرواية التي تتصارع فيها الشخصيات وتتشابك أحداثها فهذا المدخل الذي وضعه الكاتب للرواية يتساوق وأحداثها وشخصياتها ؛فالرياح المزمجرة والغيوم المتلبدة والعواصف الشديدة هي ترميزات تنبئ بطبيعة الأحداث التي ستقع.

فقد سارت أحداث هذه الرواية في اتجاهين متشابكين أو بالأحرى مترابطين؛ أحداث تدور رحاها في القرية يصور الكاتب من خلالها صراع الفلاحين الفقراء وتصديهم للاستبداد والإقطاع ممثلا في شخصية عثمان باشا الذي صار وزيرا للمواصلات في حكومة صدقي باشا، هذه الحكومة التي أصدرت أمرا بشق مصرف مائي في أراضي الفلاحين مما جعلهم يثورون على هذا القرار.

وقد ساعد في توعيتهم بحقوقهم الدكتور ضياء الدين وهو واحد من أبناء القرية تعلم بفرنسا وعاد إلى مصر لكنه لم يتخل عن شخصيته المصرية الشرقية لذلك كان

1/ الكيلاني نجيب : رأس الشيطان ، ص03.

الفلاحون يحبونه و يثقون به كل الثقة مما جعله العدو اللدود لعثمان باشا الذي يصفه قائلا: " ذكي.. لا يخاف.. نبت من طين بين الفلاحين وعاش مشاكلهم ومآسيهم، فعرف كيف يعزف اللحن المؤثر الجميل و يرضي قلوبهم العطشى ومعداتهم الجائعة.. هذا الوغد عاد من باريس بعد دراسته القانونية هناك يحمل رسالة التمرد والثورة، إنني لأتخيله وهو يندس في الأزقة والحارات والحقول ويسخر من حزب الشعب، ويندد بالخونة وأذناب الإنجليز ثم يدعونني الإقطاعي المتعجرف، هذا المسيو ضياء هو الذي أفسد الطبخة."([1]).

أما المحور الثاني الذي دارت حوله الأحداث في رواية (رأس الشيطان) فتمثلت في ثورة الشعب المصري في المدن والنضال السياسي ضد السلطة بكل أنواعها وأشكالها وقد أخذت صحيفة النهضة المصرية على عاتقها لواء النضال الذي تمثل في مواجهة سياسة الحكومة والتصدي للتدخل السافر للإنجليز في الشؤون المصرية ودعت إلى ضرورة الاهتمام بشؤون الشعب المصري في القرى و المدن و تحسين الظروف الاجتماعية للفلاحين ورفع الظلم والاستبداد عنهم وكان الدكتور ضياء الدين سكرتير تحرير هذه الصحيفة وكانت صفاء تعمل معه، .

وقد تميزت صفاء بالوعي الفكري الناضج فهي محررة الصحيفة آمنت بقضايا وطنها، فكتبت العديد من المقالات السياسية التي عارضت بها و بشدة سياسة الحكومة المصرية والإنجليز مما جعلها تتعرض لمضايقات شديدة من الحكومة ومن الوزير عثمان باشا نفسه.

فقد تطور وعيها السياسي وتعمق إحساسها بالوطنية حتى سارت رمزا للتضحية الوطنية حيث انخرطت في التشكيل السري الذي يقوده الدكتور ضياء الدين حتى صارت تشارك في العمليات الفدائية ضد الإنجليز .

إلا أن الكاتب صورها في صورة فتاة مبتذلة تتزين وتتبرج لتمثل دور العاشقة التي تخرج إلى الشوارع لاصطياد جنود الإنجليز وجلب أنظارهم لتوقعهم في الفخ مما جعل

1/ الكيلاني نجيب : رأس الشيطان ، ص ص 07 /08.

أمها غير راضية عن هذا السلوك المنافي لخلق الإسلام لذلك " اكفهر وجه أم صفاء من الغضب، وهي ترى ابنتها تغطي وجهها بالمساحيق الكثيرة وتستعمل أحمر الشفاه، و تعود من لدى الحلاق، وقد غيّر نسق شعرها تمام التغيير، ولبست نظارة زجاجها ذو لون أسمر خفيف، وارتدت فستانا جديدا يبرز الكثير من مفاتنها كانت خجلى وقد تغير شكلها تماما، لكنها كانت تحاول أن تنسى حرج موقفها وهي تتذكر الغاية الشريفة التي تناضل من أجلها" ([1]).

فأية غاية شريفة تناضل من أجلها امرأة مسلمة بهذا الشكل ؟ إلا إذا كان الكيلاني نجيب يؤمن بالنظرية المكيافيلية النفعية التي تؤمن بمقولة (الغاية تبرر الوسيلة)، وهي متأثرة بالعقلية اليهودية والتي لا ترى غضاضة في استعمال كل الوسائل من أجل المصلحة ؟

لذلك نجد أم صفاء تهتف في ذعر قائلة:

ـ "ما هذا يا بنتي ؟ هل جننت ؟

- بل في تمام عقلي ...

- يا للمصيبة !! لقد أصبحت مثل نجوم الشاشة، بل يؤسفني أن أقول: إنك تبدين كراقصة محترفة..

ولم تثر صفاء أو حتى تحاول أن تدافع عن سلوكها وخلقها واكتفت بأن قالت :

- أغريب أن تهتم المرأة بزينتها ؟

ـ ليس إلى هذا الحد قد نغتفر لك هذه الزينة إذا كنت متزوجة وفي عصمة رجل([2]).

والغريب في الأمر، أنه حينما اشتكتها أمها إلى والدها لم يبد منه أي رد فعل يتناسب مع شخصية الرجل العربي الشرقي المسلم الذي يغار على عرضه وشرفه، بل إن

1/ الكيلاني نجيب : رأس الشيطان، ص 210.

2/ المصدر نفسه ، ص 211.

الكيلاني صور لنا هذا الأب في صورة سلبية جدا حيث جعله يكتفي بإجابة زوجته وهو يرتشف فنجان القهوة قائلا:

- "إنها ابنتي وأنا أعرفها، ولا يخالجني أدنى شك في سلوكها إنها تفهم حياتها وظروفها أكثر مني ومنك .."([1]).

والملفت للنظر أيضا أن نجيب الكيلاني قد قلب الأدوار، على غير طبيعتها، حيث جعل الأم تعترض على سلوك ابنتها، والمعروف أن الأم عامة تخفي عن الأب كل سلوك لابنتها مخافة معاقبتها من طرف الأب وبالمقابل يكون الأب غير راض على تصرفات ابنته وهو الذي ينبغي أن يقف موقف المعارض لهذا السلوك غير السوي.

ليس هذا فحسب بل إن هذا السلوك المشين من صفاء لم يجد أية معرضة أيضا من قبل الدكتور ضياء الدين وهو المسلم المتخلق بل إنه اعتبر هذا التصرف رمزا للنصر والأمل حيث نجده يقول لها حينما استأذنته بالذهاب للقيام بمهمتها:

" أجل.. يا عروس النيل، يا رمز التضحية والفداء"([2]).

وهكذا تمضي صفاء إلى القيام بدورها المنوط بها، وكأن هذا الدور لا يستقيم إلا بمقومات التسلح بالجمال والإغراء، بعيدا عن خلق الإسلام الذي كان ينبغي أن تتمسك به في مثل هذه الظروف النضالية العصيبة ...

وبهذا تغرق صفاء في المهمة الخطرة التي تحمل تبعتها " لشد ما عادت تؤرقها وتثقل عليها، لكن شعورها بأنها تؤدي واجبا وطنيا مقدسا فيه مرارة وألم وفيه دماء وتضحيات، جعلها تمضي قدما إلى الأمام " ([3]) .

ولعل الملفت للنظر في هذه الشخصية الغريبة الأطوار أن الكيلاني جعل هذه المناضلة تدخن السيجارة في خلاعة لتجذب إليها الجنود الإنجليز، حيث تتمكن في النهاية

1/ الكيلاني نجيب : رأس الشيطان ، ص ص 212/211 .

2/ المصدر نفسه ، ص 213.

3/ المصدر نفسه، ص 214.

بالإيقاع بأحدهم الذي يلقى مصرعه على أيدي زملائها من المناضلين فهي " لم تكن تعرف كيف تدخن السيجارة ومع ذلك فقد أشعلت واحدة وهي تحاول جاهدة أن تظهر بمظهر الخلاعة والمجون... ومن آن لآخر تعزف بعض المقطوعات الموسيقية بفمها ثم تخطر بمشيتها، مستأنية، وتدور بنظراتها في كل ناحية، باحثة عن الصيد ، ومرت ساعتان يئست خلالهما من العثور على بغيتها، الجنود يمرون في عرباتهم ويصفرون أو يقذفون ببعض النكات الوقحة، ثم تبتلعهم الشوارع المتفرعة من الميدان أو يدلفون داخل الثكنات. واتجهت ناحية الجسر ثم انحرفت تجاه القصر العيني، ودق قلبها، كانت تحس أنها على أبوب العمل ووجدت جنديا إنجليزيا يترنح، وتمتمت (يبدو أنه قد شرب كثيرا، هذا لايهم، المهم أن أعرف كيف أستدرجه) و بنبرات رقيقة، ولغة إنجليزية مفهومة قالت:
- طاب مساءك..."([1]).

هكذا نجد الروائي قد قدم (صفاء) في صورة فتاة لا تبالي بالقيم الاجتماعية ولا بالمبادئ الدينية في سبيل مصلحة الوطن، وهو المبرر الذي اتكأ عليه الكاتب لتعليل هذه السلوكيات المشينة لهذه الفتاة التي إنما فعلت ذلك باسم التضحية الوطنية فكأن مصلحة الوطن تقتضي هذا الابتذال وتلك الخلاعة ؟ ؟

ومع ذلك فقد سبق أن قامت هذه الفتاة بمهمة فدائية تمثلت في وضع قنبلة زمنية في أحد النوادي الليلية ليلة عيد الميلاد حيث كان الضباط الإنجليز يسكرون ويعربدون وقد أدى ذلك إلى مقتل سبعة وجرح عشرة من كبار الشخصيات الإنجليزية، فهذه العملية كانت أقرب إلى النضال والفداء الحقيقي من أجل الوطن.

وتجدر الإشارة أيضا أن هذه الفتاة لم ترشح لهذه المهمة إلى بعد نقاش طويل داريين أعضاء التشكيل السري الذي يضم الدكتور ضياء و عدنان الأسطواني السوري مندوب الطلبة والعمال ومحروس أفندي صاحب الحانوت للبقالة الذي كانوا يجتمعون فيه،

1/ الكيلاني نجيب : رأس الشيطان ، ص 214 ـ 215.

وقد اعترض أحدهم على انتداب هذه الفتاة للقيام بمهمة وضع القنبلة في النادي لأنها امرأة وهو لا يثق في قدراتها لأنها تتصرف بعواطفها ثم اعترض آخر متسائلا.

" ألم يعد لدينا رجال حتى نلجأ للنساء؟ يا للعار !! "([1]).

وهذه إشارة أخرى من الروائي إلى النظرة الدونية التي يحملها الرجل الشرقي للمرأة حتى وإن كانت مثقفة وبإمكانها القيام بالأدوار الجسيمة التي يقوم بها الرجل .

أما مندوب الطلبة فقد كان موافقا على قيام هذه الفتاة بالمهمة حيث كان متعجبا من موقف زملائه من المرأة : " لشد ما تحيروني.. !! إنني أسمع منكم كلاما يخالف تمام المخالفة ما نادى به المصلح الاجتماعي (قاسم أمين) الذي دعا إلى تحرير المرأة والاعتماد عليها والاستفادة من طاقتها المعطلة " ([2]) .

فقد انبرى بحماسة للدفاع عن صفاء حيث " حاول جاهدا أن يعرف الطريق إلى إقناعهم، وجعلهم يؤمنون بدور المرأة في الكفاح الوطني ،و المشاركة في أعبائه، وتكاليفه وخاصة إذا كانت مثقفة واعية، وأكد لهم أن (صفاء) استطاعت بقلمها الواعي المخلص أن تثبت المبادئ الوطنية في نفوس الكثيرين من القراء، بل إنها فعلت ما لم يفعله الكثيرون من الرجال المثقفين ،فضلا عن أنها كصحفية تستطيع أن تحسن التصرف و تؤدي دورها على أكمل وجه"([3]).

وشرح لهم أن الرجل لا يستطيع التسلل إلى النادي الليلي دون إثارة الشبهات، أما صفاء فهي الوسيلة المضمونة الوحيدة في شمل هذه الظروف مما جعل أصدقاءه يوافقونه الرأي..

فهذا الحوار يكشف عن دلالات كثيرة ومتناقصة في آن واحدة، ذلك أن النقاش مازال محتدما بين المثقفين حول أحقية المرأة في المساهمة في النشاطات الوطنية من

1/ الكيلاني نجيب : رأس الشيطان ، ص 135.

2/ المصدر نفسه ، ص 137.

3/ المصدر نفسه ، ص ن .

جهة، ومن جهة ثانية فإن بعض المثقفين قد أنصفوا المرأة متبعين في ذلك المبادئ التي دعا إليها (قاسم أمين) ، ومن جهة ثالثة نجد هذه المرأة التي لم يسمح لها بوضع قنبلة في ناد ليلي بحجة أنها امرأة لا تحسن التصرف وأنها أسيرة عواطفها ،نجدها من جهة أخرى تتبرج و تستدرج الجنود الإنجليز ؟ !!

هذه إذن شخصية (صفاء) وقد جعلها الكاتب شخصية نامية يتطور وعيها عبر صفحات الرواية ، تشعر بأنها حرة تشارك الرجل في أعباء الأعمال الاجتماعية ، وتشاركه في النضال جنبا إلى جنب، تجادل أهلها وتنتصر إلى رأيها بحكم أنها مثقفة وعاملة تشارك في إعالة الأسرة ، وترفض الزواج إلا ممن تختاره هي بنفسها ويظهر ذلك من خلال الحوار الذي دار بينها و بين أمها: " فانطلقت أمها تقول في صراحة تبعث على الخجل والارتباك :

ــ ألم تفكري في الزواج؟

فهتفت دون وعي:

ــ هذا أمر طبيعي، و هو منتهي أمل كل فتاة..

ــ لكن..

ــ لكن ماذا؟ لن تعيشي راهبة ليس هذا من طبيعتك، لو زعمت أنك لا تفكرين فيه فستكونين إما كاذبة أو مريضة شاذة عن بنات جنسك "([1]) .

وعندما تلح أمه إلحاحا على ضرورة زواجها تلتزم (صفاء) جانب الحكمة والصبر وتهمس في ألم :

ـ" الزواج قسمة ونصيب، وأظن أنه لم يئن الأوان بعد...

فقالت أمها غاضبة:

ـ و لِمَ ؟ أنت ذات جمال وفي ربيع عمرك ، و لديك عمل يدر عليك مالا ، ونحن... نحن....لا نفكر في مالك بقدر ما نفكر في مستقبلك الذي يهمنا لأبعد مدى..

1/ الكيلاني نجيب: رأس الشيطان ، ص 163.

ـ ربما و لكن ما شأني أنا في ذلك؟

ـ لقد رفضت ابن عمك..

ـ لأنني أحس بنفور منه.

ـ ورفضت رئيس التحرير.

ـ لأنه في مثل سن أبي.

فصرخت أمها في حنق:

ـ ورفضت الأستاذ بركات.

ـ لأنني لا أستطيع أن أعيش مع ذئب.."[1].

وهنا يحتدم النقاش ويصل ذروته حيث تصرح (صفاء) برأيها النهائي في مسألة زواجها، فهي رفضت ابن عمها لأنها تحس بنفور منه ورفضت رئيس التحرير لأنه لا يناسبها من حيث سنه ،كما رفضت الأستاذ بركات لذلك تقول لأمها :

"ـ مسألة زواجي تهمني وحدي..

ـ و تهمنا أيضا يا ابنتي..

فقالت صفاء وكأنها تتوسل إليها:

ـ أمي.. لندع هذا الموضوع الآن، لأنه أشد التصاقا بي من أي إنسان آخر، وأستطيع أن أطرقه في الوقت الذي أراه..

ـ إنك ترفضين أي تدخل منا، كأننا إنجليز.

وهمست صفاء و هي تداري انفعالها

ـ معذرة ... أنا حرة في خصوصياتي..

ـ حرة؟؟

ـ أجل.

1/ الكيلاني نجيب : رأس الشيطان ، ص 163 ـ 164.

ـ هذه كلمة كبيرة ،وضياء يزورنا من آن لآخر، ويجلس معك و يتبسط في الحديث والعيون الفضولية تنظر إليه من خلف زجاج النوافذ، وطالبوا الزواج قد فروا... أنت حرة؟؟ ياللفضيحة ([1]) .

هكذا تتجلى شخصية (صفاء) شخصية قوية تدافع بكل قوة عن مبادئها ترفض الزواج على الرغم من كثرة الخطاب، لأنها ترغب في الزواج من ضياء الدين، لكنه لم يفصح بعد عن رأيه لأنه بخاف أن يعطله الزواج عن واجبه المقدس نحو وطنه.

ولكنه في النهاية ينخرط فيه ويقبل الزواج من صفاء ويخبرها أنه سيتقدم غدا لطلب يدها من أهلها " ولم يكن الأمر مفاجئة بالنسبة لعم محروس وحده، فقد كان ذلك بالنسبة لصفاء نفسها ، ولم تحتسب مطلقا أن ضياء سوف يخرج من صمته وتقاعسه هكذا دفعة واحدة، ويهمس في أذنها بالكلمة الحلوة الشائقة التي سرت بالنشوة والسعادة في كيانها كله، وسرعان ما انتزعت نفسها منه وغادرت دار الجريدة في غير مواعيد الانصراف، وعيناها تطفحان بشرا، وقصدت أمها على الفور لتحمل إليها النبأ السعيد " ([2]).

وفعلا تتم الخطوبة في جو من الفرح والسرور والسعادة ، حيث يتقدم لها الزملاء والزميلات بالتهاني، بما فيهم الأستاذ بركات الذي رفضته...

هذه بعض الشخصيات النسوية المتعلمة والعاملة التي وردت في بعض روايات نجيب الكيلاني وإني أكتفي بما عرضته لأنها نماذج متكررة في كثير من رواياته والمجال لا يتسع لعرضها كلها، فهناك كما سلف أن ذكرت المرأة الفلاحة والمرأة الخادمة والمرأة التاجرة و الراقصة، وغيرهن . وسأتناول بعضهن بالبحث في الباب الرابع عند الحديث عن نماذج المرأة في روايات الكيلاني .

1/ الكيلاني نجيب : رأس الشيطان ، ص 165.

2/ المصدر نفسه ، ص ص 232 ـ 233.

الفصل الثالث
قضية إكراه المرأة على الزواج

الفصل الثالث
قضية إكراه المرأة على الزواج

أولا : الاختيار والإكراه في الزواج

ثانيا : المرأة والإكراه على الزواج

في روايات نجيب الكيلاني

(نهيرة)

في رواية (في الظلام)

أولا : الاختيار والاكراه في الزواج:

لقد فطر الله الإنسان على الزواج لأن الزواج يتناسب وميول الإنسان ورغباته وغرائزه، وقد رخص الإسلام الرهبانية وحث المسلمين على الزواج عند الحاجة إليه والقدرة عليه لأن العزوف عن الزواج يتعارض مع الفطرة الإنسانية، وذلك أن الزواج فيه رحمة ومودّة وألفة بين الزوجين لقوله تعالى: " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) "([1]).

والزواج وسيلة شرعية للتكاثر والحفاظ على النسل البشري وهي مقصد من مقاصد الشّرع لقوله تعالي: "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72)"([2]). والزواج أساسه الرضا أي الإيجاب والقبول لأنه لايصح العقد بإكراه الرجل أو المرأة على الزواج،فلا ينبغي للولي أن يكره ابنته على الزواج ممن لا ترضاه زوجا لها، لقوله صلى الله عليه و سلم :" لا تنكح الأيم حتى تستأمر،ولا تنكح البكر حتى تستأذن قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها قال: أن تسكت"([3]).

لأن الزواج السليم الذي يقوم على حسن اختيار الزوج وحرية قبوله أو رفضه،هذا الزواج يتحقق به الهدف الأسمى من بناء الأسرة وهو السكينة والطمأنينة النفسية والمحبة المتبادلة بين الزوجين وكذلك التعاون والرحمة مما يؤدي إلى إنجاب أبناء يتربون في جو من السعادة والألفة يؤهلهم ليكونوا بناة المستقبل ، يحملون ألوية التقدم ويحمون الأمم .

1/ سورة الروم : الآية 21.

2/ سورة النحل : الآية 72.

3/ أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري : صحيح مسلم،كتاب النكاح،باب استئذان الثيب في النكاح،حديث رقم،64،(1419) ،ص،124.

أما إذا أجبرت الفتاة وأكرهت على الزواج حتى وإن كان الزوج صالحا وعلى خلق قويم، فإنها لن تحبه ولن تجد معه راحتها لأنها ببساطة،لم تنتقيه ولم تختاره بمحض إرادتها،مما يشعرها دوما بعدم الرضا وعدم الاستقرار وفقد الأمان نفسيا وعاطفيا واجتماعيا، فتصاب في النهاية بالملل والكآبة والعجز عن القيام بواجباتها الزوجية على أحسن وجه، بل قد تلجأ إلى الهروب من واقعها التعس هذا إلى إنشاء علاقات آثمة خارج أسوار الزوجية تعويضا عما تحس به من فتور ونقص في علاقتها مع زوجها. هذا الزوج الذي ربما يكون في سن والدها على أقل تقدير،ذلك ما يدفع بها إلى السقوط في براثن الرذيلة.

إن إكراه الفتاة على الزواج ظاهرة كثيرا ما تحدث في المجتمعات العربية شرقا وغربا،حيث يسعى الأولياء بدافع الحفاظ على شرف الأسرة إلى تزويج بناتهم ربما حتى قبل سن البلوغ، والأدهى من هذا أنها تزوج إلى ابن عمها أو ابن خالها أو إلى العمدة أو إلى ابنه، أو إلى شيخ القرية أو درويشها، المهم أنها تزوج وكفى.

صحيح أن الفتاة لا تكره الزواج بذاته، بل إنها تحلم به منذ نعومة أظافرها، لكنها تكره أن تزف إلى من لا ترضاه زوجا لها ،" فنادرا جدا ما ترفض المرأة الزواج،بل إنها تسعى إلى الزواج لأنه الشكل الوحيد الرسمي والشرعي والقانوني والأخلاقي الذي يمكن من خلاله أن تعيش اقتصاديا (إذا لم يكن لها عمل أو إيراد). وتحمى اجتماعيا (المرأة غير المتزوجة متهمة دائما) و ترضى جنسيا (لا يسمح للمرأة أن تمارس الجنس خارج الزواج إلا إذا كانت مومسا) ، بالإضافة إلى أن الزواج اكتسب نوعا من الحماية الدينية وأصبح شبه مقدس،ولم يكن من السهل لأي مرأة أن ترفضه أو تنتقده"([1]).

ثانيا : المرأة والإكراه على الزواج في روايات نجيب الكيلاني:

لقد تفشت هذه الظاهرة في المجتمع المصري،مما حاد بنجيب الكيلاني أن يطرحها في رواياته بشكل ملحوظ،فقد عالج هذه القضية من خلال مجموعة من الشخصيات

1/ السعداوي نوال: الأنثى هي الأصل،ص،267.

النسوية منها على سبيل المثال:(نهيرة) في رواية (في الظلام)، و(سكينة) في (حمامة سلام)، و(روز) في رواية (طلائع الفجر).

وكل شخصية من هذه الشخصيات تمر بتجربة الإكراه على الزواج بطريقة مختلفة وغير متوقعة، فـ (نهيرة) امرأة متزوجة من فريد الحلواني الذي أحبها وأحبته،و لكنه يدخل السجن في قضية سياسية فيرغمها أهلها على الطلاق منه ويزوجونها لرجل آخر كان قد تقدم إلى خطبتها قبل زواجها من فريد و رفضته.

أما (سكينة) فهي فتاة أحبت ابن العمدة في قريتها ولكن لم تتزوجه لأن والده العمدة قد خطبها لنفسه وتزوجها بدلا من ابنه وقد رضي والداها بهذا الزواج دون مراعاة لمشاعر ابنته (سكينة) على الرغم من أن أهل القرية كلهم على علم بقصة حب سكينة و(ربيع) ابن الحاج (عبد الودود).

أما (روز) فقد أرغمها أبوها على الزواج من أحد أعدائه لتتجسس عليه وتجمع أخباره. وسأفصل القول في شخصية نهيرة على سبيل التمثيل و التطبيق.

(نهيرة) في رواية (في الظلام):

إن نهيرة تمثل إحدى الشخصيات النسوية في رواية(في الظلام) وهي الرواية التي عرضت بعض الأحداث السياسية في مصر خلال حكم الملك فاروق،حيث أبرزت هذه الأحداث أساليب النظام الملكي والسعي إلى إنشاء نظام جمهوري وتمثلت تلك المقاومة في ما كان يبثه الشباب المصري من منشورات وخطب لتعرية مفاسد النظام الملكي،حيث اقتصرت الحركة الوطنية في تلك الفترة على هذا النموذج من النضال دون اللجوء إلى العمل المسلح،وكانت من بين الأشخاص التي لعبت دورا فعالا في ذلك التنظيم السري الذي في الحقيقة لا ينتمي إلى أي حزب سياسي.

وقد ضمت تلك المجموعة نخبة من الشباب المتحمس المتطلع إلى التغيير،و كانت تلك الشخصيات على جانب كبير من الوعي الثقافي و السياسي،من هؤلاء الضابط (فرحات السروجي) والطالب الأزهري الشيخ (بسطويسي) و(عبد المجيد)، و(فريد

الحلواني) الطالب في كلية الحقوق، والذي يعاني من أوضاع مادية لأن والده يعمل فرَّاشا في المدرسة الابتدائية وأمه كانت تعمل غسالة (تغسل ملابس الناس) لذلك اضطر إلى العمل كمدرس ليعيل أسرته الفقيرة،وقد كانت تربطه علاقة عاطفية مع نهيرة " وكان أول لقاء بين نهيرة و فريد على شاطئ تلك النزعة الصغيرة وهما لا يزالان طفلين يلعبان ويعبثان مع الأطفال،وإن كان فريد يكبرها بعامين اثنين،وكان اللقاء الثاني وهما طالبان في مدرسة الإرسالية الأمريكانية الابتدائية بـ (سنباط) حيث كان الاختلاط مباحا بين البنين والبنات في فصول الدراسة..."([1]).

وقد توطدت العلاقة بينهما حيث كان يزورها في بيت أهلها على مرأى من أمها. إلا أن فريد لم يكن الوحيد الذي يحب نهيرة، فإن (عبد الحميد) هو أيضا يحبها ولكن دون علمها بهذا الحب ويظهر ذلك من خلال الحوار الذي دار بينهما:

"فصمت: عبد الحميد لحظة ثم قال بهدوء:

ـ أقول لك يا (فريد) يا أعز أصدقائي ـ إنني كنت أحب (نهيرة)"([2]).

وكانت هذه العبارة صدمة لفريد فثار غاضبا مهددا إلا أن"عبد الحميد واصل الحديث في هدوء:

ـ " أما أنا فعلى النقيض منك تماما،لقد استطعت أن أكبت حبي وأسحق أنانيتي من أجلك ومن أجل كفاحنا و مبادئنا..ليس معنى هذا أنني أكثر تقديرا للمثل العليا منك...ولكنني واقعي...رأيت أنك أحببتها وتأكدت أنها تحبك،فآمنت أن الصراع معك من أجلها معركة خاسرة.

أما عبد الرحمن المدرس فلم يكن بنفس مستوى أخلاق (عبد الحميد) ، فقد كان منافسا عنيدا (لفريد) يصارعه على امتلاك قلب (نهيرة) حيث كان كثير التردد على بيتهم ،مما أثار غضب فريد الذي سألها في عصبية :

1/ الكيلاني ، نجيب : في الظلام،د.ط، مؤسسة الرسالةللطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت،1999م،ص،29.

2/ المصدر نفسه ،ص،44.

" ـ ماذا كان يعمل (عبد الرحمن أفندي) هنا ليلة أمس"([1]).

فتجيبه بكل برودة أعصاب :

ـ" أتى كالمعتاد مع زملائه المدرسين لزيارة والدي...إن بيتنا مفتوح للزوار والأصدقاء ولا غرابة في ذلك.."([2]).

مع أنه في النهاية تمت خطوبة (فريد) نهيرة) . وأيقن عبد الرحمن أفندي أنها ضاعت منه للأبد ،مما جعله يؤلف الحكايات والروايات التي يروي من خلالها مغامراته العاطفية مع نهيرة في بيتها على الرغم من أنه حضر حفلة الخطوبة مباركا ،إلا أنه أظهر حقده معلنا " علي أن أتحمل ثورتك وكبريائك ،إذ لا يليق بي أن أنهار،وأفقد أعصابي أمامك وأمام أي إنسان حتى لا أكون أضحوكة ومضغة في الأفواه ... سوف أكظم حقدي وإن كان الحقد المكظوم يلتهم كياني ويفني طاقتي وحيويتي بلا رحمة"([3]).

ويمضي عبد الرحمن أفندي يمضي في إطلاق الشائعات هنا و هناك يريد من خلالها شفاء غليله من خصمه الذي فاز بحب نهيرة،فقد رآه(فريد) ذات ليلة في محل البقالة الذي يملكه وهو يضحك بصوت عال ويتفكه بالحديث عن زواج نهيرة وفريد الحلواني،وقد صادف مرور فريد ناحية الدكان،وحينما سمع صوت عبد الرحمن أفندي تخبأ تحت شباك المحل وراء شجرة التوت العالية متخذا من الظلام ستارا ومن هنا سمع الحوار التالي:

" ـ مسكين يا (عبد الرحمن أفندي) أخذها منك الجربوع ابن الجربوع... لقد جعلك عبرة لمن لا يعتبر...وما كان منك إلا أن ألقيت السلاح.

هكذا قال أحد أصدقاء (عبد الرحمن أفندي) أما عبد الرحمن نفسه فقد قال في لهجة ذات معنى :

1/ الكيلاني ، نجيب : في الظلام ،ص،45 .

2/ المصدر نفسه ،ص،30 .

3/ المصدر نفسه ،ص،68.

ـ كأس شربناها،ووردة شبعنا منها شما ولمسا وطعاما عفناه من طول تناوله،فلا ندم ولا حزن،إذا ما تركنا لغيرنا إلا الفتات.

ـ أتعني ما تقول يا (عبد الرحمن أفندي)؟

ـ وما الغريب في ذلك أتستكثره على مثلي ؟

ـ إذن ما الذي جعلك تترك كأسك و تنصرف عن وردتك؟

كل ما أعرفه عنك أنك مطرود من الفردوس ...!

ـ هذا هو الوهم بعينه...إن إشارة واحدة مني كانت كفيلة تنهي الموضوع لصالحي،لكني أبيت..

ـ و فريد ألا يعلم شيئا عن ذلك؟ ألا يدري شيئا عن سهرات السطح والسكر تحت ضوء القمر في الحديقة كما زعمت...؟

فضحك (عبد الرحمن أفندي) ضحكة خبيثة و قال:

ـ ما أكثر المغفلين..."([1]).

غير أن الحقيقة غير ما صرح به عبد الرحمن أفندي،لأنه فيما بعد يندم على ما فعل ويعتذر لفريد وكذلك لأم نهيرة، ويعدهما بأنه لن يعود إلى مثل تلك الشائعات التي تقدح في شرف نهيرة .

ويحدث بعد الخطوبة ما لم يكن في الحسبان حيث تتكرر زيارات فريد إلى نهيرة في بيت أهلها يجالسها على مرأى و مسمع من أمها،بل إن أمها تتركها بالبيت و تخرج لقضاء بعض حاجاتها،و هنا تقع الكارثة حيث يرتكبان الحماقات دون رقابة أسرية ودون اعتبار للعواقب إذ يقع الخطيبان في الخطيئة " فبعد حفلة الخطبة كثر تردده عليها،واستمتع معها بالحرية المطلقة، وحظيا بفترات هادئة هما على انفراد وقد أسكرتهما نشوة

1/ الكيلاني، نجيب : في الظلام،ص،91-92.

الشباب،وحمى السعادة،وأفاقا على حقيقة واضحة لا يمكن تجاهلها،وأصبحت هي امرأة و أصبح رجلا"([1]).

وبذلك تفقد نهيرة عذريتها،بل أكثر من ذلك،فإن نهيرة تفيق على حقيقة مرّة..إنها حامل قبل إجراء مراسيم الزواج...مما جعل فريد يتساءل كيف حدث ذلك فيقول في ضجر:" كيف حدث هذا؟ يالي من أحمق متعجل ،لم أكن أحلم بمثل هذه التطورات،فإذا بها حقيقة مخيفة سوف تقلب برنامج حياتي رأسا على عقب،لكن الوزر الأكبر يقع على عاتق أمها تلك المستهترة التي هيأت لنا الفرص، وتركت الحبل على الغارب فانطلقنا في ميدان اللذة واللهو دون تفكير أو تدبيرلما يطرأ في المستقبل..."([2]).

يبدو من خلال هذا التعليل لأسباب وقوع تلك الجريمة،أن الأديب يطلق صرخة توجيهية على لسان فريد ليلفت انتباه القارئ إلى قضية اجتماعية هامة و في منتهى الخطورة، وهي الثقة الكبيرة أو كما يقال الثقة العمياء التي يضعها الآباء في الأبناء في ربط العلاقات سواء كانت علاقات صداقة أو علاقات الزمالة في العمل أو حتى علاقة المخطوبين أثناء فترة الخطوبة،وعدم التقيد بما نصت عليه الشريعة في ضرورة وجود المحرم مع المخطوبين وعدم تركهما دون رقابة ولا وصاية.

من هنا تطلب نهيرة من فريد التعجيل بالزواج حتى لا ينكشف أمرها ،ويسافر فريد إلى القاهرة على أمل أن يعود بعد شهر لإجراء مراسيم الزواج،غير أن القدر يقف له بالمرصاد، ذلك أن يعتقل هو وزملائه في قضية سياسية ويحكم عليه بسبع سنوات سجن،لذلك تقع نهيرة في جريرة أعمالها.

إن الزواج الذي سينقذها من المأزق لن يتم في ميعاده وهي حامل في شهرها الثالث،فما العمل؟ إنها لم تجرؤ على إخبار أهلها لذلك كتمت الحقيقة في نفسها " لم تقل نهيرة لهم الحقيقة ولم تخبرهم عن السر الذي يكمن وراء زيارتها لخالتها في (طنطا) ،فبعد أن

1/ الكيلاني ، نجيب : في الظلام ،ص،131.

2/ المصدر نفسه ،ص،131 .

قبض على فريد ضاعت آمال نهيرة في الزواج السريع،وأرغمها الوضع الشائك أن تفكر في مصير الجنين الذي يرقد في بطنها...وكان أن أقدمت على خطوة خطيرة ،قد تعرض حياتها للموت...الإجهاض...أجل الإجهاض،قبل أن يعرف أبوها...و قبل أن يعرف الناس...([1]).

لكن المصائب تتوالى عليها من كل صوب و حدب، فها هي ذي أمها تطلب منها طلب التطليق من فريد، وترغمها على الزواج من (عبد الرحمن أفندي) العدو اللدود لزوجها فريد الذي ما زالت تحبه،ترغمها أمها على الزواج من هذا اللئيم الذي ما فتئ يتودد بالهدايا والخدمات التي يقدمها لوالد نهيرة خاصة عندما مرض ولزم الفراش "و(عبد الرحمن أفندي) انتهز فرصة مرض أبي بالضغط وحاجته إلى العون،فأخذ ينجز له أوراقه،ويساعده في أعماله الكتابية،ويحضر له الطبيب إذا ما عاوده المرض،والأعجب من ذلك أنه يشتري الدواء على حسابه ثم يرفض أن يأخذ ثمنه أو يأخذ نفقات الطبيب"([2]).

ثم تتساءل نهيرة عن الأسباب الحقيقية لتلك الزيارات المتكررة فتقول:"أتراك يا (عبد الرحمن أفندي) تقدم خدماتك لوجه الله أم أنك تقدمها حتى تحظى بالقبول والشكر من والدي؟؟ وأي نوع من الشكر تريد؟؟.. أمجرد كلمات وابتسامات تتلقاها من أبي؟... أم ما هو أكبر من الكلمات والابتسامات... يخيل إليّ الشكر الذي يقصده(عبد الرحمن أفندي) من النوع الثاني... يا لوقاحته ... ألم أقل إن الذوق مرض سخيف !؟"([3]).

ولم تجد نهيرة بدا من الزواج من عبد الرحمن أفندي الذي أخبرته أمها بأنها لم تعد عذراء،مع ذلك فعبد الرحمن لا يجد حرجا في ذلك تقول أمها:" هذا أمر لم يفتني،لقد سويته مع عبد الرحمن أفندي،وهو على استعداد لقبولك كما أنت،بل على استعداد لما هو أكثر من ذلك... مريه كما تشائين"([4]).

1/ الكيلاني، نجيب : في الظلام ،ص، 190.

2/ المصدر نفسه، ص،219 .

3/ المصدر نفسه ، ص،218 .

4/ المصدر نفسه ، ص،248- 249.

هكذا تجد نهيرة نفسها في قبضة عبد الرحمن أفندي الذي أثقل كاهل والديها بالهدايا والخدمات،وبين جبروت أمها الطامعة في هذا الزوج الذي تراه مناسبا لها ، وبين حبها لفريد الذي ما زال يحكم قبضته على قلبها . ومع ذلك فقد حاولت الدفاع عن حبها وعن زواجها ،فحينها تطلب منها أمها الزواج من عبد الرحمن أفندي قائلة:

"ـ تتزوجين عبد الرحمن أفندي ؟ !!

ـ إيه مستحيل... أنا زوجة (فريد) ... وأنت تعلمين ذلك..

فقالت الأم في جد و إصرار:

ـ كان هذا فيما مضى، أما الآن فالوضع قد تغير..ويجب أن نجاري الأيام،ونساير الأحداث([1]) .

عندها تغضب نهيرة وتنهض مذعورة من فراشها كأنه لدغتها حية،وقد ارتسمت الدهشة و الحيرة على ملامحها وبدا الفزع في عينه، وأخذت تهتف في هستيريا لم تعدها أمه: "كيف تقولين هذا الكلام ؟...إنني زوجة (فريد) أنا حرة في مستقبلي..سأستجدي الناس..سأنام في الشارع...سأعمل خادمة...وسأنتظره... ارحموني... أتركوني بحالي ماذا تريدون مني ؟.. أتودون قتلي ؟..أنا لست متاعا يباع ويشترى"([2]).

من خلال هذا الحوار يتبين موقف نهيرة من هذا الزواج الظالم من جهة ، ويتضمن جهة أخرى مدى تمسك هذه الزوجة بزوجها،فقد رضيت النوم في الشوارع والعمل كخادمة من أجل انتظار عودة زوجها فريد من السجن،وهي أخلاق سارت عليها نسوة القرية، قرية شرشابة كما في معظم ريف مصر،تقاليدها صفة الاحترام والتقديس.

فمن الأمور المسلم بها،أن المرأة لابد أن تنتظر زوجها حتى يعود من السجن، يجب أن تحمل عنه العبء حتى يعود،و تحاول أن تملأ الفراغ الذي تركه،ولا بأس عليها

1/ الكيلاني ، نجيب : في الظلام ، ص،248.

2/ المصدر نفسه ، ص،249.

إن هي شقيت وتعبت،وقاست الأمرين لأنها عند ذلك سوف ترتفع في أعين أهل القرية،وتحظ باحترامهم،وسيظل زوجها فيما بعد حافظا لجميلها،شاكرا لمعروفها"([1]).

وفي النهاية ترضخ نهيرة لنزوات أمها التي أوهمتها بأن زواجها من عبد الرحمن أفندي هو مفتاح الفرج لأوضاعهم المزرية،خاصة بعد مرض والدها و عجزه عن توفير حاجيات البيت،لذلك كان البديل في نظر أمها هو هذا الزوج الذي يتباهى أمام الأسرة بالإنفاق دون مقابل. وتزف نهيرة إلى بيت عبد الرحمن أفندي ليس رغبة فيه وإنما إشفاقا على حال والدها الذي هو أيضا كان يطوق إلى هذا الزواج ويعتقد بأن فيه سعادة لابنته لذلك يقول لها في ملخص حديثه معها :

" والتفت الرجل المريض إلى وحيدته في حب وحنين وهمس :

ـ غدا يوم المنى يا (نهيرة)..

وأطرقت في صمت و لم تجب،بينما استطرد الرجل قائلا:

ـ كلما تذكرت أنك في الغد ستذهبين إلى بيت الزوجية،أشعر شعورا جميلا حلوا لأني أحس في نفس الوقت أني قد قمت بأضخم مهمة في حياتي.."([2]).

ثم يردد قائلا: " إني مطمئن لعبد الرحمن أفندي وواثق فيه تمام الوثوق،و هذا ما يجعلني ـ إذا ما ودعت الحياة ـ أشعر في كنف من يحميك و يسعدك"([3]).

وقد عرض الكاتب النتائج السلبية الناتجة عن هذا الزواج و تلك النتائج لم تكن لو لم يكن هذا الزواج فيه إرغام لشهيرة على الزواج من عبد الرحمن أفندي،فقد أصبحت هذه الزوجة تشعر بالذنب تجاه زوجها الأول فريد الذي تطلقت منه دون ذنب وقد ترتب عن ذلك أن أصيب فريد زوجها السابق بنوبات عصبية أوشك أن يفقد عقله جراها على الرغم من أن نهيرة لا تتحمل ذلك الذنب لأن أمها هي التي أجبرتها على تطليق زوجها .

1/ الكيلاني، نجيب : في الظلام ،ص،275.

2/ المصدر نفسه ،ص،269.

3/ المصدر نفسه ،ص،ن.

وهذا ما صرح به الراوي على لسان الحلواني والد فريد: " على أي حال،أنا أعتقد أنه لا لوم على نهيرة البنت الطيبة و مؤدبة ،لكن أمها وأباها هما اللذان دفعاها إلى هذا الفعل الشنيع دفعا"([1]).

ثم إن نهيرة لم تسعد ولو يوما واحدا مع زوجها الثاني عبد الرحمن أفندي،على الرغم من أنها أنجبت طفلين،وهذه نتيجة سلبية أخرى من نتائج هذا الزواج. يضاف إلى ذلك أن الروائي يلفت النظر إلى ما تؤول إليه مثل تلك العلاقات الزوجية المبنية على عدم الرضا ؟ذلك أن المرأة التي تعيش مع زوج لم ترغب في الزواج منه وأرغمت على ذلك تكون تعسة،بعيدة عن زوجها بعدا نفسيا وعاطفيا وإن كانت قريبة منه حسيا فقد " أخذ عبد الرحمن أفندي يلحظ بدقة ملامح نهيرة وتعبيرات وجهها،وتألقت نظراتها وبدا له في هذه اللحظة أنها تهيم في واد آخر أبعد ما يكون عنه وعن بيته و طفليه ـ شيء مؤسف، ماذا يفعل إزاء عاطفتها التي تتجاهله؟ لو كان الحب شيء يصنع أو يشترى لما توانى عن ذلك،لكنها هاهي في بيته،وعلى بعد سنتيمترات منه،بل وترقد إلى جواره، وتعد له طعامه،وتفعل الكثير،لكنها بعيدة عنه بعد ما بين المشرق والمغرب،ترى أية قوة تستطيع أن تحول هذا القلب الشارد،قلب نهيرة؟؟" ([2]).

بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى السخرية والاستهزاء من الزوج وتعذيبه نفسيا،خاصة إذا كان هذا الزوج كبير في السن،فالزوج تشعره بلذة غريبة وهي تنال من رجولته وتسخر من تصرفاته وسلوكه الشخصي ، فقد كانت تريد أن تجلب له الشقاء، إن الاضطرابات النفسية والهزات العصبية العنيفة التي تعرض لها عبد الرحمن فقد تركت بالفعل أثرا عميقا في روحه و جسده..

1/ الكيلاني ، نجيب : في الظلام ، ،ص،319.

2/ المصدر نفسه،ص،321.

لم يعد يقبل على طعامه بشهية أو يذهب إلى عمله في لهفة،أو يدخل بيته والشوق يلهبه...كلا...بل إن المخدرات التي أصبحت زاده الرئيسي في رحلة حياته المريرة الشاقة.. وأصبح عاجزا أيضا عن أن يؤدي وظيفة الزوج السليم القوي،ونهيرة هي الأخرى أدركت ذلك،وهاهي توجه إليه طعنات دامية في صميم رجولته

وبهذا يرسم لنا الكيلاني صورة المرأة المظلومة المتهمة من غير ذنب اقترفته ،المرأة التي تحرم من الحب ويجبرها المجتمع على قبول الزواج ممن لا تحبه ويحرمها السعادة مع من أحبت،يزوجها والدها لهذا فإذا ما انتهت المصلحة المادية منه طلقها منه على جناح السرعة ليبرم صفقة أخرى رابحة،ولا يهم شعور تلك المرأة ولا يحس بعواطفها،فهي آلة تحت التصرف مثلها مثل أي متاع يباع ويشترى ([1]).

إن نهيرة في هذه الرواية ما هي إلا رمزا للمرأة في الريف المرأة التي تقاسي المآسي،لتقوم في النهاية بفعل الانتقام من هذا الرجل فتمارس معه عملية اللامبالاة و البرود العاطفي فطعنته في رجولته وصميم كبريائه....

1/ ينظر : الكيلاني نجيب : في الظلام ، ص 322 .

الفصل الرابع
قضية العنوسة والطلاق

الفصل الرابع
قضية العنوسة والطلاق

أولا : المرأة بين مطرقة العنوسة وسنديان الطلاق

ثانيا : المرأة وظاهرتا العنوسة والطلاق

في روايات نجيب الكيلاني

أ)– بنات (أبي العز سليم) العوانس

في رواية (مملكة البلعوطي)

ب) ـ الممرضات العوانس

في رواية (الذين يحترقون)

ج) ـ (هدى) المرأة المطلقة

في رواية (الذين يحترقون)

أولا : المرأة بين مطرقة العنوسة وسنديان الطلاق :

العنوسة والطلاق من القضايا الاجتماعية الأخرى التي تعرض إليها نجيب الكيلاني في رواياته، وهما قضيتان لا تقلان أهمية عن سابقاتها من القضايا التي طرحتها في هذا البحث ؛ فالعنوسة ظاهرة باتت تتمدد كالإخطبوط في ثنايا المجتمعات العربية،ومثلها ظاهرة الطلاق التي صارت تنخر جسد المجتمع لترديه صريعا يتخبط في المشاكل التي تترتب عنه على الصعيدين : الفردي والاجتماعي.

وقد بات الطلاق كأنه موضة تتفاخر بها النسوة أو على الأقل تبين من خلاله قدرتهن على قول كلمتهن، لا سيما في ظل كثير من القوانين الوضعية التي سهلت الطريق إلى الطلاق .. فقد أشارات كثير من الإحصائيات إلى تنامي نسب العنوسة ، وارتفاع عدد المطلقات في المجتمعات العربية بشكل ملفت للانتباه ، ينذر بالخطر الزاحف على الأمة العربية والإسلامية جراء هذه الظاهرة المتنامية بسرعة كما ينمو السرطان في الجسد العليل ..

ثانيا : المرأة وظاهرتا العنوسة والطلاق في روايات نجيب الكيلاني :

وقد تناول الكيلاني هذه الظاهرة في العديد من رواياته نذكر منها بعض النماذج مثل: بنات (أبي العز سليم) في رواية (مملكة البلعوطي)، والممرضات العوانس في رواية (الذين يحترقون) ، و(أخت حافظ شيحا) في رواية (الطريق الطويل).

أ) – بنات (أبي العز سليم) العوانس في رواية (مملكة البلعوطي):

تدور أحداث هذه الرواية في قرية شرشابة من مركز (زفني) حيث يسيطر الإقطاعي أبو العز سليم على أمور هذه القرية، فقد ملك أكثر أراضيها و تحايل على الفلاحين حتى باعوا أراضيهم وصاروا مستأجرين عنده، يؤجر لهم الأراضي بالأسعار التي يريدها وكيف يشاء، وقد أَقَامَ مُلْكَهُ في القرية وأحكم سيطرته على أهاليها بثلاثة أشياء " أولها أن رجال أبو العز يستولون على أرض بعض الفلاحين بالقوة، وَيُرْغِمُونَ

أصحابها على التنازل له مقابل ثمن بخس، وثانيها أنه يستولي من الفلاحين على محاصيل الأرض المؤجرة لهم، ولا يعطيهم إلا الفتات، وثالثها أنه لا يتصدق على أحد من الفقراء، في الوقت الذي يجزل فيه العطاء لأعوانه من الظلمة والفسقة الذين يذيقون الناس، وخاصة الشاكين ألوانا شتى من العذاب([1]).

لذلك حينما يأتيه الشيخ عبد القادر الشاذلي يتوسط بينه و بين الفلاحين وطلب منه الرفق به وتحسين معاملته معهم لأن سياسته قد أضرت بمصالحهم اجتماعيا واقتصاديا وكثير منهم اضطروا إلى هجران القرية هروبا من بطشه وجبروته، فغضب أبو العز سليم وانتفض قائلا: ـ " أنا أبو العز بك... وقد خلق الله الناس درجات، وشاءت إراداته أن يكونوا في خدمتي.. وبهذا يمكنهم أن يعيشوا ويتزوجوا و ينجبوا...([2]) .

وبسبب هذا التفكير الاستعلائي رفض كل من تقدم لخطبة إحدى بناته لأنه يرى أن كل من يأتي لخطبة إحداهن فهو طامع في أمواله و جاهه و سلطانه فيتعرض للشتم والسباب و التهديد، فلم يعد أحد من أهل قرية شرشابة يجرؤ على هذا الفعل.

فقد كان أبو العز شديد الحرص والبخل مع أهل بيته وخاصة أبنائه الذكور" أما الكارثة الكبرى فقد كانت من نصيب البنات ... لقد كبرن و بلغن السن المناسبة للزواج وكلما تقدم خطيب لإحداهن رماه بأقذع الشتائم، وطرده شر طردة([3]).

وقد حاولت زوجته كثيرا رده عن هذا الموقف ومعرفة سبب رفضه هؤلاء الخطاب جميعا، فكان يقول في شموخ: " إنني آنف أن تنام ابنتي في حضن رجل، أي رجل "([4]).

1/ الكيلاني ، نجيب: مملكة البلعوطي، الطبعة 01، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، 2001م، ص ص 09 ـ 10 .

2/ المصدر نفسه ، ص10.

3/ المصدر نفسه ، ص125.

4/ المصدر نفسه ، ص 123.

وتمضي الزوجة في محاولة إقناعه بأن النساء خلقن للزواج وأن تلك سنة الله والمرأة مصيرها بيت زوجها و هو ما تقتضيه أيضا الأعراف والتقاليد في قريته شرشابة كلما بلغت الفتاة سن الرشد فيقول لها في سخرية واستهزاء: " إن المتقدمين ليسوا أزواجا، إنهم لصوص يطمعون في ثروتي ثم إني لا أتصور. كما قلت لك أن يكن بناتي في فراش رجل غريب"([1]) .

وتلجأ زوجته المريضة إلى اقتراح حل يناسب شخصيته، فتقترح عليه أن يخطب لبناته أو بالأحرى أن يختار أزواجا لبناته لأن الرجل كما يختار الزوجة لأبنه فيمكنه أيضا وبنفس المنطق أن يختار الزوج المناسب لبناته وما أكثر الآباء الذين يختارون لبناتهم، هنا يختنق ويصيح غاضبا:

"هل جننت يا امرأة ؟ أأقول لهم تعالوا وتزوجوا بناتي ؟"([2]).

وقد نتج عن هذا الرفض المتعنت من هذا الأب الجاهل المتسلط نتيجتان :

ـ الأولى: أن زوجته الجاهلة أيضا عدت ذلك من سوء الحظ ومن العين التي أصابت بناتها فلجأت إلى " البحث عن كتاب الرقى و التعاويذ و محضري الجان، وكانت تدفع لهم مبالغ كبيرة من المال دون أن يعلم الزوج آملة أن تصل إلى حل تلك المشكلة العويصة التي أزمنة واستعصت"([3]).

ـ أما الثانية : فتمثلت فيما تعرضت له بنات أبي العز سليم من قيل وقال ، وأحاديث تطعن في شرفهن وكرامتهن "وأخذ الناس يتناقلون شائعات تزعم أن بنات أبو العز سليم يعقدن صلات آثمة مع المستخدمين والحقراء، لكن أحدا لم يكن بقادر على أن ينقل هذه الشائعات إلى مسامع الأب الذي يعيش في عالمه الخاص، واثقا أن بناته في

1/ الكيلاني ، نجيب: مملكة البلعوطي ، ص 126.

2/ المصدر نفسه ، ص 126 .

3/ المصدر نفسه ، ص 127.

طهر البتول لا لسبب إلا لأنهن بنات أبو العز"([1]). إلا أن أبا العز سليم يبلغ من الكبر عتيا يشعر بالألم و الحزن ويتذكر:"أن عمره تقدم دون أن يكون له أحفاد، لأن بناته لم يتزوجن برغم تقدم السن وكذا أولاده الذكور.."([2]).

ب) ـ الممرضات العوانس في رواية (الذين يحترقون)

وهن (كاميليا) و(هدى) و(زكية)، ممرضات في مستوصف قرية من قرى ريف مصر، مثلت كل منها دورا في الرواية وقد تفاوتت تلك الأدوار حيث كانت شخصية (كاميليا) شخصية متحولة نامية عبر صفحات الرواية أما (هدى) فلم تكن كذلك فهي شخصية ثابتة لم تتحول منذ بداية الرواية إلى نهايتها، وكذلك شخصية (زكية) التي كانت شخصية عابرة .

وقد عاشت تلك الشخصيات في إطار الصراع الرئيسي للرواية بين طبيبين يعملان في المستوصف، أحدها الطبيب (موريس) الذي يستغل جهل الفلاحين بالقوانين التي تنظم الصحة وأمور العلاج فيحصل على أموال غير شرعية من خلال معالجتهم في بيوتهم ويطلب أجرة العلاج وهو أمر يمنعه القانون ، ومع ذلك فإن الممرض (حامد) يتواطأ معه ويوهم الفلاحين بأن ذلك حقه في التعب على صحتهم وراحتهم.

وبالمقابل نجد الطبيب (محمد صادق) وهو واحد من أبناء القرية. ابن فلاح زاول دراسته فتخرج وعين في مناطق عدة وفي القاهرة ثم يحول إلى العمل في مستوصف القرية ، حيث يبذل كل طاقته في المستوصف أوقات الدوام وكثيرا من الأحيان يعمل خارج الدوام حيث كان يعالج المرضى في بيوتهم وحتى في القرى المجاور وكل ذلك مجانا.

مما جعل المرضى والقرويين عامة يفرون إلى العيادة للعلاج وقد أغضب ذلك موريس الذي ضاعت مصالحه حيث قلت عائداته، فأصبح يثير الشكوك والشائعات ضد الطبيب محمد الصادق ويحاول الإيقاع به مستعينا بخدمات الممرض حامد الذي يجبر

1/ الكيلاني ، نجيب: مملكة البلعوطي ، ص 127.

2/ المصدر نفسه ، ص 195.

الفلاحين على إمضاء الشكاوي ضده، و يشهد زورا ضد الطبيب صادق الذي اتهمه موريس بربط علاقة عاطفية مع الممرضة كاميليا، مما يستدعي وقوف الطبيب محمد أمام التحقيق .

ذلك ما جعل أهل القرية يتحدون ويقفون وقفة واحدة مساندة لمحمد ممن ينتج عنه إجراء تحقيق آخر مع الطبيب موريس الذي تورط في قضايا رشوة وفساد وقضايا غير أخلاقية ،مما ينتج عنه نقل الطبيب موريس عن القرية وبالمقابل يتلقى الطبيب محمد الصادق رسالة شكر عن وزير الصحة .

في غضون هذه الأحداث المتشابكة تبرز شخصيات العوانس الثلاثة (كاميليا) و(هدى) و (زكية)، كاميليا كما وصفها السارد جميلة وتستخدم جمالها لإغراء الرجال وجذبهم نحوها لتحظى بالمتعة أو بالزوج المناسب : " فقد كانت واسعة العينين تطل منهما صراحة وجرأة وفي وجهها المستدير وخطواتها العجيبة سمات جمال مثير واستعداد للمعابثة([1]).

فهي فتاة مستهترة بالقيم، لا تعير اهتماما للأخلاق ، همها العبث بعواطف الرجال ، والإيقاع بهم في حبها وتعذيبهم ، ثم الابتعاد عنهم وتركهم يتخبطون في الحزن والأسى والحسرة ، فقد وصفتها زميلتها بقولها : " إن ما يضايق كاميليا هو الأخلاق الفاضلة "([2])

نعم كاميليا لا تهمها الأخلاق الفاضلة لأنها ضحية الأخلاق بل إنها ضحية الرجال الذين لم تكن لهم أخلاق، فقد أحبت رجلا لكنه لم يراع هذا الحب وأوقعها في الخطيئة لذلك صارت تكره الرجال.

1/ الكيلاني ، نجيب: الذين يحترقون، طبعة 01، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1999 ، ص 16.

2/ المصدر نفسه ، ص08.

فقد جاء في رسالتها إلى سعيد سلطان كاتب المستشفى وهو شاب في العشرين من عمره و قع في فخ كاميليا لكنها لم تهتم لهذا الحب الطاهر واستمرت في سلوكها العابث جاء في رسالتها:" لكن ماذا يكون موقفك حين تعلم أنني خاطئة ؟؟ أمن المعقول أن تقبلي بعد أن أعترف لك إني ذات يوم تعس حزين أسلمت نفسي لذئب سلبني أعز ما تعتز به الفتاة ؟ الأمر هذه المرة ليس مجرد شائعات، ولكنه حقيقة مرة أليمة بالنسبة لي ولك... لقد استبشعت الأمر عندما وقعت الكارثة لكني حاولت الهروب من مأساتي بالعبث... لم أستطع أن أقف أمامها طويلا وأفكر ... لكي تصفر الخطيئة الكبرى يجب أن تتكرر الخطايا... هكذا كان منطقي آنذاك... وانتقلت بهذا إلى مرحلة ضبابية ... مرحلة اللامبالاة... فرأيت أن أطارد هذا ثم ألفظه، و أحب ذاك حتى أمله، و أجد لذة غريبة في إيقاع الطيبين في شراكي"([1]).

ذلك هو منطق (كاميليا) وصديقتها في الحياة منذ أن داس ذلك الذئب على شرفها فقد حاولت إغراء الطيب محمد صادق على الرغم من معرفتها بأنه متخلق ومتزوج وأب لطفلين رغم كل ذلك فهي تحاول العبث معه "جلس الدكتور محمد في حجرة الفحص الطبي انتظار لبدء العمل بالعيادة في اليوم المخصص له وجلست قبالته كاميليا كان الباب مغلقا. وأبدى الدكتور محمد رغبته في أن يفتح الباب لكن كاميليا اعترضت زاعمة أن فتح الباب معناه تدفق المرضى قبل بدء العمل وكثرة الأسئلة، ولم يكن محمد يميل إلى النقاش الكثير حول موضوعات تافهة كهذه، غير أن كاميليا حاولت أن تعابثه بقدميها تحت المنضدة فظن أن ذلك مجرد مصادفة ولهذا نحى قدميه قليلا دون أن يتمادى في تفكيره لكن نفس الحركة تكررت فرفع وجهه إليها ووجدها تبتسم وتعض على شفتها السفلى فيما يشبه الخجل فعول على الصمت مرة أخرى وحاول هذه المرة أن يبعد قدميه تماما وقد داخله بعض الشك غير أنه كالعهد به أبعد عن ذهنه فكرة معابثتها له ملتمسا لها بعض التبريرات البريئة " ([2]).

1/ الكيلاني، نجيب: الذين يحترقون ، ص 303.

2/ المصدر نفسه، ص65.

فلما لم يستجب الطبيب محمد صادق لإغرائها حاولت إدِّعاء المرض وطلبت منه أن يكشف عليها لكنه طلب منها أن تذهب إلى الطبيب موريس فهو في راحة لأن اليوم ليس موعد عمله إلا أنها لم ترد عليه وأصرت على موقفها ودون أن يدري اختطفت يده ووضعتها على صدرها في الجانب الأيسر تحت الثدي وهي تقول : " ألا تحس؟؟ إن دقات قلبي مسرعة جدا... وهذا ما يزعجني .. أنا مريضة بالقلب أيضا يا دكتور.."([1]).

وهكذا تمضي كاميليا في إغرائها للدكتور حتى يدخل الممرض حامد إلى المكتب ويرى الموقف المثير للشك، فيتخذ من ذلك سلاحا يشوه به سمعة الطبيب محمد صادق .

إن كاميليا تبدو ضحية من ضحايا المجتمع الذي لم يرحمها، فهي ترغب في الزواج لكن خطيئتها تمنعها من ذلك، كيف تجرؤ على الزواج وقد فقدت أغلى ما تملكه الفتاة ليلة زفافها؟ ثم إنها لا تستطيع أن تتزوج وترك أهلها دون معيل يقوم على خدمة أمها وأخواتها فهي " لم تستطع أن تنسى أسرتها الفقيرة أمها التي تربو على الخمسين وأخاها الشيال بالميناء وأخويها الصغيرين والمسكن المتهالك المتواضع في حي (بحري) وضيق ذات اليد الذي يلازمها منذ فجر نشأتها حتى الآن،لطالما حلمت بحياة أفضل لكن مرتبها الضئيل لم يلبس أحلامها ثوب الحقيقة "([2]).

لذلك تسعى كاميليا إلى العبث متناسية هموما لتدفن أحزانها وتنسى ماضيها التعس، فهي تحلم " أن تتزوج يوما ما رجلا ثريا تعطيه الشباب والجمال والمتعة وتأخذ منه المال"([3]).

غير أن الرجل الثري لم يأت فكل من حولها فقراء معدمون مثلها تماما، فهذا ابن خالها (ترزي) لا يزال صغيرا،وابن الجيران عامل بسيط بشركة (سباهي)، و(سعيد سلطان) كاتب بالمستشفى فقير أيضا، فكلهم بلا رصيد، ومع ذلك فإن سعيد سلطان

1/ الكيلاني ، نجيب : الذين يحترقون المصدر نفسه ،ص 66 .

2/ المصدر نفسه ، ص 29 .

3/ المصدر نفسه ، ص30 .

يحبها ويرغب في الزواج منها، وهي أيضا تميل إليها " لكنها مع ذلك لا تفهمه كما تشتهي، في نظراته حنان، تستشف من كلماته الميل إليها وتلحظ في تحركاته الاهتمام بها،لكن هل هذا معناه الرغبة في الارتباط الدائم أم أنه مجرد تسلية وإشباع رغبات كامنة في قلبه"([1]).

إن كاميليا فتاة متأزمة تعيش على أمل الزواج من رجل ثري ينقذها مما هي فيه من الفقر والعوز، لكنها تلتفت حولها فلا جديد في حياتها ،فقد يئست من مجيء الزوج الثري فتعيش في اجترار أحلامها،وتزداد تعاستها أكثر من ذي قبل" كلمات الإعجاب والثناء تطاردها ،وعبارات الغزل تطرق أذنيها وأطياف الحب تداعب أحلامها وخيالها ،وليال سوداء في الماضي تورثها الرعب وأسرار مجهولة تطويها في قلبها تؤرقها،أما الزوج فإنه لم يزل بعيدا والمسؤوليات المعيشية تأخذ بخناقها، ومع هذا الأسى والضيق تشعر أن كيانها يلتهب ،إن في قلبها أشواقا عارمة تشتهي الرجل والمتعة والانطلاق دائما، وهي بالاختصار تشعر بالحرمان من كل شيء رغم أن كل شيء بين يديها"([2]).

وتستمر كاميليا في استهتارها وعبثها فهي تبذل القبلات مقابل إجازة يمنحها لها الدكتور موريس،تسافر إلى طنطا لمقابلة رجل تدعي أنه قريب لها،وهذا القريب متزوج،وأن زيارات كاميليا له تكثر خاصة في فترات غياب زوجته ،وحينها تعود كاميليا إلى رشدها وتضع حدا لغيها وتقبل بالزواج من سعيد سلطان الذي ترسل إليه رسالة تخبره فيها أنها تحبه وأنها راضية بالزواج منه إن رغب هو في ذلك وقد أخبرته بخطيئتها:

ـ" عزيزي سعيد..

أقسم أني صادقة في كل ما أقول

أقسم أنني أحبك كأعظم ما يكون الحب

لكن إليك نفسي عارية من كل زيف..إليك أنا بقوتي و ضعفي،بحسناتي و خطاياي...

فهل تقبلني ؟؟

1/ الكيلاني ،نجيب : الذين يحترقون ،ص 60 .

2/ المصدر نفسه ،ص،30 .

إن وافقت فهو ميلاد جديد لحياتي وقلبي...

وإن رفضت فيا تعاستي وشقائي الدائم ،ولي رجاء واحد عند ذلك،وهو أن تحرق هذا الخطاب وتطبق فمك عن مأساتي التي أعترف لك بها في لحظة من لحظات أيامي الحرجة،ولست أدري أهي لحظة ضعف يائس، أم انتصار على جوانب الانحراف والانهيار النفسي في أعماقي...

وسأظل ساهرة معذبة حتى يأتيني ردك...والسلام"([1]).

وهكذا يندثر حلم سعيد سلطان في الزواج من كاميليا،لقد أثلجت صدره باعترافها بحبها له،لكنها في المقابل زلزلت كيانه باعترافها بخطيئتها،فيستشير الطبيب محمد ،لكنه لا يشير عليه برأي قاطع لأن القضية شخصية بحتة ولا تنفع فيها الاستشارة " كنت أتمنى أن أواسيك في محنتك ،وأشير عليك بالرأي لكنك في موقف خاص.. أنت وحدك الذي تستطيع أن تصدر فيه رأيك..رأيك النابع من تربيتك و بيئتك" ([2]).

وبطبيعة الحال فإن تربية سعيد سلطان الدينية تمنعه من الزواج من كاميليا،وكذلك ظروفه الاجتماعية فهو كما صرح ذات يوم لـ (هدى) لا يفكر في الزواج الآن "فأمر الزواج بالنسبة لي لا تفكير فيه الآن هل نسيت أني صاحب مسؤوليات،أسرتي في حاجة إلي وأغلب إخوتي لم يتم تعليمهم بعد... وأخواتي لم يتزوجن إلا أكبرهن... الحق إن ما تبقى من مرتبي لا يكاد يقوم بنفقاتي..."([3]).

وبيئته الريفية لن تسمح له بل لن تسامحه إذا تزوج من فتاة ضيعت شرفها،لذلك يتخذ قراره الحاسم على الرغم من أنه يحب كاميليا،ومع ذلك فإنه يضحي بحبه من أجل كرامته وشرفه معلنا:" لن تكون هناك لذة خالصة إذ لابد أن يشوبها الألم،لأن الألم يعطيها مفهومها الأصيل ولن نحيا بدون قلق وأحزان...أنا مثلا أحب كاميليا وهي تحبني لكن لن

1/ الكيلاني ،نجيب : الذين يحترقون ،ص 303-304.

2/ المصدر نفسه ، ص 212.

3/ المصدر نفسه ،ص،176.

أتزوجها ... أتدري لماذا ؟لأنها خاطئة.حاولت أرغم نفسي على التسامح لكني لم أستطع لأن خطيئتها ستضل تؤرق سعادتنا المقبلة وتهدد مستقبلنا ومستقبل أولانا... لن أستطيع أن أغفر هذا الذنب الأكبر لأني لست إلهًا..."([1]) .

وبذلك تنتهي مأساة كاميليا بمأساة أخرى،هي رفض من تحب أن يتزوجها،ويعاقبها المجتمع الذكوري على خطأ ارتكبته بمعية الرجل، هذا المجتمع الذي يغفر خطايا الرجل ولا يتسامح مع المرأة،لذلك تبقى كاميليا عانسا...عانسا .

أما زكية فقد صارت عانسا لا لشيء سوى لأنها مولعة بالعمل وجمع المال، إضافة إلى أنها لا تتمتع بالجمال بل إنها تحوز على شيء كبير من القبح حيث يصفها السارد بقوله: "كانت واحدة منهن – زكية – ضخمة الجثة ينبعث غطيطها مزعجا لا يدع فرصة لإحداهن كي تنام"([2]).

ليس هذا فحسب بل إن زكية "مصابة باضطراب هرموني يسبب لها نمو شاربها وبعض الشعيرات في ذقنها، وقد تعبت في البحث عن علاج حاسم دون جدوى فلم تجد مفرا سوى أن تتخلص من الشعر من آن لآخر بطريقة ما،وكان هذا الأمر يؤلم نفسها،ويرهق أعصابها وتتصور أن كل الناس يعرفون مأساتها ويحملقون في شاربها وذقنها كلما سارت في ردهات المستشفى وعندما سمعت زميلتها تقول:"بعيد عن شنبك" ظنت أنها تعرض بها،فانفجرت غاضبة"([3]).

لذلك فهي ترى نفسها ومن معها في (سجن العانسات)، فاشتد كرهها للرجال مما جعلها قلقة مضطربة المزاج يتعكر صفو نفسها بسرعة ، فحينما مازحتها زميلتها قائلة:

ـ" تكذبين على نفسك...بعيدا عن شنبك"([4])

1/ الكيلاني ،نجيب : الذين يحترقون ،ص،317.

2/ المصدر نفسه ،ص،30-31.

3/ المصدر نفسه ،ص،30.

4/ المصدر نفسه ،ص 33 .

على الرغم من أن كاميليا لم تقصد التعريض لها وإنما قالتها هكذا دون أن تلقي لها بالا، وذلك ما أثر في زكية أيما تأثير "وهنا هبت الزميلة الضخمة الجثة (زكية) من سريرها والشر يتطاير من عينيها وصرخت في حنق..

ـ أتحسبونني نائمة يا أوباش... لا داعي لقلة الأدب وإلا ...وأدركت كاميليا ما تورطت فيه من خطأ"([1]). وزكية تكره الرجال وتمقتهم ولا ترى فائدة من الزواج فهو يجلب الهم ووجع القلب وأن الرجل لا يساوي في نظرها جنيها واحدا"الجنيه برتبة الرجل... ما الذي أستفيده من الرجل غير الهم ووجع القلب ؟؟"([2]).

فهمها ليس الزواج أو الحصول على رجل كما تفعل زميلاتها في الغرفة،إنما همها هو جمع المال وتخزينه في صندوق التوفير، فهي تقضي وقتها:" تحسب ما لها من أموال في صندوق التوفير،ثم تضيف إلى هذا الرصيد ثمن ما تلبسه في ساعدها وأذنيها من أساور وأقراط،ثم تفكر في المشروع الذي يراودها من زمن بعيد، وهي تجارة المسلي،إن ثمنه رخيص في الفلاحين،وهي تستطيع أن تشتري الزبدة أو القشدة وتحيلها إلى مسلي،وستربح من وراء ذلك كسبا كبيرا"([3]).

هذا هو الطريق الذي اختارته زكية تاركة الرغبة في الزواج إلى زميلاتها كاميليا وهدى تتصارعان على كسب قلب سعيد سلطان.

ج) ـ (هدى) المرأة المطلقة في رواية (الذين يحترقون)

أما هدى أو الست هدى كما تناديها زميلاتها في العمل ، فهي شخصية أخرى من شخصيات هذه الرواية لا ذنب لها سوى أنها مطلقة،هدى لم تنجح في الحفاظ على أسرتها أو على زوجها الأول وطلقت منه، فلم يرحمها المجتمع هي الأخرى،ذلك المجتمع الذي ينظر بعين الشك والريبة إلى المطلقة مهما كانت أسباب طلاقها،بل إنه في كثير من الأحيان

1/ الكيلاني ،نجيب : الذين يحترقون ،ص،31 .

2/ المصدر نفسه ،ص،91.

3/ المصدر نفسه،ص،89.

يحملها مسؤولية ذلك وينعتها بالفاشلة في زواجها والمقصرة في واجباتها تجاه زوجها لذلك كان الطلاق...

هدى المطلقة منذ سنوات تبكي الأيام الحلوة حيث كان جناح الرجل ينشر الظل والسعادة فوقها،أما اليوم فقد أصبحت تعاني من الوحدة والتعاسة،حتى التقت بسعيد سلطان بالوحدة الصحية،فخفق قلبها مرة أخرى للحب رغم التجارب المريرة التي مرت بها منذ طلاقها " فقد كانت الزميلة المطلقة على جانب كبير من الدهاء،لقد تقلبت في تجارب مريرة- وكانت مأساة طلاقها درسا قاسيا،وحبها الفاشل صفعة من الحظ ردت إليها كثيرا من صوابها و اتزانها وتعلمت كيف تزن كلماتها قبل أن تنطق بها، وتصرفاتها قبل أن تقدم عليها،لذلك عندما أصرت كاميليا على أن تسائلها عمن تفضله زوجا لها،قالت في خبث وعيناها الحزينتان تشرقان إشراقا هينا طارئا: أتزوج من سعيد سلطان"([1]).

وقد أحبت هدى سعيد سلطان وكتمت حبها عنه وعن غيره على الرغم من علمها بأنه يحب كاميليا. ومع ذلك فقد تسرب خبر ميلها إلى سعيد سلطان " لقد عاد إلى ذهنها ما همس به أحد والتومرجية الجبناء ذات مرة من أن الست هدى – المطلقة – تنصب شباكها حول سعيد سلطان ،وترسم خططها على أساس الفصل بينه وبين كاميليا والاستحواذ عليه كلية..."([2]).

فقد اغتنمت هدى فرصة وجودها بمكتب الوحدة الصحية بمعية سعيد سلطان وخطبته لنفسها ،أي طلبت منه أن يتزوجها،وشرحت له أنها تحبه وترغب فيه زوجا،بعد أن أخبرته بأن كاميليا لا تصلح أن تكون ست بيت ناجحة "وانفردت هدى في اليوم التالي بسعيد سلطان ولم يكن بالحجرة سواهما، كانت هدى لبقة وتعرف كيف تبدأ الحديث، واستطاعت أن تضع كاميليا على بساط الحديث، وتحدثت عنها حديثا موجزا موهما، فأظهرت العطف عليها ببادئ الأمر ،وأثنت عليها طويلا ،ثم تحول العطف والثناء إلى رثاء

1/ الكيلاني ،نجيب : الذين يحترقون ،ص،91.

2/ المصدر نفسه ،ص،92.

إلى أن قالت كاميليا مسكينة وصاحبة مرض،تصرفاتها تثير الغرابة تصور أن هذه المجنونة لا تمل الحديث عن الدكتور محمد، وتزعم أنها على علاقة معه،أخاف أن تصاب بحالة هستيريا...والأغرب من هذا سفرها الغامض إلى طنطا...أتدري يا أستاذ سعيد لماذا أشعر بالحزن من أجلها؟؟ الحقيقة لا يمكن أن أتصور كيف تكون (ست بيت) إنها مجنونة فعلا ([1]) .

بهذا أوغرت هدى صدر سعيد سلطان الذي يحب كاميليا،وقد أنعتتها بكل الأوصاف المشينة فهي مجنونة ،وتدعي حب الدكتور محمد صادق و تسافر بمفردها إلى طنطا فتقيم بها في عطلة الأسبوع عند شخص تدعي أنه قريبها،وهي في النهاية لا يمكن أن تكون ست بيت وبذلك "كانت كلمات هدى عن كاميليا تنفذ إلى قلب سعيد كالمدى الحادة فتمزق فيه،وتورثه الألم الشديد"([2]) .

وتخبره بالخطاب الذي جاء من أمها التي تريد أن تزوجها لابن خالها المدرس بالابتدائي وهي ترفضه،بل إنها رفضت قبله ثلاثة أزواج ،وهي ترفض ابن خالها لأنها لا تحبه وتخبر سعيد سلطان بأنها تحب شخصا آخر،ولما يصر على معرفته تستجمع قواها و تخبره بأنه هو الرجل الذي حظي بقلبها الثمين " واستجمعت شجاعتها و ألقت بكل ما تملك من طاقات في المعركة و قالت تسبق دموعها كلماتها :

ـ أنت يا سعيد !!

ـ أنا ؟؟؟

ـ أجل.."([3]).

وبذلك تكون هدى قد صدحت بالحقيقة التي حاولت مداراتها طوال الشهور الماضية والتي كثيرا ما أرقتها،ولا تكتفي بهذا وحسب بل تستطرد قائلة : " أنت تعلم أني

1/ الكيلاني ،نجيب : الذين يحترقون ،ص،173 .

2/ المصدر نفسه ،ص 91.

3/ المصدر نفسه ، ص،175.

(ست بيت) ممتازة،قضيت هنا فترة طويلة لم يسمع عني أحد شيئا أرعى كرامتي وشرفي ...كاذب كل من يزعم غير ذلك، والدليل منك أنت...هل رأيتني في وضع غير لائق ذات مرة،هل دارت حولي هنا همسات مخجلة؟؟ إني أهب نفسي لك لأني أحبك..أحبك كأقوى ما يكون الحب... وستجدني لك طوال العمر خادمة"([1]).

وينتهي الحوار بينهما بتحجج سعيد سلطان بأنه غير قادر على الزواج في الوقت الراهن وأن الزواج يحتاج إلى تفكير ويطلب منها تأجيل الموضوع فترة...

بذلك يتحطم صرح الأحلام الذي بنته هدى وينهدّ أمام قوة كاميليا وجاذبيتها فينقبض قلبها ويصيبها الحزن والأسى خاصة حينما تتذكر بأنها مطلقة ، وعادت إلى وحدتها الأليمة بعد أن رفضها سعيد و تملص من مشروع الزواج الذي عرضته عليه،تخلص بلباقة،لقد خطبته هي،وأغرته بالمال وحاولت أن تصرفه عن كاميليا بتشويهها أمامه وتوسلت إليه بدموعها...لكن كل هذه الوسائل فشلت في الوصول إلى قلب سعيد "([2]).

وتحاول عبثا إيجاد تفسير لذلك،لماذا رفضها سعيد ولماذا يحب كاميليا؟. هل هو جمال كاميليا،هل لأنها هي مطلقة لا شك في أن الطلاق هو سبب تعاستها وسبب رفض سعيد الزواج منها لذلك نجدها تتساءل في حيرة من أمرها : " لماذا يذوب سعيد شوقا وهياما أمام كاميليا؟ الجمال؟ إن هدى ليست قبيحة وكاميليا ليست صارخة الجمال فما السر؟أهو سوء الحظ ونكد الطالع،أم إنها ذكريات ماضيها الغامض،وفشلها في الزواج الأول؟ إنها مطلقة : لشد ما يزعجها شبح هذه الكلمة... الطلاق وصمة وعقبة ملعونة في صفحة حياتها، ليتها تولد من جديد أو تغمض عينيها ثم تفتحها فتجد نفسها امرأة جديدة بلا ماض، بلا ذكريات تؤرقها، وتشطب كلمة مطلقة من سجل حياتها تماما، لكن هيهات...لا فائدة من تلك الأحلام الساذجة... إنها مطلقة. انتهى الأمر، يجب أن تستسلم للواقع المرير تنتظر الفرج، مادامت هدى عاجزة عن أن تعيد صياغة

1/ الكيلاني ،نجيب : الذين يحترقون، ص،175-176.

2/ المصدر نفسه ، ص،219.

حياتها،وتاريخها من جديد،فلا مفر من أن تستسلم و تصبر،وليس لها سوى أن تعتصم بالاستسلام والصبر.. "([1]).

وينتج عن ذلك ما يحدث من خصومات بين العوانس جراء التنافس على الرجل الذي أحببنه،فقد جعل نجيب المتنافس عليه رجلا واحدا وكأنه يريد أن يشير إلى قضية هامة وهو كثرة عدد النسوة مقارنة بعدد الرجال في مصر،وهي قضية أخرى،وقد نتج عن ذلك كثير من الخصومات بين العوانس جراء التنافس على الرجل الذي أحببنه.

ذلك أن الكيلاني جعل سعيد سلطان هو الرجل المفضل لدى كل من كاميليا وهدى،إضافة إلى عبث كاميليا مع الدكتور محمد صادق ومن تلك الخصومات ما يظهر هذا الحوار: " وقطعت عليهن الصمت كاميليا حينما قالت:

ـ لو خيرنا في الزواج فمن تختار كل واحدة منكن؟؟

قالت زكية و قد ضايقها أن تقطع عليها كاميليا حبل أفكارها.

ـ لو دخلنا موضوع الزواج فلن ننتهي منه الليلة.

وقالت المطلقة : زواج؟؟ هيه... حلم الجوعان عيش ... قسمة و نصيب..؟

أما زميلتهن الرابعة فقد استحت أن تتكلم ،فلاذت بالصمت بينما عادت كاميليا تقول:

ـ من تفضلين يا زكية ؟

فقالت زكية في توتر:

ـ عندي أن العشرة جنيهات مرتبي أحسن من عشرة رجال.. الجنيه برقبة الرجل..ما الذي أستفيد من الرجل غير الهم ووجه القلب؟؟؟

فضحكت كاميليا طويلا ،ودقت بكفيها،ثم غمزت بحاجبها،وقالت:

ـ يا بنت ...اطلعي...أنا عارفة،طيب لو جاءك عشرة رجال في جيب كل منهم عشرة جنيهات أظن لا مانع..؟فلم تعلق زكية بغير:

1/ الكيلاني ،نجيب : الذين يحترقون ، ص 223.

ـ أخرسي يا مجرمة؟

وكانت الزميلة المطلقة على جانب كبير من الدهاء... ولهذا عندما أصرت كاميليا أن تسألها عمن تفضل زوجا لها،قالت في خبث:

ـ أتزوج من سعيد سلطان.

وقهقهت هذه المرة زكية، أما كاميليا فقد جمدت برهة ثم فهمت أن زميلتها تعرض بها،وتشير من طرف خفي إلى العلاقة العاطفية بين سعيد وكاميليا،والغريب أن هذا لم يفت الملعونة زكية،والتي ارتجت لقهقهتها أركان الحجرة الفسيحة،فتمالكت كاميليا أعصابها و همست:

ـ و لماذا سعيد سلطان بالذات ...؟

فأجابتها المطلقة بلهجة ماكرة:

ـ وظو وظ....و....دمه خفيف...

وفي هذه المرة انطلقت كاميليا قائلة:

ـ و لأنه يحبني.

فتراجعت ابتسامة المطلقة ،و خفت إشراقة عينها و همست:

ـ ماذا تعنين؟ !

ـ أنت خطافة- و أظنها عقدة نفسية،لقد خطفت امرأة زوجك،وأنت اليوم تنتقمين تخطفين سعيد سلطان...

في لحظة واحدة تحول الأمر من مزاح بريء إلى تحد صريح واتهامات وعناد وأصبحت كاميليا نمرة شرسة...."([1]).

بذلك يقدم لنا نجيب الكيلاني صورة النسوة العوانس في رواياته من خلال (بنات أبي الغر سليم) في رواية (مملكة البلعوطي) واللاتي وقفن والدهن في سبيل زواجهن،والعوانس في رواية (الذين يحترقون) كاميليا وزكية وقد جعل كل منهن سببا

1/ الكيلاني ،نجيب، الذين يحترقون،ص،90-92 .

جعلها تبقى عانسا فكاميليا أقعدتها خطيئتها عن الزواج لأن الرجل العربي الشرقي لن يرغب في الزواج من غير العذراء،أما هدى فقد جلب لها طلاقها من زوجها الأول الذي أغرته امرأة أخرى ،جلب لها المأساة وحرمها من أن تعيد تجربة الزواج مرة أخرى لا لشيء سوى لأنها مطلقة ،أما زكية فقد حرمها قبحها وضخامتها من الزواج فقد رغب عنها الرجال، مما جعلها تكرههم وتعزف عن الزواج تهتم بجمع المال وتكديس الثروة.

غير أن نجيب الكيلاني قد عرض هذه القضية من خلال تلك الروايات عرضا سطحيا متمثلا في التسجيل التشخيصي لتلك الحالات دون اقتراح العلاج لتلك المشكلة، نعم لقد صور الكيلاني تلك القضية وعرض تلك المشكلة ،ولكن حبذا لو أنه تعمق في جذور القضية بعرض العلاج الناجع .

ذلك أن نجيب الكيلاني في رواية (الذين يحترقون) مثلا،أكثر الحديث عما يواجه الطبيب من صعوبات من خلال شخصية الطبيب (محمد صادق)،وقد ورد ذلك الحديث متشابها في معظم صفحات الرواية،كما تحدث عن الصراع الدائر بين الطبيبين محمد وموريس حديثا مباشرا دون أن يترك القارئ يكتشف هذا الصراع من خلال أحداث الرواية دونما حاجة إلى هذه التقارير المباشرة الخالية من عناصر المفاجئة والتشويق الذي يجب أن تتوفر عليه الرواية..

الباب الثالث
نماذج المرأة في روايات نجيب الكيلاني

الباب الثالث
نماذج المرأة في روايات نجيب الكيلاني

تمهيد

الفصل الأول

نموذج مريم (المرأة الطاهرة المقدسة)

الفصل الثاني

نموذج شهرزاد (المرأة قاهرة الرجال)

الفصل الثالث

نموذج بلقيس (المرأة وسلطة الجاه والمال والجمال)

الفصل الرابع

نموذج زوليخة (المرأة الغانية)

الفصل الخامس

نموذج المرأة غير العربية

تمهيـد

إن قارئ روايات نجيب الكيلاني – على اختلاف اتجاهاتها سياسية واجتماعية وتاريخية – لاشك في أنه يلحظ الحضور شبه الدائم للمرأة إذ يجد حشدا كبيرا من النساء في تلك الأعمال: أمهات وأخوات، زوجات، جواري، خادمات، راقصات، عاملات، مثقفات، مناضلات ومجاهدات...الخ. وهذا أمر يتساوق ومقولة إن الأدب تعبير عن الحياة وهي مقولة اعتقدها الكيلاني وعمل بها في أدبه الروائي .

وقد جلب كثرة توظيف المرأة في روايات الكيلاني، سخط بعض النقاد الذين اعتبروا الكيلاني قد أفرط في حضور المرأة في القصة " لقد لمحت في هذه الرواية وفي غيرها أن الدكتور نجيب ما يزال متأثرا بأسلوب القصة الحديثة بكل تفاصيلها وأساليبها، وأقصد القصة الغربية المهيمنة على هذا اللون الأدبي فالمرأة ضرورية في كل القصة، وإذا حضرت المرأة لابد من الحب والعاطفة والمغامرات وشيء من الجنس بل ربما كان ذلك الأكثر في القصة، لا أقارن الكيلاني ولا أقرنه مع غيره من كتاب القصة ولكنني أراه يتابع الآخرين في هذا ولم يستطع بعد أن ينظر إلى المرأة نظرة أخرى، تتحرر من تقاليد القصة المعاصرة..."([1]).

قد يعترض هذا الناقد على غلبة الحب والعاطفة والمغامرة ووجود الجنس بشكل أكثر في الرواية ، ويمكن أن يكون هذا الاعتراض في محله مع بعض التحفظ، إلا أنه لا يمكن قبول رأيه أو اعتراضه على وجود المرأة في كل قصة لأن وجودها في كل قصة هو توافق مع وجودها في الحياة والمجتمع

فهل تستقيم الحياة و ينشأ المجتمع دون وجود المرأة ؟ " ولا نجد ردا عليه أفضل من بعض الأمثلة المأخوذة من القرآن الكريم فالله سبحانه لم يترك آدم يخوض التجربة وحده في الجنة بل خلق المرأة إلى جواره وجعلها عنصرا رئيسيا في الحدث، ويضرب الله

1/ بريغش، محمد حسن، دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة (مع عرض و دراسة لعدد من قصص الدكتور نجيب الكيلاني)، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 1994م، ص51.

سبحانه الأمثال للمؤمنين وللذين كفروا نساء ،مع أن القرآن الكريم حافل بالأمثلة من الرجال، كما أن وجود حواء وملكة سبأ وامرأة فرعون ومريم وأم موسى وامرأة العزيز، وبنت شعيب وحتى امرأة أبي لهب، وجودهن هو وجود المرأة بحد ذاتها في تاريخ البشرية وفي تلقي الدعوة، وباختصار إن ضرورة وجود المرأة في الرواية هي بقدر ضرورة وجودها في الحياة "([2]).

وقد رد الكيلاني على هذا الرأي حينما عرض رأيه في كيفية توظيف الجنس في الرواية بقوله: " إن المجتمعات الغربية المتفسخة التي وجد أدب الجنس لديها قبولا واستحسانا في كثير من الأحيان مجتمعات غريبة علينا، لها ظروف خلقية و دينية تختلف عن ظروفنا... وأدباؤنا الذين يحاولون الجري وراء هذه البدع الغريبة في الأدب العالمي، إنما يزيفون واقعهم ويقلدون دون تفكير وروية شأنهم شأن بعض المجتمعات عندنا وهي تقلد أساليب الغرب في طعامه وشرابه وسلوكه..."([3]). فالكيلاني لا يعارض وجود الجنس في القصة أو الرواية لكن الجنس الذي يصور مواطن الضعف البشري وانحراف النفس الإنسانية، ولا أدل على ذلك من قصة يوسف في القرآن الكريم والتي يستشهد بها الكيلاني ويقول عنها: " إنها قصة جنسية بكل مقومات القصة لكن أي جنس؟ وأية قصة؟ الظلال الموحية ، موسيقى الألفاظ ، المواقف الدرامية ،عنصر لتشويق والمتابعة، ثم الانتصار لفضائل الإنسان وقوة الروح في النهاية ، حتى امرأة العزيز الخاطئة انتصرت فيها قوى الخير، وعادت إلى رشدها، وطأطأت رأسها إجلالا و توقيرا لإنسان كبير وقف صامدا كالعلم في مواجهة الثورة الغريزية الجارفة وانتصر.. هذا هو النموذج الذي نريد أن

1/ الخوالدة ، سميرة الفياض: المرأة في روايات نجيب الكيلاني ،(أدب المرأة دراسة نقدية)، من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات المنعقد في القاهرة 1419 هـ - 1999م ، رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، مكتب البلاد العربية ،ط 01 ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، 64 ، السعودية 1428هـ 2007م ، ص 69.

2/ الكيلاني، نجيب: الإسلامية و المذاهب الأدبية، ص 61.

يسير الأديب المسلم على نهجه فيسلم قلمه من البذاءة، وينجو من وصمة الحيوانية والإثارة المدمرة "([4]).

هذا ما يذهب إليه الكيلاني في الجانب ألتنظيري، فهل سار على هذا النموذج في رواياته حينما يتعلق الأمر بتوظيف الجنس، أم أن التنظير يختلف عن التطبيق؟

من هنا جاز لنا طرح السؤال التالي: ما هي النماذج النسوية التي عرضها الكيلاني في رواياته؟ وهل فعلا وظف المرأة في كل رواياته، وأن توظيفها كان مكثفا فيها وما هي نوازع الكاتب وأهدافه وهل وجود المرأة عنده في الروايات استدعى بالضرورة الإكثار من العاطفة والجنس في العمل الأدبي؟

وتزداد الأسئلة طرحا، وتلح على أن تقول : هل صور الكيلاني المرأة باعتبارها أداة من أدوات المتعة والإنتاج ؟ أم أنها امرأة ترفض أن تكون كذلك ؟ وهل حصر الكيلاني دور المرأة في الحياة الاجتماعية في دور الزوجة فحسب؟ هل جعلها امرأة تحمل تبعات وأعباء لم تكن مسئولة عنها؟...

ذلك ما أفرز نماذج متعددة وظفها الكيلاني في رواياته تراوحت بين صورة المرأة الأم وصورة المرأة العاملة وصورة المرأة المثقفة وصورة المرأة البغي... الخ . وقد حاولت تصنيف تلك النماذج كالتالي:

أولا: نموذج مريم (المرأة الطاهرة المقدسة) : وتندرج تحته صور الأم وصور الزوجة على اختلاف أدوارهن في المجتمع.

ثانيا: نموذج شهرزاد (المرأة قاهرة الرجال) : ويندرج تحته صور المرأة المناضلة والمرأة المجاهدة والمرأة الداعية إلى الخير والسلم.

ثالثا: نموذج بلقيس (المرأة وسلطة الجاه والمال والجمال): وينطوي تحت هذا النموذج صور المرأة المسيطرة بجاهها أو بمالها أو بجمالها .

1/ الكيلاني، نجيب: الإسلامية و المذاهب الأدبية ، ص 60 .

رابعا : نموذج (زوليخا) امرأة العزيز(الغانية): ويندرج تحت هذا النموذج صورة المرأة المومس البغي وصورة الزوجة الخائنة لزوجها.

خامسا : نموذج المرأة غير العربية، ويندرج تحته صورة المرأة اليهودية والمسيحية والأوربية عموما.

هذا وتجدر الإشارة إلى أنني سأضرب ثلاثة أمثلة على الأكثر لكل نموذج من النماذج السالفة الذكر وذلك بحسب ما توفرت الأمثلة كثرة وقلة في روايات نجيب الكيلاني.

الفصل الأول
نموذج مريم (المرأة الطاهرة المقدسة)

الفصل الأول
نموذج مريم (المرأة الطاهرة المقدسة)

أولا : نموذج الأم

أ) ـ (مسعدة) أم محمد حسب الله

في رواية (ملكة العنب)

ب) ـ (أم أحمد) المجاهد

في رواية (رمضان حبيبي)

ثانيا : نموذج الزوجة

أ) ـ (أم العز) زوجة (المعلم حامد)

في رواية (الربيع العاصف)

ب) ـ (قطيفة) زوجة أبو الفتوح الشرقاوي

في رواية (قضية أبو الفتوح الشرقاوي)

أولا :- المرأة الأم:

نلتقي بحشد كبير من النساء الأمهات في روايات الكيلاني وكل منهن لها شخصية التي قد تختلف في شيء ما عن غيرها من الأمهات الأخريات إلا أنهن يلتقين في كونها أمهات يضحين من أجل تربية أبنائهن والاهتمام بشؤون الأسرة على حساب شؤونهن الخاصة، أمهات كادحات في صمت وإصرار، لا تذكر أسماؤهن في أغلب الأحيان بل يكفي السارد أو الكاتب ذكر كنيتها أو اسم زوجها أو اسم ابنها ؛ فهي أم فلان أو زوجة علان، كأنّها لا تستأهل أن تذكر باسمها الشخصي ، وفي ذلك دلالات كثيرة سنأتي على ذكرها في حينها .

ـ ففي رواية الطريق الطويل) نجد (أم سليمان)، المرأة الريفية الساذجة التي تجلس إلى جانب سليمان حينما مرض وتقرأ عليه التعاويذ والمأثورات المعروفة كيما يذهب عنه مفعول الحسد، لأنها تعتقد أن مرضه سببه الحسد والعين.

- أما في رواية (مملكة البلعوطي) فنلتقي بـ (مباركة) التي حرمت من الأولاد ، تلك المرأة الطيبة التي تربي أبناء ضرتها(مسعدة) ، فهي التي تقول لزوجها الذي سألها ذات مرة إن كانت تحب الانتقال إلى بيت خاص بها وحدها فأجابته في ذعر: " لا ... لا ... سأموت...لن أستطيع الافتراق عن أولادك يا إبراهيم، ذلك لأنني أحبهم ، ولا أستطيع العيش بدونهم إنهم أولادي لقد عوضني الله بهم عن الخلف... لا أطيق أن أبعد عن كامل وعبد الفتاح وأحمد "([1]).

1/ الكيلاني ، نجيب: مملكة البلعوطي، ص 63 .

ـ وفي نفس الرواية وبالمقابل نجد (أم ريحانة) التي تشتغل ببيع المخدرات لشباب القرية، هي وابنتها ريحانة وزوجها، وتكون نهايتها القبض عليها والزج بها في غياهب السجن.

ـ أما في رواية (النداء الخالد) فتصادفنا (أم صابرين) و(أم أحمد) و(أم الخير) : (فأم صابرين) امرأة تتعامل بالحكمة وبالعرف فهي مثلا ترى أن المرأة لا يجوز لها الخروج من بيتها لغير حاجة وكانت دائما تردد الحكمة الشعبية القائلة: (من خرج من داره قلّ مقداره) .

ـ أما (أ م أحمد) فهي زوجة مسكينة نكبت في زوجها الذي قبضت عليه السلطة كي يبعثوا به إلى ميدان القتال في خدمة القوات الإنجليزية ، لذلك عندما علمت الخبر بكت زوجها بكاء مرًّا...

أما (أم الخير) فهي المرأة الطيبة التي أرهقتها ظروف الحياة بسبب مرض ابنها بداء الكبد والاستسقاء، فتنفق عليه كل ما تملك ، وتضطر إلى الاستدانة من المرابي الخواجة (بيني)، ولكن دون فائدة ، فقد مات ابنها على الرغم من كل جهودها في علاجه...

ـ و في رواية (طلائع الفجر) : نلتقي بـ (أم محسن)، التي كثيرا ما تعطف على ابنها محسن الذي يعنفه والده بسبب كسله واستهتاره، لذلك كانت تقف إلى جانبه وتميل إلى صفه دفاعا عنه ، وهي أيضا (أم إبراهيم) وهو الابن الذي أرسله والده للمعركة دفاعا عن الوطن، وهو ينوي أيضا أن يرسل محسن إلى ميدان القتال لذلك نجدها تطلب من زوجها الإبقاء على محسن وعدم إرساله للحرب فقد أخذ للحرب واحدا وينبغي أن يترك لها الثاني، هكذا كانت تفكر...

- وفي رواية (عمر يظهر في القدس) تقف أمامنا (أمٌّ) لم يذكر الراوي اسما لها بل اقترن اسمها بالراوي نفسه فهي أم الراوي، وهي زوجة شهيد ،وأم دفعت بأبنائها إلى ساحة المعركة فاستشهدوا جميعا، ولم يبق معها سوى الراوي ، لذلك نجدها دائمة الخوف عليه...

- وفي رواية (رمضان حبيبي) نجد (أم أحمد) و(أم جليلة)،فأم جليلة امرأة قدرية تؤمن بالمعجزات، فهي ترى هزيمة الحرب ضد إسرائيل قدرا لا مفر منه، لذلك فهي كثيرة الجدال مع ابنتها جليلة الأخصائية النفسانية التي تريد أن تفرض عليها منطقها المنطقي ناسية أن لا يمكن أن تقنع الجاهل بالمنطق.. لذلك فإنها ترى أن ابنتها خارجة عن تعاليم الدين...

أما (أم أحمد المجاهد) فهي المرأة الصابرة المحتسبة، لقد عانت كثيرا فقد استشهد ابنها (سلامة) في إحدى المعارك ضد العدو، وهذا زوجها يساق إلى إحدى المعتقلات السياسية، بينما يتطوع ابنها (أحمد) في صفوف الفدائيين ليقوم ببعض العمليات الفدائية، مع ذلك فهي صابرة مؤمنة بالله .

وهكذا يتوالى ورود الأمهات في روايات الكيلاني، ولا تكاد تخلو رواية من وجود الأم، لذلك كان لزاما علي أن أكتفي بعرض بعضها، ودراستها وتحليلها، كأمثلة للشخصيات النسائية الممثلة لنموذج الأم.

أ ـ (مسعدة) أم محمد حسب الله في رواية (ملكة العنب):

مسعدة أم محمد حسب الله ذلك الشاب الذي لم يجد بدا من مواصلة مهنة والده في صبغ ملابس الفلاحين باللون الأزرق ليأخذ قسطا من المال ينفقه لمزاولة دراسته

حتى يتخرج من كلية اللغة العربية ،من معهد التربية العالي، وعندها أصبح مدرسا ترك تلك المهنة ([1]).

ويبدأ حضور مسعدة في الرواية من خلال ما ورد على لسان ابنها محمد حينما يقول:" ذلك أن أمه مسعدة تثير العديد من المشكلات اليومية بسبب أو بدون سبب على الرغم من أنها طيبة القلب، تتعاون مع جاراتها، وتحرص أشد الحرص على أن تقدم (لهم) ـ من وقت لآخر ـ كمية من اللبن التي تجلبها من جاموستها الوحيدة ،وهي ليست مجرد جاموسة فهي أشبه بالصديقة الوفية لمسعدة"([2]) .

ولعل محمد حسب الله يقصد من كلامه أن من بين المشكلات التي تثيرها أمه هو حثها إياه الدائم على زواجه لأنه الشيخ محمد حسب الله لم يتزوج على الرغم من أنه قد بلغ الثلاثين من العمر. ومسعدة " صورة أخرى للفلاحة الساذجة التي تشربت السلوك الإسلامي ممارسة وواقعا، ولم تملأ دماغها بالفلسفات والنظريات أو الأحكام والمناقضات، إنها أم الأستاذ محمد حسب الله الذي ربّى جيلا من الشباب في الأدب والأخلاق والفقه والعمل الجاد "([3]).

مسعدة الفلاحة الساذجة تخاطب جاموستها و تتشاجر معها ،و توصيها و تغضب منها، تقصو وتحن عليها، تفسر حركاتها، كأنها تخاطب إنسانا عاقلا يفهم ما تقوله، فها هي تخاطب الجاموسة بغضب :" يا عاهرة...يا قليلة الحياء...اثبتي حتى أحلب اللبن، عذبتني يعذبك الله في نار جهنم

1/ ينظر: الكيلاني ، نجيب، ملكة العنب،ط01 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،2000م،ص ص6-7.

2/ المصدر نفسه ،ص، 07 .

3/المصدر نفسه ،ص،12.

ابتسم وقال:

ـ صبرك عليها يا أم محمد

و ضحك من قلبه حينما سمع أمه تصيح:

ـ أنت وهي وعلي؟ كلكم صنف واحد.. أعوذ بالله منك و منها "([1]).

وأم محمد بحكم غريزة الأمومة، فهي ترى ابنها لا يزال طفلا على الرغم من أنه مدرس و شيخ بلغ الثلاثين من عمره، و مع ذلك فهي تزجره وتنهره وتناديه بقولها (يا ولد) " أمه هي الوحيدة التي تستطيع أن تنهره، وتعنف له القول، بل وتلكزه أحيانا ،وتناديه بكلمة "يا ولد" على الرغم من أنه عالم جليل مهاب"([2]).

لذلك عندما خطب في الناس يدعوه إلى إخراج زكاة العنب اعتبرت(براعم) أنه نوع من التحريض منها فشكته إلى أمه، فما كان منها إلا أن عنفته قائلة :"ماذا جرى لعقلك أيها المجنون؟ أتغضب ست البلد؟"([3]).

وتعاني هذه المرأة كغيرها من النسوة في المجتمع ظلم السلطة ذلك أن ابنها محمد حسب الله يعتقل بتهمة التحريض على السلطة وإنشاء تنظيم متطرف ،وحينما تذهب لزيارته تمنع من رؤيته بل إنها تتعرض للأذى " نسيت أن أخبرك أن مسعدة أم الشيخ محمد حسب الله ذهبت لزيارة ابنها فطردوها ..بل وضربوها، وها هي الآن تبكي وتصيح، وتضع الطين على رأسها في بيتها.."([4]).

1/ بريغش، محمد حسن: دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة،ص،145.

2/ الكيلاني ، نجيب: ملكة العنب،ص،10.

3/ المصدر نفسه،ص،10.3

4/ المصدر نفسه ،ص،86 ـ 87.

لذلك تهرع (براعم) لمواساتها ،و تقديم العون لها "وقامت براعم بزيارة (مسعدة) وقدمت لها العون و المواساة خاصة بعد أن علمت أن مرتب الشيخ محمد حسب الله موقوف "([1]).

وهذا نوع من التكافل الاجتماعي بين أبناء القرية قرية (الرباعية)،وهو الموضوع الذي سنتحدث فيه حين تحليل شخصية براعم. و على الرغم من كل ذلك فإن مسعدة لا تزال تحدث جاموستها ولا تكف عن الشجار معها متهمة إياها بالتمرد والفجور وبكثير من الصفات السلبية التي لا تنطبق إلا على الناس وكأن الجاموسة من البشر .

إذ نجدها تقول لها: " يا ناكرة الجميل، طالما سهرت إلى جوارك وأنت مريضة، وها أنا أرعاك وأنت حامل، ألست خجلى من نفسك؟ واليوم تعاندين وترفضين إدرار اللبن. لماذا ؟ إن مدة الحمل حتى الآن ثلاثة أشهر ،ولا بد أن تستمري في العطاء حتى الشهر السابع أو الثامن، أهو الخبث والجشع؟ إن ثمن طعامك أكثر مما يتكلفه طعامي أنا والشيخ محمد، وأنت بهيمة... ماذا لو كنت تقفين في طابور الجمعية آه يا ملعونة ...أنا أقدم لك كل شيء جاهز ...حتى في الأيام السوداء التي قبضوا فيها على الشيخ محمد كنت تأكلين أكثر وأكثر ،وأنا لا أضع الزاد في فمي... لو لم أكن أحبك لجلدتك كل صباح حتى تدري اللبن ..لكنك تعيشين مدللة...مكرمة حتى في الوقت الذي كانوا يجلدون فيه ولدي.. هل أقول أن منزلتك عندي تقارب منزلة ولدي؟ ؟لقد أفسدك التدلل فعلا ...وستدرين اللبن شئت أم أبيت، وإلا سأبيعك في سوق الاثنين كما تباع حثالة البهائم، ولن أذرف عليك دمعة واحدة"([2]).

1/ الكيلاني، نجيب، ملكة العنب ،ص،87.

2/ المصدر نفسه ،ص، 138.

ذلك هو الشغل الشاغل لهذه الفلاحة الساذجة التي تقضي وقتها في رعاية جاموستها، تقسو وترحم وتغضب وأحيانا تضربها لتدر اللبن: "خرجت وأحضرت عودا من حطب جاف، و أخذت تضربها على ظهرها بدون عنف، والجاموسة لا تكف عن الحركة المتمردة "([1]).

ثم ما تلبث أن تشفق عليها من الضرب و تواسيها قائلة :" هل غضبت مني؟؟ أردت فقط أن أعلمك كيف يكون الأدب و كيف تكون تصرفات الناس المحترمين"([2]).

على الرغم من أنها علاقة محبة مبالغ فيها بين هذه الفلاحة وجاموستها الوحيدة إلا أنها تبقى صورة واقعية بشكل أو بآخر لعلاقة الفلاح بأرضه و بحيواناته يستمد منها رزقه وحياته...

وقد أوضح الكاتب أن هذه الفلاحة متمسكة بالجاموسة إلى درجة أنها رفضت الانتقال إلى المدينة مع ابنها إلا إذا انتقلت معها جاموستها " يروي الشيخ محمد حسب الله وهو يضحك لأصدقائه، أنه عندما قرر أن يرحل عن البلد انزعجت أمه لحظة ،لكنها قالت:

ـ طبعا سنأخذ الجاموسة معنا

ـ مستحيل يا أمي، كيف تعيش معنا في شقة بالقاهرة؟

عندها شحب وجه مسعدة و قالت:

1/ الكيلاني ، نجيب، ملكة العنب ،ص، 139.

2/ المصدر نفسه ،ص ن .

ـ أنا...و أنت ...و الجاموسة شيء واحد، إذا فرطت في الجاموسة فمعناه أنك تفرط في، إن حبي لها كحبي لك"([1]).

وهي كغيرها من أمهات العالم لا يهنأ لها بال و لا يسكن لها خاطر إلا إذا تزوج محمد حسب الله، لذلك نجدها تصرح على هذا الموضوع وفوق كل ذلك فإنها اختارت له الزوجة المناسبة حسب اعتقادها " ثم توقفت مسعدة فجأة عن الحديث حول الجاموسة و قالت:

متى تتزوج يا محمد؟ أريد أفرح بأولادك..

ابتسم الشيخ محمد و قال :

ـ سوف تصرفك الجاموسة عن رعايتهم

دفعته بيدها في حنان ثم قالت:

- جرب و سترى لقد بلغت الثلاثين يا أولادي.

مط شفتيه و قال:

- و أين العروس؟ ؟ يدي على كتفك.

قالت مسعدة بسذاجتها المعهودة.

- لماذا لا تتزوج براعم؟

قهقه هذه المرة و جلس بعد أن كان مضطجعا و قال:

- وهل تتزوج الملكة واحدا من السوقة؟

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ،ص ص 138. 139.

- ولم لا ..."([1]).

ومع كل هذه الجدية في طرح مشكلة الزواج من براعم ملكة العنب في قرية (الرباعية) فإنها تتمتع بشيء من الدعابة و الفكاهة و يظهر ذلك من خلال هذا الحوار بينها و بين ولدها محمد حسن الله " تنهد و قال:

- قومي يا والدة واعلفي الجاموس.

- لماذا تتهرب من الزواج؟ ألست رجلا؟

قال محمد و هو يعود إلى الاضطجاع.

- هل تبيعين الجاموسة؟

- بعيد الشر.. لماذا؟

- لكي نجمع الأموال اللازمة للمهر و الشبكة و إصلاح البيت.

- أعطته ظهرها (وهي) غاضبة و هي تقول:

- جاموسة في عينك ماذا بينك و بينها؟ أتغار منها؟

- أرأيت يا أمي و كيف أتزوج؟

- لا تستطيع أن تعيش بدونها.

- الزوجة؟

- لا ... الجاموسة..

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ،ص ص 145. 146.

ونام محمد يفكر في كل ما قالته أمه..

و أخذ يحلم قبل أن يداعب النوم و أجفانه"([1]).

إلا أن أغرب مشهد يصادفنا في هذه الرواية والذي يدل بحق على سذاجة هذه المرأة وبساطة تفكيرها أنه حينما قامت الحرب بين العراق والكويت وصار الناس يتحدثون على إمكانية وقوع غارات بالغازات السامة وقذائف الميكروبات وصواريخ السكود ،وأن الناس يزعمون أيضا أن صدام حسين سيضرب السد العالي انتقاما من مصر لأنها أرسلت جيشا لتحرير الكويت حينما وصل ذلك الكلام إلى مسامع مسعدة قالت لابنها الأستاذ حسب الله:

ـ " سيوزعون الأقنعة الواقية على الناس.

- ربما.

- و الجاموسة يا محمد؟ هل سنتركها بدون قناع؟ قطعا ستموت.

- الله هو الحافظ.

- أعرف، لكن لابد أن نفعل شيئا لحماية الجاموسة، إنها روح... وهي لم ترتكب ذنبا، ولا تنسى أنها حامل و يقولون أن الإشعاعات تشوه الجنين.

- ابتسم محمد و قال:

- في مصر ملايين الجاموس، و ملايين الأبقار و الإبل و الأغنام و الدواجن..

1/ الكيلاني، نجيب : ملكة العنب ، ص ص 146. 147.

- لا شأن لي بذلك كله.. يجب أن تفعل شيئا لجاموستنا و إلا أحرقنا الله بغضب وأخذت مسعدة تفكر ليل نهار في هذا الموضوع الذي أصبح شغلها الشاغل "([1]).

إن الكاتب يريد من خلال هذا الحوار أن يعبر عن مواقف متعددة ففي حين تشفق (مسعدة) على جاموستها الوحيدة من الغارات بالغازات السامة يصر صناع الحرب على قتل ملايين الناس دون رحمة وشفقة .

وذلك ما ورد في قول محمد حسن الله ، في مصر ملايين الجاموس وملايين الأبقار وفي إشارة من الكاتب على عدم اهتمام السلطة بأبناء الشعب والزج بهم لهيب الحرب غير أنني أرى أن الكيلاني قد بالغ في الفكري لهذه الشخصية الساذجة التي تفكر في حماية جاموستها من الغازات السامة بارتداء القناع الواقي على الرغم من أنها شخصية مسطحة ونمطية لم نشعر بنموها وتطورها خلال صفحات الرواية فهي ثابتة بقت على سماتها الأولى التي أظهرها بها الكاتب منذ بداية الرواية.

ب- (أم أحمد) المجاهد في رواية (رمضان حبيبي):

أم أحمد كما يصفها الراوي هي امرأة مريضة بضغط الدم لكنها مكافحة من أجل صغارها، تتحمل مسؤوليات البيت حينما كان يغيب زوجها، الذي كثيرا ما كان يعتقل من حين لآخر ويساق إلى السجن، فكانت أم أحمد تكد و تجتهد لتوفير لقمة العيش لصغارها، وذلك أن زوجها يشتغل بالتجارة و لكنه بسبب كثرة اعتقاله تبدد رأس ماله وضاعت تجارته. نجد هذه المرأة تضطر لمجابهة ضيق العيش وقصر ذات اليد وهي امرأة حزينة على فقدان ولدها الأكبر(سلامة) الذي استشهد في عام 1967 على أرض سيناء..

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص 149.

لكنها لم تقتنع بمصير ابنها و بقيت تحلم بعودته يوما ما، لأنها تعتقد أنه لم يمت لذلك فهي "حزينة حزنا بعيد الغور على موت سلامة .. فكرت مرة أن تقذف بنفسها على صفحة الماء في القناة وتهرول إلى عربان سيناء باحثة عن ولدها المفقود.. وتناجي الكثبان والوديان والدروب سائلة عن فلذة كبدها "([1]).

إنها متشبثة بهذا الحلم و تظن أن رحلة ابنها ستكلل بالنجاح مع أن كل من يحيط بها مقتنعون بأن ولدها قد مات لذلك فإن " الأقرباء، والمعارف كانوا يواسونها وينصحونها بالصبر و التسليم في زمن العجز المحزن"([2]).

وقد حاول ابنها أحمد جاهدا أن يواسيها هو الأخر و لكن دائما يجدها تبكي على ابنها سلامة " ففي المرة الأخيرة التي رأى فيها أحمد أمه و جدها كئيبة شاحبة مؤمنة لكن الدموع تترقرق في عينيها:

- لماذا يا أمي ؟

- أخوك لم يعد .. و أبوك لم يعد..

- تعلمين أن أبي برئ

- و ما قيمة ذلك ؟

- هو عائد بمشيئة الله.

- و أخوك حي ألا تظن ذلك ؟"([3]).

1 / الكيلاني ، نجيب : رمضان حبيبي، ص 24 .

2/ المصدر نفسه، ، ص 25 .

3/ المصدر نفسه ، ص 24.

وأثر ذلك الأمل الذي لن يتحقق على صحة أم أحمد فهي أصبحت متقدمة في السن عجوز تتوكأ على العصا ولا تقوى على الوقوف على قدميها، وعلى الرغم من ذلك فهي تحاول جاهدة القيام بواجباتها تجاه أسرتها حتى في أحلك لحظات المرض " طرحت رأسها إلى الخلف نادها فلم تجب، استدعى لها طبيب الحي ، عجب الطبيب كيف تعيش امرأة بهذا الضغط الدموي المرتفع... ووصف لها الدواء العاجل وأوصى بمراجعته أسبوعيا على الأقل، وأفهم أحمد أن إهمال العلاج معناه أشياء خطيرة أبى أن يذكرها صراحة"([1]).

وزاد في ألمها ذهاب ابنها أحمد إلى ساحة المعركة بالقناة و وجود زوجها بالمعتقل لذلك كانت مصيبتها عظيمة لا تحتملها امرأة عجوز مثل أم أحمد فقد أصيبت بالفالج عندما سمعت بخروج زوجها من المعتقل لم تصدق ذلك كانت صدمة عنيفة بالنسبة إليها " تسلم أحمد خطابا من القاهرة فض الغلاف وجرت عيناه على السطور هل هو في حلم أم في يقظة (أبوك خرج من المعتقل وأصبح حرا وأمك سقطت عند لقائه مصابة بالفالج.. نصفها لا يتحرك ولسانها تخرج منه الكلمات متعثرة)"([2])

وقد عاشت هذه المرأة ملهوفة على أبنائها لأنها تخاف عليهم مع أنها كانت دائما تظهر الشجاعة والتضحية وحب الجهاد في سبيل الله والوطن إلا أنها جزعة و قلقة على ابنها أحمد الذي لم يعد من ساحة المعركة.

ومع ذلك فإنها حينما وردت إليها أخبار بداية المعركة في خط برليف حاولت القيام من رقدها، وأبدت غبطة وفرحا لم تعشهما من قبل بل إنها حاولت أن تزغرد ثم قالت في فخر واعتزاز: " إن ولدي سلامة لم يمت... هذا النصر هو الثمن الذي انتظرته.. سلامة لم يمت ولم تتردد في تشجيع زوجها على المشاركة في النضال بأية طريقة ، أخبرها بأنه

1/ الكيلاني ، نجيب : رمضان حبيبي، ص 25 .

2/ المصدر نفسه ، ص 45.

يرغب في المشاركة في المقاومة الشعبية في السويس أو في بور سعيد فلم تزد على أن قالت له : " افعل ما شئت ... الناس كلهم قد طغت عليهم نشوة الحماس"([1]).

استطاع الكيلاني من خلال شخصية هذه المرأة المناضلة أن يبرز قيمة النضال وضرورته، كما نستشف من ذلك دعوته الصريحة إلى ضرورة الاتحاد بين كافة أفراد الشعب للدفاع عن قيم الوطن والحرية و الكرامة ومن خلال كل ذلك يظهر وصف الكيلاني للشهادة والشهداء فهذه المرأة استشهد ابنها الأكبر سلامة تم التحق ابنها الآخر محمد بساحة الفداء تم يشارك زوجها في المقاومة الشعبية ومن هنا يتبين لنا قيمة النضال الوطني عند هذه الأسرة البسيطة وهي واحدة من الأسر المصرية التي عاشت أحداث حرب أكتوبر رمضان 1973م فأم محمد امرأة تستحق كل الاحترام و التبجيل .

لذلك نجد زوجها يعاملها بعطف و رفق " طوقها بذراعيه وقبل وجنتيها المبللتين بالدموع و ضمها إليه في حنان إن كبر سنها وما حاق بها من مرض لم يذهبا اللهفة التي كان يقابلها بها دائما ، إن زوجته الطيبة المكافحة لم تزل جميلة مخلصة جذابة ... لم تغيرها السنون والنكبات... وكيف وهي التي صمدت في العواصف الهوجاء.. وتحدث سلطان الطغاة والغادرين وأحاطت أولادها بسياج من العطف والرعاية ثم تعبت من أجل لقمة العيش لهم أيام أن كان أبوهم يقاسي وراء الأسوار"([2]).

من هنا يتضح أن الكيلاني يبرز عن طريق هذه المرأة التي تنتمي إلى الطبقة الكادحة كيف حملت على عاتقها شعلة الصمود والكفاح والمقاومة وشاركت بطريقتها الخاصة الرجل في أداء هذه المهمة الجسمية التي هي مهمة الدفاع عن الوطن من الغاصب المحتل.

1/ الكيلاني ، نجيب : رمضان حبيبي، ص 70.
2/ المصدر نفسه، ص 118.

هذه المرأة التي يقع ابنها (أحمد) أسيرا في قبضة الصهاينة بعد أن أخفق في المهمة التي كلف بها وهي تفجير مخزن الذخيرة الرئيسي للعدو فقد أصيب بجروح فقد إثرها وعيه مما جعله يقع أسيرا " وانصب ضوء صغير على وجهه ولم يعد يرى أحدا تمنى أن ينام أنه يشعر بوهن شديد.. أحمد يعرف الكثير من اللغة العبرية.. من تعلم لغة قوم آمن مكرهم.. ولذا سمع أحد الصهاينة يقول: لقد توقف النزيف وحده .. إن الضمادات البسيطة قد أنقذته من الموت"([1]).

ويزج به بعد ذلك في السجن وتخفي الأسرة نبأ اعتقاله على الأم خوفا من تدهور صحتها ولكن عاطفة الأم وغريزتها تجعلها قلقة عليه وكأنها أحست باعتقاله. فعندما توقف الحرب أحست أم أحمد بقلق يعصر قلبها خوفا من عدم عودة ابنها أحمد لعله لا يعود مثلما حدث لابنها سلامة فحين" صمتت المدافع وتوقف الصدام الدموي الرهيب الذي لم تر سيناء مثيلا له من قبل و عاد عم عبد الفتاح إلى بيته وجد زوجه في انتظاره كانت تتوكأ على عصاها وسددت إليه نظرات ضارعة حزينة وقالت بنبرات خاشعة واجفة (أين ولدي؟).

- الحرب لم تنته بعد يا امرأة..

- سألتك عن ولدي.

- مازال هناك يؤدي واجبه

- أريد أن أراه..

- ليس هذا في يدنا

1/ الكيلاني ، نجيب : رمضان حبيبي ، ص 95.

- خذوني إليه..

- لم يعد ابنك..

دقت على صدرها في رعب و قالت: ماذا تعني؟ هل أصابه مكروه؟"([1]).

وهكذا تستمر معاناة هذه المرأة الكادحة التي ما تزال تعتقد أن ابنها قد أصابه ما أصابه أخاه سلامة، إلى أن تعلم أن أحمد قد ورد اسمه ضمن قائمة المسجونين التي أعلنها الصليب الأحمر و أرسلها إلى القيادة المصرية ومع ذلك فلم يهدأ بالها.

فقد كانت أم أحمد قلقة لأنهم أخفوا عنها كل شيء بل إنهم اخترعوا لها الأخبار التي تطمئنها خشية على صحتها وإشفاقا على لوعتها . " ودق الباب دقات عنيفة. انزعج الحاضرون.

صرخت الأم (ولدي)

وقال عم عبد الفتاح في هدوء يتنافى مع وجهه الشاحب:

- خير..

- وهرولت (جليلة) صوب الباب لتفتحه:

- ماذا جرى يا أخي؟ هل جننت يا عبد السلام؟

- وقال و هو يرقص و يتواثب في سعادة:

- لقد وجدوه ..

- أحمد؟

1/ الكيلاني ، نجيب : رمضان حبيبي ، ص 117.

- صاحت الأم مرة أخرى :

- ولدي..

و أمسكت جليلة بيد أخيها و هو يجلس لاهثا:

- لقد وجدوا اسم أحمد في قائمة الأسرى التي سلمها الصليب الأحمر للقيادة المصرية، رآها الرقيب عرفان بنفسه.

قالت الأم :

- أنا لا أفهم شيئا..

- وقال عم عبد الفتاح:

- الحمد لله"([1]) .

وفهمت الأم ماذا جرى لقد أدركت على التو أن ولدها كان مفقودا ثم اتضح أخيرا أنه ضمن الأسرى عند العدو الصهيوني مما أثار عواطفها فجاشت بالبكاء بحرقة إلا أن زوجها طمأنها بأنه سوف يطلق سراحه ضمن عملية تبادل الأسرى و ذلك ما حدث فعلا حيث عاد أحمد إلى بيته بعد أيام قليلة تجرعت أمه فيها مرارة الانتظار و الخوف من غدر العدو الذي لا يؤتمن جانبه فقبل "أن يدق باب البيت سمع صوت أمه يهتف : يا ولدي.."([2]).

بهذا الحوار الحميمي الحار المقنع البديع الذي يمس صميم الوجدان ويدغدغ أعماق النفوس و يكشف عن المعاناة والصبر والإيمان بقضاء الله تنجلي مأساة هذه المرأة المناضلة التي قدمها لنا الكاتب امرأة قوية ،متفائلة بالمستقبل فما عودة (أحمد) إلا رمزا يورده

1/ الكيلاني ، نجيب : رمضان حبيبي ، ص 124.

2/ المصدر نفسه ، ص 125.

الكاتب للتعبير عن الأمل الدائم في عودة الأرض المغتصبة أرض فلسطين الحبيبة وغيرها من الأراضي العربية المحتلة من طرف العدو الصهيوني.

إنها صورة المرأة البسيطة التي تجرعت مرارة الإحساس باحتلال الوطن وذاقت لوعة فراق الأبناء وكابدت شعور بعد الزوج فأحست بالشوق والحنين في غير ما يأس من عود الوطن ورجوع الابن والزوج..

ثانيا : ـ المرأة الزوجة :

لقد حرص نجيب الكيلاني من خلال رواياته على إبراز العديد من نماذج المرأة الزوجة لأنه يقدس الحياة الزوجية ويقدرها و يؤمن بأهمية الحياة الزوجية في بناء المجتمع الصالح لأن الزوجة الصالحة هي الأم الصالحة أيضا ، فإذا صلح الزواج صلح الأسرة وبالتالي المجتمع بذلك انعكست صور المرأة الزوجة في كثير من رواياته وقصصه، فقد أظهر من خلال تلك الزوجات جملة من العواطف والمشاعر التي تتصف بها الزوجة كالوفاء والطاعة والتضحية والتفاهم والحب، فكانت نماذج رائعة للزوجات .

- ففي رواية (حمامة سلام) نلتقي مع شخصية (أم ربيع) زوجة الحاج عبد الودود رضوان أحد أكبر أغنياء القرية والذي يرفض تزويج ابنه ربيع من سكينة الفتاة الفقيرة حيث يقول لابنه : " أنظر إلى أمك ..وسدد ربيع نظرات حزينة إلى أمه الوسيمة وأطبق يائسا، بينما استطرد أبوه: إنها عارية من أي جمال ...لكن عقلها يزن بلدا بأسره ... عندما تزوجتها لم أسال عن جمالها، كان همي منصبا على إدارتها للبيت، وطريقة تفكيرها ومعاملتها للخدم ..." ([1]) .

1/ الكيلاني ، نجيب : حمامة سلام ، الطبعة 04 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 2001م، ص 08 .

- وفي نفس الرواية نعثر على شخصية (سكينة) وهي الفتاة الفقيرة التي أحبها (ربيع ابن الحاج عبد الودود رضوان، ولكنه لا يتزوجها ، لأن الحاج عبد الودود حينما يذهب ليخطبها لابنه ، يعدل عن رأيه ويخطبها لنفسه دون مراعاة مشاعرها ولا حتى مشاعر ابنه (ربيع) وهذه الزوجة تستطيع فيما بعد التأثير على سلوك الحاج عبد الودود إيجابيا في تغيير معاملاته مع الفلاحين الذين كانت بينه وبينهم خصامات عدّة، تتحول فيما بعد إلى علاقة مودة وتعاون وذلك ما سأتحدث عنه بالتفصيل في موضع لاحق من هذا البحث.

وأما في رواية (نور الله بجزيئيها الأول والثاني) فتصادفنا مجموعة كبيرة من النسوة، فنجد على سبيل المثال نموذج الزوجة المؤمنة الصابرة على عشرة زوجها مع علمها بكفره ونفاقه، وحقده على الدعوة المحمدية ومع ذلك فهي لم تيأس من رحمة الله وتأمل يوما بعد يوم في هدايته وعودته إلى رشده وإيمانه بالحق، وتمثلت هاتين الصورتين في شخصيتين نسويتين هما زوجة عبد الله بن أبي المنافق، وزوجة أبي العاص بن الربيع (زينب) بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي صبرت على زوجها الكافر حتى هداه الله إلى الإسلام ونجد كثيرا من الزوجات في هذه الرواية لا يتسع المقام لذكرهن جميعا.

- أما في رواية (الذين يحترقون) فتطالعنا زوجة الدكتور محمد صادق الزوجة، المحبة لزوجها والتي تعيش معه حياة كريمة ملؤها الود والتفاهم في بيت تظلله سكينة الإيمان .." وجمعت حجرة النوم بين محمد و زوجه، كان الأصيل يغمر المكان بضوئه الذهبي، وكانت حلاوة الاستقرار تبث في قلبيهما أمنا ومتعة بعد طول فراق وقلق ، وقال محمد:

ـــ تعالي إلى جواري يا حبيبتي ..إننا نقضي أياما رائعة....

قالت وهي تمشط شعرها المرسل الفاحم :

ـــ أتشعر بالسعادة حقا ؟

ــ ولم لا يا حبيبتي ..كل شيء طوع يميننا .. الحب .. الرضا ...الصحة ...والجهاد..." ([1]).

- وفي نفس الرواية، وبالمقابل نجد شخصية نسويه أخرى ،ولكنها تناقض تماما الزوجة المطيعة المحبة لزوجها ، إنها (أم لولا) زوجة الدكتور موريس الزوجة المسيطرة على زوجها توجهه كيفما تشاء بل إنها هي التي تملي عليه قرارا ت عمله في المستشفى ، إنها نموذج الزوجة المغرورة بالسلطة يصفها الراوي من خلال قوله:" عيناها الغاضبتان توهنان من مقاومته، وتثيران أحاسيسه الغامضة بعد فترة من الحرمان قضاها وحيدا أثناء سفرها، وشخصيتها القوية المسيطرة تذيب في خضمها الهادر قلقه وحزنه وإشفاقه من المستقبل المخيف، وقال ضارعا: - أم لولا ... لماذا لا نصعد إلى حجرة النوم ونستريح من عناء التعب؟ ؟ وأدركت على التو ضعفه كرجل، فقالت :

ـ لا يهدأ لي بال قبل أن نسحق كل رأس ترتفع معترضة تصرفاتنا.

فقال موريس في انكسار :

ـ سنسحقها ... سنسحقها يا عزيزتي .. هيا بنا " ([2]).

- أما في رواية (مملكة البلعوطي) فإن الكيلاني يعالج مجموعة من القضايا الاجتماعية من خلال العديد من الشخوص النسوية منها على سبيل المثال قضية (الغيرة) التي دبت بين (مسعدة ومباركة ومبروكة) وهن زوجات إبراهيم عبد اللطيف وهو أحد وجهاء قرية (شرشابة). فقد تزوج إبراهيم الزوجة الثالثة (مباركة) البابلية ومنذ ذلك الحين أهمل كل

1/ الكيلاني ، نجيب : الذين يحترقون ، ص ص 164 ـ 165.

2 /المصدر نفسه، ص 282.

الإهمال الزوجتين السابقتين "مسعدة التي أنجب منها ثلاثة من الأولاد وبنين ، ومبروكة التي لم ينجب منها غير محمد " ([1]).

أما البابلية فكانت عقيما . ومع ذلك فإن إبراهيم يفضلها على زوجتيه الأخريين " لأنه لم يستطع أن يقاوم جمالها " ([2]). فخصها بقدر كبير من الرعاية والاهتمام والحب على حساب الزوجتين السابقتين، وقد أثار ذلك حفيظة (مسعدة) و(مبروكة) فقررتا مجابهة إبراهيم بما تفكران فيه وما يعتريهما من قلق وغضب من تصرفاته تجاه البابلية" اجتمعت المرأتان وجاءتاه في غيبة البابلية، قالت مبروكة وهي ترتجف :

ـــ إنا لنا حقوقا عليك يا سي إبراهيم .

ـــ ابتسم في شيء من المرح وقال :

ـــ ماذا وراءك يا عجوز خير ؟

استشاطت غضبا :

ـــ أأنا عجوز ؟

ـــ لكنك ما زلت سمراء جميلة.

ـــ سرها ذلك الإطراء، فانتهزت الفرصة قائلة :

ـــ و لماذا تهجرني ؟

ـــ حاشا لله. إنها مجرد انشغالات مؤقتة.

1/ الكيلاني ، نجيب : مملكة البلعوطي ، ص 17.

2/ المصدر نفسه، ص58 .

ـــ انشغالات بالبابلية ؟

وصاح إبراهيم في حزم غاضب :

ـــ أغربي عن وجهي يا طويلة اللسان و إلا قطعته.

ـــ لقد أمر الله بالعدل بين الزوجات "([1]).

- وفي الرواية نفسها(مملكة البلعوطي) نجد شخصية (عديلة) زوجة (راغب) المغربي نموذج المرأة الشريفة التي تدافع عن شرفها وعفتها وعن شرف زوجها من الدنس حينما تقتل(ابن بحراوية) الذي حاول اغتصابها في غياب زوجها الذي هو من أعز أصدقائه فهي التي تقول :" نعم أنا قتلته ، انتهز فرصة غياب زوجي، ودخل علي ومعه زجاجة خمر ...هجم علي ، كان يريد اغتصابي بالقوة تظاهرت بالموافقة ، ثم أحضرت الفأس ...أنت تعرف الباقي...

- تكلمي ..

ـ ضربته بكل قوتي على رأسه بمؤخرة الفأس...فقد وعيه .... أحضرت السكين وذبحته... أصابتني حالة من الجنون ...لم أكن أدري ماذا أفعل .... وجلست إلى جوار جثته مذهولة إلى أن عاد زوجي..."([2]).

- وفي هذه الرواية أيضا نجد أيضا شخصية (المعلمة ريحانة) التي تسيطر هي الأخرى على زوجها وترغمه على الموافقة علي بيع المخدرات، كما تفعل أمها ، فهي نموذج المرأة الداعرة سيئة الخلق، تفتح محلا تبيع فيه المخدرات وتمارس فيه الرذيلة على مرأى من

1/ الكيلاني ، نجيب : مملكة البلعوطي ، ص 63.

2/ المصدر نفسه، ص 164 .

زوجها الذي لا يحرك ساكنا، كانت " ريحانة سيئة السمعة هي وأمها ، والغريب أو زوج ريحانة قد ترك لها الحبل على الغارب، ولا يهتم بالعبث الذي تمارسه زوجه دون حياء"([1]).

هكذا تتوالى النماذج النسوية في روايات الكيلاني مما يصعب حصرها والحديث عنها كلها حديثا مفصلا لذلك كما سلف ذكره فإني أقصر الحديث على مثالين للمرأة الزوجة وأخصهما بالشرح.

أـ (أم العز) زوجة (المعلم حامد) في رواية (الربيع العاصف) :

أم العز زوجة المعلم (حامد المليجي) قدمها الراوي دون ذكر اسمها بل نسبها إلى ابنها أو بالأحرى أسند اسمها إلى اسم ابنها وهذه إشارة أولى إلى امتهان المرأة العربية في الريف إلى درجة إهمال اسمها الشخصي وإسقاطه عن شخصيتها.

هذه المرأة هي واحدة من كثير من النساء في رواية (الربيع العاصف) على غرار الممرضة (منال عبد المجيد) التي قدمت من المدينة إلى العمل في الريف في قرية (شرشابة) وغيرها من نسوة القرية.

وقد مثلت(أم العز) نموذج المرأة الريفية ونظرة الرجل إليها حيث قدمها السارد بقوله : "ودخلت امرأة ريفية تتعثر في حيائها وخجلها .. وتلف شالها الأسمر الحريري فوق رأسها وحول عنقها والنصف الأسفل من وجهها " ([2]) .

فهي امرأة ريفية تتصف بخلق الحياء والحشمة أما زوجها حامد المليجي الرجل المتغطرس الذي لا يقيم وزنا للزوجة، فهو لا ينفك يزمجر ويهدد بل في كثير من الأحيان

1/ الكيلاني ، نجيب : مملكة البلعوطي ، ص 97.

2/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ،طبعة جديدة منقحة ،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، 2005م، ص 54 .

يضرب تلك الزوجة الساذجة رغم أنها حامل " ويدفع زوجته أو يركلها ــ رغم أنها حامل ــ ويطلب منها أن تسارع بتنظيف البيت ، وتحبس الدجاج في أقفاصها وتجفف العطن المنبعث من تحت الجرار الممتلئة..." ([1]).

وحينما تسأله عن سبب انشغاله واهتمامه بترتيب البيت يصرخ فيها:" اخرسي قطع لسانك... قليلة الأدب ... حتى أنت يا أم العز... يا فقر يا بنت ال ..." ([2]).

ليس هذا فحسب بل إنه " أهوى بكفه الغليظة على قفاها ، و استمرت في عملها في صمت ، ومراحل الغضب العنيف تثور في نفسها " ([3]).

هكذا يصور الكيلاني المرأة الريفية المضطهدة الصابرة تعتلج نفسها غضبا لكن في صمت وكأنها تقبل الهزيمة دون نزاع " إنها دائما تؤثر الصمت وتقبل الهزيمة كلما دب بينهما خلاف"([4]) . بل إنها ترضى بتلك المعاملة من قبل زوجها الذي لا يرحم، ومع ذلك فهو في نظرها " مسكين وابن حلال ...ورجل طيب "([5]).

فهي المرأة البريئة المعذبة المضطهدة من قبل هذا الزوج المتعجرف الذي ما فتيء يسخر منها ويقسو عليها وينعتها بكثير من التشبيهات التي تشمئز منها النفوس ، فها هو يقدمها للممرضة منال واصفا إياها بقوله :" زوجتي ... الأشغال الشاقة المؤبدة التي حكم بها أبي علي رحمه الله ...زواج بدل ."([6]).

1/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص 46 .
2/ المصدر نفسه ، ص ن .
3/ المصدر نفسه ، ص 47 .
4/ المصدر نفسه ، ص 48 .
5/ المصدر نفسه ، ص ن .
6/المصدر نفسه ، ص 54 .

تلكم هي نظرة حامد الملحي لزوجه ، فهي قضاء محتوم، وقدر معلوم أشغال شاقة أبدية قضى به والده عليه، لأنها فرضت عليه فرضا ، في إطار ما يسمى بزواج البدل أو زواج الشغار، ومع ذلك لم تثر (أم العز) بل غرقت في خجلها من جديد فهي تلك المرأة الريفية الساذجة التي لا تثور من جارح الكلام فلم " يبد عليها أنها تألمت أو تأثرت لكلمات زوجها، وكأن هذا الكلام شيء مكرر معاد ألفته من زمن بعيد، أو لعلها تؤمن أن ضمن الحقوق الزوجية المقدسة أن يسخر منها زوجها ويسبها ويعرض بها دون أن تتمرد أو تثور "([1]) .

إلا أن نجيب الكيلاني الذي صور هذه المرأة في صورة مزرية للمرأة الريفية قد لا تنطبق مع واقعها الفعلي أو لعلها صورة شاذة لهذا الزوج الذي يستهزئ بزوجته ويستهين بها، لذلك يحاول الكيلاني أن يغير من هذه النظرة القاتمة لهذه الزوجة حيث يبدي اعتراضه من خلال الممرضة منال حينما استكمل صورة هذه المرأة من خلال الوصف الجسدي الذي أدهش الممرضة منال" ورفعت منال نظراتها إلى أم العز من جديد، كانت تميل إلى السمنة، أثار الحمل تبدو على بطنها وعقد من الكارم الأصفر يزين صدرها ،خلف شالها الشفاف، والقرط الذهبي الدائري الكبير يتدلى من أذنيها ، والكحل الأسود يطلي عينيها في غير نظام أو أناقة، لكن عينيها كانتا كبيرتين فاتنتين كعيني البقر الوحشي، وعنقها ممتلئ بض ... ولفمها شفتان دسمتان ذواتا جاذبية خاصة، كانت جميلة حقا، وهتفت منال:

ـــ زوجتك جميلة جدا يا معلم.

فرد المعلم وهو يشير بيديه في حركة تمثيلية:

1/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص 50 .

ــ ربما لكنها لا تصلح إلا للأعياد والمواسم ...مثل النعاج تماما.

وكم كانت دهشة منال حينما رأت أم العز تضحك... تضحك من أعماقها البيضاء، وتدير رأسها في حياء، ويهتز جسدها المكتنز تحت تأثير ضحكاتها ، وتقول :

ـ يطول عمرك يا سي حامد.

ـ ثور الله في برسيمه .. يا أم العز ... تحركي يا امرأة .. أين الشربات ؟

ـ من عيني حالا...

وخرجت أم العز وتركتهما..."([1]).

إنها أم العز زوجة المعلم حامد " التي أرادها الكاتب صورة للمرأة الريفية بطيبتها وسذاجتها وصبرها و وفائها للرجل . ولكن الكاتب أسهب في إعطاء هذه الصورة لونا قاتما قاسيا ، فالمرأة الريفية طيبة وصبورة ووفية لكنها ليست بهذه المهانة حتى تدفع وتركل ــ رغم أنها حامل ــ وتخاطب بالعبارات النائية البذيئة ... ولذلك فإن صورة أم العز صورة فاقعة لحد ما "([2]).

وبذلك يكون الكيلاني ــ من خلال صورة أم العزــ قد بالغ نوعا ما في تصوير المرأة الريفية حتى أن القارئ " يرثي لأم العز المعبرة عن أعماق القرية البيضاء حين تتلقى الإهانات بابتسامة لا تعرف الحقد قائلة :

ـ يطول عمرك يا سي حامد. وهي تصر على أنه رجلها، و أبو عيالها، وتصر على أن الله يجب أن يبارك فيه حتى حين يصطحب فتاة جميلة إلى بيته ؟ ؟

1/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص 56 .

2/ بريغش ، محمد حسن : في القصة الإسلامية المعاصرة ، ص 138 .

فحين يقول المعلم:

ـ هذه الجاموسة لا تعرف المرض .

تقول أم العز :

ـ ربنا يبارك فيك يا سي حامد" ([1]).

إلا أن شخصية أم العز لم تكن النموذج الأمثل للمرأة الريفية فهناك صور أخرى مشرقة في الريف، لنساء تحلين بالبراءة والطهر والعفة والصبر وتحمل المسؤولية مع الرجل، ولا أدل على ذلك شخصية (أم عبد المعطي) وشخصيات نسويه أخرى غيرها ، ممن ذكرت في مقدمة هذا الموضوع.

ب ـ (قطيفة) زوجة أبو الفتوح الشرقاوي في رواية (قضية أبو الفتوح الشرقاوي):

قطيفة هي شخصية ثانوية من شخوص رواية (قضية أبو الفتوح الشرقاوي) وهي امرأة بسيطة لكن الكاتب أظهرها بمظهر إيجابي في الرواية، فقد اتسمت بالوعي بواقعها الاجتماعي، حيث استوعبت قضية زوجها وساعدته على حلها ذلك أن زوجها أبو الفتوح الشرقاوي البائع المتجول للخضر والفواكه قد تورط في جريمة قتل لم يعرف عنها شيئا ولم يشارك فيها قيد أنملة، فقد اعتاد بائع الخضر والفواكه هذا، إخبار أهل القرية بحكايات من نسج خياله ، وأهل القرية يتحلقون حوله ويستمعون إلى كذبه ويصدقونه.

ومن هنا تبدأ مأساته، فقد غرقت سيارة في النهر وزعم أبو الفتوح الشرقاوي أنه رأى جثة امرأة تطفو على سطح الماء وواصل حكايته لأهل القرية حينما قال لهم : "من واقع سجلات النيابة القصة هكذا .. امرأة البك الكبير أخذت عشيقها ، وهربت معه ..

1/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص 56 .

ووصلا إلى منطقة مقطوعة على البحر العباسي... جلسا تحت مظلة القمر يشربان الخمر... ويمارسان الرذيلة... كانت بيضاء جميلة مثل الأميرات الفاتنات ... عبثا ما شاء لهما العبث... نزلا النهر ليستحما (إن ربك لبالمرصاد) صدق الله العظيم ... سحبتها جنية البحر إلى الأعماق ... هرب العشيق ووقف على الشاطئ ... وجد جثتها تقبل صوب الشاطئ ...أمر مؤسف له .. استولى اللصوص على المجوهرات والملابس .. وساقوا العشيق عاريا إلى دوار العمدة ..ومنه إلى المركز..." ([1]) .

هذا الخبر الكاذب الذي نسجه أبو الفتوح الشرقاوي من خياله ، قد جر عليه المتاعب والويلات فقد اعتقل أبو الفتوح وزج به في السجن واتهم بقتل تلك المرأة التي لم يجد رجال المخابرات والمحققون جثتها . والتي يزعم أبو الفتوح أنه رآها بأم عينيه ...

من هنا تبدأ متاعب زوجته قطيفة التي يعترف حين زارته بالسجن أنه كان يمزح وأنه لم ير جثة " سمحوا له في اليوم التالي بأن يقابل امرأته وطفليه، ويأخذ منهم الطعام، كان جائعا منهكا محزونا، أخذ يأكل الدجاجة والأرز المحمر والدموع تنهمر من عينيه، وفي نفس الوقت كان يتكلم... تتدفق منه العبارات المتلاحقة دون رابط، أكد لها أنه لم ير جثة... كان محض خيال... لكنه تبين أن الحكومة مصرة على أن هناك جثة، وهم متأكدون من ذلك... ولهذا اعترف بأنه شاهد الجثة، فهل يعقل أن ترى الحكومة شيئا مؤكدا ، ثم ينكر أنه رآه ؟ ومن هو حتى يكذب على الحكومة؟؟ سيكون إذن قليل الأدب ولا يعرف واجب الطاعة لأولى الأمر"([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب : قضية أبو الفتوح الشرقاوي ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 2001م ، ص10.

2/ المصدر نفسه ، ص 23 .

وتعد قطيفة نموذجا للمرأة الريفية التي لم تكن ساذجة على غرار النسوة الريفيات أو القرويات لأنها تميزت بعمق فكري جيد ويظهر ذلك من الحوار التالي مع زوجها والذي يكشف عن أبعادها الفكرية :"... ظلت قابعة في مكانها شاردة تفكر، همس :

ـــ فيم تفكرين يا عبيطة؟

ـ بيتنا الصغير في القرية ...

ـ ليس فيه ما يساوي نصف فرنك .

ـ فيه الخير كله .

ـ إن ما يحز في نفسي يا " قطيفة " هو ترك الحمار وحده ... سيموت من الجوع .. ـــ لن يتركه الجيران بدون أكل ...لكن ...

ـــ ماذا ؟

ـــ دائما أخاف من البندر...

ـــ نحن في المحروسة يا هبلاء .

ـــ الناس فيها غير الناس في قريتنا .

ـــ كلهم خلق الله.

ـــ وخلق الله ليسوا سواء ...أشعر أنهم بشر غيرنا يا أبو الفتوح ...أصبحت أكره كل من يلبسون البدلة.

ـــ لماذا يا قطيفة ...

ـــ كانوا يضربونك دون رحمة ..

ـــ غلطانة ؟؟ أصحاب البدل يصدرون الأوامر، والمخبرون يضربون وهم يلبسون الجلابيب مثلنا ... ثم هؤلاء الذين أنقذونا وأتوا بنا إلى هذا المكان ..إنهم يلبسون البدل ... اللبس ليس كل شيء هزت رأسها قائلة :

ـ عندك حق" ([1]).

يبدو من خلال هذا الحوار أن ما تتصف به هذه الشخصية (قطيفة) من نقاوة فكر بل إن القيم الأصلية التي تؤمن بها هذه المرأة ، فعلى الرغم من الفقر الذي تعيشه إلا أنها تحن إلى العيش في القرية وتخاف العيش في المدينة(البندر).

فقطيفة تؤمن أن الخير كله في ذلك البيت المتواضع في تلك القرية الصغيرة.. على الرغم من أنه لا يحتوي إلا على القليل من حطام الدنيا ما لا يساوي نصف فرنك على رأي أبي الفتوح .

أما قطيفة فقد كانت لها نظرة أخرى، فالبيت لا يحتوي على شيء مميز ذي قيمة لكنه بيت عميق الأثر في نفس قطيفة لأنه تجد فيه الستر، والراحة النفسية والشعور بالأمان ..عكس ما تشعر به نحو المدينة وبيوتها وأهلها ...

ومع أن (قطيفة) تبدو شخصية تعبر عن تطور في موقفها وسلوكها ، وتتميز بعمق فكري ورجاحة عقل، جعلها تفكر تفكيرا منطقيا سليما إلى حد ما ، يفوق تفكير زوجها أبو الفتوح، حيث بالغ الكيلاني نوعا ما حينما منح هذه القروية الساذجة أبعادا فكرية أكبر بكثير من حجمها الطبيعي كامرأة قروية بسيطة التفكير.

1/ الكيلاني ، نجيب : قضية أبو الفتوح الشرقاوي ، ص 102.

وقد ظهر هذا التناقض في شخصية هذه المرأة في عدة مواقف منها نذكر على سبيل المثال، عندما خرج الطالب (عبد اللطيف شعبان) من السجن ، وقد اعتقل مع زوجها في نفس القضية بتهمة التحريض على القتل كما ورد في الرواية :" هناك دلائل تشير إلى أن شعبان عبد اللطيف قد كرر القول أنه ما دامت الحكومة لا تريد إقامة شريعة الله فعلى الشعب المسلم أن يتولى ذلك ... ومن المرجح لدى المحققين أن شعبان هو الذي أفتى بقتل (عنايات هانم البحيري)، وأن أبو الفتوح الشرقاوي هو الجلاد الذي أقام الحد مقابل مائة جنيه"([1]). فحينما يخرج شعبان من السجن رغم هذه التهمة الخطيرة نجد (قطيفة) تهتف في حسرة ودهشة :

" ـ ... لماذا لم يخرج أبو الفتوح معك ؟؟

ـ لكل شيء ميعاد .

ـ المساكين تأتي مواعيدهم متأخرة .... بعد ان يفيض الكيل .. وتجف الدموع " ([2]).

فهذه العبارة تنطوي على دلالات فكرية عميقة ومفاهيم كبيرة تفوق مستوى هذه المرأة ولا تتلاءم مع شخصيتها ، بل نقول إنها من وحي الكاتب وتعبيره وفلسفته، وهي إشارة منه إلى سوء الأحوال السياسية وبالتالي القضائية حيث أن الدولة تكيل بمكيالين ، فالفقراء يحاكمون والأغنياء يطلق سراحهم. ويظهر موقف الكاتب من تحيز القضاء للأغنياء في قول السارد " لأنه (لو كان لأبو الفتوح ظهر، لما ضربوه على بطنه) كما المثل العامي ، لقد وجد شعبان من يتدخل من أجله ، وينقذه من براثن الشرطة، لكن أبو الفتوح ضائع... لا سند له، ولا كبير يحميه ... ولم تستطع أن تتفهم طبيعة الموقف، كل ما يشغلها، هو : لماذا يفرج عن شعبان ولا يفرج عن أبو الفتوح؟ هل لأن شعبان متعلم ،

1/ الكيلاني ، نجيب : قضية أبو الفتوح الشرقاوي ،ص 37.

2/ المصدر نفسه ، ص 38 .

وأبو الفتوح جاهل ، أم لأن شعبان رزقه الله بالمحامين، وزوجها ليس لديه ما يكفي لتوكيل محام ؟؟"([1]) .

لكننا نجد مواقف كثيرة أخرى لقطيفة تتناسب مع شخصيتها الريفية البسيطة. من ذلك عندما يخدعها (يونس عبده) ويحتال عليها لشراء قطعة الأرض حينما يوقعها على بياض ، ثم يسجل على الورقة البيضاء مبايعة له بأرضيها لتوكيل محام لزوجها. فلا تستسلم للأمر الواقع وتواجه هذا النصاب أمام الملأ في شجاعة، فتقدم عليه في ثورة عارمة، وتمسك بخناقه صارخة :

" أين زوجي يا كذاب ؟؟

صفعها على وجهها في حدة وهو يقول :

ـ أوصلت بك الصفاقة إلى هذا الحد ... يمينا بالله لأوصلنه إلى حبل المشنقة ...

صاحت بأعلى صوتها ثم أخذت تمرغ وجهها في التراب وهي تقول :

ـ وأرضي التي استوليت عليها يا إبليس ؟؟

ـ بيع وشراء بالقانون ... واضربي رأسك و رأس أهلك في الحائط ..

وصرخت مرة أخرى :

ـ يا نصاب ...يا ناقص ...

التفتت إلى الناس الذين تجمعوا وقال :

ــ زوّجها وضمن بختها ؟؟ علينا أن نسعى والنتيجة على الله ...

1/ الكيلاني ، نجيب : قضية أبو الفتوح الشرقاوي ص 42 .

ثم ماذا أقول لكم ..هناك أسرار لا يمكن أن تعلن على الملأ.. " ([1]).

ويبدو أن هذا الموقف الشجاع من قطيفة تجاه (يونس عبده) النصّاب لم يكن ممكنا لولا وجود الطالب الأزهري عبد اللطيف شعبان الذي وقف في صفها. وقد جاء هذا الموقف ملائما لشخصية هذه المرأة الريفية الأخذة في النمو عبر صفحات القصة، حيث استطاعت قطيفة التي حاولت الدفاع عن زوجها والأخذ بثأرها.

كذلك نجد هذه الشخصية تنسجم مع واقعها وترفض العيش في المدينة، لأنها لم تدرج على ذلك، بل أكثر من ذلك فهي تظهر اعتراضها على الوضع برمته ، حينما نجدها تقول لزوجها في غضب :

ـــ " ... ما جربت معك إلا المر والحنظل ...

ـــ ... أخص عليك يا قطيفة. أنا أعزك.

ـــ أيعجبك ما نحن فيه .."([2]).

ويظهر انسجام هذه الشخصية بين ما تؤمن به وتعتقده وبين ما تعمله وتسلكه في حياتها اليومية، ذلك أنها ترفض إقامة مشروع الزراعة بالمال الحرام، ويتجلى هذا السلوك الإيماني في الحوار التالي بين قطيفة وزوجها (أبو الفتوح الشرقاوي) :

" قال أبو الفتوح :

ـــ إن مشروعنا القديم هو الحل ؟

ـــ أي مشروع ؟.؟

1/ الكيلاني ، نجيب : قضية أبو الفتوح الشرقاوي ،ص 73 .

2/ المصدر نفسه، ص 102 .

ـــ أن نترك التجارة ، ونحترف الزراعة، إنها عمل شريف بعيد عن المتاعب والأكاذيب .. سنزرع كل شيء الحبوب والخضروات والفواكه... وسنورد للحكومة حصتها في القمح... ونبيع القطن بسعر معقول.. وستكون لدينا بقرة وجاموسة ولبن .. ودواجن وبيض...

وفاجأته قطيفة بقولها :

ـــ فلوسنا حرام ...؟

صدمته الكلمات فهتف :

ـــ كيف ؟

ـــ إن الذين أعطوك الفلوس مشكوك في ذمتهم ونواياهم ... ثم إنك لم تقدم شيئا حقيقيا لهم مقابل هذه الأموال ؟

أمسك بكتفها وقال :

ـــ هذه الفلوس كانت ثمن عذابي ودموعي..

ـــ الجزاء عند الله يا أبو الفتوح .

ـــ أعطيتهم ما طلبوا من كلام ... بعت لهم أسرارا ..كنت أروي لهم الحقيقة ...

ـــ من قال أن الكلام يباع ويشترى ؟؟ " ([1]).

بهذا تظهر شخصية " قطيفة" امرأة ريفية بسيطة لكنها قوية الإيمان متمسكة بالعيش في القرية رافضة صخب المدينة، ترفض إقامة مشروع الزراعة لأنها تشك في مصدر الأموال التي حصل عليها زوجها، إنها ترفض المال الحرام ، وتشجع زوجها على

1/ الكيلاني ، نجيب : قضية أبو الفتوح الشرقاوي ، ص ص 111 ـ 112 .

صون عقيدته، وإتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فهي امرأة ينطبق سلوكها الخارجي مع ما تبطنه من عقيدة ..

الفصل الثاني
نموذج شهرزاد (المرأة قاهرة الرجال)

الفصل الثاني
نموذج شهرزاد (المرأة قاهرة الرجال)

أولا: شهرزاد النموذج

ثانيا : المرأة قاهرة الرجال في روايات نجيب الكيلاني

أـ (سكينة) في رواية (حمامة السلام)

ب ـ (فاطمة) في رواية (عذراء جاكرتا)

ج- الممرضة (منال) في (رواية الربيع العاصف)

أولا: شهرزاد النموذج :

لقد تمكنت (شهرزاد) في الذخيرة السردية الأسطورية المشهورة " ألف ليلة وليلة " من أن تمارس علاجا نفسيا ــ عن طريق السرد ــ حيث تقهر أقوى رجل في المملكة الملك (شهريار) وأن تعيده إلى رشده.

فقد بدأت شهرزاد هذا العلاج النفسي الدؤوب بحكايات تؤيد موقف (شهريار) من النساء، حكايات تحتشد بالنساء الساقطات الخائنات اللواتي لا يترددن في استخدام قوة السحر والمسخ ليتحول الملك إلى متلق منبهر بما تروي له، فمريضها (الملك) تعدى حدود المنطق في أفعاله حيث أباد النساء العذروات جميعا في المملكة.

وخلال ثلاث سنوات تصر شهرزاد على بث رسالتها السردية الشافية، حيث في النهاية يتغير هذا الملك كاره النساء إلى محب لهن ، وتصبح شهرزاد سيدة القصر بعد ألف ليلة وليلة من دخولها إليه عذراء تنتظر نحرها بأمر الملك.

ثانيا : المرأة قاهرة الرجال في روايات نجيب الكيلاني :

لقد كشفت روايات نجيب الكيلاني عن حضور عام لهذا النموذج النسوي البدئي، الذي سعى الكيلاني من خلاله إلى وضع تربية روح الرجل وتوجيهه من خلال الأنثى هدفا لتلك الشخوص النسوية المحتشدة في مؤلفاته السردية ، فقد جاءت بطلاته متحدية جبروت الرجال وتسلطهم، ومنتقدة لأفعالهم الذكورية المتحيزة للرجل، وقد حاولت تلك البطلات النسوية تصويب تلك التصرفات أو الحد من استمرارها وانتشارها .

كما نلمس هذا النموذج واضحا في محاولات البطلات لاستيعاب نزوات الرجال وغضبتهم، فقد ارتقت بعض تلك المحاولات إلى مستوى التأثير الفعال في روح الرجل ونمط تقييمه وأحكامه مثلما نجحت (شهرزاد) في تغيير سلوك الملك شهريار وتحويله من قاتل للنساء إلى محب لهن...

ولعل أكثر الشخصيات النسوية الممثلة لنموذج (شهرزاد) في روايات الكيلاني، نجده في شخصية (سكينة) في رواية (حمامة سلام) وهي تمثل المرأة الداعية للحب

والسلام ـ كما نجد شخصية (فاطمة) في رواية (عذراء جاكرتا) وهي نموذج المرأة المناضلة، ومثلها شخصية (جاماكا أو سعيدة) في رواية(عمالقة الشمال).

وتصادفنا شخصية (سلوى عبد الكريم) في رواية) (رحلة إلى الله) والتي تمثل المرأة المناضلة في صفوف الإخوان المسلمين والتي تصمد ضد كل محاولات المخابرات المصرية في إذلالها وتحطيم عزيمتها. كذلك نجد في رواية (أهل الحميدية) شخصية (رحاب) وفي رواية (النداء الخالد) شخصية (صابرين). كما نلتقي بشخصية (ياقوتة الغجرية) في رواية (اليوم الموعود) ونجد (هند بنت عتبة) في رواية (قاتل حمزة) وشخصية (أم لولا) في رواية (الذين يحترقون) وغيرهن من الشخصيات النسوية التي تدور في هذا الفلك.

أ ـ (سكينة) في رواية (حمامة السلام) :

لقد جسدت رواية (حمامة سلام) الصراع المأساوي الذي يقوده الفلاحون في إحدى قرى الريف المصري في مواجهة إحدى الإقطاعيين (الحاج عبد الودود رضوان) الذي كان ظالما قاسيا على هؤلاء المساكين، فقد لجأ إلى استغلالهم بطريقة بشعة، حيث أجرهم الأراضي الفلاحية لزراعتها دون أن يحدد لهم سعر الإيجار مستغلا جهلهم وحاجتهم فقد "كانت الأمور تسير سيرا هينا حسبما رسم الحاج عبد الودود رضوان، وخاصة بعد أن كتب العقود مع الفلاحين المستأجرين لأرضه ،وانتزع منهم التوقيعات على بياض حتى يستطيع في أي وقت من الأوقات أن يقرر إيجار الفدان حسبما يشاء...وفقراء الفلاحين مضطرون دائما للرضوخ لاشتراطاته القاسية، لحاجتهم الملحة لأرض يزرعونها.." ([1]).

وقد رفض الحاج عبد الودود رضوان أي تفاوض مع الفلاحين من أجل تخفيض قيمة الإيجارات بعد أن أصاب المحصول التلف من جراء الحشرات الضارة، حيث وقع هؤلاء الفلاحون في ضائقة مالية وأزمة اجتماعية خانقة ، فحياتهم تعتمد بشكل أساسي على

1/ الكيلاني، نجيب: حمامة سلام ،ص 05.

ما تنتجه أراضيهم أو بالأحرى الأراضي التي استأجروها لزراعتها، وهم الآن لا يملكون المال الكافي لتسديد ما عليهم للحاج عبد الودود من ديون.

وقد طلبوا منه تأجيل التسديد إلى وقت أخر. إلا أنه رفض هذا المقترح، ولما فشلت الجهود كلها تحركت جموع الفلاحين تؤازر أحد الطلاب الذي قام خطيبا في مسجد القرية يعرض بالمستغلين المجرمين، مما جعل بعض مؤدي الإقطاع يتحركون وعلى رأسهم العمدة في محاولة القبض على هذا الشاب المحرض الذي أفلت منهم وتمكن من الهرب، مما جعل السلطات تعتقل عددا كثيرا من الفلاحين وتعذبهم لأنهم قاموا بتمرد ضد الحاج عبد الودود رضوان.

وتطور أحداث الرواية إلى أن تصل إلى المواجهات بين الفلاحين والحاج عبد الودود حيث قام بعض الملثمين من الفلاحين بإحراق بعض مزارع عبد الودود وسرقة المواشي من حظائره .

في هذا الوسط الموبوء بالحقد والكراهية والمنافسة والظلم والاستغلال تعيش(سكينة) التي نشأت في هذا القرية من قرى مدينة طنطا، كانت يتيمة الأم، وكانت زوجة أبيها تعذبها وتعاملها معاملة سيئة فقد " تربت يتيمة من الأم ،وقاست العذاب مع زوجة الأب... وتعلمت من تجربتها المريرة الكثير من دروس الحياة وألاعيبها ..."([1]) .

وقد وصفها السارد بأنها جميلة، فقد كانت فاتنة ورائعة الجمال، نحيلة الكتفين دليل على أنها ذات قامة متوسطة فسكينة " فتاة ليست ككل فتاة، فروعة جمالها لا يختلف فيه اثنان، وذكاؤها مضافا إلى جمالها كفيل بأن يحقق لها ما تريد، ومواهبها في التمثيل فوق التصور... جريئة حتى لتحسب جرأتها انحلالا، متحفظة ومبتذلة في آن واحد ، ترى منها الجانب الذي تود هي أن تبرزه" ([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب : حمامة سلام ، ص 07 .

2/ المصدر نفسه ، ص 08 .

وهي فوق ذلك كله ذات بشرة بيضاء "...وأفاق من دهشته على ذراعين عاريين بضين يطوقان عنقه الغليظ الأسمر.."([1]).

وهي ذات عيون حلوة "عيون سكينة الحلوة لم تزل تومض في قلبه"([2]).كما أن ثيابها أضافت جمالا إلى جمالها فقد " كانت تلبس ثيابا ضافية، وتحيط وجهها القمري بشال أسود فيبرز فتنتها كأروع ما تكون الفتنة" ([3]).

وسكينة كانت متعلمة أيضا " أذكر أنني رأيتك وأنت طفلة صغيرة في السابعة من عمرك ... كنت تذهبين إلى المدرسة..." ([4]).

أما من حيث الجانب الانفعالي والوجداني فقد كانت سكينة هادئة لا تعارض حتى وإن تعلق الأمر بأهم قرار في حياتها ألا وهو زواجها، فهي تناقش الأمر بهدوء وروية دون انفعال ولا هيجان " لكنني لا أريد الزواج من الحاج عبد الودود إنه في مثل سنك يا أبي " ([5]).

وهي فتاة عاطفية رقيقة المشاعر" فقد ابتسمت سكينة وكافأته بنظرة حانية تغلغلت في كيانه وسرت في عروقه بالنشوة الجميلة" ([6]).

فلا عجب إذن أن تتبوأ فتاة تمتلك كل هذه الصفات الخلقية والخلقية تلك المكانة المرموقة بين سكان تلك القرية الموبوءة بتلك المشاحنات والخصومات. ولا عجب أيضا في أن يكون حلمها هو حلم أية فتاة من فتيات القرية، الحلم الساذج الذي يراود كل فتاة في سنها... الزواج من رجل وليس أي رجل إنها تسعى إلى الإيقاع بربيع ابن الحاج عبد

1/ الكيلاني ، نجيب : حمامة سلام ، ص 18 .

2/ المصدر نفسه ، ص 46 .

3/ المصدر نفسه ، ص 35 .

4/ المصدر، نفسه ، ص 37 .

5/ المصدر نفسه ، ص 64 .

6/ المصدر، نفسه ، ص 14 .

الودود ، وقد استطاعت فعلا أن تفوز بحب ربيع الذي أصبح لا يرى الدنيا إلا من خلال عيون سكينة " فربيع قلبه خال من التجارب النسائية... فهو يعتبر التفكير في مثل تلك الأمور تفاهة وخسرانا ومدعاة للإفلاس والخيبة ...وظل كذلك حتى أوقعته سكينة في شباكها " ([1]).

وقد استطاعت أيضا أن تكسب حب والد ربيع الحاج عبد الودود ذلك الغني المتسلط الذي لا مكان في قلبه للفقراء والضعفاء ومع ذلك فقد كسبت ثقته وحبه مما جعله في النهاية يخطبها لنفسه بدلا من أن يخطبها لابنه وفي ذلك قمة الأنانية والطغيان . وهو الذي كان في البداية يرفض أن تكون من نصيب ابنه لأنها ببساطة فقيرة لا ترقى إلى مستواه الاجتماعي فقد كان يقول لابنه ربيع حينما طلب منه أن يخطب له سكينة :" أعرف إنك جاهل أحمق ولا تفهم مثل هذه الحكم :خضراء الدمن يا غبي هي المرأة الجميلة في منبت السوء أو المرأة التي حسن مظهرها وساء مخبرها.. وما أظن سكينة إلا من هؤلاء" ([2]).

ذلك كان رأي الحاج عبد الودود في سكينة التي أحبها ابنه ربيع وأحبته هي أيضا فقد كانت تطمع في الارتقاء والعيش عيشة الأغنياء في سعادة وهناء إذا ما تزوجت ربيع ابن الحاج عبد الودود. فقد كانت تهتف عند لقائه بقولها :" يا خبر أنت سيد الرجال ... أنت دنياي يا ربيع " ([3]).

لذلك تكررت زياراتها لبيت الحاج عبد الودود لعيادته حينما كان مريضا طريح الفراش في محاولات منها لاستعطافه وكسب مودته أكثر وجعله يوافق على زواجها من ربيع، وقد كانت حينها تعامله بمنتهى الحنان مستعملة في ذلك جمالها وذكاؤها ودهاءها وإغرائها.." وتندى حبيبته بالعرق وأخذ صدره يعلو ويهبط... وسحبت سكينة منشفة

1/ الكيلاني ، نجيب : حمامة سلام ، ص 07

2/ المصدر نفسه ، ص 08 .

3/ المصدر، نفسه ، ص 16 .

بيضاء واقتربت منه في جرأة، وأخذت تجفف له العرق، وعينيه المدهوشة تسترق النظرات من حيث لا تشعر لشد ما هي حانية رقيقة" ([1]).

لذلك تحول تفكيره إلى عقد موازنة بين رقة سكينة وحنانها وعطفها وغلظة زوجته أم ربيع وطبعها الجاد ،أم الربيع التي لم تكن في يوم ما بمثل هذه الرقة التي تعرفها سكينة" أم ربيع لم تمسح عن جبينه مطلقا في أي أزمة من الأزمات "([2]).

فقد تحولت علاقة الاحتقار والازدراء التي كان يكنها الحاج عبد الودود إلى سكينة إلى علاقة الحب الجارف الذي ملك عليه كيانه، مما جعله يقرر ودون تردد الزواج منها مهما كانت النتائج على الرغم من أنه يعلم بأنها تحب ابنه ربيع وهو أيضا يحبها " ومَدَّ عبد الحميد يدا مرتجفة، وكان وجهه الأسمر النحيل وعيناه الواسعتان القلقتان تفيضان بالحب والبراءة، وسدد الحاج إليه نظرات ناقدة وهمس:

ـ أتوافق على زواج سكينة مني ؟

وهتف الشيخ عبد الحميد دون وعي : منك ؟.. تعني ربيع ؟..

ـ بل أخطبها لنفسي يا عبد الحميد.. أنا الحاج عبد الودود ...أهناك ما يمنع؟

وقال عبد الحميد وقد تبللت عيناه بالدموع :

ـ ألف مرة أقولها ... موافق...موافق ...موافق، هذا يوم المنى يا سيد الناس" ([3]).

وترفض سكينة الزواج من عبد الودود في البداية ، ولكنها في النهاية يصورها الكيلاني كنموذج للفتاة الذكية التي تستسلم للواقع الذي لا تستطيع تغييره ولكن استسلامها هذا لم يكن سلبيا لأنها لم تقض وقتها في ندب حظها والبكاء على ربيع بل إنها حاولت التأقلم مع الواقع الجديد والحياة مع الحاج عبد الودود متفائلة خيرا لتجد الخير على حد تعبير الشاعر العربي(كن جميلا ترى الوجود جميلا). وفعلا في النهاية تسعد سكينة

1/ الكيلاني ، نجيب : حمامة سلام ، ص 36

2/ المصدر نفسه ، ص 56 .

3/ المصدر نفسه ، ص ن .

بهذا الزواج ـ غير المتكافئ ـ وتحصل على الاطمئنان والراحة بين يدي زوجها عبد الودود الذي أصبحت تحبه " وتمتم ـ أتحبينني لهذه الدرجة يا سكينة ؟

ـ لولا حبي لما تحدثت معك في هذا الموضوع الشائك.

شرد بعض لحظات ثم همس:

ـ لأول مرة أشعر في حياتي بأن نبعا فياضا من الحب يتدفق من قلبك الكبير وينسكب في حنايا روحي الظامئة. كنت أشك في صدور الخير عن قلوب الفقراء المحروقة المعذبة الحاقدة، لكني أراك اليوم تكذيبا قويا لنظريتي، ولا أشعر الآن بمرارة هزيمة أنت حبي الأول و الأخير يا سكينة" ([1]). كان هذا أول انتصار لسكينة على هذا الوحش الآدمي الذي لم يكن يوما ما يعترف بحق الفقراء في الوجود، وها هو اليوم بعد أن أحب سكينة يعترف لأولاد الفقراء بأن قلوبهم هي الأخرى يصدر عنها الخير والحب ذلك ما جعل سكينة تتشجع وتقترب منه وتلقي برأسها على صدره ثم تهمس:

ـ كم أتمنى أن نتوج هذا الحب الكبير بخطوة سلام " ([2]).

وهكذا بدأت سكينة تسعى شيئا فشيئا للتأثير على الحاج عبد الودود لعقد المصالحة مع الفلاحين على الرغم من أن الصراع بينه وبينهم كان في كثير من الأحيان دمويا. وفي النهاية تصل سكينة إلى مبتغاها فتتحقق لها السعادة مع الحاج عبد الودود على الرغم من خسرانها للحبيب الأول " وفي المساء نظرت سكينة إلى وجهه (زوجها كبير السن) الهادئ المشرق، وهمست :

ـ هذا يوم المُنَى يوم الفرح الحقيقي .

قال وهو يضمها إلى صدره بحنان:

ـ كل ذلك من أجل عيونك يا حلوة، كلماتك نفذت إلى قلبي، كانت أقوى أثرا من كلمات أولادي والشيخ عبد الباقي، وضراعات الفلاحين..

1/ الكيلاني ، نجيب : حمامة سلام ، ص 97 .

2/ المصدر نفسه ، ص 99 .

قالت في ذكاء :

ـ أتدري لماذا ؟

ـ لماذا يا سكينة ؟

ـ لأني وجدت مفتاح قلبك.

ـ ما هو ؟

ـ الحب ..الحب يا حاج .

ـ هذا حق لم أذق طعم الحب الحقيقي إلا يوم أن رأيتك، عند ذلك أيقنت أن الحب شيء كبير، فوق الكبرياء، فوق كل شيء يا حمامة السلام" ([1]).

فقد جعل الكيلاني سكينة (حمامة سلام) في تلك القرية التي كثرت فيها المشاحنات والخصومات بين الحاج عبد الودود وزبانيته من جهة وأهل القرية من الفلاحين المستأجرين لأراضيه من جهة ثانية.

وقد تمكنت هذه الشابة الطيبة التي تزوجها الحاج عبد الودود من أن تصلح بينه وبين أهل قريتها حيث تمكنت من إقناعه بضرورة المصالحة وبذلك يلين قلبه عليهم ويعطف نحوهم، وينتشر الوئام في أرجاء القرية حيث اجتمعوا كلهم بما فيهم أبناء الحاج عبد الودود " ولم ينفض مجلسهم إلا وقد اتفقوا على بنود الصلح، وقرروا عقد حفل كبير في مناسبة الاحتفال بمولد سيدي (عيسى العرافي) يحضره مأمور المركز والمدير و أعيان المنطقة...يتصافى فيه الجميع، ويبدأون حياة جديدة" ([2]).

وبهذا تكون شخصية سكينة شخصية إيجابية إلى حد ما ؛ فقد ساهمت في تنمية القيم الخلقية بسلوكها الإيجابي وبالرسالة التي أراد الكاتب أن يبلغها من خلالها متمثلة على وجه الخصوص في أن يرضى الإنسان بما قدر له وأن يتفاءل بالخير فيناله .

1/ الكيلاني ، نجيب : حمامة سلام ، ص ص 109 ـ 110. .

2/ المصدر نفسه ، ص ـ 115.

ومع ذلك فإن شخصية سكينة وسلوكها الساعي إلى إحلال السلم قد يجعل القارئ يطرح جملة من التساؤلات حول هذه الشخصية التي بدت على الرغم من حداثة سنها أقوى من الحاج عبد الودود، فما الذي يجعل سكينة تقبل الزواج من الحاج عبد الودود وهو في سن والدها؟ ألم تكن تحب ربيع وهو يحبها أيضا؟ لماذا لم تدافع عن حبها؟ أم أنها اختارت السمكة الكبيرة بدلا من ربيع؟ لماذا لم تنحرف سكينة بعد زواجها من هذا الشيخ الشرير على غرار ما يحدث دائما في مثل هذه الحالات من زواج شابات بأثرياء يكبرهن كثيرا في السن؟ وقد وصف الكيلاني بعضهن في بعض رواياته منها مثلا ، (عنايات هانم) في رواية (قضية أبو الفتوح الشرقاوي) و(عنايات هانم) في رواية (ليل وقضبان) ، وزوجة عثمان باشا في رواية (رأس الشيطان) ، ووهيبة في رواية (ليل الخطايا) وغيرهن كثير؟

وبهذا تكون سكينة حالة استثنائية وقد مهد الكاتب لذلك حينما وصفها بكثير من الصفات التي أهلتها لتحمل هذه المكانة في الرواية وتصبح بحق بطلتها؟ فهي تمتاز بالذكاء الفطري وبالدهاء لذلك فإنها لم تسقط في الخطيئة وقد ساعدها على ذلك ظروف القرية أو بيئة القرية المحافظة والتي لا تساعد على الانحراف علما أن النسوة اللاتي ذكرت في الروايات السابقة هن من بيئة المدينة في أغلب الحالات...

غير أن هذا لا يمنع من أن أقول بأن الكيلاني قد وقع في عيب يكمن في نهاية الرواية والتي جاءت غير منطقية بل إنها غير مقنعة، فهي نهاية لا تتفق مع عادات وتقاليد القرية . إضافة إلى أنها تتناقض وما عرفته تلك القرية من صراع اقتصادي واجتماعي، نتج عنه أعمال عنف كثيرة أودت بحياة بعض الفلاحين .

إلا أن الكيلاني حاول إقناع القارئ بهذه النهاية السعيدة التي تم فيها الصلح بين الفلاحين والحاج عبد الودود ذلك الإقطاعي الشرس المستغل لعرق الفلاحين وجهدهم. ولم تكن تلك المصالحة من توجيه شيخ القرية أو وجهائها بل إن ذلك تم من خلال إقناع سكينة للحاج عبد الودود بضرورة هذه المصالحة على الرغم من ذلك الصراع الدموي، فقد

قتل عبد الودود أحد الفلاحين، وطرد عددا كبيرا منهم من الأراضي التي يستغلونها ويعملون فيها، كما كان يلجأ إلى السلطات وتحريضها على إلقاء القبض على معارضيه من الفلاحين والزج بهم في غياهب السجن.

ومع كل ما حدث في القرية تأتي زوجته سكينة وبقدرة قادر تتمكن من إحلال الصلح بين المتخاصمين الحاقدين. وبهذا يكون الكيلاني قد منح هذه الشخصية (سكينة) دورا أكثر من حجمها الواقعي، وبذلك يكون قد أهمل الواقع المؤلم للقرية، فهو لم يحلل أسباب ذلك الصراع ولم يبين أبعاده ،فظروف القرية لم تكن مهيأة لأن تقوم فيها امرأة بهذا الدور الذي لا يقوى عليه كثير من الرجال.

وقد أهمل الكيلاني واقع القرية الاجتماعي وتقاليدها أيضا ؛ ويظهر ذلك في ما كانت تقوم به (سكينة) في ذهابها إلى بيت الحاج عبد الودود وترددها عليه أثناء مرضه وخدمته بدلا من زوجته التي لم تحرك ساكنا إذ أنها لم تبد أية غيرة ولا اعتراض على هذه التصرفات وهو أمر غير منطقي ولا يتفق مع العرف السائد في القرية حينذاك...

ب ـ (فاطمة) في رواية (عذراء جاكرتا) :

هذه الرواية هي إحدى الروايات الأربعة التي كتبها الكيلاني في محور قضايا العالم الإسلامي ،وهي ما أطلق عليها مصطلح الروايات الاستشرافية أو الروايات السياسية التي تعالج قضايا المسلمين وأوضاعهم في الدول الإسلامية خارج حدود الوطن العربي وقد تناول نجيب الكيلاني في هذه الرواية الصراع العقائدي بين النظامين الإسلامي والشيوعي المسلمين بجاكرتا عاصمة اندونيسيا وفي بعض جزرها الأخرى، وذلك في سنة 1965م.

وهي تحكي قصة استيلاء الشيوعيين على الحكم في اندونيسيا وقد ساعدهم على ذلك تورط الرئيس الإندونيسي (أحمد سوكارنو) ، كما دعمت الصين الشيوعية هذا الانقلاب أيضا ، مما أدى إلى صراع دموي رهيب بين المسلمين من الشعب الإندونيسي وعلى رأسهم منظمة (ماشومي) الإسلامية حيث تأثرت هذه الجماعة الإسلامية كثيرا

بهذه الأحداث إذ فقدت الكثير من أفرادها شهداء وزج بكثير منهم في غياهب السجون الشيوعية، كما تعرض بعضهم للاختطاف.

إلا أن الصراع لم يدم فترة طويلة حيث تمكن الجيش والجماعات الإسلامية من وضع حدا لهذا الانقلاب. وكان لجماعة ماشومي دور فعال في ذلك . وقد ركز الكاتب في هذه الرواية على قضيتين أساسيتين هما : الصراع الكبير بين الإسلام والشيوعية حول قضية الألوهية ذلك أن الشيوعيين لا يؤمنون أصلا بالله أو بالوجود الإلهي ويعتبرون الدين أفيون الشعوب، ولا ينبغي للإنسان أن يؤمن بالله ولا يعترف بالغيبيات، فالوجود عندهم مادة وحسب .

وقد عبرت الرواية عن ذلك من خلال أحد الشيوعيين الذي يتحدث إلى أحد المعتقلين المسلمين، ويبدو من خلال حديثه تهجم صارخ على الذات الإلهية فقد زعم أنه بإمكانه سجن الله مع المعتقلين؟؟ "([1]) .

أما تصور الألوهية في النظام الإسلام فبطبيعة الحال يختلف عن هذا؛ لأن النظام الإسلامي يستمد وجوده من وجود الله ويستند إليه ، فإلى الله ترجع الأمور كلها في هذا النظام.

أما الاختلاف الثاني بين النظاميين الشيوعي والإسلامي فحول الإنسان ذاته ودوره في هذه الحياة وقد شكلت هاتين القضيتين محور الصراع في الرواية بين المسلمين والشيوعيين على المستوى الفكري والاجتماعي والسياسي والثقافي والنفسي.

وقد مثل التصور الإسلامي في هذا الصراع مع الشيوعيين أسرة (حاجي محمد إدريس)، وخاصة ابنته(فاطمة) من خلال المواجهة التي خاضتها هذه الأسرة المسلمة ضد أعداء الإسلام.

1/ الكيلاني، نجيب: عذراء جاكرتا ، ط01 ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ، 2013م ، ص ص 65 ـ 70.

وكانت فاطمة تنتسب لجماعة (ماشومي) الإسلامية، وتتميز بثقافة إسلامية عالية، أما والدها حاجي محمد إدريس فقد كان داعية إلى الله، يشرف على إدارة عدد من المدارس الإسلامية وقد تعرض إلى مضايقات عدة بسبب معارضة للاجتياح الشيوعي للبلاد وموقفه المضاد لهذا الانقلاب مما حدا بالشيوعيين إلى اختطافه والزج به في إحدى السجون المجهولة ومحاولة اغتياله بتهمة محاولة الفرار من السجن، أما (أبو الحسن) خطيب فاطمة فقد زج به هو الأخر في السجن بسبب نضاله الإسلامي .

فقد تعرضت للمضايقات حيث طاردها الشيوعيين بالإشاعات والإغراءات لردها عن موقفها وجهادها ضد المد الشيوعي في اندونيسيا والحقيقة أن فاطمة قد أبدت وعيا قويا بقضية الوطن وتحريره من قبضة الشيوعيين وأثبتت خلال هذا الصراع مع الشيوعيين صدق تمثلها للمبادئ الإسلامية شكلا ومضمونا، حيث أظهرت شجاعة منقطعة النظير في اتخاذ المواقف المضادة لانتشار الشيوعية والدفاع عن نفسها ضد الشائعات التي لحقت بها.

وأسبغ عليها الكاتب أوصافا توحي بتلك الشجاعة فها هو يقدمها بقوله : " وشقت الصفوف فتاة غريبة الشأن... قاصدة المنصة التي يتكلم من فوقها الزعيم، كانت في حوالي العشرين من عمرها، أجمل ما فيها ...عيناها اللتان تشرقان حيوية وإيمانا وجلالا، وكانت طويلة الأكمام، ترتدي على رأسها شالا أبيض يخفي شعرها، ويبرز وجهها المتألق النضر..."([1]).

يبدو من خلال هذا البعد الجسمي الذي رسمه الكيلاني لفاطمة، أنه لم يركز فيه كثيرا على الملامح الجسدية إلا بما يخدم الفكرة، فقد ركز على العينين وفي ذلك إيجاد بشجاعة هذه الفتاة من خلال إشراقة عينيها وحيويتها، كذلك فقد ظهر البعد النفسي من خلال هذا الوصف فقد اقتحمت هذه الفتاة الشابة الصفوف واقتحمت المنصة التي

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا، ص 18 .

يخطب منها (عيديد) زعيم الحزب الشيوعي في شجاعة وقوة ولعل تلك القوة اكتسبتها من قوة الدين الإسلامي الذي تعتنقه وتلتزم بمبادئه وتقتنع بأفكاره وأسسه.

وقد تميزت فاطمة ببعد فكري عميق ظهر عندما ألقت محاضرة بالجامعة ردا على خطاب عيديد (زعيم الحزب الشيوعي) حول الاشتراكية، والأفكار الوضعية للنظرية الماركسية، وحول حتمية المساواة بين الرجل والمرأة.

فقد تحدث عيديد عن الرجل والمرأة حيث بدأ يشرح وجهة نظره مبينا كيف أن"...المرأة كالرجل تماما في التكليف وحمل أعباء الرسالة الإنسانية في خدمة الجماهير الكادحة وتحريرهم وكان يكرر أنه قد سقطت مبادئ عصر (حريم السلطان) ومبادئ (حزام العفة) وأخذ يردد وهو يبتسم" ليست عفة المرأة من نوع آخر غير عفة الرجل، وعصر الإقطاع كان ظالما فلم يصنع للرجل حزاما للعفة كما للمرأة، يجب أن تكون حياتنا الجديدة شعارها أن لا تفرقة بين الرجل والمرأة وتحدث كثيرا عن حتمية التاريخ وحكم الطبقة البرجوازية المتعفنة والامبريالية وأعوانها والرجعية ومخططاتها، والاتجار بالدين"([1]).

هذه الأفكار التي تحدث عنها عيديد ورددها منوها بالشعارات الماركسية أثارت حفيظة فاطمة فشقت الصفوف نحوه وقالت وهي تقترب منه المنصبة: " أيسمح لي السيد أن أدلي بتعليق..؟ انحنى في أناقة ، وافتر ثغره عن ابتسامة كبيرة، وأفسح لها مجالا أمام الميكرفون. قالت فاطمة:

ـ " إننا نغالط أنفسنا حينما نظن أن المرأة كالرجل تماما ... فالعلم يؤكد أن لكل طبيعته.. هرمونات الرجل غير هرمونات المرأة ... قوة عضلاتها غير قوة عضلاته.. وظائفها الفسيولوجية غير وظائفه ... أيمكن أن تكون هذه الحقائق كلها غير ذات موضوع؟ أيصح أن يكون ذلك التركيب العضوي والنفسي دون تأثير؟" ([2]) .

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا ، ص ص 16 ـ 17 .

2/ المصدر نفسه ، ص 18.

وقد ناقش عيديد مفهوم الحلال والحرام من وجهة نظر الماركسية المادية حيث " خلص بعد عرض ذكي بارع إلى أن الحلال والحرام بمفهومهما الصحيح يتركز في أن كل ما نهض بالشعب وحقق نفعا ماديا ، وساعد في إشعال الثورة (التقدمية) فهو الحلال ولا شيء غيره، وعكس ذلك تماما هو الحرام بصرف النظر عن كل ما ورد من قيم عتيقة ونصوص قديمة " ([1]) .

وهنا أيضا ترد عليه فاطمة وفق قناعتها فيما يخص الحلال والحرام مفندة ما ذهب إليه عيديد من تشويه لحقيقة هذا المفهوم لذلك نجدها تقول : " الحلال والحرام عقيدة دينية مصدرها الله .. جاءت على أيدي أنبيائه الكرام، وهي أعلى مثالا من فكر الإنسان وتصوره القاصر.. القتل حرام... السرقة حرام... ولن تصدق أية فلسفة في قلب الصورة... والحكم لا تحدد مصلحة طبقية مهما كان وزنها، ولكنه مجموعة من القواعد العادلة التي أقرتها شريعة الله لمصلحة جميع الناس..

واختلاف الناس في المهارات الشخصية والجسدية والمادية يجمعهم على معنى سام...هو الأخوة...الأخوة غير العداء الطبقي.. الأخوة تجعل من الجميع سواسية كأسنان المشط أمام الله وأمام القانون وساد الهرج والمرج مرة ثانية ...إلا أن عيديد لوح بيده مهدئا فانصاع الجميع لرأيه، ومضت فاطمة تقول :

ـ أفكاركم بمفهومها الطبقي هي الحقد .. العقد النفسية ... هي إرساء قواعد التناحر الدموي ، وإتلاف القيم الإنسانية الرفيعة " ([2]).

وبهذا يظهر وعي هذه الفتاة الجامعية المسلمة بواقعها والدفاع عن مواقفها، ويتضح من هذا الحوار هوية هذه الأفكار واتجاهها، كما يتبين البعد النفسي والسلوكي لفاطمة. وقد أحرج هذا الحديث الجريء عيديد وجعله يسارع إلى المنصة ويقف عليها لا يعرف ماذا يقول، حيث أخذ يردد الكلمات التي يخدع بها جماهير العمال قائلا :" لله ما في السماوات

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا ، ص17.

2/ المصدر نفسه ، ص ص 19 ـ 20 .

وما في الأرض...إنني أطالب بتحقيق عدالة الإسلام التي تحارب الفقر والظلم والمجاعة والمرض والجهل...

لكن فئة من الناس تريد للشعب المسلم أن يظل فقيرا مريضا جاهلا حتى يستطيعوا أن يبقوا ويحتفظوا بمراكزهم ... إنهم يدعون بأنهم مسلمون، بينما هم يحاربون تعاليم الإسلام... إنهم يتهموننا بالإلحاد فإذا كان الخير والرفاهية هو ما يسمونه إلحادا فمرحبا بالإلحاد إني قرأت القران والتفاسير كلها، فلم أجد جملة واحدة تؤكد هذا المعنى... فالإسلام يحارب الفقر والجهل والمرض...وهذا ما تدعو إليه مبادؤنا وهي والإسلام شيء واحد "([1]).

هنا تثور فاطمة وتنتفض وتهتف بعصبية :

ـ " أنت تسخر من عقول الناس أيها الوزير وتخدعهم فضجت القاعة بالضحك الممتزج بالضحك والهتاف واحمر وجه الزعيم خجلا، تندى جبينه بالعرق، لكنه حافظ على هدوئه واتزانه، واقترب من مكبر الصوت وقال :

ـ إنني سعيد بآراء الزميلة الفاضلة... فلكل وجهة نظره... وسوف أستكمل معها النقاش بعد المحاضرة، فقد طالت بنا الجلسة" ([2]).

كما يظهر البعد الفكري لفاطمة من خلال هذا الحوار الذي دار بينها وبين والدها (حاجي محمد إدريس) أحد العلماء المجاهدين " ابتسم حاجي محمد وقال :

ـ أرى أن ذهابك عديم الجدوى..

ـ هذا إذا قيس بمدى تجاوبه لرأي ... لكنني أهدف إلى شيء أخر ..أريد أن أرى .. مجرد الرؤية..

مسح على لحيته البيضاء وقال :

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا ، ص 21 .

2/ المصدر نفسه ، ص 22 .

ـ الزعيم عيديد تلميذ مخلص.. وابن بار للثقافة الملحدة ... الجميع يعرفون ذلك .. هو ثعلب خطر...

قالت فاطمة في لهفة :

ـ أنه لا يملك سوى الكلمات الطنانة..

ـ لكنه يا ابنتي ذو طموح خطر ... وله تأثير كبير على رئيس الدولة ..

ـ وليكن ..إن إيماني أقوى من سفسطته...

ـ لن تصلي إلى نتيجة ...

ـ إن له قطاعا كبيرا من المؤيدين، ويجب كشفه ..." ([1]).

وقد حاول عيديد إجهاض فكرتها ، وقتل دعوتها لأنها تضايقه تكشفه على صورته الحقيقية التي يخفيها حتى على زوجته " تانتي" .

وقد بلغت منه المحاولة أن طلب من فاطمة أن تتزوجه ليسيطر على شخصيتها ويتقي شرها.

" ربت الزعيم على كتفها قائلا عزيزتي، فانتفضت و ابتعدت عنه قائلة :

ـ لا تلمسني.

ـ جئت لكي تقنعني أو أقنعك

ـ يفصل بيننا ثلاثة عشر قرونا من الزمان...

ـ إذن انتهينا

ـ فاجأها بسؤال غريب، لم يخطر على بالها :

ـ هل تقبلين الزواج؟

ـ نظرت إليه في استغراب، وقالت :

ـ محرم شرعا الزواج من رجل لا دين له.

1/ ا الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا ، ص 25 .

ـ لكني مسلم.

ـ بشهادة الميلاد فقط

ـ ليس الفرق كبيرا

ـ سحبت حقيبتها ، وقالت :

ـ السلام عليكم ...

وظل ينظر إليها، وهي تدق الأرض في ثقة بلغت الباب ثم عالجته بتؤدة، وما إن خرجت حتى صفقته في شدة.. وبقيت صورتها الطاهرة الزاهية مسيطرة على خياله.

لا يدري الزعيم لماذا تذكر زوجته في هذه اللحظة بالذات، وأخذ يستعيد لقاءهما معا في أول مرة...كان كل شيء بسيطا سهلا تحابا.. رقصا.. وتنزها في شتى الأماكن ...وعبأ من كأس النشوة... ثم تزوجا... لكنه الآن أمام فتاة رجعية فقيرة ترفض الزواج منه...من وزير وزعيم... أكبر حزب شيوعي خارج الصين وروسيا.. هل كان يتصور أن يحدث ذلك؟

وتمتم في ثقة لا حد لها:

ـ إني قادر.. قادر.. وسأعرف كيف أسحق كبرياءك، وأمزق الأوهام التي تغلف رأسك الجميل "([1]).

يبدو من خلال هذا الحوار المطول أن الكيلاني رسم شخصية فاطمة بدقة متناهية ليجعل منها صورة الفتاة المسلمة الملتزمة بتعاليم الدين الإسلامي فكرا وعما ، لتقوم بدورها في مسيرة الدعوة إلى الله ، والثبات على المبدأ، بل والموت دونه، فقد جعلها الكيلاني تدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فقد حاولت جاهدة إقناع عيديد بأفكارها الإسلامية النيرة الداعية للخير والسلام حتى أنها قبلت دعوته للحوار وجاءت إلى القصر للمحاورة التي انتهت بالفشل بسبب تعنت عيديد وإصراره على غيّه.

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا، ص ص 29 ـ 31 .

من خلال هذا الحوار أيضا نظرة عيديد للمرأة ، وهي نظرة إلحادية مادية لا ترى فيها إلا الجانب الجسدي حيث تجاهل عيديد التزام فاطمة بتعاليم الإسلام الذي كان يبدو من خلال أفكارها وآرائها وكذلك زيها الإسلامي الشرعي، لذلك بدا له أن فاطمة نوع من النساء يجهله إنها المرأة العفيفة الطاهرة المتدينة، التي تراعي شرع الله في كل أمورها، فهي ليست كزوجته التي اتخذها مقياسا لكل النساء، وقد وازن بين فاطمة وزوجته التي كانت ضعيفة الشخصية وربما ضعفها هذا راجع إلى ضعف الوازع الديني في نفسها بسبب اعتناقها الإيديولوجية الشيوعية الداعية إلى الكفر والإلحاد والفجور بينما فاطمة على العكس من ذلك، فقد تمسكت بدينها ومبادئها فصدمت عيديد الذي لم يكن يتصور أن في الوجود نساء مثل فاطمة.

فقد قرر بينه وبين نفسه الانتقام منها وسحقها كما تسحق الحشرات بعدما عجز عن إقناعها بأفكاره أو على الأقل ردها عن أفكارها وقد زاد في إهانته رفضها الزواج منه وهو الزعيم، فقرر في النهاية تشويه سمعتها بالإشاعات والمزاعم الكاذبة عن سلوكها وسمعتها للحد من نشاطها الدعوي الجهادي داخل الجامعة للقضاء عليها معنويا وهزمها نفسيا " وقبل أن ينصرف الزعيم قدم (رامي) صورة فوتوغرافية لفتاة ..نظر الزعيم إليها جيدا ثم ابتسم، بينما قال رجل الاستخبارات:

ـ إن وجودها في كلية الآداب وسط طلبة الجامعة يبعث على القلق

ـ أعرف كل شيء.

ـ دعها الآن.

ـ فهمت غير ذلك يا سيد الزعيم.

ـ من الحماقة أن نشدد عليها العقاب في هذا الوقت بالذات.. إن أصابع الاتهام ستشير صوبنا بالتأكيد.

ـ آخر التقارير تفيد بأن عددا من الفتيات أخذ يتبعها .

ـ ليكن.

وصمت برهة ثم قال:

ـ يكتفي بأن يثار حولها الغبار...قولوا مثلا إن أباها عميل هولندي سابق...و أنه يتلقى المعونات من الخارج ... و أنه تربطه بالمخابرات الأجنبية صلة.. وشوهوا سمعتها ... انسجوا من حولها القصص العاطفية المثيرة.. أتعلم ذلك رامي؟؟ إنها بالتأكيد ستجن...أو تكون مناطا لسخرية بين الطلبة والطالبات. وقهقه قائلا:

ـ الموت أنواع " ([1]).

إلا أن ذلك لم يثني فاطمة عن واجبه الدعوي مما اضطر عيديد وزبانيته إلى اختطاف والد فاطمة والزج به إلى السجن، واعتقال خطيبها(أبو الحسن) الطالب الجامعي الذي يؤازرها في نشاطها الدعوي.

وقام الشيوعيون بالثورة لقلب نظام الحكم وكان من بين أهدافهم القضاء على دور الصحافة لأن بعض الصحف قد كشفت مؤامراتهم وألاعيبهم القذرة ضد المواطنين العزل من الذين لم يساندوا الثورة الشيوعية، إلا أن فاطمة ازدادت إصرارا على الاستمرار في نهجها الجهادي وخرجت متجهة إلى دار الصحيفة التي تعمل بها وما هي إلا لحظات حتى حاصر الشيوعيون مبنى الصحيفة " قالت فاطمة:

ـ اسمعوا:

وأنصت الجميع كان هناك ضجة عالية ، وهتافات صاعدة وطلقات رصاص ، ورائحة بارود، وتجمهر المحررون لدى إحدى النوافذ المطلة على الشارع العمومي، فرأوا حشدا ضخما من المتظاهرين رافعين الأعلام المرسومة بشعار الحزب (المطرقة والمنجل) وهناك لافتات كثيرة كتبت بلون أحمر كالدم... مكتوب عليها " أقتل... أقتل ـ الموت للخونة ـ لا حرية لأعداء الشعب ـ لا محاكمات ولا اعتقالات، بل قطع الرقاب في الطرقات عاش

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا، ص ص 36 ـ 37 .

عيديد بطل التصفية الدموية.. بالحديد والنار تنتصر الثورة... المشانق للخونة... الرحمة انهيار...

التفت رئيس التحرير إلى أحد الرجال الذين معه ، وقال:

ـ أين الحقيبة ؟

فسلمه الرجل حقيبة سوداء ففتحها، و أخرج منها بعض المسدسات وكمية من الذخيرة وزجاجات مولوتوف، وقنابل مسيلة للدموع، وقال رئيس التحرير: ـ ليأخذ كل واحد منكم مسدسا...ولا يستعمله إلا للدفاع عن النفس...لقد فكرت... ورأيت أنه لا يصح أن نموت كما تموت الكلاب...إننا مضطرون لذلك... انهالت الأحجار فتحطم زجاج النوافذ، وتطايرت شظاياه في كل الأنحاء، وانطلق الرصاص عشوائيا وتقدم ثلاثة من رفقاء الحزب الشيوعي لاقتحام باب السور، ولما اعترضهم الحارس العجوز أردوه قتيلا بعدد كبير من الرصاصات... كانت فاطمة عند ذاك واقفة بأعلى السلم، وشهدت المنظر الدامي فأطلقت عيارات نارية من مسدسها، فارتمى أحد الرفاق الثلاثة على الأرض مضرجا بدمائه، وكانت فاطمة تهتف:

ـ العين بالعين...

فجرها أحد المحررين إلى أعلى وهو يقول : إن وقوفك هكذا يعرضك لموت محقق.. لم تكن في وعيها، كانت تحاول أن تنتزع نفسها منه لتواجه الموجة العدوانية التي تدهمهم في عقر دارهم دون سبب معقول... ولكن عندما سقط الرفيق هاجت جموع المتظاهرين واندفعوا كالمجانين صوب الباب الحديدي المغلق يهزونه في عنف، واستمر تبادل إطلاق الرصاص، وصاح أحد المتظاهرين:

احرقوا الدار على من فيها...

امتلأت أجواء المبنى بالدخان ورائحة البترول المحترق، واشتد تبادل الرصاص، ورمي زجاجات مولوتوف بين المحاصرين والمهاجمين، وقدم رئيس التحرير وقال:

ـ اقذفوا بالقنابل المسيلة للدموع...ثم اهربوا من النوافذ والثغرات...أو انزلقوا على أنابيب المياه... افعلوا أي شيء كي تخرجوا من هنا وإلا احترقنا " ([1]).

وتعود فاطمة من المعركة منهكة القوى ولكنها منتشية بالنصر على الأعداء "وعادت فاطمة إلى بيتها....كانت مغيرة... و الأوحال والهباب تلوث ثيابها البيضاء... وما إن ارتمت على السجادة المتهرئة في وسط الصالة حتى همست:

ـ أريد أن أشرب...

ناولتها أمها كوبا من الماء وعادت فاطمة تقول:

ـ لأول مرة في حياتي أشعر بروعة القصاص...و أتلذذ بمذاق النصر " ([2]).

فقد كانت فاطمة كما أرادها الكيلاني ، صورة للمرأة المجاهدة، المرأة التي تدافع عن المظلومين من أبناء شعبها وتقتص لهم من الأعداء " شعرت و أنا أطلق الرصاص أنني أخذت بثأر البواب العجوز.. وبثأر أبي المسكين وانتقمت للرجل الذي يعيش خلف الأسوار رهن المحاكمة... ولأبيه المشلول" ([3]).

وبذلك تكون فاطمة قد شعرت بمسؤولية الدفاع عن المظلومين، والانتقام من الطغاة الظالمين نيابة عن أهلها وذويها الذين لم يستطيعوا القيام بالجهاد بأنفسهم ؟ فأبوها اختطف ولا تدري عنه شيئا، وخطيبها أبو الحسن اعتقل دون محاكمة عادله وأبو خطيبها مشلول جراء ما حدث لولده، والبواب العجوز قتل... فهو إذن القصاص لهؤلاء جميعا من أجل إرجاع الحق المغتصب.

إلا أن فاطمة لم تتوقف عند هذه المعركة التي خاضتها ضد الشيوعيين، بل إننا نجدها تنضم إلى المجاهدين الذين تجمعوا حول الجنرال (أبو الحارث ناستيون) الذي نجا

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا، ص ص 227 ـ 232 .

2/المصدر نفسه ، ص 233 .

3/ المصدر نفسه ، ص ص 233 ـ 234.

من القتل وشكل نواة المقاومة والثورة ضد الشيوعيين " والتفتت فاطمة يمنة ويسرة، وقالت:

ـ أين إخوتي ؟؟

ـ ذهبوا ؟

ـ إلى أين ؟

ـ قيل إن الجنرال الأكبر أفلت من الموت و أنه يجمع الجموع لخوض معركة ضد الثائرين..

ـ أين الجنرال؟

ـ في جاكرتا أو باندونج ..

ـ لكن جاكرتا سقطت كلها على أيديهم

ـ لقد اتخذ من إذاعة باندونج مقرا لدعوته الإعلامية...

ـ صاحت فاطمة في فرح:

ـ الله أكبر ...سألحق بهم..." ([1]).

وكشفت أحداث الرواية عن فشل الثورة الشيوعية في اندونيسيا واندحار الشيوعية وتشتت زعماء الحزب الشيوعي بما فيهم عيديد، حيث شكل الثوار المسلمون مجموعة للبحث عن الفارين من رؤوس الحزب الشيوعي لاسيما الزعيم عيديد وقد كانت فاطمة واحدة من اللذين انضموا إلى تلك المجموعات، بل إن فاطمة قد أصرت على أن ترافق الباحثين عن عيديد " حيث انتحر رجال الحزب، وولت جموعهم الأدبار، أمرت القيادة العامة بتجنيد مجموعة خاصة للبحث عن (الزعيم) وغيره من الهاربين، وأصرت فاطمة أن ترافق المجموعة الذاهبة للبحث عن الزعيم... وكانت التحريات تأتي عنه من آن لآخر ، ولعبت فاطمة دورا بارزا في هذا المجال"([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا ، ص ص 235 ـ 236.

2/ المصدر نفسه ، ص 256 .

وبعد عمليات البحث المكثفة بناء على المعلومات التي تقدم للقيادة العامة، وقد كانت فاطمة من أكبر المنقبين عن أماكن اختفاء عيديد، وفي النهاية ألقي القبض على عيديد، وبذلك تكون فاطمة قد هزمت هذا الزعيم الذي كان يصول ويجول ، مثلما انتصرت شهرزاد على شهريار... و أتت إليه فاطمة وهو في الأغلال، وقفت صوبه وهي تقول :

"ـ ها نحن نلتقي لآخر مرة. نظر إليها في ذهول ودهشة وغمغم :

ـ من أنت ؟

ـ الفريسة التي أفلتت من بين مخالبك ذات يوم....و أنت ملك غير متوج.

ـ اذهبي عني.

ألا تريد أن تلقي درسا عن المبادئ وحق الشعب .

ـ اذهبي.

وأدار وجهه بعيدا عنها، لكنها عادت وواجهته قائلة:

ـ لقد ساهمت بجهد متواضع في الإمساك بك وسيكون ذلك شرف لي طول حياتي "([1]).

لكن فرحة فاطمة وسعادتها بالنصر لم تدم طويلا، ففي اليوم الموالي نشرت الصحف قصة القبض على عيديد ومن بين الصور صورة لفاطمة وهي تصرخ في وجه عيديد، وقد رأتها إحدى الشيوعيات التي احتالت عليها فاطمة عندما كانت تبحث عن عيديد وأوهمتها بأنها واحدة منهن، لذلك قررت الانتقام من فاطمة " وقالت فتاة وهي تتأمل فاطمة التي كانت تصرخ في وجه الزعيم: ـ هذه الفتاة أعرفها... عجبا...لقد كانت تسأل عن الزعيم...لم تكن منا إذن بل أجيرة صغيرة.. لابد من الانتقام منها مهما كان الأمر..."([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا ، ص 262 .

2/ المصدر نفسه ، ص 263 .

وبعد تنفيذ حكم الإعدام في عيديد، انتقمت تلك الفتاة الشيوعية من فاطمة حيث اغتيلت في صبيحة اليوم التالي، وبذلك تنال فاطمة شرف الشهادة حيث تعود إلى أهلها ولكن في نعشها " وفي الجزر الخضراء وورود جميلة، تمتع النظر وتفوح بالعبير، وتزهى بالروعة والجمال. لكن مع الورود أشواك... مع النصر الكبير كانت الفرحة تعمر القلوب وعيون كثيرة تذرف الدموع، قصة الشوك والورود الأزلية.. وعاد أبو الحسن وعاد حاجي محمد إدريس... لكن فاطمة لم تعد إلا في صندوق خشبي...وملابسها البيضاء الطاهرة مخضبة بالدماء... انطلقت في الظلام رصاص آثمة أودت بحياتها... سقطت عذراء جاكرتا شهيدة، وفي يدها وردة حمراء ذات أشواك... وعلى ثغرها ابتسامة رضا...وفي جيبها مصحف صغير، تبلل أهدابها الطويلة دمعة عشق خالد..."([1]).

بعد كل هذا يقف أمامنا سؤال كالطود الشامخ يسأل : إلى أي مدى وفق الكيلاني في رسم هذه الشخصية، شخصية فاطمة وهل نجح فيما سعى إليه من وضع اللمسات اللازمة لمثل هذه الشخصيات التي يريدها إسلامية قلبا وقالبا.

نقول إن الكيلاني قد نجح إلى حد بعيد في رسم معالم شخصية فاطمة سواء من حيث الملامح الجسدية التي لم يركز عليها كثيرا إلى حين ما يكون مضطرا لذلك. أمّا من حيث الملامح النفسية والفكرية، ففاطمة فتاة مسلمة قوية الشخصية، لم تكن منزوية في برجها العاجي تذهب إلى الجامعة ثم تعود رأسا إلى البيت لتصلي وتستعيذ وحسب.

بل كانت فتاة اجتماعية تحمل هموم وطنها وأبناء أمتها تشاركهم في سياسة أمور البلاد حيث انتمت إلى جماعة (ماشومي الدينية) بل إنها جاهدت بنفسها ووقتها حتى سقطت شهيدة " إن الكيلاني لا يكتفي بتقديم المرأة المسلمة (النموذج) في طهرها والتزامها

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا ، ص 263 ـ 264.

وتوحدها، و إنما يمضي خطوة أبعد فيمنحها حضورا مؤكدا في قلب الوقائع وصيرورة الأحداث... عبر لحظات المصير الفاصلة"([1]).

وهي أيضا فتاة تحب وترغب في الزواج ممن تحب، ذلك أن فاطمة أحبت أبا الحسن الطالب الجامعي والذي ينتمي أيضا إلى جماعة ماشومي ولم تقف فاطمة إزاء الرجل الذي تحب موقفا سلبيا بل عبرت بكل حرية عن رغبتها في الزواج منه "وصمت أبوها لحظة وكم كانت دهشته حينما سمع فاطمة تقول:

- أبتي..

- نعم.

- أريد أن أتزوج

- تتزوجين؟

- أعرف أنك قد أجلت هذا الأمر.

- ممن تنوين الزواج؟

- أبو الحسن زميلي في الكلية... أنت تذكر أنه قد طلب يدي منك قبل ذلك" ([2]).

ومع ما اتسمت به هذه الرواية من صدق فني وقدرة إبداعية جعلت من هذه الرواية من أروع ما كتب الكيلاني، إلا أنه يمكن سرد الملاحظات التالية منها بعض الأخطاء المتعلقة بشخصية فاطمة في حد ذاتها، من ذلك مثلا سلوكها مع خطيبها أبي الحسن من حيث المقابلة والمصافحة. وهذه أمور لا يمكن أن تكون في الخطوبة وقبل الزواج، فحينما زارته في السجن " صافح يدا باردة مرتعشة وأخذ يبحث عن الكلمات

1/ خليل ،عماد الدين : صورة المرأة في الرواية الإسلامية (عمالقة الشمال) و(عذراء جاكرتا) للكيلاني نموذجا،(أدب المرأة دراسة نقدية)، من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات المنعقد في القاهرة 1419 هـ - 1999م ، رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، مكتب البلاد العربية ،ط 01 ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، 64 ، السعودية 1428هـ 2007م، ص 113.

2/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا، ص 49 .

....وأطرق كل منهما صامتا بعض الوقت، وهما يتبادلان النظرات الصامتة بعد أن أفسد الضابط عليهما متعة اللقاء، ولاحظا أنهما قد أحرجا واضطربا وكفّا عن الحديث، فجمع أوراق الصحيفة ثم هم بالخروج وهو يقول:

ـ سأترككما بضع دقائق...

تنهد أبو الحسن في ارتياح :

ـ الحمد لله.

ثم عاد يقول :

ـ .... الانفجار المنظم له اتجاه واحد حبيبتي ...

وشعر بالخجل بعد أن تلفظ بكلمة (حبيبتي)، وارتبكت هي الأخرى ، غير أنه استدرك على الفور، وقال ملاطفا:

ـ في السجن يتعلم الإنسان بعض الألفاظ التي تناسب المقام.

قالت وهي تخفض من نظراتها في حياء:

ـ لم أتضايق لسماع هذه الكلمة ...إنها من أروع الكلمات...

وعاد يتطلع إلى وجهها الجميل وهي صامتة، كانت تبدو أجمل من أي وقت مضى... وأخذ يغمغم : وفي ليلي الطويل تشرق طلعتك عليّ فأنسى الأرق والعذاب والظلام... وأظل أهيم في حلمي الجميل حيث الزهور والربيع...وهمسات الربيع يا حبيبتي طاهرة تذكرني بحلاوة الحب، وعظمة الله.

صافحته في شبه غيبوبة، ومضت خارجة، كان يقف كالمسمر في الأرض، وعندما مشت كانت تمشي إلى الأمام ووجهها ينظر إلى خلفها ... إليه حتى اصطدمت بأحد الحراس الذي صاح :

ـ أفيقي من النوم ...وعندما اختفت ...تبللت عيناه بالدموع... قال الضابط له:

ـ لا يبكي الرجال.

ـ أنت لا تعرف كم أحبها..."([1]).

إن هذا المشهد الرومانسي الطويل بين فاطمة وخطيبها أبي الحسن والذي كان مشحونا بعواطف جياشة لا يتناسب والصورة التي رسمها الكاتب لفاطمة من حيث قوة الشخصية والتزامها بتعاليم الإسلام في جميع المواقف والأحوال، فهذا المشهد العاطفي يؤثر في نفس القارئ ووجدانه، باعتبار أن الأدب موجه للسلوك الإنساني، فقد يتأثر بعض القراء بهذا النهج الذي سارت عليه فاطمة مع خطيبها، خاصة وهم يقرأون لأديب مسلم كالكيلاني، وبالخصوص إذا كان أولئك القراء ممن يجهلون تعاليم الدين وحدوده، وربما اعتقد بعضهم خطأ (أن الخلوة جائزة بين الخطيبين وكذلك المصافحة والتغزل في مثل هذه المواقف.

ويصادفنا مشهد آخر لا يقل سلبية عن سابقه ويتمثل في استنجاد فاطمة بالشيوعيين للبحث عن والدها المختطف، وأول هؤلاء الزعيم عيديد عدوها اللدود، فقد قررت فاطمة مقابلة عيديد واستجدائه للإفراج عن والدها " ولمعت في ذهن فاطمة فكرة، قالت ووجهها يشرق بالأمل الواثق المتحدي:

ـ سوف أذهب إليه.

وتطلعت العيون إليها في شغف في طلب المزيد من التوضيح ...

قالت فاطمة وهي تبتسم:

ـ سأقابل الزعيم.

صرخ أبو الحسن في غيظ :

ـ مستحيل

احتقن وجهها وهتفت في إصرار :

ـ لن أترك أبي للعذاب والموت.

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا، ص ص 151 ـ 152 .

ـ اهدئي يا فاطمة... فالرجل ناعم الملمس كالثعبان.

ـ سأطرق كل باب من أجل أبي...

ـ إذن سآتي معك.

ـ بل سأذهب وحدي يا أبا الحسن .

ـ قال الشاب في ضيق:

ـ أتقدمين نفسك وليمة للذئاب.

ـ لن أكون إلا سُما في حلوقهم" ([1]).

إن مجرد التفكير في الذهاب إلى عيديد تعتد مغامرة غير مضمونة العواقب وبهذا يكون الكيلاني قد بالغ في شجاعة هذا الفتاة حتى انقلبت إلى نوع من التهور، علما أن عيديد هو العدو الأول لهذه الفتاة ولأبيها حاجي محمد إدريس، وكذلك لخطيبها(أبو الحسن) فكيف تنجو هذه الفتاة الضعيفة من براثن هذا الأسد وقد ولجت عرينه مرتين ؟؟

وقد باءت هذه المحاولة بالفشل، لذلك اتصلت فاطمة مرة أخرى بفتاة شيوعية تدعى (جميلة) وطلبت منها مساعدتها في الإفراج عن والدها والغريب في الأمر أن فاطمة قدمت نوعا من الرشوة متمثلة في مبلغ من المال إلى تلك المرأة لمساعدتها " وضاقت فاطمة ذرعا بالانتظار وشرحت الأمر لإحدى صديقاتها المقربات، فقالت لها إنها تعرف امرأة في المنظمة (منظمة قيرواني) اسمها جميلة، وقد يمكن الإفادة منها ...خاصة وأن جميلة وزوجها عضوان بارزان في الحزب... حينما ذهبت فاطمة للقاء جميلة كانت وحدها استقبلتها بنظرات فيها التوجس والشك . ليكن أي شيء إن ما يهم فاطمة هو أبوها...ولا أحد غيره، وهي على استعداد لتقبل أي شيء في سبيل خلاصه" ([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا، ص ص97 ـ 98 .

2/المصدر نفسه ، ص 100 .

وللأسف فقد كان ذلك الشيء الذي قبلته فاطمة على نفسها هو الرشوة المقنعة التي دفعتها إلى جميلة لتساعدها في البحث عن والدها " وابتلعت جميلة ريقها وقالت في شيء من الارتباك:ـ

ثم أن الأمر يحتاج لنفقات باهظة...أعني لابد من السفر إلى هنا وهناك والتحري الدقيق...والبحث عن مكانه... أدركت فاطمة ما ترمي إليه جميلة، إنها رشوة مقنعة....

ـ حسنا قالت فاطمة:

ـ هذا لا يهم ...إنني أعرف ذلك جيدا

ـ ألديك ثلاثة آلاف روبية ؟ ؟

دهشت فاطمة. فالمبلغ بالنسبة لها كبير، لكنها على استعداد لأن تبيع ملابسها لو اقتضى الأمر لإنقاذ أبيها وقالت وهي تطأطئ رأسها في استسلام، اتفقنا"([1]).

وقد باعت فاطمة في سبيل ذلك كل ما لديها من ذهب وما يوجد في البيت من أثاث جيد، ثم استدانت بعض الأموال من الأقارب والأصدقاء وكذلك باعت مكتبة والدها العتيقة وما جمعته من مال لم يتعد ألفي روبية إندونيسية، دفعتها إلى جميلة على أمل أن تسدد المبلغ المتبقي لاحقا، ورغم كل ذلك فقد تنكرت جميلة لفاطمة في النهاية.

ثم إن فاطمة لم تيأس وحاولت مرة أخرى مع زوجه عيديد (تانتي) والتي تضمر كرها شديدا للمسلمين إلا أنها رقت لحال فاطمة وأشفقت عليها ووعدتها بالمساعدة " أنا لا أرتاح لأمثال أبيك ومع ذلك فسأحاول مساعدتك.. وهذا وعد" ([2]).

إن اتصالات فاطمة بالشيوعيين (عيديد، زوجته، وجميلة) مشاهد لا يمكن أن تصب إلا في خانة (الغاية تبرر الوسيلة) النظرية المكيافيلية النفعية، وهذه نظرة منافية تماما لأخلاق المسلم فكيف ارتضاها الكيلاني لفاطمة وهي نموذج المرأة المسلمة القوية المتمسكة بالمبادئ والقيم.

1/ الكيلاني ، نجيب: عذراء جاكرتا ، ص 102 .

2/ المصدر نفسه ص 110 .

وبذلك تكون فاطمة قد وقعت في أخطاء كثيرة أولها أنها لم تجد غضاضة في الذهاب إلى قصر عيديد لتحاوره محاولة إقناعه بأفكارها، ثم أخطأت أيضا عندما سمحت لنفسها بدفع الرشوة إلى (جميلة) لفك أسر أبيها، فلم يكن يهمها شيء سوى أبوها... قد لا تكون هذه أخطاء بالنسبة للكاتب أو بالأحرى قد يقول الكاتب أن عذره في ذلك أن يجعل هذه الشخصية شخصية واقعية تخطئ وتصيب ذلك أن الكيلاني يرى أن شخصية (المثالي المجرد) لا وجود لها عنده إلا في لقطات قصيرة ترتبط بشخصيات من نوع خاص مثل الرجل الزاهد في الحياة، لذلك جعل فاطمة تضعف أمام عاطفة الأبوة وهو أمر واقعي ـ في نظره ـ مما جعلها تسعى لفك أسره بكل الوسائل المتاحة حتى وإن كان ذلك عن طريق الاستنجاد بالعدو .

ومع ذلك تبقى فاطمة شخصية نامية ، تتطور مع أحداث الرواية وتتناسب مع طبيعتها، فقد صمدت ضد إغراءات عيديد ومحاولاته الزواج منها، كما أنها كانت صادقة في جهادها ومواقفها النضالية، وهذا ما يتناسب مع شخصية المسلمة المجاهدة ...

وهناك شخصيات نسويه أخرى في هذه الرواية مثل جميلة الفتاة الشيوعية التي تنتمي إلى جماعة قيرواني و(مورني) خليلة قائد الحرس. وتانتي زوجة الزعيم عيديد وسنتحدث عنها في موضعها.

ج- شخصية الممرضة " منال" في رواية الربيع العاصف :

تدور أحداث هذه الرواية في قرية (شرشابة)، موطن الأديب ومرتع صباه في الريف المصري، وتكشف أحداثها الصراع الدائر بين الريف والمدينة بين أهالي شرشابة والوافدين عليها من مدينة القاهرة.

وتتلخص أحداثها في تعيين الممرضة (منال عبد المجيد) بعد تخرجها من مدرسة الممرضات بالقصر العيني في إحدى الوحدات الطبية في الريف، فتذهب إلى العمل وهي كارهة له لما لها من نظرة دونية عن الريف من جهل وفقر وتأخر " لم يكن في ذهنها – والعربة تسرع عبر الطريق الزراعي الممتد بين قريتي سنباط وشرشابة – سوى صورتين

متناقضتين تثيران في قلبها الغض الألم والأحزان، صورة القاهرة الفاتنة الجميلة حيث الحياة المضيئة، والأهل والأصدقاء والذكريات والنظافة، وصورة القرية التي تقرر أن تعمل (بوحدتها المجمعة) حيث الفلاحون والبعوض والتراب والأمراض المتوطنة "([1]).

وقد علق أحد النقاد على هذا الموقف قائلا: " منال تذهب إلى القرية ضائقة الصدر كارهة، كأنها باريسية، وليست من حي السيدة زينب، وكأنها في طريقها إلى مذبح قبيلة أسطورية من آكلي لحوم البشر، وليست ذاهبة إلى قرية مصرية في محافظة الغربية وهكذا تذهب ودمعتها معها " ([2]).

غير أن الدكتورة سميرة فياض الخوالدة ترى أن ذاك أمر واقعي موجود في المجتمع وليس بدعا من خيال الأديب " فهذه الصورة تتكرر في مجتمعاتنا العربية، فما أكثر الذين استنكفوا عن الذهاب إلى الأرياف والقرى النائية، ليس فقط من الفتيات بل من الشبان أيضا" ([3]).

إن هذه النظرة من أهل المدينة القاهرة إلى أهل الريف هي التي تحرك أحداث الرواية وتثير صراع الشخصيات فيما بينها، فهذه الممرضة القادمة من مدينة القاهرة بعد أن تمضي بضعة أشهر بالقرية تمر خلالها بتجارب عاطفية مع عدد من أبناء القرية ومع الطبيب رمزي إبراهيم الذي تعمل معه وهو أيضا قدم من القاهرة ، وهنا تحدث عدة أزمات جراء تلك العلاقات يكون لها أثر كبير في العلاقة بين شخصيات الرواية ؛ بين (منال) و(المعلم حامد المليجي) ـ صاحب المقهى المجاور للوحدة الطبية ـ ، وبينها وبين (الباشكاتب عبد

1/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، طبعة جديدة ومنقحة ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 2001م، ص 05.

2/ محمد حسن ، عبد الله : جولة في الربيع العاصف ، ملحق برواية الربيع العاصف ، ص 200.

3/ الخوالدة ، سميرة فياض ،" المرأة في روايات نجيب الكيلاني" ، مجلة أدب المرأة ، دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلامية ، المنعقد بالقاهرة (1419هـ ـ 1999م) ، رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، مكتبة البلاد العربية ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ،(1428هـ ـ 2007م) ، الرياض ص 94.

المعطي) الذي اشتهر بكتابة الشكايات والعرائض بحق وبغير حق، لكنها بأسلوب خطير ومؤثر. و(الحاج علي) شيخ البلد ـ وهو متعجرف متكبر يحيا على أمجاد زائفة ويحتمي بأخ له حكمدار البحيرة ـ في عصبية ظالمة.

وتأخذ الأحداث في التوالي مبرزة التصادم الحضاري – إن صح التعبير- بين القرية ممثلة في سكانها عامة وما يتميزون به من عادات وتقاليد والمدينة ممثلة في الممرضة منال والطبيب رمزي.

وتتدافع الأحداث وتتشابك حيث كانت كلها مرتبطة بشخصية منال وما يدور في كنفها من الشخصيات السابقة الذكر، فقد صورها الكاتب في صورة تجعلها محط إعجاب كل من يراها من أبسط رجل في القرية إلى عمدتها ، فقد : " كانت امرأة جميلة فاتنة فاحمة الشعر، بضة، بيضاء البشرة ، نحيلة الخصر، منتفخة الردفين، صدرها يبرز إلى الأمام في كبرياء وتحد وكأنه منصة عالية، ذات أنامل رقيقة مخضوبة، في يسراها ساعة ذهبية، وفي يمناها خاتم ذهبي وعدة أسورة، وحول عنقها الممتلئ التفّ عقد ملون ينسجم تمام الانسجام مع قرطيها ([1]).

وهنا بيت القصيد، ومكمن الصراع الحقيقي بين رجال القرية والطبيب الرمزي من جهة وبينهم جميعا، فكل واحد من أولئك الرجال يرى نفسه الأحق والأصلح للاستحواذ على هذه المرأة بأي وسيلة من الوسائل المتاحة، ومن هنا يدور صراع خفي بين كل من المعلم (حامد المليجي) الذي يبدو " خفيف الظل أنيقا، يحافظ دائما على أن يحلق ذقنه كل صباح، يرتدي جلبابا حريريا أبيض "([2])، تربطه علاقة عمل ومصالح مع رجال الوحدة الطبية، فقد كان" المعلم حامد هو متعهد توريد التغذية" ([3]).

1 / الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص 13 .

2 / المصدر نفسه ، 41.

3 / المصدر نفسه ، ص 40 .

لذلك كان دائما يسعى إلى ربط علاقات جيدة مع عمال الوحدة الطبية خاصة الطبيب رمزي والممرضة منال" فمنذ أن رأى منال لأول مرة مالت نفسه إليها، وبات هو الآخر أسير هواها، مثل عشرات غيره من أهل القرية أولئك الذين لم يجدوا سببا من أسباب الاتصال بها"([1]).

فكان الصراع على أشده بينه وبين صديقه، صديق العمر، الباشكاتب (عبد المعطي) الذي كان يحظى بشيء من العلم والثقافة " فلقد استطاع أن يحفظ القرآن في صغره ويجيد القراءة والكتابة، وبعض كتب الفقه القديمة، مما جعله يتصفح الجرائد ويفهم بعض ما فيها" ([2]).

وكانت له مكانة مميزة بين الفلاحين فهو الذي يتولى كتابات الخطابات والشكايات والعرائض بأسلوبه الحلو لذلك كان إنسانا مخيفا في القرية فهو الوحيد الذي يقف أمام العمدة ومشايخ البلد ومحصل الضرائب، وهو دائما ينتصر على كل من يخاصمه، فهو " حقود شرس بطبعه...يكره من هم فوقه حتى لكأنه يظن أنهم هم سبب فقره، وسبب مرضه - اليرقان - الذي أصابه، ونصف العمى في إحدى عينيه والتضخم الذي يشوه مظهر بطنه" ([3]).

وهو يحلم بأنه عاشق محب لمنال ولسوف يقضي على خصومه وينال ما يريد ، فها هو يعترف لها بأنه يحبها :" فقال في نبرة واثقة لينة:

- منال...

- نعم يا باشكاتب.

- أريد أن أعترف.

- لست قسيسة وليس لدينا كرسي اعتراف..

---

1 / الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص 40 .

2 / المصدر نفسه ، ص 18 .

3 / المصدر نفسه، ص 19 .

- إني جاد .

- تكلم يا مضروب.

أنا أحبك" ([1]).

فقد كان الرجل جادا يتحدث من قلبه ويعبر عما يعتلج في وجدانه وتلك سلطة الجمال والفتنة التي مارستها منال على هذا الرجل المريض وعلى غيره من أهل القرية، أما هي فلم يؤثر فيها كلامه شيئا ولم تحمله محمل الجد بل إنها استقبلته باستهزاء فقد ضحكت منال بصوت عال ضحكت كما لم تضحك من قبل "... فأطال إليها النظر بعينه الوحيدة وقال:

- مرة أخرى أعترف أني أحبك...

- دمك خفيف.... والنّبي ظريف.

وواصلت ضحكها وشغبها، أما هو فقد بقي واجما مرتعش الشفتين...

ثم عاد فقال بصوت أجش قوي ينطق بالإصرار والعناد:

- لما تضحكين ؟؟ أقول لك ...إني أحبك ..

- أتريد أن تتزوجني أنت الآخر ؟؟؟

فتمتم في قلق :

أنا الآخر ؟؟هل هناك من رغبوا في ذلك حقيقة ؟

فقالت وعلامات المرح والسعادة لم تغادر ملامحها:

- أنت نائم ...الحاج علي ... المعلم حامد المليحي ... وأنت أيضا ...أنتم الأقوياء الثلاثة في شرشابة ترغبون في الزواج مني، لم يبق سوى الشيخ المداح فتتم الرواية فصولا ....هيا انزلوا إلى الحلبة واحملوا سيوفكم و أنا للمنتصر.

- أحقا حدث ذلك ؟؟

1/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص 139.

- أَوَ تعتقد أن الحاج علي قد سافر إلى القاهرة لوجه الله؟ وهل تظن أن المعلم حامد في حاجة إلى عملية الزائدة الدودية فعلا والإقامة هنا في المشفى؟"([1]).

فقد كان الحاج علي متعجرفا – كما سبق القول- لا يظهر رغبته أمام أبناء القرية فهو ينظر إلى النساء نظرة استعلاء إلا أنه يعترف بينه وبين نفسه أن " الحورية الجميلة – منال - التي أشرقت على قرية شرشابة فأدارت رأسه، وسرقت النوم من عينيه، وبات يفكر فيها طوال شهرين كاملين، ويتسقط أخبارها في المستشفى وخارج المستشفى ويحصي كل حركاتها وسكناتها، ويطيل الجلوس على المقهى المجاور، ويظل ينظر إلى بعيد فيراها وهي تغدو وتروح، ويتبعها حتى تختفي عن ناظريه تماما، ثم لا يكف عن متابعتها بعد أن اختفت"([2]).

وقد برح به الوجد مبرحه حتى غدا يرى صورتها في خياله ، يحلم بامتلاكها كما يمتلك العبيد والجواري، فهو لم يجبر نفسه في يوم من الأيام على التحدث إليها لأنه "كان في نظر الناس عملاقا ذا كبرياء لم ولن يطأطئ رأسه لامرأة، رغم أنه أعزب، المرأة كانت في نظره شيئا تافها،.... للمتعة العابرة ولا يصح لرجل في مركزه ومكانه أن يدوس كبرياءه وسمعته ليجاذبها أطراف الحديث ويجتذب رضاها.

إلا أن كبرياء الحاج علي لم يستطيع مقاومة إغراء تلك المرأة العابثة المستهترة فانهار ذاك الكبرياء كما ينهار القصر الرملي ، وذاب في نفسه كما يذوب الملح في الماء ووقع في فخها، لذلك تنازل عن كبريائه ولم يشعر إلا وعواطفه الجياشة تسوقه إلى بيت (منال) في القاهرة ليطلب يدها من أمها إلا أن تلك الممرضة تعرف سطوته وجبروته وتخشاه، لذلك لم تواجه بالرفض المباشر لكنها رحبت به دون أن تقطع رأيا في القضية

1 / الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص 140.

2 / المصدر نفسه ، ص ص 113 ـ 114.

أمامه ولكنها بينها وبين نفسها فهي" لا تحب الحاج ولا تفكر إطلاقا في الزواج منه إنه أبعد ما يكون عن روحها وقلبها وثقافتها " ([1]).

وأما الرجل الرابع الذي كان مشتركا في هذا الصراع فهو الطبيب رمزي إبراهيم " الذي وصل منذ يومين اثنين، كان سمينا لحد ما، لم يستطع المعطف الأبيض أن يخفي كرشه الصغير المستدير، وبدا شعره المنسق الذي يلمع تحت أشعة الشمس، وكأنه يهتف بالتأنق وبدت نظارته البيضاء فوق عينه لتزيده أناقة ونظافة"([2]).

لكن هذه الأناقة وهذه النظافة الجسدية تخفي تحتها نفسا مريضة بالطمع والجشع والخيانة، فهذا الطبيب الشاب الذي يمثل الجيل الجديد المتعلم لم يكن يهمه السعي إلى تحسين الظروف الصحية للفلاحين في الريف ضمن مجال عمله، و إنما انصب اهتمامه على تحسين وضعه الخاص المادي بطرق ملتوية وغير شرعية، فهو يتقاضى الرشاوي من الفلاحين بحجة أنها هدايا كما أنه يقوم بمعالجة المرضى من الفلاحين خارج إطار الوحدة المجمعية مقابل أجر، وهو أمر مخالف للقانون...

والأغرب من ذلك فإن هذا الطبيب يبرر سلوكه هذا ولجوئه إلى هذه الطرق الملتوية بأنه دفع تكاليف باهضه خلال دراسته الطب، وأن طبيعة العمل في الريف صعبة حيث الجهل والبعوض وانعدام وسائل الراحة والترفيه لذلك فهو يستغل وجوده في هذه الظروف ليكوّن مستقبله، فهو يحلم بسيارة فاخرة وبجمع مال كبير. فها هو ذا يفصح عن أهدافه من خلال هذا الحوار الذي دار بينه وبين الممرضة منال " قال الطبيب وهو يجفف يديه بعد غسلهما في وعاء به (ديتول) مخفف:

- في بحر عام واحد يجب أن أمتلك سيارة فاخرة تليق بي كطبيب، كما يجب أن يكون معي مبلغ كبير من المال...

فقالت منال وهي تبتسم:

---

1 / الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص 126.

2 / المصدر نفسه ، ص 13.

- أحلام الأطباء الجدد مجد.....ومال....وعربة فاخرة...

- وماذا في ذلك؟؟ نحن ندفع الثمن من دراستنا الصعبة الطويلة ومن عملنا الشاق في هذه الغربة وسط الفلاحين والبعوض والتراب...

فقالت ساخرة:

- ووسط هدايا الإوز والحمام والبط التي تتدفق عليك صباح مساء..."([1]).

هؤلاء هم الرجال الأربعة الذين أسرهم حب هذه الممرضة، فقد كانت موضع إعجاب الجميع، حيث تلاحقها عشرات العيون، وتدور حولها الأساطير والقصص الغرامية بين أبناء القرية .وبدأ الصراع بينهم يظهر جليا، فعندما علم الباشكاتب (عبد المعطي) بمنافسة كل من المعلم حامد المليحي والشيخ علي والطبيب رمزي إبراهيم على حب منال غلى الدم في عروقه وسل سيف الانتقام وشحذ قلمه وبدأ في الإيقاع بهم واحدا تلو الآخر؛ فقد كان يرى في المعلم حامد والشيخ علي ألد أعدائه ليس لأنهما ينافسانه في حب منال فحسب بل إنه يرى أنهما سبب فقره وتعاسته ومرضه، فهما جاهلان ولكن يتمتعان بالثراء والجاه بينما هو يتعثر في أوحال الفقر والمرض على الرغم من عمله وثقافته. لذلك أرسل الشكاوي وكتب العرائض للمسؤولين عن تصرفات الطبيب السلبية فهو غشاش وخائن لعمله.

أما حامد المليحي متعهد الوحدة بالتموين فهو أيضا يغش أغذية الوحدة المجمعية ويقدم الهدايا والرشاوي إلى الطبيب والممرضة كما أنه يستغل عمله هذا ليتاجر في المخدرات، ويشغل المال الحرام لتحقيق أهدافه والوصول إلى مآربه .

وأما الحاج علي فقد كان قاطع طريق متعجرف ينهب بضائع الجمعية التعاونية ويأخذ من علف المواشي والسماد، ويتعاون مع العصابات واللصوص والخارجين على القانون ويحميهم ليكونوا له عونا. وهكذا تطل الفتنة برأسها على هذه القرية، إذ يبدأ التحقيق مع

1/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص 30.

الطبيب رمزي إبراهيم لينتهي بعقوبة تمثلت في " خصم منه خمسة عشر يوما، وينقل إلى مستشفى العياط قرب الجيزة" ([1]).

أما الشيخ علي فقد تقرر إيقافه عن العمل بمشيخة البلد لفترة غير محددة، وظن أهله أن الذي وشي به هو المعلم حامد فقاموا بإحراق مقهى حامد ومنزله ويقبض عليه هو الآخر وبحوزته المخدرات فيسجن ثم يفرج عنه بكفالة أو بضمان مالي .

وتموج القرية في الضغائن والأحقاد التي تطفو على السطح مما يجعل شيخ الطريقة الصوفية الشيخ المداح يفسر ذلك تفسيرا ساذجا حيث يعتقد أن السبب في كل المشاكل التي تعيشها القرية مردها إلى تلك الممرضة التي شبهها بالشيطان الذي دخل القرية فقد "كان الشيخ المداح يقف على المنصة ممسكا بيده سيفا خشبيا وهو يصرخ في المصلين بصوت ناقم ثائر : أيها الناس...لقد دخلت قريتنا أرواح شريرة ... ونزلت بها الشياطين فسرت العدوى إليكم... فتلف الزرع وجف الضرع وشبت الحرائق وطمست الحقائق، وفتحت السجون أبوابها للمعتدين، وحاق الضياع بالمذنبين وتصارع الرجال من أجل امرأة متبرجة وطوتكم رغبات الجسد الساذجة...."([2]).

ويبدو أن الكيلاني أراد من خلال موقف هذا الشيخ الصوفي أن يبرز مدى تفشي الجهل وعدم الوعي بطبيعة الصراعات و الظروف التي تعيشها القرية، فقد فسر هذا الشيخ ما يقع من أحداث تفسيرا ساذجا إذ أرجعه إلى امرأة ـ متجاهلا الأسباب الحقيقية ـ مما يعني أنه يعيش في صومعته بعيدا عما يدور من أحداث في قريته، وكانت تلك صورة رجل الدين ودوره السلبي في تلك القرية...

وقد أثر كلام الشيخ على الفلاحين فاعتقدوا فعلا أن الممرضة منال هي السبب لكل ما يقع في القرية ففكروا في الانتقام منها، إلا أن الباشكاتب عبد المعطي يعترف لمنال بأنه هو السبب في ما وقع للطبيب وحامد المليحي والشيخ علي "أنت بريئة يا مسكينة...

1/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ، ص 170.

2/ المصدر نفسه، ص 160.

وأنا أردت أن أريحك منهما... لكني ماذا أقول؟؟ هل أسأت التصرف؟؟ كلهم لصوص يا منال ...الحاج والمعلم... والطبيب أيضا يجب أن ينالوا عقابهم والقرية كلها تعرف ذلك... وإن كانوا لم يجرؤوا على الشهادة ضد أحد... ما كنت أظن أن العبء كله سوف يقع فوق رأسك الجميل كله...دفعة واحدة، وأنا أحبك...أحبك بكل روحي وكياني... ولن أكون وفيا مخلصا إلا إذا نقلت العبء فوق رأسي أنا...إذا أعلنت الحقيقة الناصعة وهي أنني صاحب الشكاوي كلها...فالأعمل في وضح النهار"([1]).

وهكذا يفي عبد المعطي بوعده لمنال ويقول كلمته على الملأ بين الناس "وقد قالها عبد المعطي، وأثارت من الضجة أكثر مما أثارته الأحداث الرهيبة نفسها"([2]) .

قالها وقد بلغ به المرض مبلغه فلم يستطع أي منهم فعل شيء " فتشنجت أصابع المعلم، وانطلق الشرر من عيني الحاج، وأصر الطبيب على أسنانه من الغيظ، لكن عبد المعطي يرقد شاحبا كئيبا، هيكلا فارغا من الأمل والحياة، عيناه تتركزان في وجه منال ومن حين لآخر يهمس في صوت حزين غير مسموع تماما: - أحقا ستسافرين إلى الأبد يا منال....ولا نراك.؟"([3]).

وتنتهي هذه القصة بموت عبد المعطي وسفر الطبيب رمزي إبراهيم الذي نقل إلى مستشفى العياط قرب الجيزة وكذلك منال التي تنقل إلى مستشفى أم المصريين بالجيزة.

وقد انتهى الصراع بين الشخصيات في هذه القصة باتفاق منال مع الطبيب على انتقالها من القرية للزواج فكأن الكيلاني يريد أن يقول إن العادات والتقاليد والبيئة تلعب دورا هاما في الاتفاق على الزواج وأيضا النجاح فيه، ويظهر ذلك حينما أشار الطبيب رمزي إلى أن مشكلة منال هي الزواج "أستطيع أن أقول أن مشكلتك الكبرى الآن هي مشكلة الزواج...

1/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص ص 164 ـ 165 .

2/ المصدر نفسه ،ص 170

3/ المصدر نفسه ، ص 171.

- فقالت منفعلة؟

- ليس هذا صحيحا.

-كلا يا عزيزتي.

- لقد جانبك الصواب فيما تقول، أكنت تظن أن أمثال المعلم والباشكاتب قد سيطروا تماما على مجرى تفكيري، من الصعب أن يصدق الإنسان أني أستطيع الزواج من أحدهم. ليست هذه التربة...الصالحة لي ...إنني أختنق في مثل هذه البيئة أنا لا أنفر من الفلاحين أو أحتقرهم لكن زواجي من أحدهم مخالف لطبائع الأشياء..."([1]).

واضح من خلال هذا الحوار ما أراد الكاتب أن يشير إليه من تصادم الطبائع والبيئات وتعارض العادات والتقاليد وما في ذلك من صراع طبقي بين الفقراء والأغنياء من جهة وبين المتعلمين والجهلة من جهة أخرى. لذلك نجد منال تقع في حيرة بعد أن تقدم لخطبتها العمدة الحاج علي لأنها لا تريد الزواج منه بل إنها لا تفكر إطلاقا في الزواج من واحد من أبناء القرية لأنها ترى فيهم رأيا وتصفهم بقولها:" هؤلاء الرجال في القرية يعيشون بعقلية الفرسان، مثلهم الأعلى أبو زيد الهلالي، المرأة التي يرغبون فيها ينتزعونها انتزاعا يختطفونها على أسنة الرماح...ليس هناك من حل سوى الفرار... الفرار بجلدها من هؤلاء الطامعين"([2]).

وقد صور الكاتب علاقتها بالمعلم حامد المليجي بأنها علاقة متينة وصلت إلى حد إعجاب منال بهذا الشاب القروي لكن هناك حاجز العادات والتقاليد يقف أمام هذه العلاقة فالمعلم "بوجهه اللامع الحليق وسمته المتناسق التقاطيع يبدو رجلا ريفيا أصيلا، صوته صوت رجل...لشد ما أعجبت به منال وارتاحت نفسها إليه...لكن شيئا ما يقف بينهما، شيئا مميزا يظل قائما في تحد مثير، هذا الشيء هو غالبا حاجز يقف بين القرية والمدينة...بين شرشابة والقاهرة بين فتى الريف صاحب الجلباب الحريري الفضفاض وفتاة

1/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص 178.

2/ المصدر نفسه ، ص 127.

المدينة التي ينحسر ثوبها إلى ما تحت ركبتيها، وترفع رأسها وعينيها الجريئتين إلى أي وافد دون أن يخالطها شيء من خجل، أو يشوب تصرفاتها بعض الارتباك. فمنال ليست كأهل القرية، بل إنها تحس بالغربة بينهم إنها تشعر بأنها تعيش في قرية " نساؤها خوف وخجل ورجالها ، احتشام وانشغال بلقمة العيش"([1]).

ولهذا السبب فهي لا تنظر إلى أي رجل من رجال القرية المعجبين بها إلا نظرة ترى من خلالها أن رجل الريف " على أنه مجرد فلاح جلف.....يغريه بريق جمالها وتسلب لبه فتنتها الصارخة..إنه لا يعرف الحب، ولا يفكر التفكير المتزن السليم الذي يليق به كفلاح...كمواطن من أبناء شرشابة...القرية المتواضعة"([2]). بينما ينظر إليها المعلم حامد المليحي نظرة أخرى " فقد بدت له منال كأنها في سماء عالية لا يستطيع المعلم ولا من هو أقوى منه أن يرقى إليها..."([3]) .

وعلى أساس هذه النظرة التي تتأرجح بين الاستعلاء والتكبر من قبل منال والدونية والاحتقار من قبل المعلم حامد، فإن منال لم ترض أن تبادل المعلم حامد شيئا من مشاعره لأنها تنظر إليه على أنه رجعي حقير لم يزل يتمسك بتلك الأفكار العفنة البالية، منطق القرية التعسة التي تحيا في أحضان الذل والجهل من مئات السنين.

وعلى النقيض من علاقتها هذه مع الفلاحين من أهل القرية والتي دلت على الصراع والتناقض بين القرية والمدينة ، فقد صورها الكاتب في علاقة أخرى جد منسجمة مع الطبيب رمزي إبراهيم كيف لا تكون كذلك وهو ابن بيئتها يفكر مثلها ويخضع لنفس العادات والتقاليد لذلك :" لم تكن تحس مثل هذا الفارق والحاجز القائم بينهما، مع

1/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ، ص 46.

2/ المصدر نفسه ، ص 77.

3/ المصدر نفسه ، ص 78.

الطبيب، كان الطبيب أقرب إلى نفسها بثقافته ونشأته في المدينة، وسرعة اندماجه معها، لم يكن هناك غير خجل مصطنع وستار شفاف بينهما"([1]).

لذلك كانت تستسلم لعبث الطبيب رمزي إبراهيم ابن مدينتها أو بالأحرى ابن المدينة مثلها ولا تبدي أي غضب ولا مقاومة " فما أيسر أن مد الطبيب يده في لمح البصر ومزق الستار الشفاف ذات ليلة في بساطة عجيبة وحينما حاولت أن تقاوم نزواته، وتفلت منه قبض عليها بذراعيه والليل ساج والنوم يداعب أجفانها والفراغ الممتد امتداد الليل تحول إلى مشاعر هائجة وقبلات عنيفة – لا بين حبيب وحبيبة- ولكن بين رجل وامرأة "([2]).

فقد صور الكيلاني هذه المرأة أو بالأحرى الفتاة في عنفوان الشباب والمراهقة التي كثيرا ما تحدث فيها أمور عاطفية وأحلام وخيالات ودوافع جنسية فكانت الممرضة منال صورة لهذه المرحلة، صورة الفتاة التي جاءت من المدينة إلى الريف وتحمل في نفسها ذكريات القاهرة حيث "كانت الذكريات الحلوة الماضية تتزاحم في رأسها... أيام الفسحة في حديقة الحيوان وفي الهرم...وعلى شاطئ النيل وفي المقطم وشارع فؤاد ودور السينما الرائعة، والكازينوهات الخافتة الضوء...."([3]).

تلك الأماكن التي كانت تمضي فيها أيامها الماجنة فقد" خفق قلبها خفقات حلوة لذيذة تورد معها خدها وشعرت بغير قليل من الخجل العذري عندما تذكرت القصر العيني – عالمها الفاتن المثير- حيث أطباء الامتياز ومئات بل ألوف من زميلاتها وطرقات المستشفى الكبير الباهتة الضوء، وليالي النوبتجية حيث الشباب والعبث والمرح، ومعارك الحب البريء ومشاعر النضوج والأمل التي تخفق في صدرها وروحها والتي تتسلل إلى

1/ الكيلاني ، نجيب: الربيع العاصف ، ص 45.

2/ المصدر نفسه ، ص 46.

3/ المصدر نفسه ، ص 47.

جفنيها فتورثهما الأرق والسهر، ومئات القصص الشيقة التي تناقلها أفواه العذارى في القصر الكبير... في عنابر المرضى...وفي أكشاك الفحص الطبي...."([1]).

لذلك حينما قدمت هذه الممرضة إلى قرية شرشابة وهي مشحونة بتلك الذكريات الماجنة العابثة اصطدمت بواقع مغاير في السلوكات والمشاعر، مشاعر لم تكن جريئة كتلك التي رأتها ومارستها في القصر العيني بالقاهرة فقد نظرت إلى عبد المعطي الذي كان يحبها بصدق ولم يجرؤ على ملامستها، نظرت إليه نظرة احتقار وازدراء واتهمته بأنه مثل غيره من الفلاحين الذين ينظرون إليها بعين الشهوة والجنس فها هي تخاطبه قائلة "كلكم ذئاب وتشتهوني فاكهة جديدة....يسيل لعابكم من أجلها... تقليعة مثيرة تلفت النظر"([2]).

ولكنها لم تبد أي اعتراض على تصرفات الطبيب رمزي العابثة بل كانت تشجعه على ذلك بعدم مقاومته مقاومة جادة حينما " احتواها بين ذراعيه في قسوة وشفتاه تدوران فوق وجهها، ومنال تتململ تحاول أن تحرر نفسها من ذراعيه... فتهزم مقاومتها وعنادها...كان رجلا... وكانت امرأة....و إن لم يكن بينهما فيما مضى حب ماض عميق الجذور... واستسلمت له غير آسفة.."([3]).

أما الباشكاتب عبد المعطي فلم تفكر فيه مجرد التفكير بل كانت تنظر إليه على أنه بهلواني مسل يذهب عنها همومها وأحزانها أما في ميدان الحب فقد " كان في نظرها مثل الخصي الذي عاش قديما مع حريم السلاطين والأمراء، لم تكن تظن أن في قلبه شعلة من نار، وأن كيانه يحترق بعاصفة من الحب تختفي وراء إهابه الأصفر ووجهه الحاد الملامح..."([4]).

1/ الكيلاني ، نجيب: الربيع العاصف ، ص ص 06 ـ 07..

2/ المصدر نفسه ، ص 141.

3/ المصدر نفسه ، ص 35.

4/ المصدر نفسه ، ص ص 33ـ 34.

فمذهبه لا يناسبها ولا يتماشى مع عقيدتها وفكرها، إنها ابنة القاهرة ترى نفسها مثل :" زهرة غريبة غرست في تربة غير تربتها وفي بيئة غير بيئتها" ([1]).

لذلك لم يستطع المعلم حامد المليحي على الرغم من كل أساليبه و إغراءاته وحيله الشريفة وغير الشريفة أن يصل إلى قلب منال أو أن يقنعها بالزواج منه. ولم يستطع الحاج علي شيخ القرية بكل قوته وجبروته أن يجبرها على الزواج منه، فهي لا ترفضه علنا وإنما أعطته أملا زائفا حتى تتقي شره وتركته يهيم في هواها معلقا بين القبول والرفض.

كذلك لم يوفق عبد المعطي الذي أحبها بصدق ، لكنه لم يجد منها سوى المعاملة الساخرة فقد حطمت أمله في حبها حينما عاملته كساع البريد، فعندما سلمها رسالة من أمها شكرته، وهي تقذف إليه بقطعة فضية من ذات الخمسة قروش وهكذا "هبط عبد المعطي لتوه من الأجواء الوردية، وارتطمت أحلامه المعلقة بالأرض الصلبة القاسية التي يغطيها التراب والطين، وانطفأت الابتسامة من فوق شفتيه، و أظلم وجهه، ولفته كآبة قاسية "([2]).

لقد رفضت ابنة القاهرة منال كل علاقة عاطفية مع رجال القرية ولم يكن رفضها مرتبطا بقيم شرفية أو أخلاق اجتماعية، فكلهم كانوا يرغبون فيها زوجة ولم يكن أي منهم يريدها لتسلية أو العبث لكنها رفضت لأنها بكل بساطة لا تشعر نحوهم بأية رغبة بل إنها تحتقرهم وتكن لبعضهم العداوة فكل واحد منهم بالنسبة إليها " لا تفكر إطلاقا في الزواج منه، إنه أبعد ما يكون عن روحها وقلبها وثقافتها..."([3]).

بينما كانت منال تستسلم للطبيب في غير ما مقاومة لأنه ابن بيئتها لا يتوانى عن الخبث والعبث، وهي تساعده على ذلك فكيف تمنعه وقد تعودت على تلك السلوكات ومارست تلك الأفعال عندما كانت في القصر العيني فقد استسلمت للطبيب رمزي غير

1/ الكيلاني ، نجيب: الربيع العاصف ، ص 143.

2/ المصدر نفسه، ص 40.

3/ المصدر نفسه ، ص 126.

اسفة " تماما مثلما فعلت ذات مرة وهي في السنوات الأولى في مدرسة الحكيمات بالقصر العيني...ذات ليلة وكان نوبتجيتها في المساء...وطبيب الامتياز غض جذاب...شدها إليه فخافت أن تصرخ أو تستنجد فنامت على صدره....وبدا الأمر بعد ذلك عاديا لا يثير ألما...بل يثير ذكرى حلوة شكر. ومثلما كانت فتيات مدرسة الحكيمات... لكل منهن قصة حب....ومن ليست لها قصة كان عليها أن تفتعل حبا..." ([1]).

أخيرا يمكن القول إن الكاتب الكيلاني استطاع أن يرسم شخصية الممرضة منال بالصورة التي تجعلها امرأة متسلطة بجمالها تدخل القرية الامنة فتهز أركانها وتزلزل استقرارها حيث يتنافس رجالها على الحصول على رضى منال والتقرب منها وطلب الزواج منها بل إن بعضهم حاول العبث معها وقد استجابت لذلك دون تحرج...

لذلك فقد كان الوصف والحوار والصراع والحوادث كلها منصبة في هذا الاتجاه أعني التنافس للظفر بهذه الممرضة بدافع جنسي بحت، فقد دفع الكاتب الأحداث نحو هذا الهدف وهو منال والحرص على الاقتراب منها وامتلاكها؟؟

فقد تغير حال هذه القرية منذ اللحظة الأولى التي وطأتها أقدام هذه الممرضة حيث :" وقف رواد المقهى المجاورة مشدوهين، لقد نحوا (الجوزة) جانبا، وتركوا أكواب الشاي والقهوة باردة فوق المناضد الخشبية الصغيرة ، ولاعبوا الطاولة هم الآخرون، تشنجت أيديهم فوق القطع والزهر، كانت العيون كلها متجهة نحو امرأة جميلة فاتنة فاحمة الشعر..."([2]).

وقد بالغ الكيلاني من الوصف الجسدي لهذه المرأة حيث راح يصف الجسد ويبرز المثيرات ويصف ما يعتلج في النفوس من النزوات الجنسية لذلك نجد أحد النقاد يعيب ذلك على الكيلاني حيث يتساءل غاضبا: " أليس من المحزن أن تسيطر على هذه القصة التي أسماها المؤلف " الربيع العاصف" تلك المشاعر الجنسية التي اتجهت كلها نحو منال

1/ الكيلاني ، نجيب: الربيع العاصف ، ص ص 35 ـ 36 .

2/ المصدر نفسه ، ص 13.

من حامد المليحي والشيخ علي وعبد المعطي والطبيب، وكأن لا قضية في هذا الريف البائس، ولا مشكلة إلا مشكلة الوصول إلى منال والزواج منها أو كسب رضاها، بالحلال أو الحرام؟ "([1]).

حتى أن أحد النقاد وصف الشخصيات الريفية في هذه القصة بالشريرة المؤذية التي لا تبدو عليها علامات الطيبة و الأخلاق التي عهدناها في أهل القرية، ويصف الشخصيات الوافدة من المدينة إلى القرية بأنها لا روح فيهم "([2]).

إلا أنه يمكن القول إن تلك الشخصيات بما تحمله من تصرفات سلبية تمثل واقعا ما كان سائدا في الريف المصري " من الأرجح أن الكاتب قد قصد هذا الواقع بالضبط، فهو يصور لنا مجتمعا تسود فيه اللاقيمة، مجتمعا أقرب ما يكون إلى المجتمعات الجاهلية. فصوت الدين خافت لا يكاد يبين، والعنصر الروحي والفكري معدوم في حياة هؤلاء الناس: منال البطلة تستمد قيمها الأخلاقية من ذكريات أبيها المتوفي، وبالتالي فهي قيم غامضة باهتة التأثير"([3]) ذلك أن الكيلاني لم ينتقد موقف منال بأي شكل فني، فلم يظهرها مثلا نادمة على ما فعلته مع طبيب الامتياز في القصر العيني أو سقوطها في أحضان الطبيب رمزي بالوحدة المجمعية بقرية شرشابة...ولم يظهرها مثلا وقد آلت إلى مصير مزر سيء وبسبب ما اقترفته من ذنوب أو أنها تائبة منيبة إلى الله...

ولم يهيئ الكاتب لهذه الشخصية (الحائرة) من يرشدها ويدلها على أبواب الطاعة والتوبة، بل إن الكاتب قد أظهرها في النهاية سعيدة " والعربة تسرع في المسير ومذياع

1/ بريغش ، محمد حسن : في القصة الإسلامية المعاصرة (دراسة وتطبيق) ، ط01 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1420هـ ـ 2000م ، ص 149 .

2/ ينظر : عبد الله ، محمد حسن : جولة في الربيع العاصف ، ص ص 198 ـ 199.

3/ الخوالدة ، سميرة الفياض ،" المرأة في روايات نجيب الكيلاني" ، ص 94 .

يترنم بأغنيات حلوة شجية.. لكن منال لا تكاد تعي منها شيئا، والطبيب يبتسم في سعادة وثقة، ويده تتسلل خلف خصرها مداعبة، وتبتسم منال هي الأخرى ... "([1]).

وفي النهاية فقد تكون الحقيقة عكس ما قاله النقاد عن تلك الشخصيات خاصة شخصية البطلة منال لأن الكاتب قد نجح أيما نجاح في كشف الواقع وتصوير وضع الأمة في الريف وفي المدينة فالقاهرة هي كل عاصمة عربية وشرشابة هي كل قرية في الوطن العربي، ولعل انعدام الروح في تلك الشخصيات هو عمل مقصود، فقد يكون هو لب المشكلة، وانعدام الضمير الرادع في القصة سواء الضمير الديني أو الاجتماعي هو بفعل الكاتب حتى يتفادى الخطاب المباشر والموعظة التي تضعف من التصوير الفني في القصة...

1/ الكيلاني ، نجيب: الربيع العاصف ، ص 189 (آخر صفحة).

الفصل الثالث

نموذج بلقيس

(المرأة وسلطة الجاه والمال والجمال)

الفصل الثالث

نموذج بلقيس

(المرأة وسلطة الجاه والمال والجمال)

أولا : بلقيس الشخصية القوية والقرار الحكيم

ثانيا : المرأة وقوة الشخصية وحسن الاختيار

في روايات نجيب الكيلاني

أ) ـ (شجرة الدّرّ)

في رواية (اليوم الموعود)

ب)- الفنانة (صافي)

في رواية (ليالي السهاد)

ج)- (براعم)

في رواية (ملكة العنب)

أولا : بلقيس الشخصية القوية والقرار الحكيم:

بلقيس ملكة من أشهر ملكات التاريخ ذكرها الله تعالى في القران الكريم، وسجل رحلتها مع قومها حينما كانت تعيش في الكفر والضلال تعبد وقومها الشمس ثم انتقالها إلى الهدى والإيمان على يدي سيدنا سليمان عليه السلام . ويذكر المؤرخون أنها ملكت مملكة سبأ في اليمن – على اختلافهم في ذلك بين مصر وسوريا واليمن – وقد ورد ذكرها في القران الكريم في سورة النمل في قوله تعالى على لسان الهدهد :" إِنِّي وَجَدْتُ اِمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23). وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ (24) " ([1]).

وقد وصف القران الكريم ما كان بين هذه المرأة وسليمان من مواقف كثيرة نستكشف من خلالها بعض صفات هذه الملكة، فقد كانت مثالا للمرأة العاقلة المتزنة ، فقد قرأت رسالة سليمان بتدبر وإمعان ولم تمر عليها مرور الكرام ، إذ كانت عادلة في حكمها على تلك الرسالة فقد عرضتها على قومها دون زيادة ولا نقصان " قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّيَ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ " (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بسم الله الرحمن الرحيم (30) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَاتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونْ (32) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) " ([2]).

وقد كانت ميالة إلى السلم والسلام مبغضة للعنف والدمار حيث حذرت قومها، فبلقيس تملك الجاه المال والجمال، ومع ذلك لم تغتر وفضلت الدخول في دين سليمان ، بعد أن أدركت بأنه دين الإسلام والسلم، وأن عبادة الشمس لا تجدي نفعا لذلك نجدها تقول

1/ سورة النمل : الآيتان (23 ـ 24).

2/ سورة النمل : الآيات (29 ـ 34).

كما ورد في القران الكريم " رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(44)"([1]).

ثانيا : المرأة وقوة الشخصية وحسن الاختيار في روايات نجيب الكيلاني :

إن ما ورد من صفات لهذه المرأة من رزانة وتعقل وعفة وشرف وصدق وإنصاف وحب للخير للجميع ومحبة لقومها وميل إلى السلام والأمن ونبذ العنف والدماء وفي النهاية فهم حقيقة الإسلام، كل هذه الصفات قد أسقط الكيلاني بعضها على بمجموعة من الشخصيات النسوية في رواياته، من ذلك الشخصيات الواردة في الروايات التالية على سبيل المثال لا الحصر :

أ) - (شجرة الدّرّ) في رواية (اليوم الموعود):

فنجد مثلا شجرة الدّرّ التي وصفها الكاتب بالشجاعة ورباطة الجأش في أحلك الحالات، فقد كانت قوية صامدة حتى عند وفاة زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب، حيث تصرفت بحكمة وصرامة "وسرعان ما حنقت دموعها وانتصبت واقفة، وقد اكتسى وجهها بالصرامة والجد وقالت:

- لن يجدي البكاء، الأمر خطير ويحتاج إلى الحسم والكتمان" ([2]).

لذلك لم تعلن خبر موت الملك" و أخذت تفكر بسرعة وحدة، لقد كانت شجرة الدر كما قلنا من ذلك الصنف الذي تشحذ عقله الأزمات وتكشف عن عبقريته وكفايته، ومن ثم قررت أمرا... وعلى الفور أرسلت في طلب فخر الدين بن شيخ الشيوخ والطواشي جمال الدين محسن ..أفضت إليهم شجرة الدر بحقيقة الوضع وأبانت لهم عن خطتها التي تتلخص في ألا يعلن عن موت الملك حتى لا تتأثر الحالة الحربية بذلك، فتظل

1/ سورة النمل : الآية (44).

2/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود، ط 08 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 2005م، ص 98.

الأوامر تصدر من القصر السلطاني مختومة بخاتم السلطان، وليقدم السماط في موعده المحدد ولتمض الأمور كأن لم يحدث شيء" ([1]).

ولكونها شخصية تتميز بالنفاذ والقوة فقد أذعن إليها القائدان ولم يناقشا أوامرها بل إنهما عاهداها على الطاعة والولاء :"وعندما انتهت شجرة الدر من حديثها، أطرق فخر الدين صامتا بينما أثنى الطواشي جمال الدين على قولها ثناء عاطرا ودعا لها بالتوفيق والسداد، وأكد لها طاعتهم وإخلاصهم جميعا لما تشير به، ثم تبعه فخر الدين، وأقسما على الولاء لأوامرها... "([2]).

ب)- الفنانة (صافي) في رواية (ليالي السهاد):

التي استطاعت أن تستحوذ بجمالها وجاهها على قلوب الرجال ممن لهم سلطان في الحكومة حتى غدت لا يرفض لها طلب، وقد كان لها صيت نافذ عند رجال المخابرات أمن الدولة، وقد أظهر الكيلاني مكانة هذه المرأة ونفوذها من خلال السارد (المهندس عبد القادر) مع الحاج علي محمود المقاول " إنه يحدثني عن تصميم فيلا على أحدث طراز، تحيط بها حديقة، وبعض المنشآت الصغيرة الأخرى، وأفاض في الحديث عن صاحبة الفيلا، فهي فنانة مرموقة وذات علاقات اجتماعية هامة، وإرضاء (صافي) ـ وهذا هو اسمها ـ صفقة رابحة وذات عائد مجز جدا. هكذا كان يتكلم الحاج، قلت:

ـ إنها معروفة على نطاق واسع...

قال الحاج وهو يضيق عينيه و ينظر إلى وجهي في اهتمام:

- أجل معروفة كفنانة.. لكن ما خفي كان أعظم...

ثم قال:

- إن إشارة من إصبعها تقيم الدنيا وتقعدها.

- ألهذا الحد؟؟

1/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود ، ص 98ـ 99 .

2/ المصدر نفسه ، ص 100.

- وأكثر....

ثم أمسك بيدي في رجاء وقال:

- إذا رضيت (صافي) عنَّا، فقد حلت جميع مشاكلنا، أتفهم يا باشمهندس؟؟

- إنني أعول كثيرا على هذه العلاقة التي كنت أحلم بها، وأخطط لها منذ قديم " ([1]).

وعندما يلتقيان بالفنانة صافي في بيتها يتضح ما تتمتع به هذه المرأة من الجمال والمال والنفوذ والعلاقات الواسعة التي تتجاوز حدود الفنانة العادية إلى امرأة قوية لها نفوذ وسلطة حتى على رجال المباحث العامة وغيرهم ويظهر ذلك جليا من خلال وصف الحاج علي محمود لهذه الفنانة فقد كان يكيل لها المدح والإطراء ويقدم لها فروض الولاء والطاعة مشيدا بفنها من جهة وبجمالها وسلطانها...

ج)- (براعم) في رواية (ملكة العنب) :

وبراعم هي إحدى أهم شخصيات هذه الرواية التي تدور أحداثها في الريف المصري، وبالضبط في إحدى القرى، قرية (الربايعية)،حيث تحدث خطيب المسجد الشيخ :(محمد أحمد حسب الله) في خطبة الجمعة عن زراعة العنب التي تفاقمت في القرية وأن زراعه لا يخرجون الزكاة عنه على الرغم من ارتفاع مردوده مقارنة مع الزر وع الأخرى. وكانت براعم أكبر مزارع في تلك القرية. مما أثار حفيظة الناس حيث صاروا يتحدثون عن ذلك حتى أن أحدهم وهو من أكبر المشاغبين في القرية وهو (عوض العوضي) صاح محرضا :" إذا لم نأخذ حقنا بالشرع فسوف نأخذه بالقوة. لذلك ذهبت (براعم) إلى بيت الشيخ (حسب الله) تحذره من مغبة كلامه وتحذره من الفتنة التي أوقع فيها الناس وهددته بأنه ستمنعه من الخطابة في المسجد لأنه مدرس وليس خطيبا حيث جرى بينهما الحوار التالي:

- " تنهدت ثم قالت:

- تقول عنا أننا كفرة .

- أنا ؟ أستغفر الله. أنا لم أقل شيئا من هذا يا بنت الناس.

1/ الكيلاني ، نجيب : ليالي السهاد ، ص ص 74 - 75 .

- منذ يومين كنت تخطب الجمعة.

- صحيح.

- ولم تجد في القرية عصاة إلا أصحاب مزارع العنب.

- لم أقل ذلك.

- تعرف طبعا من أكون .

- ابتسم وقال:

- يسمونك ملكة العنب.

- وأنا كذلك فعلا... الجميع هنا يعرفون قدري....

قال بصرامة وهو يغالب غضبه:

- إن عالم الدين لا يأخذ إذنا من أحد حينما يريد أن يقول الحق.

- لكنك يا شيخ محمد تفتح بابا للفتنة.

- حاشا لله...أردت أن أدعو الناس لإخراج زكاة العنب.

- لك أن تقول ما تشاء، لكن بطريقة لا تحدث بلبلة .

- إنني أقول كلمتي وأمضي...وللناس أن يطيعوا أو يعصوا...

- نحن لا نخالف قوانين الحكومة يا شيخ محمد.

ـ دعي الحكومة جانبا. فأنا أفسر مبادئ الدين ...

وذهل إذ سمعها تقول:

- وأنا سأمنعك من صعود المنبر مرة أخرى.

هتف وهو يصعد نظراته هذه المرة بغضب:

- أنت ..

- نعم أنا... فأنت مدرس، ولست خطيب مسجد...."([1]).

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص ص 05ـ 10 .

وقد ازدادت الفوضى واللغط حتى عقد رئيس المجلس المحلي للقرية (أحمد علام) اجتماعا موسعا لمجلس القرية حثَّ فيه على أنه :" ما يهمنا أولا هو أمن البلد وتلاحم الحزب مع الجماهير وأخوف ما أخافه أن يكون وراء ما يحدث الآن تدبير خبيث من المتطرفين والإرهابيين. وقضية الزكاة حضرات الأعضاء، مسألة شخصية بحتة، وعلى كل فلاح أن يختار الفتوى التي تروق له، ويا ويل من يعبث بأمن البلد" ([1]).

كما استدعى العمدة الشيخ " أحمد حسب الله " يستفسره عما حدث، وأخبره بأن شكوى قدمت ضده على أنه المحرض على السرقات التي جرت هذه الأيام في حقول العنب " لقد قدموا شكوى في حقك، واعتبروك المحرض على السرقات التي جرت في الأيام الأخيرة.... واللصوص يا بني - وما أكثرهم - يعتقدون أنهم يؤدبون الظلمة والبخلاء بسرقاتهم، وأنهم يحاولون – بزعمهم - تطبيق الشريعة بطريقة فجة.. منع الزكاة عنهم يعالج بالسرقة"([2]).

إلا أن الشيخ (أحمد حسب الله) يبرئ نفسه من تلك التهم، ويتفهم العمدة موقف الشيخ محمد أحمد حسب الله حيث يفكر هذا الأخير بالسفر لكن العمدة ينصحه بعدم فعل ذلك حتى لا يعطي الفرصة للناس في القيل والقال...

وفي الجمعة الموالية حضر واعظ المركز وألقى خطبة الجمعة، لكن الشيخ (محمد أحمد حسب الله) ألقى على الناس كلمة بعد صلاة الجمعة قال فيها بأنه بريء من اللصوص والمعتدين وبريء من المرتشين ومن المستغلين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل أو يرفعون الأسعار بدون مبرر" أنا برئ من اللصوص والمعتدين...بل أقول يجب الضرب على أيديهم... برئ من المرتشين سواء أكان في المجلس المحلي أو خارجه... برئ من المستغلين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، يرفعون الأسعار بلا مبرر" ([3]).

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص ص 14 - 15 .

2/ المصدر نفسه ، ص 16 .

3/ المصدر نفسه ، ص24 .

في هذه الأثناء يتوقف الشيخ (محمد أحمد حسب الله) عن الكلام إثر ارتفاع صوت يصيح: " قتيل يا أهالي الربايعية... قتيل في عنب براعم" ([1]). لقد قتل أحد اللصوص المجرمين المدعو (مصطفى السلاموني)، و كان قد سبق أن قتل زوجتين سابقتين له دون أن تفضي التحقيقات إلى إدانته.

وتستمر أحداث الرواية بعد ذلك حيث أذيع في مكبر الصوت عن مقتل شاب في الثلاثين من عمره كان يعمل في العراق أثناء حربها مع إيران " واستمر هناك بعد توقف الحرب، وأشيع في القرية أن الجثة التي أرسلت من العراق تبدو عليها أثار العنف والاعتداء الجسيم، والجمجمة مهشمة، وهناك طلقة رصاص على ما يبدو في الصدر كان الميت القتيل – ابن خالة الشيخ محمد أحمد حسب الله" ([2]).

لذلك صار الناس يتساءلون لماذا يقتل العراقيون أبناءنا الذين خدموهم وضحوا أكبر التضحيات من أجلهم أثناء الحرب وبعدها ؟"([3]). وقد منعت السلطات الطبيب الشرعي إذاعة التقرير على الناس وقدم أفراد من رجال الأمن لحراسة الجثة وقد منعوا الناس من رؤيتها ثم أمروا بدفنها على الفور وحراسة القبر لمدة عشرين يوما على الأقل. ذلك ما ألهب مشاعر أهالي القرية بالغضب على السلطات حيث خرج :" الشباب في مظاهرة صاخبة يلعنون فيها (صدام حسين) رئيس العراق ونظامه القمعي، وهتف المتظاهرون أيضا ضد الإدارة المصرية التي تفرط في حق أبنائها، وتجامل بدمائهم من أجل الحفاظ على العلاقات السياسية والاقتصادية بين البلدين" ([4]).

وقد تصدى رجال الأمن للمتظاهرين وأطلقت القنابل المسيلة للدموع مما اضطر الناس إلى التفرق ولم يبق بجوار النعش سوى الشيخ (محمد أحمد حسب الله) الذي تعرض للإيذاء الجسدي من قبل رجال الأمن، حيث قبض عليه بتهمة التحريض على

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص 24 .

2/ المصدر نفسه ، ص 38.

3/ المصدر نفسه ، ص ن.

4/ المصدر نفسه ، ص 39 .

المظاهرة وإثارة الفوضى، كما قبض على أكثر من أربعين شابا من المتظاهرين من أبناء القرية، وكان من بين الموقوفين اللص (عوض العوضي) والحشاش (الراعي كشكل)، كما قبض أيضا على أحد الشيوخ المتصوفين وهو الشيخ (أبو المجد شاهين) رغم أنه كان في المقابر ولم يشهد المظاهرات...

هنا تدخلت الآنسة (براعم) لمساعدة أهل القرية حيث سافرت إلى المدينة ووكلت محاميا كبيرا للدفاع عن المقبوض عليهم وأعطته عدة آلاف من الجنيهات، وطلبت منه ألا يكشف عن اسمها لأحد، وأن يقول إنه متطوع للدفاع عن الموقوفين، كما قامت بزيارة للمحافظ لعله يتوسط لدى وزير الداخلية للإفراج عنهم، ثم ذهبت إلى النائبة البرلمانية الواصلة (سعاد الدباح) لتساعدها في الإفراج عن المقبوض عليهم وقد وعدوها جميعا بالمساعدة... ثم عادت إلى القرية حيث زارت بيت الشيخ (أبي المجد شاهين) وطلبت منه أن يتولى بنفسه توزيع الزكاة على أهل القرية.

في هذه الأثناء استطاعت النائبة (سعاد الدباح) التدخل للإفراج عن المعتقلين فشعرت براعم بسعادة عارمة وراحة نفسية عميقة، وأقامت احتفالا شعبيا كبيرا حضرته النائبة (سعاد الدباح) وشارك فيه أهالي القرية وبعض القرى المجاورة إلا أنه وفي ذات الوقت أذيع نبأ غزو العراق للكويت مما أحزن الناس كما ورد نبأ انهيار الوحدة الصحية حيث دعا رئيس المجلس الناس للتبرع لإعادة بنائها إلا أن الناس تلقوا دعوته بالسخرية حيث أكدوا أن المبلغ المجموع سيسرق نصفه على الأقل وقال بعض أبناء القرية يجب على الحكومة إعادة بناء المستشفى" وتصادف في هذا الوقت أن انهارت مستشفى الوحدة المجمعية القديمة بالقرية... ودعا أحمد علام رئيس المجلس المحلي إلى جمع التبرعات لبناء المستشفى بالجهود الذاتية...وسخر الناس من هذه الدعوة لأنهم يعلمون جيدا أن أي مبلغ يجمع سوف يسرق نصفه على الأقل...بينما قال آخرون :إن الحكومة ملزمة بالبناء.."([1]).

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص 121 .

بعد ذلك يتجدد البحث في قضية مقتل (مصطفى السلاموني) حيث تلقي السلطات القبض على الراعي (كشكل) و زوجة القتيل (محاسن) حيث تبين التحقيقات أنهما اشتركا في الجريمة من أجل سرقة المال الذي كان مع (السلاموني)،في هذه الأثناء يغادر الشيخ (محمد أحمد حسب الله) القرية بعد خروجه من السجن من أجل الراحة والنقاهة، ثم يعود بعد ذلك ليجمع الناس في المسجد ليحثهم على ضرورة شكر الآنسة (براعم) ابنة (الربايعية) الأصيلة الشريفة لما قدمته من جهود جبارة من أجل إنقاذ أهل القرية وحمايتهم، وقد اتفق الحضور على تقديم هدية قيمة وكانت الهدية متمثلة في (المصحف الشريف) ، وقد تسلمته براعم وهي مفعمة بالسعادة والفرحة حيث "سالت الدموع على خديها... وكادت تسقط انفعالا... ثم تناولت المصحف...وأخذت تقبله...وتبلله بالدموع في عشق نوراني..."([1]).

أما الشيخ محمد أحمد حسب الله فقد سعد بهذا اللقاء، وقد وجدت أمه الفرصة مواتية لتعيد عليه موضوع الزواج من (براعم) إلا أنه رفض كما فعل من قبل لما يراه من فروق بينهما، وقد حرص الشيخ (أبو المجد شاهين) على إسقاط هذه الفوارق ويبين له بأنه كفء لها بما يمتاز من مكانة مرموقة عند أهل القرية.

كانت براعم في هذه الآونة تراجع ما آلت إليها حياتها، فقد أخذت تستعرض أحوال من تقدموا إليها لخطبتها ولماذا رفضتهم، ثم غادرت الفراش وصلت الفجر، ثم ركبت عربتها وأخذت تتجول في مزارع العنب.. حيث وجدت كوخا ولما اقتربت منه وجدت فيه أبا المجد شاهين يقرأ القرآن، فجلست إليه تشكو إليه ما تعانيه من قلق نفسي واكتئاب فنصحها بالزواج، وقد أفصحت من خلال حديثها عن مواصفات من ستختاره زوجا ، حيث قالت بأنها تريده أن" يكون بصيرا بأمور دينه ودنياه، صحيح النفس والبدن..."([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص 143 .

2/ المصدر نفسه ، 164 .

كانت تلك المواصفات تنطبق على الشيخ (محمد أحمد حسب الله) وقد صارح الشيخ (أبو المجد شاهين) الشيخ (محمد أحمد حسب الله) برغبته في تزويجه ببراعم إلا أن محمد حسب الله اعترض على ذلك بسبب ما يراه دائما من فوارق بينهما فيؤكد له أبو المجد انعدام تلك الفوارق حيث يقول له " أنت مخطئ يا ولدي...التكافؤ موجود، مخطئ إذا ظننت أن التكافؤ بالمال... وأنت الثريا بفضلك وعلمك...وهي الثريا بأخلاقها وسيرتها الحسنة وحسنها النقي..."([1]).

وتنتهي أحداث الرواية بزواج الشيخ (محمد أحمد حسب الله) من (براعم) ويعقد قرانها الشيخ الزاهد أبو المجد شاهين في جو من الفرحة على الرغم من معارضة أخوال براعم لهذا الزواج لأنهم لا يريدونها أن تتزوج من غريب...

من خلال تلك الأحداث تبرز عدة شخصيات في هذه الرواية والتي لعبت أدوارها المؤثرة في بناء الرواية ومن تلك الشخصيات نجد (الآنسة براعم) الملقبة بـ (ملكة العنب). فقد كانت بطلة الرواية بلا منازع وقد كان ظهورها واضحا في عموم الرواية، ثم تأتي شخصية (محمد حسب الله) وهي الشخصية الرئيسية الثانية بعد براعم والذي يلقبه أهل القرية بـ (الرجل الصالح) وهناك شخصيات ثانوية منها العمدة (عبد الشافي وهدان) و(أبو المجد شاهين) الشيخ الزاهد. و(ضابط الشرطة) و(أحمد علام) رئيس المجلس المحلي، و(المحامي الكبير) و(سعاد الدباح) البرلمانية. و(مصطفى السلاموني) والراعي (كشكل) واللص(عوض العوضي) و(مسعدة) أم (حسب الله) و(محاسن) زوجة (السلاموني) وغيرهم من الشخوص الأخرى.

ويهمنا من كل هذه الشخصيات شخصية (براعم) التي هي موضوع دراستنا. فكيف رسمها الكيلاني، كيف كانت ملامحها الداخلية والخارجية؟ هل كانت شخصية نامية متطورة أم لم تكن كذلك؟ فهل استطاع الكيلاني أن يجعل (براعم) ملكة العنب تشبه

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ،ص 172 .

(بلقيس) ملكة سبإ من حيث حبها للخير لأهلها؟ هل هي عادلة منصفة، محبة للسلام تنبذ العنف وإراقة الدماء؟ هل كانت براعم مثل بلقيس في الجمال والجاه والمال؟

إن شخصية (براعم) هي الشخصية الرئيسية في رواية (ملكة العنب) ،فهي بطلة الرواية لأنها كانت الشخصية المحورية التي تدور حولها باقي الشخصيات، فقد قدمها الكاتب في صورة الإنسان النموذج الذي يمتاز بالإيجابية والنزوع إلى الخير والعمل من أجل مصلحة الجماعة .

على الرغم من أن (براعم) امرأة " لم تتلق من التعليم إلا الإعدادية إنها شجاعة وذكية ومغامرة، حين مات أبوها خرجت إلى الحقل تزرع وتحصد، كانت أمها معتلة الصحة، وكان لها أختان صغيرتان، وكانت أول من أدخل زراعة العنب في القرية على نطاق واسع، فقد نقلت ذلك عن أخوالها في قرية مجاورة اسمها (شنراق) التي أصبحت لديها خبرة كبيرة في ذلك، بعد أن تحول كل سكانها إلى ذلك... بدأت بزراعة أفدنتها الأربعة التي تركها أبوها، وبعد أن نجحت أخذت في استئجار المزيد من الأفدنة بأثمان مغرية، حتى أصبح اليوم ما تزرعه يزيد عن ثلاثين فدانا... وكان من الطبيعي أن تتزعم ما يمكن أن يسمى (نقابة زراع العنب) فهي التي تختار المبيدات الحشرية والأسمدة المناسبة وهي التي تحدد مواعيد الحصاد، وتتفاهم مع كبار التجار للحصول على أعلى سعر، ومن هنا أطلقوا عليها (ملكة العنب) " ([1]).

إن براعم لم تحظ بحظ وافر من التعليم ومع ذلك فقد تمكنت من أن تكون (ملكة العنب) كما يلقبها أهل القرية ربما بسبب ذكائها وشجاعتها ومغامرتها فلم تكتف بأن تكون امرأة مزارعة تقوم بأعمال الزراعة وتأخذ أجرها مثلما تفعل كثير من نسوة القرية دون أن يملكن الأرض...

أمّا براعم فقد هيأ لها الكيلاني الظروف الاجتماعية فهي ولية أمر نفسها تدير شؤون أسرتها المتكونة من النساء بما وضع بين يديها من ملكية مادية تؤهلها لتقوم بالدور

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ،ص 10 .

المنوط بها وكأن الكيلاني يريد أن يبين من خلال (براعم) أن المرأة تصلح للقيام بدورها الاقتصادي في الإنتاج والتوزيع ودورها الاجتماعي في حل المشكلات التي تطرأ على مجتمعها إذا ما سمحت لها الظروف بذلك.

ويكون الكيلاني من خلال هذا الطرح قد " أجاب على التساؤلات والادعاءات والاتهامات التي كانت تدور حول دور المرأة وحول موقف الإسلام منها، فكثيرون يتصورون خروج المرأة إلى العمل خطرا على المجتمع وتهديدا لكيانها الأخلاقي والأسري، وكثيرون أيضا كانوا ينظرون إلى الإسلام كعامل مناهض لحقوق المرأة من تعليم وعمل وحركة فعالة في المجتمع. المرأة في ملكة العنب نجحت في أعمال الزراعة والاقتصاد والسياسة، وترؤس الأسرة وفعل الخير من خلال الأعمال التطوعية، وكل ذلك دون أن تتسبب بالأذى لنفسها أو لمن حولها" ([1]).

وقد رسم الكاتب البعد الاجتماعي لهذه الشخصية من خلال عدة مشاهد منها ما ورد في قوله :"كان لبراعم عربة صغيرة أنيقة يجرها حصان، كما كانت لها سيارة تقودها بنفسها أو يقودها سائقها الخاص، وتختار إحدى الوسيلتين – العربة أو السيارة- حسبما يروق لها، وهي تمر يوميا على حقول العنب، وتتفقد كل شيء بنفسها"([2]).

فمظهرها هذا يوحي بأنها من الطبقة الغنية في تلك القرية، فهي ملكة العنب ذات الكلمة المسموعة والنفوذ الواسع ذلك ما تقوله عنها (مسعدة) أم محمد أحمد حسب الله " ليس في البلد كلها من يجرؤ على مخالفتها، عمدة البلدة يطأطئ لها رأسه،.. المجلس المحلي وضابط نقطة الشرطة ينحني أمامها احتراما...ثم إنها صاحبة أفضال على الجميع لقد بنت المسجد ... ورممت المدرسة وصانتها من الانهيار... وفتحت أبواب الرزق أمام الكثيرين..."([3]).

1/ الخوالدة ، سميرة فياض :" المرأة في روايات نجيب الكيلاني " ،ص 90 .

2/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ،ص 34 .

3/ المصدر نفسه ،ص 10 .

فبراعم تقوم بمشاريع خيرية لمساعدة الفقراء من فلاحي قريتها وتبذل كل جهودها في التفاعل مع المجتمع ومشاركة الناس أفراحهم وأحزانهم حتى غدت رمزا للأصالة و النخوة والشهامة لذلك فإن : "كل رجال القرية و أطفالها ونسائها يعرفون براعم ويحبونها" ([1]).

ولم يهمل نجيب الكيلاني الملامح الجسدية لهذه الشخصية فها هو يصفها لنا من خلال الشيخ محمد أحمد حسب الله " لقد لف يده في جزء من جلبابه، وصافحها حين مدت يدها، لكنه شعر بقشعريرة فهو لا يصافح النساء... جلست قبالته على مقعد خشبي متواضع. كانت تلف رأسها وعنقها بشال أسود رقيق، اختلس نظرة ثم خفض عينيه ليستعيد صورتها الفاتنة، الوجه النظر المشرق بالحيوية والشباب والسمرة الخفيفة، والعينين المكحولتين الواسعتين، الرموش الطويلة، والنظرات التي توحي بالقوة والثقة بالنفس والرغبة في المجابهة، وذلك الفم الدقيق " ([2]).

إن جمال (براعم) قد أورثها ثقة بالنفس ورغبة في المجابهة فللجمال سلطان على النفوس والعقول يفرض احترامه على الجميع دون تمييز ومع ذلك فإن براعم لم تكن مستهترة ولا مغترة بجمالها واعية متخلقة " لم يعرف عنها قط ما يشين سلوكها، الكثيرون حاولوا خطبتها وقدموا العديد من الإغراءات لكنها كانت ترفض الزواج بدون إبداء سبب"([3]). والحقيقة أن براعم لديها أسبابها لرفض الزواج وأولها إحساسها بالمسؤولية تجاه أسرتها، تجاه أمها العليلة وأختيها الصغيرتين.

وقد صورها لنا الكاتب في صورة امرأة تحترم المنظومة الأخلاقية الاجتماعية منذ الصغر والدليل على ذلك ما رواه الكاتب عنها حينما كانت في سن الثلاثة عشرة فقد أحبها المدرس الذي يقدم لها الدروس الخصوصية بالمجان لكنه عندما تجاوز حدود الأخلاق والأدب شكته إلى والدها الذي أوشك على قتله "وبراعم تتذكر حادثا صغيرا مضى منذ

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص 11 .

2/ المصدر نفسه، ص ص7 ـ 8 .

3/ المصدر نفسه ، ص 11 .

سنوات...مدرس غريب عن القرية كان مفتونا بتلميذته، ويعطيها الدروس الخصوصية بالمجان...كانت في الثالثة عشرة من عمرها....لم تكن تعرف شيئا. نظر إليها طويلا أثناء الدرس ...بدا عليه الذهول ثم تلطف بها، واختلس قبلة ... كشرت عن أنيابها... هي تعرف أن القبلة عيب وحرام.. يومها جرت ...وأخذت تجري وتلهث ...وأخبرت أباها بما جرى...استشاط الأب غضبا وحمل مسدسه وهرول مرتجفا إلى بيت المدرس الأعزب، وكانت براعم ممسكة بيده اليسرى تشهد ما يجري...صوب المسدس إليه و قال بحزم :

- إما أن ترحل عن بلدنا أو أقتلك؟

- لقد أحببتها وكنت أنوي طلب يدها...

صرخ أبوها يومها:

- إنها الخيانة.

طأطأ المدرس رأسه دامع العينين وقال:

- أمهلني يوما واحدا ولن تراني بعد ذلك....."([1])

إن براعم تربت في أسرة تقدس العفة والشرف و الأمانة لذلك درجت على هذه الأخلاق متمسكة بما توارثته عن عائلتها من قيم وتربية مما جعلها تظل طوال سنين نضجها ومراهقتها محافظة على نفسها وسمعتها حتى عندما توفي والدها ومرض والدتها حيث أصبحت حرة في تصرفاتها و مع ذلك لم يتغير سلوكها فقد رفضت الزواج –كما قلت- بسبب تمسكها بأسرتها ورغبتها في تربية أختيها الصغيرتين...

وبراعم امرأة تحسن معاملة الجميع، تعطف على المزارعين بأرضها، وعلى عامة الفلاحين من أبناء قريتها، لذلك نجدها عندما اتهم اللص (عوض العوضي) بسرقة العنب من مزارعها. وعلمت بأنه لم يكن الفاعل وأن السلطات قبضت عليه لأنه مجرم معروف، بعثت (براعم) في طلبه لأنها علمت أنه ناقم عليها ظنا منه بأنها شكته إلى السلطات " وحينما جاءها قابلته بابتسامة حلوة وهمست:

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ،ص ص 20ـ 21 .

- هل أنت غاضب مني ؟؟

رفع جلبابه في حركة سريعة، وأراها أثار الضرب على ظهره وقال في حدة:

- من المسؤول عن ذلك؟

- المسؤول عنه هو الذي فعله يا عوض.

- أنت التي حرضت العمدة.

- مجرد شكوى رسمية، ولم أطلب منه أن يقبض عليك أو أن يضربك.

- دائما أنا كبش الفداء. - وما ذنبي أنا ؟

- فعل العمدة ذلك لإرضائك.

- اخص عليك.

كانت الأشعة السحرية الآسرة تفيض من عينيها الجميلتين فتحمله على أجنحة من الخيال إلى آفاق شجية، استسلم كالقط الوديع، وأرخى عينيه وانفجرت أسارير وجهه وقال :

- كل شيء من أجلك يهون يا بنت الناس الطيبين.

- صافية لبن.

- اختطف يدها وقبلها قائلا :

- أنا ما كرهتك أبدا، ولا سرقت حبة عنب واحدة من أرضك .

تنهدت في ارتياح وأخرجت من حقيبة يدها عشرين جنيها ومدت يدها قائلة :

- خذ لتشتري لحمة (عاشوراء).

ظل ساكتا وقال :

- تكفيني كلماتك يا أصيلة...لا أنكر أني مشاغب وحرامي، لكنك لست ممن أسرقهم...أنا أفديك بعمري دون مقابل...

قالت بحزم :

- خذ .

نظر إلى وجهها وعينيها، ولم يستطع المقاومة وتناول الجنيهات العشرين ثم رفعها إلى فمه وقبلها بخشوع وقال :

- مقبولة منك سآخذها بركة...ولن أصرفها ما حييت...وكيف أفرط في هديتك؟؟ عندئذ أكون فعلا نذلا خسيسا.

ابتسمت له قائلة :

- أنت طيب القلب.

- في الدنيا ظلم كثير وأنا أكره الظلم.

- لكنك يا عوض .

قاطعها قائلا:

- مشاغب وحرامي...أعرف...أنا لست جمادا.. أحس وأشعر.

لذلك لا بد أن أنتقم...كيف أنسى ضرب الأحذية على رأسي والسياط على جسدي ... الجائع يسرق... والمظلوم يصرخ... ويفعل أي شيء.

- سأبحث لك عن عمل عندي.

- أتثقين في لص؟؟

- لقد وعدت.

غمرت وجهه السعادة وقال:

- كلام الملوك لا يرد

- هون عليك فأنا فلاحة بنت فلاح...أنا منك و أنتم مني

انهمرت الدموع من عينيه فجأة

اختطف يدها وأخذ يقبلها ويبللها بالدموع "([1])

لقد سعى الكيلاني من خلال هذا الحوار المطول والمؤثر لأنه مفعم بالانفعالات، إلى توضيح عدة مسائل أهمها:

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ،ص ص 35 - 37 .

- ضرورة الدعوة إلى الخير بالحكمة والموعظة الحسنة.
- الخير موجود حتى عند النفوس التي سيطر عليها الشيطان وأغواها.
- باب التوبة مفتوح للجميع بما في ذلك أعتى المجرمين من أمثال (عوض العوضي).
- ليس كل الأغنياء عديمي الرحمة وقاسية قلوبهم.
- ضرورة وجود التكافل الاجتماعي بين فقراء القرية وأغنيائها وهي قيمة إسلامية تمثل العطف والرحمة التي يمكن من خلالها إعادة النفوس إلى فطرتها الأصيل والعودة إلى الاستقامة بتوفر الأسباب، فعوض عندما وجد عملا عند براعم تغيرت حاله من الضلالة إلى الهدى وأصبح بعد ذلك من أخلص المخلصين لها.

ويكشف هذا الحوار عن ملامح شخصية (براعم) فهي امرأة تأبى أن يتأذى إنسان بسببها حتى وإن كان ذلك الإنسان لصا من حثالة المجتمع. وقدرتها على احتواء الأخريين و استيعابهم بيسر وسهولة. وقوة تأثيرها على الآخرين وتغيير سلوكاتهم وأرائهم. وآخر ملمح نستشفه أيضا هو كرمها وسخاؤها وبذلها المال في سبيل تقويم سلوكات المجرمين.

كذلك فإن شخصية (براعم) تبدو إيجابية في التعامل مع أحداث مجتمعها معبرة بسلوكها الاجتماعي عن الأصالة والنخوة والشهامة التي كثيرا ما يتحلّى بها الرجال وحدهم، فعندما اعتقلت السلطات ما يزيد عن أربعين شابا من الذين شيعوا جنازة الشاب الذي قتل في العراق والتي تحولت إلى مظاهرات ضد السلطة، لم تبق هذه الفتاة منزوية ولم تقف ساكتة، ولم تخشى من حالة الفوضى والخوف التي تسود القضية .

وذهبت إلى المدينة وحدها معرضة نفسها إلى الخطر لتوكيل محامي يدافع عن الموقوفين الذين كان من بينهم الشيخ (محمد أحمد حسب الله) والرجل الزاهد (أبو المجد شاهين) " ووضعت في يده بضع آلاف من الجنيهات قائلة: - تحت الحساب...و اختر ما شئت من إخوانك المحامين، ولا بد أن تبذلوا أقصى جهودكم للإفراج عنهم وخاصة الشيخ محمد أحمد حسب الله"([1]).

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ،ص 45 .

ولم تكتف براعم بما قامت به من توكيل لبعض المحامين بل قررت تقديم إعانات لبعض أسر المعتقلين، وقالت لبعض من تثق فيهم من رجالها: "- لايصح أن نقف متفرجين. -وماذا بأيدينا أن نفعل -أي شيء يا عباس" ([1]).

ولما أخبرها أخوها بأن (مسعدة) أم محمد حسب الله ذهبت لزيارة ابنها في السجن فضربوها وطردوها وهي الآن تبكي وتضع الطين على رأسها. فلم تتوانى براعم عن زيارة مسعدة وتقديم المواساة والعون. كما أنها لم تنس زيارة إخوة (عوض العوضي).

ولم تهمل القضية الأساس وهي إطلاق سراح المعتقلين لذلك فقد قصدت براعم المدينة في اليوم الموالي لزيارة المحافظ حيث " استقبلها المحافظ بترحاب كصديقة قديمة، وتدارس معها قضية الرباعية من شتى أطرافها وكشفت له عن الكثير من الملابسات والمخالفات الخطيرة، وكان المحافظ يستمع إليها وهو يبدي دهشة واشمئزاز لما يجري، ثم قطعت الحديث وقدمت له شيكا بمبلغ ثلاثين ألف جنيه تبرعا للمشاريع الخيرية التي تقوم المحافظة بإنشائها ، وتناول المحافظ الشيك بالامتنان الواجب، وأثنى على وطنيتها وشهامتها ونبلها، بل وجمالها ثم اجتاحته موجة من الحماس وقال: سأكلم وزير الداخلية بنفسي"([2]).

وفعلا كلم المحافظ وزير الداخلية ولكن المكالمة لم تأتي بثمارها إلا بعض الوعود التي مفادها أن التحقيق سيتم بنزاهة وأنه سينتهي في غضون أيام، وأن الوزير وعد خيرا وأنه سيتم الإفراج عمن لا تثبت إدانته بعد انتهاء التحقيق...

ذلك ما جعل براعم تتذكر أن هناك نائبة في مجلس الشعب لها تأثير واسع ولها نفوذ كبير، فاحتجزت موعدا معها، وعندما التقت بها براعم على انفراد قالت لها: " سمعت عنك الكثير يا ملكة العنب. ثم ضحكت قائلة:

- أنت جميلة جدا يا براعم ؟؟ حتى النساء يصعقن أمام جمالك الفاتن، لست أدري لماذا لم تتزوجي حتى الآن؟ اسمك كالطبل على المحافظة.

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص 84 .

2/ المصدر نفسه، ص ص 87 ـ 88 .

وقالت النائبة المحترمة (سعاد الدباح) :

- عندي فكرة كاملة عن مظاهرة الربايعية.. كان المفروض أن تقصديني منذ البداية... (الطناحي) لن يستطيع أن يفعل شيئا، والمحامون الموكلون لا خبرة لهم بالقضايا السياسية..."([1]).

وقد دار حوار طويل بين (براعم) والنائبة (سعاد الدباح) حول قضية الربايعية تبين من خلاله أن براعم تحظى بسمعة واسعة وصيت حسن في المحافظة وفي جميع الأوساط السياسية والحكومية فكل الجهات التنفيذية في القرية والمراكز والمدن والقرى التابعة لمحافظتها يدينون لها بالولاء وتحوز على رضاهم ولها تأثير جيد في نفوسهم.

وفي النهاية أكدت لها النائبة سعاد الدباح بأن" قضية الربايعية قضية سياسية بالدرجة الأولى، والسفير العراقي احتج على ما يجري، والحكومة متضايقة وتريد أن ترد اعتبارها، وترضي العراق...فنحن والعراق أعضاء في مجلس التعادل العربي...عموما القضية غير عادية وتحتاج إلى جهد غير عادي ومصاريف و إجراءات وتحركات...بصراحة أحتاج خمسة عشر ألف جنيه..

- ويفرجون عنهم.

- بالتأكيد

- وبسرعة ؟

- إن كلمتي واحدة نحن لا نلعب.

قرأت الأستاذة سعاد الدباح الشيك (كان أبوها أكبر جزار في المدينة ويحسن التفاهم بالسكين)، ثم ابتسمت في ثقة (وكانت جميلة رغم بدانتها)، ثم قالت:

ـ الليلة سأكون مع المتهمين، وسأزف لك البشرى في التليفون" ([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ،ص 91 .

2/ المصدر نفسه ،ص 93 .

وفعلا تتصل النائبة (سعاد الدباح) ببراعم وتؤكد لها بأن المعتقلين سوف يفرج عنهم بعد إتمام بعض الإجراءات الروتينية وسيطلق سراحهم بعدها اليوم ، وأخبرتها بأنها ستزور القرية لمشاركة أهلها فرحتهم، وقد تبنت براعم كل مراسيم الحفل وقام رجالها بإجراء الترتيبات اللازمة لاستقبال المفرج عنهم وأخبرت أهل القرية أن الباب مفتوح لأهل القرية جميعا ليشاركوا في الأفراح.

وحين وصل موكب المفرج عنهم كانت النائبة (سعاد الدباح) تتقدمه في موكبها الرسمي وأقيمت الأفراح وخطبت النائبة خطبة مطولة كان منها ما ذكرته في شأن براعم حيث قالت: " أما صاحبة الفضل الأكبر في حل هذه المشكلة فهي الآنسة الحاجة الأستاذة براعم ملكة العنب. ثم أمسكت بيد براعم ورفعتها إلى الأعلى حتى المنصة، ثم صفقت بحرارة، وأخذ الحضور يصفقون معها تحية لبراعم التي اعتراها الخجل الممزوج بالخوف الغامض فقاومت الصعود إلى المنصة وبقيت في مكانها متشبثة بمقعدها، مما جعل سعاد الدباح تعلق قائلة:

- هكذا يكون إنكار الذات...ولقد تمنيت أن تكون براعم زميلة لي في مجلس الشعب... وفي الحزب لأنها خير من يمثل آمالكم ومصالحكم" ([1]).

وبهذا لم تكن براعم ملكة العنب فحسب بل كانت ملكة قرية الربايعية كما كانت بلقيس ملكة سبأ، جميلة إلى حد الفتنة لكنها حيية محتشمة تتقيد بقيم ومبادئ المجتمع القروي ولا تخرج عنها. عنيدة إلى حد ما ولكنها لا تقطع أمرا حتى تستشير أهل الرأي والخبرة " فقد كان في براعم عيب أساسي هو رأسها الصلب. فإذا رأت رأيا أصرت عليه ، ودافعت عنه في استماتة وتأبى التنازل مهما كان الثمن، وذلك لا يتفق وطبيعتها التجارية، حيث إن التجارة حيث تحتاج إلى الكثير من المرونة والكياسة، لكنها والحق

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ،ص 118 .

يقال لا تتخذ قرارا إلى بعد فحصه وتقليبه على كافة الوجوه، والتشاور مع من تثق فيهم بشأنه وترى ذلك قمة الديمقراطية.." ([1]).

وهي أيضا متسامحة تغفر الزلة، وتعود عن الخطأ، إذا ما تبين لها الحق فتتبعه عن قناعة وعلم، فقد كانت بينها وبين الشيخ محمد أحمد حسب الله خصومة بسبب زيادة زكاة العنب، لكنها حينما اقتنعت بأن الشيخ لم يقصدها هي بذاتها في خطبته وأنه أوضح شرع الله بغض النظر عن ملاك العنب. اقتنعت بكلامه واختارت الشيخ أبو المجد شاهين ليكون على رأس اللجنة التي تهتم بجمع الزكاة وتوزيعها على فقراء الربايعية لإنهاء خصومتها مع الشيخ محمد أحمد حسب الله " جاءته براعم في الصباح على غير موعد، أرادت أن تصافحه، وتقبل يده، فلفَّ يده في ردائه، ثم جلست وقالت:

- لقد اخترناك.

- الخيرة فيما اختاره الله .

- أنت أطهر القلوب في قريتنا .

- استعاذ بالله واستغفره وتمتم:

- أحثوا في وجود المادحين التراب.

- أنا لا أمدحك لغرض دنيوي...لكن ألسنة الخلق أقلام الحق...

- غلبتني امرأة.

صمت برهة ثم قال:

- لأية مهمة اخترتموني ؟ ؟ ؟

ـ لكي تقوم بنفسك- نيابة عني- بتوزيع زكاة العنب .

أشرق وجهه بالفرحة الغامرة وقال :

ـ البركة تدخل قريتنا"([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، 18 .

2/ المصدر نفسه ، ص 109 .

وقد هز هذا الصنيع الشيخ محمد أحمد حسب الله، فلم يجحد صنيعها فيه وفي إخوته المعتقلين من أهل القرية لذلك " وقف الشيخ محمد حسب الله في المسجد بعد صلاة الجمعة، وَرَجَا الحاضرين أن ينتظروا بضع دقائق ويستمعوا له، وكان المصلون بظنون أنه سوف يتناول مسألة فقهية كدأبه دائما بالشرح والتوجيه، ودهش الناس، أخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض حينما قال: أحدثكم اليوم عن ابنة الربايعية الشريفة العفيفة...الخيرة... النيرة : الآنسة براعم. تساءل الناس ما الحكاية، وهل يليق في المسجد أن يقال هذا الكلام؟ إن المسجد جعل للصلاة والعبادة وعلوم الدين، أما مدح النساء هنا فهو أمر مستنكر... وتحدث الشيخ محمد أحمد حسب الله طويلا عن الأحاديث التي وردت في الإحسان وجزائه في الآخرة، وعن حُبُّ الناس والتفاني في خدمتهم إرضاء لله ... ثم كشف ولأول مرة الدور البطولي الذي قامت به براعم تفصيليا لدى المحافظ، وفي أمن الدولة، والقيام بالكثير من الجهود والتضحيات حتى يفرج عن أبناء الربايعية، ثُمَّ مشروع زكاة العنب الذي كونت له لجنة من أفاضل الناس"([1]) .

وأخبرهم كيف أنها زارت والدته وواستها أثناء سجنه، وأنها زارت بيت عوض العوضي ورتبت مبلغا شهريا لأبناء مصطفى السلاموني، وأنها تنفق على بعض الطلبة الفقراء لمواصلة تعليمهم. ليخلص في النهاية إلى أن هذه الأعمال هي التي تعبر عن الإسلام الحقيقي، ثم اقترح عليهم أن يذهبوا جميعا إلى بيت براعم ليعبروا لها عن حبهم وامتنانهم وليقدموا إليها هدية تمثلت في مصحف ثمين كان يحمله الشيخ حسب الله في يده.

وحينما وصلوا إلى بيتها خرجت لهم في زَيِّهَا محتشمة، فتقدم الشيخ محمد أحمد حسب الله الحشود وخطب أمام بيتها مبينا شجاعتها وتعاونها مع أهل قريتها إلى أن يقول :" باسم كل رجل ....وكل امرأة ... وكل طفل في قرية الربايعية أقدم لك الشكر والعرفان... وتقبلي منا هذه الهدية العظيمة رمزا لتقديرنا ومحبتنا... إنه كتاب الله هدية

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص ص 140 ـ 141 .

السماء إلى الأرض...إننا لم نشأ أن نحضر لك هدية من الأرض. فأتينا بهدية من السماء.."([1]).

وقد كان لذلك الكلام وقع مؤثر في نفسيتها حيث " سالت الدموع على خديها... وكادت تسقط انفعالا .. ثم تناولت المصحف...وأخذت تقبله، وتبلله بالدموع في عشق نوراني..." ([2]).وأخذ الشيخ أبو المجد شاهين يدعو لها جهرا والناس يرددون من بعده ويؤمنون على دعائه.

فقد حاول الكيلاني من خلال هذا اللقاء أن يؤكد على مكانة براعم في هذا المجتمع الذي أعطته كل ما تملك من جهد ومال وجاه فقد طار خبرها في الآفاق وسرى بين القرى والكفور وقد أثنى المحافظ على عملها وَعَدَّهُ من المبادرات الشخصية التي تستحق التشجيع، وتهاطلت عليها البعثات التلفزيونية والإذاعية والصحف تريد إقامة برامج وحوارات معها، إلا أنها رفضت كل ذلك لأنها وببساطة أرادت ما فعلته لوجه الله تعالى فحسب...

وقد عقب الكيلاني على هذا اللقاء بكلام يوحي بأن براعم رغم كل ما تتمتع به من مال وجمال وجاه وسلطان تبدو عليها أحيانا علامات الحزن والكآبة، فهي ترى " أن كل شيء في حياتها يمضي على ما يرام، وحسبما تشتهي، إنتاجها الزراعي يتنامى ويتحسن، وأسعاره مربحة، وصحتها والحمد لله ممتازة...وأسرتها الصغيرة في وضع لا بأس به، وتستمتع باستقرار عائلي، ثم إنها تؤدي رسالتها الإنسانية والاجتماعية على خير ما يرام، ومن أهم الأمور التي تسعد قلبها رضا الناس عنها... وإرضاء الناس جميعا غاية لا تدرك. إن الحياة السعيدة المكتملة الأركان حلم من الأحلام، وقد خلق الله الحياة بحيث يشوبها شيء من النقص أو المنغصات، والكمال لله وحده.

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص 143 .

2/ المصدر نفسه ، ص ن .

- ما الذي يقلق براعم إذن؟؟ إن النوم يجافي عينيها أحيانا، وهي تشعر أن بعقلها الباطن رغبات سجينة، وحدها تدرك ذلك، لكنها تكتبها بقوة، لقد تعلمت الكبت والكتمان منذ الصغر..أصبح الكبت والكتمان عادة، لكنهما خَلَّفاَ وراءهما شيئا من الحزن الغامض الذي تحاول التغلب عليه بالابتسام وبالانهماك في العمل"([1]).

نستشف من هذا التعليق أن الكيلاني يخبرنا بأن براعم تعاني الكبت والكتمان والحزن الغامض بسبب عدم زواجها، فقد تقدم إليها عدد كبير من الرجال من مختلف الشرائح الاجتماعية لكنها كانت ترفضهم جميعا للأسباب التي ذكرتها سابقا.

إلا أن براعم ومن خلال ما كان يدور بينها وبين صويحباتها من حديث وسمر كانت تلمح برغبتها في الزواج من الشيخ محمد أحمد حسب الله، فقد اعتبرت خطبته في المسجد أعظم رسالة حب يتقدم بها إليها رجل من الرجال فها هي تقول:

" أتدرين ما هي أعظم رسالة حب تلقيتها في حياتي؟

رددن بأصوات متلهفة، وعيون شرهة:

- أين هي؟؟-رسالة غير مكتوبة.

- شفوية .

هزت كتفيها وقالت:

- أنتن تعرفن .

أخذن يتبادلن النظرات بين بعضهن البعض ويتساءلن دون أن يعرفن شيئا محددا، فضربت كفا بكف، وقالت إحداهن بلسانهن:

- بصراحة نحن لا نعرف .

- بل تعرفن .

- قولي، فقد ازداد شوقنا.

تنهدت ووجهها يشرق بالفرح:

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص 157 .

- رسالة سمعها ورآها الناس جميعا في القرية...هل نسيتم يوم أن وقف محمد حسب الله في المسجد يعلن على الملأ تقديره و إعجابه بي ، كان يتحدث من قلبه، وخرج من المسجد على رأس الجموع قاصدا بيتي... رافعا بيمينه أعظم هدية تلقيتها في حياتي...كتاب الله...

وهامت في أنحاء الغرفة وهي تضع المصحف على صدرها وتقول:

-كان ذلك أعظم رسالة حب.

صاحت إحداهن:

- يا ربي .. مستحيل أن تتزوجيه.

- لم أتحدث عن الزواج، ولكن عن رسالة الغرام.

صمتت برهة ثم قالت:

ـ قد يكون فقيرا متواضعا لا يملك إلا راتبه الشهري، لكن قلبه كنز وعقله كنز و أخلاقه جواهر"([1]).

فقد كانت براعم تحترم الشيخ محمد حسب الله وتقدره لعلمه وذكائه وكبريائه، فلم تر منه طوال حياته ما يشين أو ما يزري بالرجل الصالح فكل شيء هين لديه إلا دينه وكرامته وهو صاحب كلمة حق يقولها بصراحة ويحكم في قضايا الناس العامة بما يرضي الله، وهو فوق كل ذلك يجنح إلى السلام ويتحاشى الصدام.

كذلك كانت براعم تبتعد عن الخصومات والنزاعات وتجنح إلى السلام ولا تميل إلى العنف والدماء، شأنها في ذلك شأن بلقيس، لقد كانت " تستبشع القتل، وتكره إراقة الدماء، وهي تحقق الكثير من الأرباح في جو الأمان والسلام، وليس لديها أدنى استعداد لأن تكون مليشيات عسكرية شأن أضرابها من أثرياء الريف وترجو من الله ألا تلجئها الأيام لفعل ذلك لأنه يفتح بابا للخطر الجسيم، ومن هنا كان حرصها على التفاهم والتعاون وحل مختلف المشكلات التي تعترضها حلا سلميا ....."([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص ص168ـ 169 .

2/ المصدر نفسه ، ص 34 .

فقد كان ثمة توافق نفسي بين براعم كامرأة محبة للخير والسلام والشيخ حسب الله الرجل العالم المحب للأمن والسلام أيضا، لذلك عندما حدثها الشيخ أبو المجد شاهين وعرض عليها أن تتزوج لتكمل دينها، وخيرها وكانت ترفض كل من اختارهم لها إلا أنه عرف منها أنها ترغب في أن تتزوج ممن يجمع الدين والشباب، فعرض عليها الزواج ممن يتوفر فيه ذلك، وهو الشيخ محمد أحمد حسب الله، فلم تجبه ولكن هرولت إلى عربتها، فضحك الشيخ وأيقن أنها تريد الزواج من محمد حسب الله، فدعا لها بالتوفيق.

ثم سعى الشيخ أبو المجد شاهين في ذلك، واقترح على الشيخ محمد حسب الله الزواج من براعم، وقد وقف أخوالها في وجه هذا الزواج لأنهم يرون أن من واجبها الزواج من ابن خالها من قرية (شنراق) المجاورة. ووقع بسبب ذلك خصام وجفوة بين القريتين حتى أن براعم أرادت التنازل عن الزواج من الشيخ حسب الله نزولا عند رغبة أخوالها وحفاظا على السلم والأمن بين القريتين، لكن الشيخ أبو المجد شاهين أخبرها بأن ذلك ظلم وباطل أن تتزوج مكرهة من ابن خالها، لذلك ساند أهل القرية عائلة الشيخ حسب الله لأنها كانت فقيرة ووقفوا معها حتى تم عقد الزواج بين براعم ومحمد حسب الله وقد تولى الشيخ أبو المجد شاهين عقد القران بعد أن انتشر رجال براعم في حراسة المكان كله، ومع ذلك حاول بعض المتسللين من شبان قرية أخوالها إحداث الفتنة إلا أنهم وقعوا في أيدي الحراس الذين اقتادوهم إلى دوار العمدة، في حين تمت مراسيم الزواج في فرح بهيج بعدما رحل العريسان لقضاء شهر العسل" لقد خرجوا خفية بعد أن هدأت الجفون ونامت العيون، وتركا وراءهما مسعدة وجاموستها قبيل الفجر" ([1]).

هكذا تثمر النصائح و التوجيهات والقبول بالمشورة في براعم حيث أثمرت لديها وانتهت بالزواج ممن تحب، الشيخ محمد حسب الله. كما أثمرت من قبل نصائح ودعوة سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ في بلقيس فأثمرت وانتهت بحقن دماء أهلها من جهة

01/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص 183 .

وبالدخول في الإسلام من جهة ثانية وبالزواج أخيرا من سيدنا سليمان عليه السلام ـ كما تروي بعض كتب التاريخ ـ .

وانتهت هذه الرواية بزواج براعم من الشيخ محمد أحمد حسب الله دون أن يكون بينهما سعار جنسي ولا فتنة ولا رسائل ولا مقدمات ولا صلات محرمة، إنها في النهاية صورة عن الزواج الإسلامي في اختيار المرأة للرجل والرجل للمرأة...

ونخلص إلى القول بأن براعم قد تأطر وعيها السياسي من خلال علاقتها بمجتمعها الريفي والمدني على حد سواء، فقد جبلت على الحب والسلام وعلى تعاليم الإسلام السمحة ومنه استمدت تواضعها وحب الخير للناس فعند التحقيق معها بشأن الجثة التي وجدت في حقولها نجدها تقول بكل ثقة وثبات للمحقق " أنا أكره العنف والدماء، ولم يعرف عني قط أنني خرجت على هذه المبادئ، مهما كان الأمر، فأنا متعلمة، وأخاف الله، وأستطيع أن أصل إلى هدفي بطرق أبسط كثيرا من ذلك...الكلمة الطيبة، التفاهم...ثم إنني أتفاهم مع من يسرقون بعد أن ألقنهم درسا في الأدب وأغدق عليهم ..."([1]).

كما يظهر وعيها السياسي حينما يعتقل الشيخ محمد أحمد حسب الله بتهمة الانتماء إلى حركة الإخوان المسلمين والتظاهر ضد السلطة وتحريض الشباب على ذلك، فتسارع براعم بكل ما أوتيت من قوة ونفوذ لإنقاذهم، فتتصل بالمحامي، ومحافظ الشرطة وبالنائبة سعاد الدّبّاح لتطلب معونتها في الإفراج عن المعتقلين، كما يتجلى الوعي الفكري لهذه الشخصية في اختيار الزوج حيث يتضح من خلال حوارها مع الشيخ أبي المجد شاهين أن الزوج الذي ترغب فيه يجب أن تتوافر فيه المواصفات التالية، فهو يجب :" أن يكون بصيرا بأمور دينه ودنياه، صحيح النفس والبدن. ...."([2]).

01/ الكيلاني ، نجيب : ملكة العنب ، ص 25 .

02/ المصدر نفسه ، ص ص 06 ـ 07..

الفصل الرابع
نموذج زوليخا(المرأة الغانية)

الفصل الرابع
نموذج زوليخا(المرأة الغانية)

أولا: المرأة العربية بين قهر المجتمع ومأساة البغاء

ثانيا : المرأة المنحرفة بين البغاء والخيانة الزوجية

في روايات نجيب الكيلاني

01 : نموذج البغي

أ) ـ المومس (زمردة)

في رواية (اليوم الموعود)

ب) ـ المومس (نجمة الليل)

في رواية (ليالي تركستان)

02 : نموذج الزوجة الخائنة

أ- (وهيبة)

في رواية (ليل الخطايا) :

ب – (عنايات هانم)

في رواية (ليل وقضبان) أو (ليل العبيد)

أولا: المرأة العربية بين قهر المجتمع ومأساة البغاء:

يشغل نموذج المرأة المنحرفة أو الغانية حيزا لا بأس به من الأعمال الروائية لنجيب الكيلاني باعتبار أن المرأة هي النصف الأكثر تضررا في الانقسام الطبقي أو التفاوت في المجتمع ،وقد انعكس هذا على حال المرأة التي دفعتها الظروف الاجتماعية في غالب الأحيان إلى السقوط لتجعل من جسدها بضاعة ووسيلة لتحقيق الكسب المادي بالدرجة الأولى .

وقد ناقش نجيب الكيلاني الأسباب التي تدفع المرأة إلى البغاء حيث طرح جملة من الأسئلة المهمة منها على سبيل المثال : هل الظروف الاجتماعية أو الحاجة الاقتصادية هي التي تجعل من المرأة بغيا؟ هل هي الحاجة الجنسية البحتة ؟ أم هو المجتمع الذي يدفع المرأة إلى هذا السقوط؟ أم هي الرغبة في الانتقام من الرجل ربما السبب الأول في انحراف المرأة و توجهها إلى البغاء ؟

وقد حاولت نوال السعداوي إيجاد الجواب عن تلك الأسئلة حينما صرحت بأن " البغاء معناه حدوث عملية جنسية بين رجل وامرأة، لتلبية حاجة الرجل الجنسية ولتلبية حاجة المرأة الاقتصادية، وبالرغم أن الحاجة الجنسية (في الحضارة الذكورية العامة) ليست في أهمية الحاجة الاقتصادية ، إلا أن المجتمع يعتبر حاجة المرأة الاقتصادية أقل أهمية من حاجة الرجل الجنسية ، وهذا هو الأمر دائما في حالة عدم التساوي بين الأفراد، إن حاجة الحاكم مهما كانت ثانوية فهي أهم من حاجة المحكوم مهما كانت ضرورية إن حاجة السيد إلى المتعة أو الترفيه أهم من حاجة العبد إلى الطعام أو النوم"([1]).

يبدو من هذا أن التفاوت الطبقي والحاجة الاقتصادية للمرأة هي الأسباب الدافعة إلى امتهان البغاء وأن سقوط المرأة وانحرافها لم يكن بدافع الحاجة الجنسية على الرغم من أن بعض الدراسة الحديثة في علم البيولوجيا أثبتت أنه " ليس هناك من سبب

1/ السعداوي، نوال : دراسات عن المرأة و الرجل في المجتمع العربي ، ص 285.

علمي يعطي الرجل حرية جنسية أكثر من المرأة ، بل العكس هو الصحيح كما اتضح من البحوث البيولوجية الحديثة ، التي أوضحت أن الطبيعة زودت المرأة بقدرة وحاجة بيولوجية وجنسية أشد من الرجل "([1]).

إلا أنه يبدو أن المرأة الساقطة لم تكن في جميع الأحوال تسعى وراء الكسب المادي فحسب ، بل إنها أحيانا تلهث من خلال سلوكها الانحرافي لتحقيق شيء من حريتها المنشودة والمزعومة ؛ فهي تسعى جاهدة لتجعل من الرجل عبدا لها فتكبله بحاجته الجنسية إليها ،ومن هنا تنقلب الصورة " فتصبح العلاقة الجنسية بينهما تخضع لاعتبارات لم تكن موجودة من قبل، بل إن هذه العلاقة خرجت أيضا من حدودها الطبيعية التي كانت تعتمد على مجرد الرغبة والتوافق بين الاثنين إلى حدود استحدثتها الظروف الجديدة المحيطة بكليهما "([2]).

وعموما فإن نموذج البغي في الرواية العربية تستخدم للتعبير عن القضايا الاجتماعية كالفقر والجوع والجهل، يحاول من خلاله الكاتب تعرية المجتمع وكشف ازدواجية الخطاب وزيفه والخلل الاقتصادي فيه، فالبغي لم تكن تعبيرا عن الجنس أو تصويرا لمشاهده بل هي رمزا يوظفه الكاتب توظيفا اجتماعيا بحتا لتعرية بعض الطبقات في المجتمع وبيان فساده، والروائي يحاول من خلال نموذج المومس الكشف عن زيف أناس من علية المجتمع كان المفترض أن يكونوا نموذجا للاستقامة والشرف والأمانة. فالمجتمع لا يعاقب الرجل ولا يحتقره مهما فعل، بينما سرعان ما يعاقب المرأة لأقل الأسباب" فلا يعاقب الرجل الذي يضبط مع المومس، وإنما يكون شاهدا عليها فقط، وكذلك أيضا لا يعاقب الرجل المتزوج إذا مارس الجنس مع المومسات أو العشيقات بشرط ألا يحضر عشيقته إلى بيت الزوجية (القانون المصري حتى اليوم) ... أما المرأة فهي التي تعاقب في جميع

1/ السعداوي، نوال : دراسات عن المرأة و الرجل في المجتمع العربي ، ص 285.

2/ غالي ، شكري : أزمة الجنس في القصة العربية ، د، ط ، دار النشر، القاهرة ، مصر 1971م ص 17 .

الأحوال، وفي جميع الظروف التي تدفعها الى ممارسة الجنس ، سواء كانت حاجة اقتصادية، أو حاجة جنسية ولا يسمح للمرأة بممارسة الجنس إلا مع زوجها فقط..." ([1]).

لذلك اتجهت المرأة الى البغاء بدافع نفسي بالدرجة الأولى، وهذا الدافع هو الانتقام من الرجل الذي جعلها جسدا مسلعا، وسيطر عليها اقتصاديا على مدى العصور، ذلك ما جعل نوال السعداوي ـ وهي امرأة ـ تدافع عن المرأة الى درجة أنها ترى" أن هذا القطاع من النساء اللائي أطلق عليهن (المومسات) ليس إلا إحدى الظواهر الاجتماعية للحضارة الذكورية القائمة على الأبوية وكان هؤلاء النساء التعيسات أن يكن كبش الفداء لهذه الحضارة من أجل أن تقوم وتستمر.."([2]).

وعلى هذا الأساس نرى أن الكاتب نجيب الكيلاني اهتم بهذا النمط من النساء في قصصه ورواياته ليعبر عن كل قضايا الفساد في المجتمع من خلال فساد المرأة والتي هي نواته، فسقوط المرأة إدانة لهذا المجتمع الظالم مزدوج الأخلاق الذي كثيرا ما يتسبب في سقوط هذه النماذج وفسادها . وقد بيّن الكاتب أيضا تلك النماذج الساقطة التي تحمل بين طياتها بذور خير طيبة رغم ما يبدو عليه من اللامبالاة والاستهتار واللهو ...

وهكذا تكون المرأة البغي " هي الرمز المألوف لأمنا الأرض منذ أقدم العصور وفي كافة الآداب وفي أقدم الديانات هي (عشتروت) التي كان لقبها البغي وخليلة الآلهة، وهي وجه من وجوه (إيزيس) الأم العذراء المتهمة بالزنا ، والأرض هذه البغي لأن العالم منذ القدم قال ... إنها المادة الرعناء التي أنجبت الإنسان سفاحا بلا أب محدد وأخرجت الحياة من اللاحياة وهو لغز عظيم . وقال إنها المادة الرعناء التي أنجبت المردة أو العمالقة أو بني الإنسان بالتدخل الإلهي سواء باستقبال مني إله الخلق ونظائره كما في الأديان الوثنية أو باستقبال كلمة الله (كن فيكون). فالإنسان في أديان التوحيد أصله طين من طين الأرض أو صلصال سواه الله ثم نفخ فيه من روحه أو ألقى إليه كلمته كما فعل

1/ السعداوي، نوال : دراسات عن المرأة و الرجل في المجتمع العربي (الأنثى هي الأصل)، 285 .

2/ المرجع نفسه ، ص 291 .

بآدم أبي البشر ، وتهمة النشوز أو التمرد والرعونة كرعونة المادة الرعناء ورفض الخضوع لنظام العقل تهمة لا تزال لاصقة بأمنا حواء ، بل وبكل بناتها من بعدها أكثر من لصوقها بآدم نفسه ليقين مستقر في النفوس بأن المرأة أقرب إلى الطبيعة الخام الرعناء إلى الرجل ، وحواء كما نعلم في قصة سقوط الإنسان وراء غواية أدم "([1]).

ثانيا : المرأة المنحرفة بين البغاء والخيانة الزوجية في روايات نجيب الكيلاني :

وقد تجسدت هذه الفلسفة في الأدب الروائي العربي في العصر الحديث ، ذلك أن " المرأة في أدب نجيب محفوظ (تلعب الدور الكاشف) لكل القيم إذ أنها محط دائم ونلاحظ أن المؤلف في أكثر النماذج النسائية التي أوردها في قصصه للاستغلال، ورواياته يأخذ موقف العطف على المرأة، ويهتم بإبراز الظروف التي جعلت منها ضحية، فهو يؤمن بأن عناصر الانتهاز والاستغلال تجعل من المرأة ضحية"([2]).

كذلك فعل نجيب الكيلاني ،وقد كان متأثرا بنجيب محفوظ ، حيث لم يخرج عن مسار الأدباء العرب في توظيف نموذج البغي ، فقد حاول هو أيضا إيجاد أسباب ومبررات هذه الظاهرة من خلال ما قدمه من نماذج حتى أنه كان أحيانا لا ينزل العقاب على الشخوص الآثمة ، بل يظهر التعاطف مع تلك النماذج النسوية من خلال ما يقدمه من ظروف قاهرة تجعل من المومس ضحية المجتمع الذي أذاقها مرارة الاستغلال والابتزاز.

وقد عالج نجيب الكيلاني قضية السقوط في براثن الرذيلة مبرزا ضعف المرأة من خلال كثير من الروايات الاجتماعية والسياسية والتاريخية ، حيث نجد حشدا كبيرا من النسوة اللاتي وقعن في أحضان المتعة الجنسية من خلال علاقات خارج إطار الزواج كالعلاقات الآثمة التي غالبا ما تقع في فترة الخطوبة وتنجم عنها المآسي الاجتماعية وأولها أن

1/ الباردي ،محمد رجب: شخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة ، ط01 ، الدار التونسية للنشر، 1993م، ص 252.

2/ محمد سعيد، فاطمة الزهراء : الرمزية في أدب نجيب محفوظ ، ط01 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان ، 1981م ، ص38 .

تحمل تلك الفتاة من خطيبها قبل الزواج مما يضطرها في كثير من الحالات إلى اللجوء إلى جريمة الإجهاض. كذلك فقد عرض الكيلاني نماذج متنوعة لعدد من المومسات والبغايا إضافة إلى ما ورد من طرح لقضية الخيانة الزوجية .ذلك ما نجده ممثلا في كثير من الروايات .

01 : نموذج البغي :

ـ ففي رواية (الرجل الذي أمن) نجد شخصية (شمس الراقصة) التي تعمل في إحدى فنادق دبي راقصة مع الفرقة الموسيقية ، التابعة للفندق، وقد وصفها الكاتب بقوله:"كانت سمراء فاتنة، مسدلة الشعر الفاحم، مكحولة العينين ، ممشوقة القوام..." ([1]) .

وقد قدمها نجيب الكيلاني في صورة المومس أو الراقصة الفاضلة ؛ فهي ترقص ليلا في ملهي الفندق وتخالط الرجال وتتجول معهم في الأسواق لقضاء حاجاتها الخاصة من لباس وحلي وتتقبل منهم الهدايا وفي المقابل فهي لا تمنحهم أية لحظة من لحظات المتعة التي تمنحها كل راقصة لزبائنها ؛ فشمس راقصة من شكل آخر " فهي كبيرة الثقة بنفسها ولا تتهيب المواقف المخيفة... وتفرح بالهدايا التي يغدقها عليها، وتعتبرها تعبيرا عن تقديره لفنها وإعجابها بشخصيتها (المحترمة) ، كما أنها تبادل إريان الحديث وتتبسط معه، وقد تسمح له ببعض كلمات تشي بالغزل بل وبالرغبة باحتوائها، لكنها تكف عندما تجد أن الأمور قد يفلت زمامها..." ([2]).

أما في رواية (نور الله الجزء الأول) ، فنجد شخصية (المومس اليهودية) التي حاولت إغراء الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه - وكان ذلك محاولة ضمن مخططات اليهود الدينية لتشويه سمعة الإسلام والمسلمين ، فقد حاولت الإيقاع بعمر بن

1/ الكيلاني ، نجيب : الرجل الذي آمن ، ط03 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2001م، ص 21 .

2/ المصدر نفسه ، ص68 .

الخطاب بعد إسلامه ، حيث حاولت استدراجه للفاحشة فقد " أجهشت بالبكاء ، وارتمت على قدمي عمر تقبلهما ، ثم أمسكت بيمينه تمرغها في دموعها ثم تشبثت بساعديه المفتولتين وهي تقول : أغثني .. أغثني يا عمر ، حتى كاد جسدها يلتصق بجسده ، وكانت قد لبست ثوبا فضفاضا يكشف عن نحرها الغض فدفعها عمر عنه في عنف وهو يقول : إليك عني أيتها اليهودية الفاجرة ، ما كان يصح أن تلقيني بهذه الثياب ، وما تفعلينه الآن ليس إلا وسيلة فاشلة لعرض الشكوى " ([1]).

وقد باءت المؤامرة بالفشل ، أمام عفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ونزاهته وكرم خلقه . والأمثلة كثيرة لهذا النموذج ، لذلك سأفصل الحديث في مثالين فقد ، لأن المقام لا يتسع لأكثر من ذلك .

أ) المومس (زمردة) في رواية (اليوم الموعود):

وتعد (زمردة) إحدى الشخصيات الموضوعة في هذه الرواية التاريخية والتي تحدث فيها الكيلاني عن الحروب الصليبية وبالتحديد عن الحملة الصليبية التي قام بها الملك (لويس التاسع) الفرنسي على مصر حيث بدأ هجومه على مدينة المنصورة التي احتلها قرابة إحدى عشر شهرا ،وقد وصف الروائي صمود أهل المنصورة أمام جحافل الصليبين سنة 1250م وقد تآزر الشعب المصري مع الجيش الأيوبي تحت قيادة فخر الدين ابن شيخ الشيوخ وذلك في عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبي زوج شجرة الدر.

في هذه الأجواء المشحونة بالتوتر والخوف جراء الهجمة الاستعمارية يبرز الكاتب شخصية(زمردة) التي قدمها في البداية على أنها جارية لعدنان بن المنذر أحد شخصيات الرواية ، علما أن كلا من الشخصيتين موضوعيتين وغير حقيقية أي أنهما لم تكونا شخصيتين تاريخيتين وقد وصف الكاتب زمردة بأنها " جارية حسناء تعرف عددا من

1/ الكيلاني ، نجيب : نور الله (الجزء الأول) ، طبعة جديدة منقحة ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2000 م، ص80 .

اللغات الأجنبية كانت ذات أدب ووفاء وجمال سمراء فاتنة طويلة أهدابها ، عاشت مع عدنان سنوات عدة ، وأخلصت له الحب ، وبادلته عاطفة قوية جارفة ،ولم تعد جاريته المشتراة بالمال بل أصبحت منه وأصبح منها وربطت بينهما وشيجة قدسية فوق المال والدنيا والمطامع "([1]).

غير أن هذه الأيام السعيدة التي عاشها عدنان بن المنذر مع زمردة لم تدم فقد زج به توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين في السجن بسبب ما بينهما من خلافات ، ثم بعد ذالك بثلاثة أيام اختطف رجاله زمردة وسجنوها في قصره في حصن (كيفا) .

إلا أن زمردة تستطيع الهروب من حصن (كيفا) وتشرع في البحث عن عدنان بن المنذر حيث تقطع المسافات الشاسعة من حلب إلى القاهرة ثم تتابع سيرها إلى المنصورة للبحث عن عدنان ،وللمشاركة معه في الجهاد . وانتحلت اسما آخر حيث عرضها الكاتب تحت اسم (ياقوتة الغجرية) وقدمها الكاتب على أنها راقصة غجرية لكنها تحمل وعيا وطنيا وقوميا حيث تشارك في الجهاد ، التردد على معسكرات الفرنسيين وتسليتهم بالغناء والرقص مستغلة نشوتهم للتزود بالمعلومات العسكرية البالغة الأهمية والتي تقدمها إلى قائد المقاومة خير الدين .فقد نسجت صداقة مع أحد الجنود الفرنسيين المدعو (مارسيل) الذي كان كثيرا ما يزودها بتلك المعلومات ـ دون قصد ـ مقابل غنائها ورقصها ، حيث دخلت معسكر الفرنسيين بكل جرأة وحينما يمسك بها الجنود تخبرهم بأنها غجرية تاهت طريقها ، وهي جائعة تبحث عن طعام وشراب حيث يصف الكاتب الجنديين اللذين الذين ألقيا القبض عليها " أنظر يا عزيزي إنها جميلة سمراء و فاتنة ..فيها دفء وحنان لقلوبنا المكلومة الباردة .. من أنت يا فتاتي ؟ فقالت في صوت وهن :

غجرية من الشمال يا سيدي .. لم أكن أعرف أحدا في هذه الديار .. لقد ضاقت بي السبل والناس كلهم لا يفكرون إلا في الحرب هنا و هناك .. لكني يجب أن أكل ،أن أعيش

1/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود ، ص28 .

حتى أرحل من هذه الديار ، فدفعني حب الحياة للتضحية بالحياة .. جئت لأسرق ..لأنني أريد الطعام "([1]).

وهكذا يقتنع هذا الجندي الساذج - حسب الكاتب – بكلام هذه الغجرية وتتطور العلاقة بينهما إلى صداقة حيث يتفق معها على الرقص والغناء مقابل حمايتها وتقديم الطعام والشراب لها وكانت تستفيد من حديث الجنود في المعسكر لجمع المعلومات العسكرية . وبذلك تستمر ياقوتة الغجرية في هذه لاستقاء المهمة مهمة المخبرة العسكرية في صورة راقصة.

وقد حاول الكاتب تضليل القارئ والتشويش عليه حيث سعى من خلال الرواية، إلى محاولة إقناع القارئ بأن (زمردة) ليست نفسها (ياقوتة الغجرية) مع أن المتتبع لأحداث الرواية يعرف دون صعوبة أنها نفسها . وربما السبب في هذا التضليل هو أسلوب اللغز أو إخفاء السر لأحد الشخصيات بغية التشويق، لكنه أسلوب أوقع الكيلاني في عدة تناقضات ما كان ينبغي أن يقع فيها أديب بمثل مكانته الروائية. إذ تحدث الكيلاني عن هذه الجارية تحت اسم (زمردة) في الفصل الرابع حينما سجنت. وفرت من السجن باسم (ياقوتة الغجرية). أمّا في الفصلين الثامن والتاسع يتحدث عن هذه الجارية باسم (ياقوتة الغجرية) ثم في الفصل الحادي عن هروب زمردة من حصن (كيفا) .

مما جعل بعض النقاد ممن درسوا هذه الرواية يتوهمون بأن زمردة ليست نفسها (ياقوتة الغجرية) ومن أولئك نذكر عبد القادر القط الذي حلل الشخصيتين على أنهما مختلفتان مع أن واقع أحداث الرواية ليس كذلك . وهو الأمر الذي لفت انتباه الناقد فؤاد دوارة الذي علق عاب على نجيب الكيلاني لجوئه لمثل هذا الأسلوب في التشويق وهو في رأيه أسلوب مفضوح على ـ حد تعبيره ـ وبذلك يكون نجيب الكيلاني قد تأثر بأسلوب جورجي زيدان في الاعتماد على كثير من المغامرات والصدف حتى أن هذه

1/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود، ص 64 .

الرواية تكاد تكون من الأدب الشعبي الذي يهتم بالمغامرات والخوارق التي يقوم بها الأبطال في القصص الشعبي .

فقد جعل الكيلاني (زمردة) شخصية قوية تدخل إلى معسكرات الصليبيين ولا تصاب بأي أذى، على الرغم من أن الجنود الفرنسيين والصليبيين عموما قد أنهكتهم الملذات ومطاردة النساء – على حد تعبير الكاتب – و هتك أعراضهن، وقتل من لم تستسلم إلى نزواتهم الغريزية إلا أننا نجدهم يتصرفون كالنبلاء الأشراف مع (ياقوتة الغجرية) ؛ حيث أن علاقتهم معها اتسمت بالبراءة والطهر وهي التي وصفها الكاتب في بداية الرواية بأنها تملك الجمال الفتان الذي يبعث على الإغراء "وسرعان ما تجمعوا حولها مأخوذين بجمال صوتها وجمال طلعتها ، وحينما بسطت شالها تساقطت فيه الدنانير كثيرة وفي نفس الوقت كانت نظرات المعجبين تكاد تلتهمها التهاما، وهمسات الإغراء تلاحقها من آن لآخر، غير أنها غضت الطرف عن كل ذلك، وحاولت أن تتخلص منه بلباقة ،وما أشقها من مهمة "([1]).

فإن كانت هذه هي نظرات المعجبين من أبناء شعب حلب الذين رقصت لهم حينما كانت في طريقها إلى القاهرة . فكيف تكون نظرات جنود في معسكر وكل منهم بعيد عن حبيبته وزوجته كيف يمكن لهؤلاء أن يمنعوا أنفسهم من الاعتداء عليها هي الفتاة الوحيدة الضعيفة ؟ كيف لها أن تقضي الليل في خيمة (مارسيل) وهو السكران العربيد تمتعه بالرقص والغناء ثم تقنعه بعدم الاقتراب منها ومسها بسوء " فقالت دون اكتراث، والطعام يملأ فمها :

ـ من الأفضل لك أن تظل يقض الفكر ، فالسكارى لا يشعرون بشيء ، اللهم إلا الخيالات والأشباح ..

أو تقضين الليلة معي ؟

1/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود ، 81 .

فأجابت ببساطة دهش مارسيل لها :

ـ و لِمَ ؟؟

ـ لأني أريد ذلك ..

ـ وأنا لا أريده

ـ لكن

ـ لكن ماذا ؟ لقد أتيت الليلة لأرقص لك وأغني فقط مقابل تلك الأكلة الشهية التي تقدمها لي ، وأنا على استعداد لأن أفعل ذلك كل ليلة، على شرط ألا تمد يدك إليّ بسوء، ونحن الغجريات كالزهور ذات الأريج ، يكفي أن تستنشقها من بعيد وتحظي بجمال مرآها ، أما إذا لمستها فسوف تدمي الشوكات أناملك وقد يسلمها كثرة العبث إلى الموت والذبول " ([1]).

أي ميثاق شرف هذا الذي يبرمه الكيلاني في رومانسية حالة ومثالية ساذجة بين هذا العربيد وتلك الراقصة الداعرة ؟ وهو ما جعل الجنود الصليبين يحترمون ، إرادة الغجرية ولا يفكرون مجرد التفكير في إيذائها وهو ما يؤكد الكيلاني بقوله :" ولم يكن غريبا بعد ذلك أن تنفذ ياقوتة الغجرية السمراء إلى معسكر الفرنجة من وقت إلى أخر وأصبحت تأتي في الليل أو في النهار، وكانت مصدر ترفيه وتسلية لهم جميعا، غير أن صديقها المفضل كان مارسيل ، ولم يحاول أحد أن يعتدي على أنوثتها، أو ينال من شرفها، بل اكتفوا بالاستمتاع بفنها والتملّي بفتنتها ،وكان هذا أجدى عليهم وعليها وإلا فقدوها للأبد " ([2]).

بل إني أقول أن هذا أغرب من الغرابة ذاتها فالقصة التاريخية ليس تصويرا جامدا للأحداث كما جرت في واقعها الزمني، ولا يجوز كذلك للكاتب أن يشوه الأحداث ويبتعد عن الحقيقة التاريخية بأميال كثيرة ، فعلى الأديب أن يجعل الأحداث واقعية ، ومنطقية

1/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود ،ص 88 .

2/ المصدر نفسه، ص 92

تتماشى والطبيعة البشرية وألا يأتي بخوارق الأحداث كما فعل نجيب الكيلاني مع زمردة أو ياقوتة الغجرية التي أصبحت أفعالها خارقة لقواعد الزمان والمكان ، حتى أن القاري يخيل إليه أنه أمام ألغاز (شارلوك هولمز) أو قصص (آغاثا كريستي) البوليسية .

وجعل الكيلاني هذه المرأة داهية في جمع الأخبار عن معسكرات العدو وبسهولة تامة وكأن تلك المعسكرات ليس فيها حراس ولا عسس يحمونها من تطفل المتطفلين من أمثال ياقوتة " لقد سمعت همسا في مجلس القائد عن غجرية ذكية ، لها القدرة على التسلل إلى معسكر الفرنجة وخداعهم برقصها وأغانيها، والحصول على أدق الأسرار الحربية ..."([1]).

كأن هذا المعسكر لا قادة له يحققون في وجود هذه المرأة غريبة الأطوار بين الجنود.

ويتابع الكاتب إضفاء الصفات العجيبة على هذه الراقصة بأنها تخاطب الجنود الصليبيين بلغاتهم وكأنها على معرفة كبيرة بها ، علما أن هؤلاء قد وفدوا من مناطق متفرقة من أوروبا مختلفة اللغات ومتباينة اللهجات.

ويعاب على الكيلاني أيضا أنه لم يشعر القارئ أن هذه الراقصة نادمة على امتهان هذا العمل المشين الذي تأباه كل حرة كريمة ، بل إننا نجده كعادته في كل مرة يبرر لجوء هذه الفتاة إلى الرقص، والغناء بحاجتها إلى المال " وبعد مسيرة أيام رأت أن الأمر ليس بالبساطة التي كانت تتصورها، لم تكد تمر بقرية أو تتلقى بأحد إلا وأثارت الشكوك من حولها ودفعت الناس إلى التساؤل، ومن ثمّ قررت أن تتأنى في سيرها وأن تتخذ لها عملا حتى تتجنب بذلك إثارة الشبهات وفي الوقت نفسه يدر عليها بعض المال الذي أوشك أن ينفذ ...واحترفت زمردة الغناء "([2]).

وبذلك يكون نجيب الكيلاني قد سار على خطى أصحاب الغاية تبرر الوسيلة فاعتبر الغناء مهنة موصلة إلى الجهاد ولا حرج في أن تكون هذه الراقصة التي تقضي الليل في خيمة صديقها مارسيل مجاهدة في ساح الوغى تشحذ همم الجنود المسلمين ضد

1/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود ، ص 93 .

2/ المصدر نفسه ، ص 81 .

الصليبيين ، فقد استطاعت مع مجموعة من النساء أن تأسر مجموعة من الجنود الفرنسيين وأن تجردهم من أسلحتهم " وكانوا مجموعة من النبلاء الفرنسيين ذوي المكانة الكبيرة ، وكان هذا واضحا من ملابسهم الثمينة وحركاتهم المعروفة وطريقتهم في الكلام ، ولم تعطهم ياقوتة الفرصة كي يستطردوا في الكلام أو يفعلوا شيئا ، لكنها فاجأتهم قائلة :

ـ سلموا سلاحكم ، تضمنوا حياتكم أيها السادة ....

فمدوا أيديهم بالسيوف في استسلام ، لكنها قالت :

ـ كلا .. اقذفوا بها بعيدا عنكم ..؟

ففعلوا ....

وبينما كانت ياقوتة تجمع السلاح ، وتنقله بعيدا ، همس أحد النبلاء لرفيقه قائلا :

ـ لم أكن أصدق أن تكون هذه الغجرية عينا علينا ...

ـ ولا أنا

يا لها من بارعة ؟

ثم قطع حديثه وتوجه بالكلام إلى ياقوتة :

ـ إننا نسلم أنفسنا كأسرى ..." ([1])

لا املك إلا أن أقول إن الأمر فيه كثير من المبالغة ومن المغالطة أيضا ، ولعل ذلك راجع إلى تعصب الكاتب ورغبته في الانتصار على الأعداء ، إذ كيف تقبض هذه الفتاة التي لم يكن بحوزتها أي سلاح لا هي ولا مجموع النساء اللائي كن معها ، كيف يتمكنّ من أسر مجموعة من النبلاء المدربين على المبارزة والمدججين بأسلحتهم ، كيف يضعون أسلحتهم بمجرد أن تأمرهم ياقوتة بذلك دون إبداء أية مقاومة؟ حقا إنها مغامرة خيالية جعل الكيلاني البطلة فيها تكتسح كل العقبات التي تقف أمامها وتحقق هدفها دون أدنى تعثر ؟

1/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود ، ص143 .

وخلاصة القول عن هذه الشخصية التي هي من صنع خيال الكاتب ولم لم تكن تاريخية، ومع ذلك فقد نسب إليها الكاتب دورا هاما بل جعلها تتبوأ مكانة رفيعة على مستوى شخصيات القصة؛ لقد نسب الكاتب هزيمة المسلمين أمام الصليبيين في إحدى المعارك ، إلى تأخر ياقوتة الغجرية في إبلاغ القائد (فخر الدين) بان الصليبيين قد اكتشفوا معبر (مخاضة سلمون) عن طريق أحد الخونة، وبذلك تمكن العدو عبر تلك المخاضة من مباغتة المسلمين والقضاء على عدد كبير من الجنود وعلى رأسهم القائد فخر الدين ، مما جعل ياقوتة تشعر بالذنب وتأنيب الضمير " ولم تكد ياقوتة تسمع بذلك النبأ حتى طارت نفسها شعاعا وأخذت تشد شعرها وتعض على أناملها أسفا وحسرة ، وتدق رأسها بقبضتها ....وتصرخ : وا كرباه ...الثأر ... الثأر ...أقتلوني ...مزقوني بسيوفكم ...أنا الآثمة.. أنا القاتلة "([1]).

كان ذلك شعورا بالذنب والخطيئة لأنها أيقنت بأنها لو أخبرت فخر الدين بخطط العدو لما حدثت مفاجأة المسلمين و مباغتتهم بالهجوم الرهيب و يبقى السؤال مطروحا هل حقا هذا هو السبب في هزيمة المسلمين أنذاك ؟

وبالمقابل لهذا الدور الكبير الذي أسنده الكيلاني لهذه الشخصية الخيالية في إدارة هذه الحرب نجده لم يول الاهتمام الكافي لشخصية تاريخية حقيقية كان لها الدور الفعال في إدارة الأحداث التاريخية يوم ذاك ألا وهي (شجرة الدرّ) ،التي قزم الكاتب دورها وقصره على مواساة زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو على فراش الموت يحتضر، وكان الأجدر بنجيب الكيلاني أن يسلط على شجرة الدر الأضواء التي تستحقها شخصية تاريخية مثلها، بدلا من أن يقدمها بصورة هامشية باهتة في شكل شخصية ثانوية ثابتة ، لم يكن لها تأثير واضح أو بالأحرى كبير على أحداث الرواية، بينما فعل العكس مع الشخصية الوهمية (زمردة) التي تتحول عبر أحداث الرواية إلى (ياقوتة الغجرية) ثم لا تلبث أن تعود إلى اسم زمردة في أخر الرواية .

1/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود ، ص 126 .

وهكذا يكون الكيلاني قد شوّه وشوّش الحقائق التاريخية ، علما أنه صرح في بداية الرواية تحت عنوان (أضواء على القصة) قائلا : "... ومن هنا كانت القصة التاريخية عملا أدبيا ثريا يحتاج لمزيد من الدقة والبراعة ...ولهذا فإن المزيج الناتج من خلط الوقائع التاريخية بالقواعد القصصية مزيج يحتاج إلى يقظة الصيدلي ودقته ،وإلا تحولت القصة إلى كتاب تاريخ، أو على النقيض من ذلك - أعني تشويه الحقائق التاريخية والعبث بها ..."([1]).

لست أدري إن كان نجيب الكيلاني قد تنبه إلى أنه قد شوه الحقائق التاريخية وعبث بها في هذه القصة، فلم يكن صيدليا يقظا ولا جراحا ماهرا، أم أن انسياقه وراء خياله جرّه لذلك ؟

شيء آخر يجب التنبيه إليه وهو أن الكيلاني قد مضى في تبيض صورة هذه الراقصة (ياقوتة الغجرية) حيث أنهي الرواية بنهاية سعيدة تمثلت في لقاء الحبيبين عدنان بن المنذر وزمردة في جو من المشاعر والانفعالات "ونظرا عدنان إلى ياقوتة ..وحولت ياقوتة عينيها عن عبد الأعلى إلى عدنان ....لحظات خاطفة ،ولكنها غاصّة بالمشاعر والانفعالات العديدة ، وأطرقت ياقوتة الغجرية في حياء وقد ساد وجهها حمرة الخجل ، ثم انفرطت دموعها دفعة واحدة فعادت إلى مجلسها خلف الستار ، بينما ظل عدنان مشدوها لا يكاد يصدق عينيه ، أمن المعقول أن تكون ياقوتة الغجرية هي زمردة ؟ ؟([2]).

وهكذا تكون النهاية سعيدة بالنسبة لهذه الرواية حيث تكون خاتمة هذه الراقصة التي قامت بالدور العجيب في تلك المعركة الرهيبة خاتمة عادية تحلم بها كل فتاة كريمة وكأن زمردة تمحي ماضيها المتعثر في أذيال الرذيلة والفسق ، وتتوج بتاج الشرف

1/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود ، ص 03 .

2/ المصدر نفسه ، ص 195 .

والفضيلة؛ فها هي ذي تسافر إلى القاهرة رفقة عدنان لإتمام مراسيم الزواج " بعد أيام قصدا القاهرة ، وكانا عازمين على إتمام الزواج حسب الأصول الشرعية ([1]).

فقد اعتبر الكيلاني زواج هذه الراقصة تكفيرا عن ذنوبها ومسحا لخطاياها.

ب) ـ المومس (نجمة الليل) في رواية (ليالي تركستان)

وهي شخصية موضوعة لا تمت بصلة إلى الشخصيات التاريخية الحقيقية للرواية ، وقد بدأت حياتها بوصيفة في قصر مقاطعة (قومول) بتركستان، وهي فتاة داعرة لعوب تلهث وراء شهواتها يقع في حبها (مصطفى مراد حضرت) أحد حراس القصر والذي طلبها للزواج " لكنها كانت تتمنع عليَّ وترفض الزواج، وتطمع في رجل أعلى مركزا منيّ، وأنا مجرد حارس في القصر ... و القصر يدخله علية القوم "([2]).

وعندما يحتل الصينيون تركستان ويستولون على قصر الأمير ينخرط مصطفى في الجهاد ضد الشيوعيين وتبقى (نجمة الليل بالقصر) حيث تغري القائد الصيني (باودين) وتحتال عليه لتساعد الأميرة وأفراد الأسرة المالكة على الفرار فقد " دخل شاهرا سيفه ووقعت عيناه أول ما وقعتا على فتاة جميلة تشم وردة حمراء وتداعب بها خدها ، كانت نجمة الليل تبتسم وتنظر إلى الضابط نظرات ذات معنى ، وقبل أن ينطق الضابط سمع نجمة الليل تقول باسمة :

نحن لا نأخذ عنوة ..وأنا أحب الشجعان لكني أكره الجلادين القساة "([3]).

لذلك فهي لا تمانع في أن تجلس معه وتشرب كأسا من النبيذ ، بل إنها تفضل أن يكون ذلك بعيدا عن الجنود حيث تقول له :

"- و لم لا أيها الماجن ؟ لكني أخجل من رجالك.

- سوف أجعلهم ينتشرون بالخارج ..

1/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود ، ص 197 .

2/ الكيلاني، نجيب، ليالي تركستان، ط 01 ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ،القاهرة ،مصر 2013م،ص13.

3/ المصدر نفسه ، ص 35 .

قالت نجمة الليل :

ـ أنا سيدة القصر وقد أصبحت طوع يمينك.

قالتها وهي تغمز بإحدى عينيها ، فأمر رجاله بالعودة إلى سكناتهم ..وأقبل نحو نجمة الليل :

ـ حسنا إن جمالك يذهل العقل .

ـ لا تلمسني ..دع فرصة لكي أتعطر وأحضر النبيذ ([1]).

لذلك يقع الضابط في شباكها وحينما يريدها لتسليته تتمانع وتطلب منه أن يتزوجها وتشترط عليه أن يسلم لأنه لا يحل لها أن تتزوج من كافر ...

والملاحظ هنا أن الكاتب نجيب الكيلاني يبرر هذا الزواج من العدو الصيني بأنه وسيلة لتوقف المذابح في مقاطعة (قومول) حيث يقول : " لقد تزوجته ولم يكن زواجها بالأمر السهل في قومول ،ما دام السر الكامن وراءه لم يكتشف ، ورماها الناس بالخسة والدناءة والدعارة ، لو أن الضابط الصيني أخذها عنوة لالتمسوا لها الأعذار لكنها على ما يبدو قد باعت نفسها للمستعمرين، وتنكرت لخطيبها مصطفى مراد حضرت وسارت في دولاب المنتصرين ...ولم يفكر أحد في السبب الذي من أجله توقفت المذابح في قومول إلى حين ، وبدت نجمة الليل أكثر شحوبا وفتنة ، وأصبحت تظهر في مجتمعات الصينيين يحوطها الاحترام مما جعل العجب والدهشة يسيطران على المواطنين والمواطنات في المقاطعة "([2]).

حيث يفهم من كلام الكاتب أن (نجمة الليل) قد أثرت تأثيرا كبيرا على سير المعارك وتوقف المذابح بأن أثرت على زوجها القائد الصيني فرحم الناس من شر المعارك والمجازر التي قام بها الصينيون ضد التركستانيين المسلمين، علما أن شخصية نجمة الليل هي كما سلف الذكر – شخصية من نسج خيال الكاتب ليس لها أي وجود فعلي في الحقائق التاريخية .

1/ الكيلاني ، نجيب ، ليالي تركستان ، ص 87 .

2/ المصدر نفسه، ص 100 .

وقد بدت شخصية (نجمة الليل) شخصية مضطربة ومتناقضة ،فقد ظهرت عليها ازدواجية الشخصية حيث كانت تعاني الصراع النفسي بين ما أقبلت عليه من سلوكات مشينة وبين ما تريد أن تكون عليه كامرأة مسلمة ؛ فعندما التقت بمصطفى مرة ثانية حاولت تبرير موقفها وزواجها من الضابط الصيني إذ صرحت له : " أنا لا أبرر تصرفاتي ، عندما سقط القصر أردت أن أحمي سكانه، وأردت في نفس الوقت أن لا أكون مطية لكل غاز لهذا اخترت رجلا وتزوجته "([1]).

ثم تبرر زواجها أيضا من العدو أنه لم يعد كافرا فقد أعلن إسلامه " قلت في دهشة :

ـ كيف تزوجت ؟

ـ كما يتزوج الآلاف ... اعتنق الإسلام وتزوجني ..أعرف أن إسلامه شيء ظاهري بحت لا حرارة فيه ، وأعرف أنني أخدعه وأخدع نفسي لكني...ماذا أقول لك ... لم أكن على استعداد لكي ينهشني الذئاب ..." ([2]).

وفوق كل ذلك فقد كانت ترى في زواجها من هذا الضابط بأنه حماية لها " لقد تزوجني وحماني ولم يزل يحبني.. ([3]).

لست ادري ما لذي حمل الكيلاني على نسج هذه الشخصية والتي جعلها بطلة الرواية متناسيا كثيرا من الشخصيات التاريخية الحقيقية التي كان لها دور فعال في الصراع الشيوعي الإسلامي .

كذلك فإني أتساءل كيف يرفق هذا الطاغية ويرحم هذه المرأة الضعيفة وهو الذي يقول عن نفسه : " لقد أصدرت حكم الإعدام على المئات في هذه المدينة ،وتم التنفيذ في لحظات ... وقتلت نساء ورجالا "([4]). لماذا يكلف نفسه عناء الدخول إلى الإسلام وهو

1/ الكيلاني ، نجيب ، ليالي تركستان ، ص 100 .

2/ المصدر نفسه ، ص111 .

3/ المصدر نفسه ،ص 114 .

4/ المصدر نفسه ، ص 95 .

في الأصل جاء ليئد الإسلام في عقر داره أمن أجل خادمة أحبها ؟ لست أدري ما الذي يقصده الكيلاني من وراء هذا؟ هل أراد تبييض صورة العدو الحاقد الماجن أم أن هناك قصدا ضمنيا لا أراه ؟

إن (نجمة الليل) فتاة مستهترة فاسقة تقبل الزواج من العدو الصيني بمجرد إعلانه الإسلام .وهي أيضا تقيم الحفلات داخل القصر ، تلك الحفلات التي يحضرها الضباط الذي يرغبون في مراقصتها حيث يصف السارد ذلك بامتعاض شديد " هذا البيت تسكنه شياطين من نزوات وخطايا ، بالأمس أقيمت في البيت حفلة راقصة ، وأختلط الحابل بالنابل ،كانت (نجمة) لا شك هي نجمة الحفل العيون تلاحقها ، وكل الضباط يريدون مراقصتها ، وشرب زوجها حتى ثمل ... لكنهم في الفجر استدعوه لمهمة عاجلة فخرج يترنح .. الأمر يبدو عاديا .....([1]).

وهي تحاول خيانة زوجها حيث نجدها تلاحق (مصطفى مراد حضرت) وتغريه ليمارس معها الرذيلة لكنه يأبى. إنها امرأة تسمح لنفسها الوقوع في الفاحشة مع رجل مسلم على الرغم من تصريحها بأنها لا تريد أن تكون مطية لكل غاز ، لعل الحوار التالي بينها يوضح مدى ما تتخبط فيه هذه المرأة من ازدواجية في الشخصية وتناقض بين السلوك والفكر الديني " لكني وجدتها تأتي إلى غرفتي ، ازداد وجهها شحوبا من كثرة السهر ، أحاطتني بذراعيها ووجدت شفتيها تقتربان ...

ـ سيدتي .. يجب أن أعد طعام الإفطار ...

ـ لست أشتهي شيئا وأنا لست سيدتك .

ـ القصر كله عيون .

ـ لا أستطيع الصبر .

ـ ما معنى ذالك ؟

1/ الكيلاني نجيب ، ليالي تركستان، ص 121 .

ـ لا تفهم .

ـ وأنا أكره الخيانة .

ـ خيانة الخائن ليست خطيئة .

ـ وأنا رجل مسلم أعرف الله ...

هل كانت تريد الانتقام من زوجها ، أم تريد أن تقدم نوعا من العطف أو الشفقة ، أ هو الحب القديم ثار و تمرد ؟ وأمسكت بيدي في توسل ، و أنا اهرب من نظراتها و لمساتها مخافة أن تضعف مقاومتي ، و همست في انفعال :

ـ على سفوح الجبال رجال يتضورون عذابا و جوعا .

ـ هم رجال حقا لكنهم يعيشون حياتهم .

ـ في الحدود التي أباحها الله

نظرت كذئب جائع مفترس و قالت مهددة :

ـ أهذا هو الحب ؟

ـ نعم .

ـ عندما يضمك سجن من سجونهم الرهيبة و يلفك الصمت و الظلام ، و تهوى السياط على جسدك ...عندما سوف تحلم بدقائق تقضيها إلى جواري ..

و قلت لها في ثقة :

ـ لقد نذرت نفسي للموت .

ـ أنت تلعب بالنار ..أنت زوجي الحقيقي ..

ـ لكنك في عصمة رجل مسلم ..إن كان إسلامه أمرا ظاهريا ..([1]).

1/ الكيلاني ، نجيب ، ليالي تركستان، ص ص 122 ـ 123 .

من الواضح أن هذا الحوار قد بين كثيرا من الصفات التي اتصفت بها هذه المومس، فهي فاجرة تخون زوجها المسلم دون تأنيب الضمير، ثم إنها انتهازية تتحين الفرص، تطلب راغبة ثم إذا قوبل بالرفض كشرت عن أنياب التهديد وأبرزت مخالب الوعيد ..

لذلك نجد أحد شخصيات الرواية وهو (منصور درغا) ـ أحد الثوار وصديق مصطفى مراد حضرت – يصف (نجمة الليل) بقوله : " نجمة الليل ..طول عمرها أرض ....بل أوحال فوق أوحال ..أنت لا تعرفها كما اعرفها ..دعني أحدثك عنها لأول مرة أيها الصديق العزيز . لقد كان لها من العشاق أكثر من عشرة ..كانت تجمع بين سائس الخيل ، وفتى المراعي، والجندي السمهري والعجوز الغني الذي يجود عليها بالجواهر ..أنت يا مصطفى ساذج أبله ..لقد ذهبت (نجمة الليل) إلى (أورومجي)..صدقني لو استطعنا أن ندخل أورومجي ،فستجدها تأتي إليك مستنجدة باكية ،وتبدو للجميع شهيدة للعنف والطغيان ..وسيصدق الناس دموعها ..وأنت سيرق قلبك ([1]).

وبالفعل فإن الكيلاني لا يعاقب هذه المرأة ولا يحاكمها بل يكرمها ، فيجعلها امرأة نامية متطورة تتحول من النقيض إلى النقيض ، ذلك أنها حينما تلتقي بمصطفى تتفق معه على أن تتوسط له ليعمل خادما بالقصر عند الضابط الصيني. ثم إنها بعد ذلك تنتقم من الضابط الصيني وتقتله « ونزلنا إلى الحديقة ..ومررنا بجوار السور من الداخل ..وتناولت مسدسا واجهته ..لم أهاجمه من الخلف وقلت إني أحاكمك ..أنت خائن ..والقتل جزاء الخيانة والغدر ..خذ ..خذ.. خذ.. خمس طلقات بعدد التعساء الذين راحوا ضحيته"([2])..

وتبقى نجمة الليل تعيش في القصر، ثم تتفق مع حبيبها مصطفى على الانتقام من الضباط الصينيين وبعض الرجال الكبار وتفجير القصر ثم الهروب إلى الجبل حيث يوجد

1/ الكيلاني ، نجيب : ليالي تركستان ، ص 128 .

2/ المصدر نفسه ، ص ص 128 ـ 129 .

الثوار تحت قيادة الجنرال (عثمان باتور) " لدي شحنة من المتفجرات أرسلها الثوار .... وعندما يكتمل الحفل ..سنحيل القصر إلى جحيم .." ([1]).

وتتحول نجمة الليل بقدرة قادر من مومس داعرة إلى مجاهدة ثائرة تنتقم من الضباط وكبار المسؤولين حيث تقيم حفلا بعد انقضاء فترة العدة والحداد وتدعوهم لتلك الحفلة وعندها تهرب هي ومصطفى بعد أن يغرق المدعوون في الخمر والغناء والرقص، وذلك ما حدث بالفعل " و في الليلة الموعودة ، كان الليل دامسا ،وركبنا جوادا قويا ، وانطلقنا في عتمة الليل القارص ونظرنا خلفنا فإذا القصر كتلة من النيران المشتعلة ، وإذا المكان من حوله يضيء ، وإذ الصراخ وصفارات الإنذار تتوالى ..وبعد ساعة كنا على مشارف الجبل ..([2]).

لكن الملاحظ أن نجيب الكيلاني قد أسس هذه الأحداث السابقة (زواج نجمة الليل من الضابط الصيني واللقاء مع مصطفى مراد بعد فشل الثورة و تحوله إلى حمال ثم انتدابه ، إلى القصر ليعمل خادما فيه وتدبير مؤامرة قتل زوجها الضابط وتفجير القصر ثم هروبها مع مصطفى مراد حضرت) كل هذه الأحداث بناها الكيلاني على الصدف والمغامرات والخوارق الخارقة ،إذ لا يعقل أن لا يتفطن حراس القصر إلى تلك المكائد وهم يعيشون حالة الحرب ، كيف تتمكن خادمة بسيطة من كل ذلك ولا تثير أدنى شك حولها ؟ لكني لا أظن أن المتلقي سوف يقتنع بهذه المغامرات والصدف بل إن القارئ المتمعن قد يشك أصلا في صحة تلك الأحداث كلها ولن يقتنع بها، لأنها فعلا غير مقنعة لأن على القاص أن يقنعنا بإمكان وجود مثل تلك الأحداث وأولئك الأشخاص في حياتنا الواقعية وإلا ذهب جهده سدى.

وفي نهاية المطاف تتزوج نجمة الليل بمصطفى الذي يقول : "كان زواجنا مختصرا جميلا، شاركنا فيه أهل القرية ،فرقصت لنا الفتيات وغنى لنا الرعاة أغانيهم الجميلة ، ودقت

1/ الكيلاني ، نجيب ، ليالي تركستان ، ص 131

2/ المصدر نفسه ، ص 132 .

طبولهم الحلوة التي تهز القلوب ،وأكلنا وشربنا ، وقضينا عشرة أيام ممتعة كأنما اختلسناها من الزمن ،وباعت نجمة الليل ما تملك من مجوهرات واشترينا جوادين ، واستأنفنا المسير "([1]).

وهكذا مثل كل مرة ينهي الكيلاني روايته رواية سعيدة ويكافئ نجمة الليل التي كانت في ما مضى مومسا – بالزواج السعيد بل إنها أنجبت طفلا ، وهي الآن تتمنى أن ترحل إلى بيت الله الحرام " إن أمنيتي أن نرحل إلى بيت الله الحرام و لنعش في مكة أو المدينة ([2]).

وجدير بالذكر في نهاية هذه الدراسة أن ألفت انتباه القارئ إلى أن هذه الرواية تشبه إلى حد كبير بعض روايات جورجي زيدان خاصة منها رواية (عروس فرغانة) التي تدخل ضمن سلسلة روايات تاريخ الإسلام. وتشتمل الرواية على وصف وقائع تاريخية مرت بها الدولة العباسية وعاصمتها (السامراء) في عهد الخليفة المعتصم، كما تصور الرواية طمع الفرس ومحاولاتهم لإرجاع دولتهم، ونهوض الروم واستعدادهم من أجل غزو واكتساح المملكة الإسلامية.

وتتشابه الروايتان من حيث تشويه الحقائق التاريخية والاهتمام بالجانب العاطفي للأبطال وإهمال الأحداث التاريخية الحقيقية . مع أن الفرق كبير والبون شاسع بين الأديبين من حيث المنطلقات الفكرية والتوجهات العقائدية ؛ فالكيلاني مسلم مدافع عن المبادئ الإسلامية ، بينما جورجي زيدان مسيحي معروف عنه القصد المبيّت في تشويه الإسلام والانتقاص من قدر المسلمين؛ ذلك أنه يحمل فكرة التمركز حول الغرب الحداثي (الإمبريالي آنذاك)، حيث قرأ التاريخ العربي والإسلامي من منظور استعماري (كولونيالي) فتأثرت كتاباته بمناهج المستشرقين، بما تحمله من نزعة عنصرية في رؤيتها للشرق.

1/ الكيلاني ، نجيب ، ليالي تركستان ، ص 135 .

2/ المصدر نفسه ، ص 208 .

02 : نموذج الزوجة الخائنة :

وهي قضية أخرى من قضايا سقوط المرأة التي عالجها الكيلاني في كثير من رواياته وبطرق مختلفة، فقد تنوعت مواقع تلك المرأة في رواياته بحيث نجد بعض تلك الشخصيات النسوية مثلت الشخصية الرئيسية في الرواية ومنها من كانت تمثل الدور الثانوي في أحداث الرواية .

والجدير بالذكر أن روايات الكيلاني قد عجت بهذا النوع من النسوة وكأن القضية صارت ظاهرة خطيرة ويجب التصدي لها لذلك نجد حشدا لا بأس به من النساء واللائي قمن بهذا الدور، من ذلك ما ورد في الروايات الآتية :

أ- (وهيبة) في رواية (ليل الخطايا) :

وهي الرواية التي يعرض فيها نجيب الكيلاني واقع أسرة مصرية تعيش في المدينة وبالضبط في شارع كنيسة الراهبات بالقاهرة، وهي أسرة (عبد البديع) معلم العربية في إحدى المدارس وهو المعيل الوحيد لأسرته المكونة من أمه العليلة وأخته الصغيرة (فوزية) وأخيه سامي، وزوجته (وهيبة). وكان (عبد البديع) يعاني صراعات نفسية حادة، فهو يشعر بالنقص لفرط قصر قامته، لذلك كان يسعى دوما للتعويض عن هذا النقص باستعراض بطولات وأمجاد كاذبة يسردها مع تلاميذه، كما أنه كان مغرورا حيث يرى بأنه من الظلم أن يبقى المعيل الوحيد لعائلته ، لذلك كان كثيرا ما يثور على واقعه المادي المتواضع. وقد عالج الكيلاني من خلال هذه الرواية قضية الخيانة الزوجية حيث أظهر الدوافع النفسية والاجتماعية لوقوع (وهيبة) في الخطيئة ودوافع تسربت إلى عقلها الباطني منذ سن الطفولة، فهي لا تزال تذكر أن أباها كان قاسيا في معاملتها فقد قام بكيها بمسامير حامية عندما ضبطها مع أحد الجيران في إحدى مغامراتها العاطفية عندما كانت فتاة صغيرة لم تنضج بعد ([1]).

1/ ينظر: الكيلاني، نجيب: ليل الخطايا، ط01 ، دار الفكر ،دمشق ، سورية، 1960م،ص ص 45- 50 .

كما أنها تذكر أن والدها كان معروفا بانحطاط أخلاقه، فقد كانت له علاقات مريبة مع كثير من النسوة. ولهذا فلا نستغرب مدى حقدها عليه وكراهيتها له، وقد شكل ذلك صراعا نفسيا حادا ظل يمزق نفسها حتى بعد زواجها من (عبد البديع) الذي كان نسخة طبق الأصل لوالدها، فقد كانت معاملته لها يشوبها الاضطراب والقلق والشك، حيث سيطرت عليه الغيرة، فعبد البديع زوج غيور محافظ، يضع القيود الصارمة عليها ويقيد حقوقها في الخروج حرصا عليها، فقد كانت وهيبة " فاتنة فيها حيوية وجاذبية، ويطل من عينيها بريق لا يستطيع عبد البديع إزاءه إلا أن يخفض رأسه"([1]).

وكان عبد البديع يمنعها من مقابلة أو زيارة أحد خارج الأسرة مما جعل وهيبة تعيش في غم ونكد لذلك لجأت إلى الحيل السنوية، فأخذت تنافق وتكذب عليه وتتصنع الحب العميق لتشعره بأنها تحبه وتسهر على راحته وتلبي رغباته كلها، لذلك شغف يحبها إلى حد الجنون. وتطورت أحداث الرواية مبينة أن (وهيبة) تعيش فترة سعادة مع زوجها، وهي في الحقيقة سعادة زائفة لأن تلك المرحلة لم تكن سواء مرحلة (كمون) أخفت فيها وهيبة رغبتها في الانتقام من زوجها وأبيها على حد سواء.

فالأحداث بعد ذلك تتسارع وتتصارع لينفجر المكبوت وينطلق المخفي، فتعلن وهيبة ثورتها وتمردها على واقعها الذي يشكل في نظرها قيدا على حريتها ويعيق تحركاتها، مما يجعلها تتصرف بخلاعة وتحلل ضاربة عرض الحائط بكل الطابوهات والقيم والمبادئ والعادات والتقاليد لأنها "لم تكن ترجح أن ذلك هو المصير، وما تخيلت أنها ستظل حبيسة العذاب النفسي، رهينة الصراع الوحشي الذي لا يرحم، لقد أرادت أن تنتقم من ماضيها وتأخذ ثأرها من ليالي الحرمان والكبت والخوف، كانت تريد أن تثبت لنفسها أن أباها- بصلابته وتعنته – لن يستطيع أن يقهر إرادتها، ويحد من رغبتها إلى الأبد، وكانت تريد أن تثبت لنفسها أيضا أن عبد البديع رغم أنه رجل، ورغم أنه زوجها الذي يحميها

1/ الكيلاني ، نجيب : ليل الخطايا ، ص 12 .

ويغدق عليها ويتميز عليها بذلك، من السهل عليها أن تكون أقوى منه فتفعل ما تشاء وتحقق كيانها ووجودها...([1]) .

لذلك تنهار أخلاقيا وتنقاد إلى الخيانة الزوجية حيث تستغل غياب زوجها (عبد البديع) لأيام معدودات لتستدرج أخاه الفتى المراهق (سامي) فتقيم معه علاقة عاطفية وقد وجدته شابا ضعيفا لم يستطيع مقاومة إغرائها لما يعانيه هو الآخر من كبت جنسي فينقاد لها انقيادا أعمى بل إنه يدمن هذه الممارسة فيصبح هو المطالب بإصرار ، ويلح على معاشرتها معاشرة الأزواج ويبلغ به الأمر أن يمارس الرذيلة في غرفة أخيه أو في مخدع الزوجية نفسه.

وقد انطلقت هذه الزوجة دون إدراك ما أقدمت عليه ماضية في إشباع غرائزها الجنسية بهيمية عمياء وبحرية دون قيود.. كما يوضح الكيلاني من خلال هذه المعاشرة شكل تلك الخيانة، فلم يجعل وهيبة تمارس الجنس مع رجل ناضج بل كانت تعاشر هذا الفتى لأنه غض وضعيف ينقاد دون تردد فكأنها – لا شعوريا – لا تزال تعاني من عقدة الخوف من الرجال لذلك تلجأ لممارسة سلطة القهر المكبوتة على هذا الشاب، كما أنها تحاول أيضا أن تعوض ما ضاع منها في صباها من سنين عاشتها محرومة من العواطف الطبيعية .

فهي لم تشعر قط في صباها بعاطفة الأبوة، وعندما تزوجت لم تحس أيضا بحب الزوج وحنانه لذلك ارتمت في أحضان (سامي) الذي يصغرها سنا فهو لم يتجاوز بعد التاسعة عشر، لتقيم علاقة عاطفية وتتطور الأحداث وتنمو حتى تصل إلى البؤرة والانفجار ذلك أن عبد البديع يعود من فترة انتدابه فجأة ويدق باب غرفة النوم حيث توجد زوجته (وهيبة) مع عشيقها (سامي) مما يجعلها ترتبك وتكاد تنهار فتشعر بأن نهايتها قد اقتربت، لأن سامي مازال معها في غرفة النوم وزوجها في الخارج يطرق الباب " لكن الكاتب لم يرد لروايته أن تتحول إلى تراجيديا أو ميلودراما، ولذلك جنب أبطاله لحظة

1/ الكيلاني ، نجيب : ليل الخطايا، ص 252 .

المواجهة ورد الفعل المباشر والذي من المؤكد أنه كان سينتهي بجريمة ما. ومنحهم بدلا من ذلك فرصة التوبة وبدء صفحة جديدة كلا في طريقه([1]).

لقد سعى الكيلاني في هذا الموقف الرهيب لرسم طريق النجاة للزوجة الخائنة (وهيبة) وللأخ الخائن (سامي) من هذه الفضيحة والتي ستكون لها نتائج وخيمة على المستوى الفردي وكذا العائلي؛ فقد ظن عبد البديع أن زوجته لا تزال تغط في النوم العميق، فذهب ليسلم على أمه بعد أن وقف مطولا أمام باب غرفته الموصد..؟ في هذه الأثناء استغل (سامي) و(وهيبة) الوضع وخرج (سامي) من غرفة النوم وبذلك تنفرج العقدة حيث كانت (وهيبة) تبحث عن وسيلة تخلصها من هذا الموقف الحرج([2]).

وقد كانت نهاية الرواية غير منطقية حيث أن الجريمة لم تكشف وأن الجناة لم يعاقبا على الخيانة، فالقارئ لن يقتنع بمصداقية بعض الأحداث منها على سبيل المثال أن وهيبة وسامي يمارسان الجنس كمعاشرة الزوج لزوجته وفي مخدع الزوجية ، ولا يتفطن أحد لذلك مع أن الأم قد رأت ذات مرة (وهيبة) تنام في غرفة (سامي) ولم تشك في الأمر حيث تعللت وهيبة بأن النوم غلبها فنامت هناك وقد صدقت الأم تلك الحيلة بسهولة .

كيف لا يكتشف عبد البديع الخيانة عند عودته إلى المنزل لماذا يبقى واقفا طوال تلك الفترة ولا يفتح باب الغرفة كيف لا يراوده الشك وهو الغيور على زوجته على مدار صفحات الرواية، كيف تتوقف غيرته فجأة ؟ كيف تنطلي عليه حيلة زوجته التي كانت تخاطبه من داخل الغرفة وترد عليه بأن النوم يسيطر عليها وتدعوه للتريث حتى تفتح له الباب ؟

1/ الكيلاني ، نجيب : ليل الخطايا ، ص ص 241 ـ 243 .

2/ الخوالدة ، سميرة الفياض: المرأة في روايات نجيب الكيلاني ،(أدب المرأة دراسة نقدية)، من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات المنعقد في القاهرة 1419 هـ ـ 1999م ، رابطة الأدب الإسلامي العالمية، مكتب البلاد العربية ،ط 01 ،مكتبة العبيكان، الرياض، 64 ،السعودية 1428هـ 2007م،ص 75.

فيستسلم ولا ينتظر ويعود أدراجه ليذهب إلى الغرفة الأخرى لتسليم على أمه..؟ وهي نهاية نلمح فيها ملمحا إسلاميا فكأن الكيلاني يريد أن يقول للقارئ إن الله يستر عيوب عباده ليتوبوا ويعدلوا على سلوكياتهم المشينة، لذلك جعل لكيلاني (وهيبة) تغير من تصرفاتها تجاه زوجها حيث تقلع عن خيانته لكن هذا التغير في شخصية (وهيبة) كان مفاجئا لم يؤسس له لكيلاني بتمهيد منطقي تفرضه حوادث الراوية.

ثم إن سامي الذي كان ينتظر العمل منذ مدة طويلة لم يأته الرد إلا بعد هذه الخيانة وكأن الله يجازيه على خطيئة فيحصل على عمل ويسافر بعيدا عن العائلة .

وتمضي (وهيبة) في توبتها حتى إنها تطلب من زوجها الرحيل عن هذا المنزل ، فكأنها تريد ترك هذا المكان الذي يذكرها بخيانتها وفضائحها حتى تبدأ حياة جديدة طاهرة "إن حياتها قد انتقلت من طور إلى طور وانتقالها من مسكن إلى آخر تعبير أو رمز لتطورها.. ودخولها في حياة جديدة([1]).

يضاف إلى ما سبق عدة مآخذ على هذه الرواية ، منها الأسباب النفسية والاجتماعية التي أدت إلى خيانة (وهيبة) لزوجها لم تكن مقنعة بالقدر ؛ فزوجها يحبها حبا كبيرا وكان يسعى بكل ما يملك لإسعادها ، كما أنه لم يكن مقصرا في الإنفاق عليها. أمّا قسوة والدها عليها حينما كانت صغيرة فهذا أمر تعرضت له كثير من الفتيان والفتيات في مثل سنها ولكن لم يكن دافعا لانحرافهن. وغيرة زوجها عليها فأمر مشروع لاسيما أنها كانت فاتنة. وهذه الأمور لم تكن دوافع معقولة ولا منطقية لإقبالها على خيانة زوجها بهذا الشكل المقزز، وأكثر من ذلك بشاعة مع أخيه ؟..

ونهاية الرواية لم تكن مقنعة أيضا؛ خاصة إذا علمنا أن الكيلاني في البداية قد جرّم هذه المرأة وجعلها هي السبب في وقوع سامي في الفاحشة "وصمت سامي فترة، كان يفكر في هذه النذر المخيفة التي تغشى أفق مسكنهم، ويفكر في وهيبة الجديدة، ترى هل شربت كأسا من الخمر، أم أصيبت بلوثة من الجنون، أو ركبها عفريت من الجن؟. ثم تذكر

1/ الكيلاني ، نجيب : ليل الخطايا ، ص 255 .

أخيرا درية .. وعادت إلى ذهنه براءتها وصفاءها وروحها الودود المخلصة، ترى هل كان كل ذلك زيفا وخداعا أم أنه حقيقة لا تقبل الشك ؟إن سامي لا يستطيع أن يجزم بشيء على وجه التحديد لأنه كل يوم يرى جديدا من أمر النساء"([1]).

أما الأمر الثاني الذي لا بد من الإشارة إليه هو مبالغة الكيلاني في وصف المشاهد الجنسية في هذه الرواية على غير عادته حتى أن الكيلاني نفسه يعترف بأن بعض القراء لم يرضوا عن رواية (ليل الخطايا) لأن بها جرعة زائدة من تصوير المشاهد والعواطف بين الرجل والمرأة وفي ذلك يقول : " وأنا لا أقر- حاليا – تجسيم مشكلة الجنس بطريقة مثيرة توحي بالانحراف.. وأعترف إنني في بعض قصصي قد عالجت موضوع الجنس بطريقة لم يرض عنها القليل من القراء.. قصة ليل الخطايا"([2]).

ويعلل ذلك بالواقعية وضرورة طرح مثل هذه القضايا بمختلف أبعادها ومثلما نراها في الواقع المعيش ومن خلال شخصيات تمثل تلك السلوكات الفاضحة " فإذا كان الخمر حراما، فلا بد للأديب أن يطرح المشكلة من خلال شخصية سكير عربيد، وكذلك القتل وقطع الطريق، فإن الأديب يصور الموقف من خلال أشخاص منحرفين، يهددون الروح البشرية وأموالهم حتى تتجسد المأساة البشرية في شخصية شارب الخمر وقاطع الطريق والقاتل، والزنا بدوره فاحشة محرمة ووباء خطير، أفلا يمكن تناوله بما يستحقه من تقبيح وتنفير، وما يصاحبه من مقدمات وإغراء وسقوط في أحداث وشخصيات" ([3]).

إلا أن نجيب الكيلاني ومع أنه لم يحاكم (وهيبة) و(سامي) في رواية (ليل الخطايا) وجعل خاتمتها النجاة بأعجوبة من الموقف المقزز ودون أدنى عقاب اجتماعي أو رباني عدا تأنيب الضمير والذي امتد على صفحات قليلة جدا من رواية تقع في مائتين وستة وخمسين صفحة، فهو يحاكم الرواية كلها حيث يقول : "فان قرائي لا يرونها الآن، ذلك لأني

1/ الكيلاني ، نجيب : ليل الخطايا ، ص 189 .

2/ الكيلاني، نجيب، مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص 229 .

3/ المصدر نفسه ، ص 113 .

منعت إعادة طبعها.. والسبب.. أن هذه كانت بها جرعة زائدة من تصوير المشاعر والعواطف بين الرجل والمرأة.. كما أنها تتعرض لمشكلة الخيانة الزوجية التي أمقتها أشد المقت، ولقد اندفعت لكتابتها تحت فورة غضب وحماس بالغين، لأني عرفت أبطال هذه القصة وألممت بالخيانة التي آلمتني، فقررت أن أكتبها رواية، وكأني أنتقم أو أحاكم هؤلاء الخونة، الذين لا يرعون في الله إلاًّ ولا ذمة، ولما هدأت مشاعري قلت لنفسي كان يمكن أن أكتب القصة على نحو لا يثير المشاعر.. فرفضت جميع العروض التي قدمت لي لإعادة طبعها" ([1]) .

ولعل الكيلاني قد تأثر برواية (مدام بوفاري) للكاتب (غوستاف فلوبير) حيث تنهي البطلة حياتها انتحارا بالسم بعد ما وقعت في الخطيئة في سلسلة من الخيانات لزوجها، وقد حاكم المجتمع الفرنسي تلك الرواية لما تضمنته من تصوير فضيع للمشاهد الجنسية التي خدشت الحياء واعتبرت آنذاك دعوة صريحة إلى الافتتان بلحظات الخيانة والاستلذاذ بها وهو الأمر الذي كان مخالفا لأخلاق وعادات وتقاليد المجتمع الفرنسي أو بالأحرى للريف الفرنسي في تلك الفترة الزمنية من حياة المجتمع الفرنسي.. مع الاختلاف بين الكاتبين ؛ حيث أن الكيلاني جرّم وهيبة ولم يسقط عليها عقاب الخيانة الزوجية بالمنظور الشرقي حتى يطرح قضية أخرى هي أكثر خطورة من الخيانة الزوجية وهي قضية القصاص والانتقام للشرف المهدور ..

ب – (عنايات هانم) في رواية (ليل وقضبان) أو (ليل العبيد) :[*]

(عنايات هانم) هي نموذج آخر من نماذج المرأة الساقطة التي تخون زوجها (عبد الهادي بك) مدير سجن أبي زعبل في إحدى سنوات ما قبل الثورة المصرية وقد مهد الكيلاني لهذه الخيانة باستعراض عدة تبريرات تتعلق بكل من الزوجة (عنايات هانم)

1/ الكيلاني ، نجيب : ليل الخطايا، ص ص 180 ـ 181 .

[*] / طبعت هذه الرواية أيضا تحت عنوان (ليل العبيد)، مكتبة الزنادي، القاهرة، دون تاريخ .

وكذلك بالزوج (عبد الهادي بك) والسجين (فارس) الذي كان الطرف الفاعل في هذه المأساة .

فقد استطاع الكيلاني أن يقدم وصفا خارجيا لـ (عنايات هانم) فهي المرأة الحسناء المتفجرة بالسحر والحيوية، وهي سليلة أسرة عريقة تتمسك بالعادات والتقاليد، فقد كانت (عنايات) ترغب في مواصلة دراستها حينما تحصلت على شهادة البكالوريا لكن والدها أثر أن يمضي في إجراءات الزواج فالمرأة مكانها المنزل على حد تعبيره.

وقد كانت لا ترغب في الزواج من (عبد الهادي بك) لأنها كانت تميل إلى المهندس شقيق زوج أختها ، غير أن مجلس العائلة أثر عليه عبد الهادي بك لما يتمتع به من سلطة وجاه ، لكن عبد الهادي كان عاقرا فتحرم عنايات هانم من أن يكون لها أولاد تهدهدهم وتناغيهم.

ورسم لها الكيلاني صورة من الداخل، وهي صورة دقيقة ، فهي تعيش في بيت الزوجية مستسلمة لمصيرها " مضطرة إلى ذلك لقد حرمها القدر من الأبناء.. فليس لديها طفل تهتم به وتفكر فيه.. وكما ارتضى المذنب مصير السجن فقد رضخت عنايات لمصيرها([1]).

إنها تعيش حياة زوجية يسودها الملل والوحشية والإحساس بالغربة حتى إنها لتتساءل أليست واحدة من سجناء أبي زعبل إنها "سواء أكانت وحدها مع خامتها أو إلى جوار زوجها فإن مشاعرها لا تتغير، الملل والوحشة وإحساس الغربة هي كل رصيد روحها، لطالما فكرت في ذلك الرباط الذي يضمها إلى زوجها، لا حب، ولا حتى الصداقة المجردة ولا أبناء إنها زوجة فقط"([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب : ليل وقضبان ، ط08 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان ، 2005م ، ص 13 .

2/ المصدر نفسه ، ص 13.

بل أكثر من ذلك فقد أصبحت مجرد ممرضة وخادمة لزوجها (عبد الهادي بك) الذي وصفه الكاتب من الخارج بأنه مدير السجن الذي "لم يكن خفيفا نشطا وإن تصنع ذلك ، إن بطنه المنتفخ، والثنيات التي تخطط عنقه، والشعر الذي يتكاثف حول عينيه، كلها توحي ببطء حركته، وتثير الشك في أن الأميرالي عبد الهادي بك مدير السجن أبي زعبل كان يوما ما شابا عسكريا أنيقا يلفت النظر"([1]).

وهو أيضا يعاني من عدة أمراض، فهو أولا عاجز جنسيا ثم إنه يعاني من ارتفاع ضغط الدم والسكري واضطرابات القلب، كل ذلك ولد عدم الانسجام بين عبد الهادي بك وزوجته عنايات هانم التي كانت تراه بأنه " أبعد ما يكون عن الرجل الكامل، وهي لا تشعر أنها امرأة ولا تستمتع بحقوقها كأنثى وزوجة إلا من شهر لآخر إنها تقف على قمة اثنين وثلاثين ربيعا.. عز الشباب.. وهو يرتكز على خمسة وأربعين عاما وشرايين متصلبة، وضغط دم مرتفع، وسكر.. وفراغ.. فراغ..."([2]).

وبالرغم من وصولها إلى العام الثاني والثلاثين فهي مازالت تعيش بمشاعر فتاة مراهقة، فلم يكد زوجها يسمح لها باصطحابه إلى القاهرة حتى شعرت أن قيودا مرهقة قد انحلت عن ساقيها فقد كانت " تمضي كالغزال الرشيق في مرح وتتشرب كلما يقع عليه بصرها في عشق بالغ"([3]).

حتى إنها كانت تقوم ببعض الأفعال التي لا تفسير لها ، إلا أنها تعبر عن رغبتها في الانطلاق والتحرر كتجرع زجاجة كوكا كولا من بائع جوال، وشراء بعض المجلات المصورة ورواية غرامية اسمها (الزنبقة السوداء) وكانت تبدي رغبتها في إملاء إرادتها وإثبات وجودها الحر. لذلك حينما استدعى زوجها أحد السجناء المدعو (فارس) لتصليح عطل الكهرباء شعرت على غير عادتها بأحاسيس الأنوثة وبالرغبات المكبوتة فقد " انتعشت في

1/ الكيلاني ، نجيب : ليل وقضبان ، ص 11 .

2/ المصدر نفسه ، ص 15 .

3/ المصدر نفسه ، ص 44 .

قلبها رغبات نائمة ارتبط الليل في ذهنها بنجوى الحب؟ وهمسات العشاق وحديث القبل والعناق الخالد، هكذا كانت وهي فتاة لم تتزوج، وخمدت هذه الأحاسيس منذ أن تزوجت لكنها اليوم ليست تدري لماذا استيقظت في حرارة وعنف..."([1]).

ذلك ما كانت تشعر به (عنايات هانم) عند قدوم (فارس)، الذي قدمه لنا السارد بأنه دخل السجن بتهمة القتل أخذا بثأر والده ، وقد كان لأمه النصيب الأوفر في تحريضه على ارتكاب تلك الجريمة ، فحكم عليه بالسجن خمسة عشرة عاما ، قضى منها عشرة ، مما جعله ينقلب حاقدا وناقما على المجتمع وأمه وأقاربه وحتى على نفسه، يشعر بالمهانة والاحتقار حتى أنه بكى ذات مرة حينما مرت عليه زوجة البك مدير السجن (عنايات هانم) ورمقته بنظرة ازدراء واحتقار " وأخذ فارس يجفف دموعه ، ويرفع ذيل سترته الزرقاء ليمسح عن جبينه العرق، ثم تنهد متحصرا وهو يقول:

ـ انظر.. ألا ترى؟

ـ قال عبد الحميد والدهشة لم تفارقه .

ـ ماذا ؟ ـ زوجة البك المدير، عندما مررنا بها رمقتنا بنظرة احتقار وكأننا كلاب نجسة.. آه يا عبد الحميد.. "([2]).

أما اليوم فقد استدعي لإصلاح كهرباء بيت مدير السجن عبد الهادي بك، فهو يظن أن الدنيا قد أقبلت عليه سيما عندما رأى (عنايات هانم) تكرمه إكراما لا يستحقه سجين، بل إنها تراوده عن نفسه فعندما رآها "خشع فارس ونزلت يداه لم يستطع أن يستمر في استراق النظر إليها وتسربت إلى خياشيمه رائحة غريبة أثارت النار في جسده ..."([3]).

1/ الكيلاني ، نجيب : ليل وقضبان ، ص 30

2/ المصدر نفسه ، ص 04 .

3/ المصدر نفسه، ص 31 .

أما (عنايات هانم) فمنذ أن رأت (فارس) تغيرت حياتها وتعقدت أكثر، حيث نما كرهها لزوجها العاجز وتطور هذا الكره إلى الرغبة في العيش بعيدا عنه حتى لو كان ذلك لبعض الوقت، لذلك حينما ذهب إلى القاهرة في زيارة لأهلها أصرت على البقاء في بيت الأسرة لأيام، مما أغضب زوجها عبد الهادي الذي عاد إلى أبي زعبل دونها.

وقد كشفت (عنايات هانم) ما يجول بخاطرها تجاه زوجها لقد أخبرت والدها بما تشعر به، ذلك ما أغضب والدها أيضا حيث قرر إعادتها إلى زوجها بنفسه والاعتذار إليه " ستعودين إليه وسأصطحبك إلى هناك بنفسي، وسأعتذر لعبد الهادي بك بالنيابة عنك.. هذا أمر لا يحتاج إلى مناقشة"([1]).

وتعود (عنايات هانم) إلى زوجها على مضض، لكنها تشعر بالضيق والألم يراوده شعور الكراهية، يحاصرها كلام والدها عن كرامة الأسرة وواجب الزوجة تجاه زوجها " وتمتمت ماذا؟ أأظل هكذا سنين أخرى وأحيا في هذا الحرمان والضيق؟ والنهاية؟ شيخوخة ثم موت. وبضع آيات من القرآن على روح الفقيد، ورجال يشربون القهوة السادة، وطائفة من فقراء المشايخ والمساكين يملئون بطونهم بالطعام، ويقرؤون الفاتحة وأربطة عنق سوداء، وسطور قليلة في صحيفة، وسيدات في أردية سوداء، وقبر ضيق ولا شيء بعد ذلك سوى النسيان.. مصير تعس، لو كنت أحيا كما يحيا بنو البشر السعداء لبرقت أحلامي بالمرح، وتوشحت أيامي بالبهجة، وَلَنَسَيْتُ كل الآلام والأحزان..." ([2]).

من هنا أصبح الصوت الشيطاني يطارد ويهمس في أذنيها ليل نهار حتى أنه أصبح يصارحها بما تشعر به فيقول لها : "ومع ذلك فأنت تريدين رجلا "([3]).

نعم إن (عنايات هانم) صارت تفكر في رجل يسد الفراغ الذي تعانيه ويطفئ النار الملتهبة في نفسها نار الحرمان التي تلهب كل ذرة في كيانها "والعمر قصير يا

1/ الكيلاني، نجيب، ليل وقضبان ، 68 .

2/ المصدر نفسه ، ص ص68 ـ 69 .

3/ المصدر نفسه ، ص 74 .

عنايات...وزوجك قال لك بالأمس أن أخصائي القلب منعه منعا باتا من ممارسة نشاطه الجنسي لفترة طويلة.. وأنت تكرهينه.. والتضحية يا عنايات أصبحت رمزا مقيتا. وأنت يا عنايات لا تستطيعين أن تقضي حياتك وأنت تمنحين.. دائما ونادرا ما تأخذين شيئا يرضي أشواقك الجائعة.. أشواق روحك وجسدك"([1]) .

هكذا يسقط القناع ويتهاوى صرح الأخلاق ويتمزق غشاء الزوجية وتهوى كرامة الأسرة حينما تقرر(عنايات هانم) الوقوع في الخطيئة، إذ تغتنم سفر زوجها عبد الهادي بك إلى القاهرة، فتقطع أسلاك الكهرباء يسقط البيت في ظلام دامس "وتحسست طريقها إلى التليفون، وطلبت من الضابط النوبتجي أن يرسل إليها ذلك السجين(فارس) الذي أصلح خلل النور في المرة السابقة([2]). لقد وصف الكاتب تلك اللحظة التي كسرت فيها (عنايات هانم) حجاب العفة والشرف من خلال هذا الحوار الممزوج بشيء من الوصف :" وكم كانت دهشته حينما رآها تقدم عليه وظل مخيفة ترتعش على وجهها، ثم أمسكت بذراعه وقادته إلى.. إلى السرير وهي تقول:

ـ اجلس.. آمرك أن تجلس.

وجلس بعد أن دفعت به إلى مكانه فتمتم :

ـ لا تنسي يا سيدتي أنني سجين.. مجرم.. أتعرفين؟ أنا عبد ... البك المدير .

ـ لا تذكر البك المدير.. إنه في القاهرة الليلة ..وأنا وحدي.. أتفهم ؟ وحدي؟

ـ لكن لابد من إصلاح الأسلاك.. حتى يتبدد الظلام .

ـ الظلام يريحني...

1/ الكيلاني ، نجيب : ليل وقضبان ،ص 74.

2/ المصدر نفسه ، 75 .

وأسرعت ثم أطفأت المصباح فسبحت الحجرة في الظلام، ولم تعد تشع إلا السيجارة التي تتقد كعين الشيطان الأعور.. إنه لا يدري كم من الوقت مضى.." ([1]).

ويصور الكيلاني أحاسيس هذه المرأة بعد ارتكابها الفاحشة حيث كانت تبرر لجريمتها دون ندم أو حسرة من خلال هذا المونولوج الداخلي حيث تقول : " هي تعلم الآن لماذا يهفو الناس إلى الخطيئة ليس الجوع وحده هو الذي يغري باختلاس الطعام، الخطيئة في حد ذاتها لها إغراء لا يمكن مقاومته في بعض الأحايين، ولها نكهة حريفة تفتح الشهية"([2])..

بل إنها أيقنت بأن فعلها الآثم هذا ليس مجرد مغامرة لكنه أكثر من ذلك فهو انطلاق من قيود نفسية وتمرد على الأوضاع، وتحدٍّ لزوجها عبد الهادي بك الذي ملأ البيت ضجيجا لمجرد أنها طلبت البقاء ليومين في بيت أهلها ، هو انتقام لشبابها المهدر وحريتها المكبوتة ، هو أيضا سخرية من فضائل أبيها وقيمه وحفاظه على التقاليد.

هكذا تستعذب (عنايات هانم) الخطيئة وتستمرئ الإثم ، فتوطد نفسها مع الخطيئة وتعد لها العدة ،هكذا تخاطب نفسها فتقول : " ستعيش في أبي زعبل؟ وستبتسم في وجه زوجها، وتضمن له الطاعة العمياء في ظاهر الأمر، ثم تفعل ما تشاء بعيدا خلف الستار، ستكون ذات وجهين وجه الزوجة الوفية الطائعة التي يثني الناس على أدبها ورقتها، ووجه الخاطئة التي لا تعرف للطهر والعفاف معنى..."([3]) .

هكذا ازدوجت شخصية (عنايات هانم) فهي أمام الناس الزوجة الطائعة الوفية التي يمتدح الناس سلوكها، ويثنون على رقتها وأدبها، وهي في الخفاء وفي جنح الليل، أمام (فارس) الخاطئة التي لا تعرف للشرف معنى ولا للطهر والعفاف مدلولا، والتي قد يصل

1/ الكيلاني ، نجيب : ليل وقضبان ، ص 80 .

2/ المصدر نفسه ،ص 91 .

3/ المصدر نفسه ، ص 92 .

بها الأمر في سبيل رغباتها وشهواتها أن تفكر في زحزحة زوجها من الوجود حتى يخلو لها الجو مع عشيقها..

مع ذلك فإنها لا تشعر بأدنى ذنب أو وخز للضمير، فهي العكس من ذلك ،تشعر بالظلم وبأنها ليست آثمة وأن عبد الهادي زوجها هو السبب، لذلك "طالما راودتها أفكار شيطانية... طالما حلمت بموته.. وخاصة عندما أيقنت ألا حل لمشكلتها غير الموت... موته أو موتها.. لكن لماذا تموت هي ؟ إنها لم ترتكب جرما، هي مظلومة يائسة لم تؤذ أحدا... ذنبها الوحيد أنها تكرهه، ومع ذلك فهي تشعر أنها غير آثمة ، الآثم قلبها ، بل الآثم عبد الهادي بك"([1]) .

إلا أن الكيلاني ينهي هذه المأساة بما ينبغي أن يكون، فعلى غير عادته حكم بالعقوبة على المجرمين، ذلك أن خبر الخطيئة قد شاع في السجن وسار بين السجناء كما تسري النار في الهشيم فقد أفشى (فارس) سره ذات ليلة وهو خارج من بيت (عنايات هانم) مخمورا، فقد توقف فارس عن المسير وهتف بصوت عال(أمام الحراس) : "عبد الهادي بك ليس هنا ، وهي تحبني، ليست هذه أول مرة إن سعادة المدير ينام على سرير من المخمل، عندما استلقيت عليه خيل إلى أني أغوص في النعيم،.. عنايات هانم قالت لي ذلك.. كانت تناديني باسمي المجرد. أحبك يا فارس.. ضمتني إلى صدرها وغمرت وجهي بالقبلات.. أنظر ألا ترى أثار قبلاتها.."([2]).

وحينما يصل الخبر إلى عبد الهادي بك عن طريق رسالة مجهولة، يقرر الانتقام لشرفه، فيأمر الباش سجان (الشلقامي) بقتل فارس حيث يدس له السم في الطعام. ويطلق زوجته ويطردها شر طرد " دون أن يدري تناول طبقا ممتلئا بالرز، ثم قذفها به وهو يصرخ:

1/ الكيلاني، نجيب، ليل وقضبان ، ص 94 .

2/ المصدر نفسه ، ص 122 .

ـ يا عاهرة، ستعيشين بقية حياتك يجلك العار، وتنظر إليك العيون في احتقار أنت طالق، طالق.. طالق، دون عودة، وثقي أني سأنتقم منك ومنه..

حاولت أن تتكلم. لكنه لم يمكنها من ذلك، بل أمسك بذراعها، وجرها صوب الباب، ثم قذف بها إلى الشارع، وأغلق الباب، وعاد ليبكي بمرارة قاتلة " ([1]).

هكذا تنتهي المأساة، وتقبر الخطيئة بمقتل (فارس) وطرد (عنايات هانم) ثم تنكشف جريمة (عبد الهادي بك) مع (الشلقامي) ويقدمان إلى المحاكمة...ويأتي مدير آخر للسجن...

1/ الكيلاني، نجيب، ليل وقضبان ، ص 148 .

الفصل الخامس
نموذج المرأة غير العربية

الفصل الخامس
نموذج المرأة غير العربية

أولا : نموذج المرأة الغربية

أ) ـ (صوفيا)

في رواية (الرجل الذي آمن

ب) ـ الملكة (مارجريت)

في رواية (اليوم الموعود)

ج) ـ (هيلدا)

في رواية (مواكب الأحرار)

ثانيا : نموذج المرأة اليهودية

أ) ـ (راشيل)

في رواية (عمر يظهر في القدس)

ب) ـ كاميليا

في رواية(دم لفطير صهيون)

شكل نموذج المرأة غير العربية رصيدا لا يستهان به من الشخصيات النسوية في روايات نجيب الكيلاني على اختلاف أنواعها التاريخية والاجتماعية والسياسية. والمرأة غير العربية في تلك الروايات هي إمّا أوروبية أو يهودية وقد عبرت كلها على اختلاف مراكزها الاجتماعية عن الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية في أوروبا عامة وفي إسرائيل كما عبرت عن فكر وجودي انغمس في الماديات، فقد كانت أغلب الشخوص تسعى إلى تحقيق الحرية الذاتية واثبات الوجود الفردي عن طريق رفع القيود ممثلة في الثلاثي الخطير، الجنس والدين، السياسة. كما أن أغلب تلك الشخصيات تحمل نظرة عدائية من الآخر العربي والإسلامي على حد سواء وخصوصا الشخصيات اليهودية التي لا تكره العرب المسلمين فحسب بل عداؤها موصول إلى جميع شعوب العالم، سيما أولئك الذين لا يساندونها في مخططاتها الاستعمارية .

أولا : نموذج المرأة الغربية :

لم يكن للمرأة الغربية حضور كبير في الأدب الروائي عند الكيلاني، مثلما كان للمرأة اليهودية. إذ لم تشكل الشخصيات النسوية الغربية أدوارا رئيسية ضمن صورة أحداث العمل الروائي. بل إن أغلب الشخصيات النسوية الغربية كانت شخصيات نمطية ثابتة، نذكر منها :

أ) ـ (صوفيا) في رواية (الرجل الذي آمن):

وهي امرأة إيطالية صديقة الموسيقار (أريان)، وقد وصفها السارد بأنها " جميلة ومسلية؟ لكنها لا تفكر إلا في الرحلات والمرح والليالي الحمراء.. وهي مرشدة سياحية، تنفق كل دخلها على متعتها الشخصية، ولا تفكر إلا في نفسها، أو نزهاتها، وتكاد تكون قد نسيت أهلها الذين يعيشون في مدينة أخرى بالغرب.."([1]).

1/ الكيلاني ، نجيب : الرجل الذي آمن ، ص 06 .

وعندما يقرر(أريان) صديقها السفر إلى الشرق (دبي) نجد هذه الفتاة تسخر من تلك البلاد الصحراوية وتتعجب من الناس الذين يسافرون إليها ،فهي فتاة متعصبة للغرب ، ويظهر ذلك من الحوار التالي :

" قال لها :

ـ سوف أرحل يا صوفيا .

ـ خذني معك يا إريان .

ـ سأقيم هناك فترة قد تطول .

ـ وكيف أبقى هنا من دونك ؟

ـ من يدري قد أجد لك فرصة هناك .

قالت في دهشة :

ـ في هذه البلاد الصحراوية ؟

ـ إن دبي من أجمل المدن ... يسمونها لؤلؤة الخليج .

ـ جذوري هنا .. والشرق شرق ... والغرب غرب " ([1]).

وغير بعيد عن إدراك المتلقي ما يوحي به هذا الحوار من نظرة فوقية للغرب على الشرق على الرغم من أن دبي كما وصفها السارد لؤلؤة الخليج إلا أن ذلك لم يشفع لها ، وتبقى في نظر المتعصبين الأوروبيين من أمثال صوفيا (تلك البلاد الصحراوية).

لذلك سرعان ما تجد صديقا آخرا بديلا له . وعندما يعتنق إريان الإسلام وتعلم صوفيا بذلك تسعى جاهدة لرده إلى المسيحية؛ حتى أنها توافق على القيام بمهمة لصالح الكنيسة لرد إريان عن الإسلام علما أن والده كان قسيسا شديد العداء للإسلام . ولما يرفض إريان الانصياع إلى رغبات والده وصديقته القديمة صوفيا. وفعلا تسافر صوفيا إلى دبي وتحاول تجديد علاقتها مع إريان خاصة عندما شبت بقلبها نار الغيرة لما علمت بأنه على علاقة مع الراقصة (شمس) التي كانت سببا في إسلامه، وتستعين صوفيا بصديقها الجديد

1/ الكيلاني ، نجيب : الرجل الذي آمن ، ص 07 .

والذي هو أيضا صديق إريان ، تستعين به لرد إريان عن دينه الجديد ، وتذهب إلى أبعد الحدود في ذلك حيث تمنح نفسها أو بالأحرى تترك صديقها (بينيتو) يعبث بها كما يشاء وتمنحه ما يريد مقابل مساعدته لها في رد إريان عن عقيدته الجديدة.

لكن جميع محاولاتها تفشل فتغري بينيتو بقتل إريان، ويحاول فعلا اغتياله بإطلاق الرصاص عليه، ويكتشف أمره فيزج به في السجن ، حينها تتنصل صوفيا من القضية وتتنكر لبينيتو ، ولا تفكر إلا في نفسها وتتركه يواجه مصيره وتحاول الهرب ..

وقد نجح الكيلاني في رسم هذه الشخصية الانتهازية العابثة، والمستهترة بالقيم والأخلاق ، فصوفيا فتاة مادية ، تعيش بلا مبادئ ولا قيم ، لا تحب إلا نفسها ، وهو الوصف الذي يوحي ضمنيا بالفروق الشاسعة بين سلوكات هذه الفتاة الغربية وبين الفتاة المسلمة ، أو لنتوسع في المقارنة فنقول الفرق بين الشرق والغرب وعلى حد تعبير صوفيا نفسها (فالشرق شرق والغرب غرب) ؛الشرق بمبادئه وقيمه والغرب غرب بانحلاله واستهتاره..

ب) ـ الملكة (مارجريت) في رواية (اليوم الموعود):

وهي زوجة الملك لويس التاسع الفرنسي الذي قاد الحملة الصليبية السابعة على مصر، وقد رافقته زوجته إلى هناك على الرغم من أنها غير مقتنعة من النصر ويظهر ذلك من خلال الحوار الذي دار بينها وبين زوجها الملك لويس في بداية الحملة " فأخذ لويس يدها مترفقا وهو يقول : لا بأس ....أنظري إلى تلك القصور الشاهقة هناك خلف الشاطئ... لن تمر أيام قلائل إلا وتنزلي فيها معززة مكرمة، وعند ذلك سوف تنسين كل ما لحق بك من متاعب...

فقالت مارجريت:

- أَوَ تَظُنُّ الأمر بهذه البساطة؟ إن هؤلاء المسلمين قد جبلوا على العناد وما أظنهم يتراجعون أمام جحافلنا إلا بعد كفاح مرير..

- كلا يا عزيزتي...لعلك إلى ما تكبده أسلافنا منذ ثلاثين سنة في هجومهم على هذه المدينة.

- هذا ما أقصده فعلا...

- إني أعلم يا عزيزتي أن طريقنا ليس مفروشا بالورود، لكن تأكدي أن الله معنا...

فقالت مارجريت مداعبة:

- و أعداؤنا أيضا يعتقدون أن الله معهم..."([1]).

وفي الرواية نفسها نجد (زوجة) الجندي (مارسيل) :

وهو أحد الجنود الفرنسيين في حملة لويس التاسع بمصر، لكنها لم تكن زوجة وفية، فها هو أحد أصدقائه يرسل إليه خطابا يخبره فيه بأن زوجته تخونه وتقضي الليالي الحمراء في باريس" فكم كانت دهشته حينما فتح الرسالة وقرأ السطور التالية :

- عزيزي مارسيل:

إنك تحارب من أجل الرب وتغزو باسم الصليب، وتخوض في برك الدم...لكن وا أسفاه؟؟ إن امرأتك في نفس الوقت تقضي الليالي الحمراء في باريس مع الشيطان، وتغرق نفسها في مستنقعات الإثم والخطايا، مع عشاقها الكثيرين، حتى أصبحت فضائحها على كل لسان، إنني أصلي من أجلك أيها المسكين المخدوع... وأصلي من أجل امرأتك الخاطئة التي تستحق القتل أكثر مما يستحقه أولئك الأعداء الذين تحاربهم..."([2]).

فقد وصفها الكاتب بأنها امرأة فاسقة فاجرة تخون زوجها في غيابه دون أن تقيم وزنا للحب الذي كانت تكنه لزوجها أو ربما تدعي ذلك ولم تكن تحبه قط.

ج) ـ شخصية (هيلدا) في رواية (مواكب الأحرار):

والتي تدور أحداثها في مصر ، حيث تصور حدثا تاريخيا هاما مرت به مصر وهو حملة نابليون على مصر عام 1798م والتي استمرت حتى سنة 1801م، إذ شهدت مصر

1/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود ، ص ص38 ـ 39 .

2/ المصدر نفسه ، ص 85 .

انتفاضات وهبات شعبية متتالية في القاهرة والإسكندرية وبولاق، وقد كانت ثورة بولاق أهمها جميعا وأشدها ، حيث تكبد الفرنسيون خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، مما جعلهم يحقدون على سكان بولاق ويذيقونه الأمرين ؛ فقد الاستعمار الفرنسي أعصابه مما جعله يكثف القصف بالقنابل على بولاق، وكانت نتيجة ذلك استشهاد عشرات المئات من سكان حي بولاق ...

في هذه الأجواء المشحونة بالحرب تظهر شخصية (هيلدا)، وهي فتاة رومية ،ابنة (برتلمي) أو(برطلمين) أحد العملاء والجواسيس لحساب الفرنسيين ، وهو ليس مصريا ، وإنما رومي استقر في مصر منذ زمن بعيد ، فقد " كان لبرطلمين دكان يبع فيه القارورات الزجاجية وبعض المساحيق الكيماوية والنباتات والبذور المطحونة، وله عدد كبير من الزبائن هؤلاء الذين يتكاثرون في الأيام التي تأتي فيها للدكان، وما أكثر ما كان يتجرأ بعض الشبان الجسورين ويقتربون من المحل، ثم يهمسون وعيونهم تذوب رقة وخجلا : (يا بنت فرط الرمان يا حلوة ..) " ([1]).

وكانت هيلدا تتمتع بجمال فائق ما جعل كل من يراها يرغب في التعرف عليها ومجالستها ، فقد وصفها السارد بأنها وحيدة أبيها لذلك فقد عاشت حياة دلال لا يرفض لها والدها طلبا " ومن ثم وجدت نفسها حرة طليقة تفعل ما يحلو لها ، فلم يكن أبوها بمستطيع أن يعترض على سيرها في شوارع القاهرة في حارة النصارى أو الأوزبكية، حاسرة الوجه، محبوكة الثياب، ولم يكن يجد حرجا يذكر عندما يراها تجالس (سمارة) ، وتجاذب أصدقاءه أطراف الأحاديث، بل كان يطرب عندما يرى أحدا من رؤسائه المماليك أو الأتراك أو أحد فرسانهم يبش لها ،وينحني رأسه إجلالا لجمالها ، أو يحاول جاهدا أن يختار الكلمات المناسبة ليطري حسنها الفتان ،وَلِمَ لاَ وهو يرى أن ابتسامتها في وجه رِؤسائه

1/ الكيلاني ، نجيب : مواكب الأحرار ، د.ط ،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان، 2005م ، ص 10

تبدد غيوم المشاكل التي تخيم على أفق حياته العملية بين السادة الحاكمين "([1]).

لذلك كانت هيلدا تشمئز من تصرفات والها الماكرة ؛فهو يسلك سبلا ملتوية في حياته الخاصة والعامة .وكانت هيلدا تحب (إبراهيم آغا) أحد الفرسان المماليك الشجعان ، وتنوي الزواج منه على الرغم من اختلاف الديانة ؛فهي مسيحية وهو مسلم .

غير أن الزواج لا يتم ولم يكن السبب الفوارق الدينية بينهما ، وإنما السبب هو والدها الخائن الذي منعها من لقاء إبراهيم آغا ، وعلل ذلك بقوله " لم أقف في طرقك يوما يا هيلدا ، لكني أعرف عن يقين ماذا يجب أن أفعل الآن ، إن علاقتك اليوم بإبراهيم آغا ، ذلك الفارس المملوكي ،علاقة حب، لكنها ستكون غدا خيانة كبرى لا يغتفرها الفرنسيون.. افهميني يا هيلدا ..هذه هي الفرصة التي نستطيع فيها أن ننتقم من عجزنا وذلنا وحياتنا المتواضعة السمجة "([2]).

من هنا تبدأ مأساة هيلدا التي لم يتجاوز عمرها ثمانية عشر عاما ،ومع ذلك فقد كانت تتمتع بمواصفات لا يتمتع بها حتى والها ، فقد كانت " عاقلة ، أوتيت حذرا ولباقة وذكاء تفوق الكثيرات من بنات طائفتها في القاهرة ، فلم تتورط في عبث مشين ، ولم تسر في طريق التبذل الفاضح حتى نهايته الشائكة الكئيبة ، كانت مرحة لعوبا ، تملأ أفق البيت بهجة وسعادة ، وتضفي على الزائرين متعة خالصة مؤثرة لا يستطيعون نسيانها " ([3]). لكن والدها يربط علاقات الخيانة مع الفرنسيين حتى يصل إلى أعلى المراتب ، إذ يكلفه نابليون برئاسة العسس وقيادة المخابرات " وبعد فترة قال نابليون :

ـ حدثني القنصل عن إخلاصك وتحمسك البالغ لنا .

ـ وأعتقد يا سيدي القائد أن أعمالي ستثبت ما سمعته عني .

1/ الكيلاني ، نجيب : مواكب الأحرار ، ص 09 .

2/ المصدر نفسه ، ص 14 .

3/ المصدر نفسه ، ص ص 09ـ 10 .

ـ وأنت يا برتلمي ستكون رئيسا للعسس.. وستمسك زمام جهاز المخابرات " ([1]).

غير أن هذا الجاه الذي وصل إليه برتلمي كان على حساب سعادة ابنته هيلدا التي يقدمها عربون صداقة للجنرال (ديبوي) القائد المقرب من نابليون ، حيث يقدمه إلى ابنته قائلا : " إنه ضيف كبير يا هيلدا ومن المقربين إلى نابليون وهو في نفس الوقت حاكم المدينة ـ القاهرة ـ وأنا أعمل تحت إمرته ، إنه جاف بعض الشيء ، لكني واثق أن زيارته لنا هذه الليلة ستكون بعيدة الأثر في علاقته بنا ..أرجو أن يجد الراحة التامة في منزلنا الليلة ،ولا شك أنك على علم بما يجب عمله، لو نجحت يا هيلدا الليلة فسيكون ذلك بداية طيبة .." ([2]).

هكذا يضرب برتلمي عرض الحائط بكل الأعراف والقيم الإنسانية حينما يقم ابنته هيلدا هدية رخيصة للجنرال (ديبوي) ، الذي هتك عرضها ذات ليلة في قصر إبراهيم بك ببركة الفيل ..ثم يتركها محطمة النفس ، فتنغمس في شرب الخمر علها تنسى ليلتها تلك ، فقد " عادت هيلدا في وقت متأخرة من الليل ، وصحبها الكابتن (مالوس) إلى بيتها ..كانت صامتة شاردة ، لم تحاول أن تجاذب أطراف الحديث ..ما أوسع البون بين لقائها آخر النهار وصمتها الآن ...وحينما بلغت بيتها قرأ أبوها في عينيها الكثير من المعاني الحزينة، لم يكن الرجل من الغباء، بحيث يخفى عليه شيء ، وتمتم في نذالة :

ـ حسنا ..لقد تأخرتِ كثيرا يا هيلدا ، وعليك الآن أن تأوي إلى فراشك .

ورمته بنظرات نارية ، وقالت في صوت تفح من نبراته رائحة الاحتقار :

ـ ألم تكن تريد ذلك .

قال متبالهاً:

ـ لا أفهمك .

1/ الكيلاني ، نجيب : مواكب الأحرار ، ص ص 76ـ77 .

2/ المصدر نفسه، ص 83 2

ـ أنت تفهم كل شيء.. وماذا يكون مصير الحمل بين فكي الذئب ؟ ؟لا ..لا بين ذئبين جسورين لا يرحمان .

وطأطأ رأسه في أسى حقيقي هذه المرة وقال :

ـ مستحيل أن يفعلها ديبوي ..إنه رجل محترم .وانفجرت صائحة :

ـ هذا النوع من الرجال (المحترمين) لا مثيل له في الانحطاط ، إنهم يعبثون بأرواح البشر، ألا يمكن بعد ذلك أن يعبثوا بشرف فتاة ضعيفة .."([1]).

وقد أثرت تلك الحادثة عل نفسية هيلدا وسلوكها ، فتحولت من فتاة عاقلة متزنة ، إلى النقيض ، فانغمست في الرذيلة مع الكابتن مالوس بعد أن تخلى عنها الجنرال ديبوي ورفض الزواج منها بحجة أن ما حدث أمر عادي يحدث في فرنسا يوميا ، فقد جاءته الفتاة بمحض إرادتها ، ثم إنه يكبرها سنا وهو متزوج وكما قال " أجل وزوجتي في باريس ..والمسيحي المؤمن لا يتزوج إلا واحدة .." ([2]).

هكذا تنقلب حياة تلك الفتاة بفعل والدها الذي لم يرحمها ، ثم يضاف إلى تعاستها موت والدتها في الوقت الذي كانت فيه في أشد الحاجة إلى مواساتها والتخفيف من حدّة الصدمة التي زلزلت كيانها. فتعيش على ذكريات الماضي الشرق فها هي تقول لأبيها: "كل شيء كما هو ، ومع ذلك فإن ديبوي باختصار ، ما هو إلا عنوان لقصة مبتذلة .. أنا وأنت وهو شخصيات تعسة فيها ..والحقيقة يا أبي أن ما أشعر به غريب غاية الغرابة ..تصور أنني أفكر في الماضي بإلحاح ..لقد كنت آنذاك سعيدة ..كان بيتنا متواضعا ، وكان حانوت الزجاجات الذي نبيع فيه يدرُّ علينا بعض الدخل الإضافي .. كنا مندمجين مع طوائف ليسوا من علية القوم على أي حال .. أما اليوم فها هو القصر والحرس ومنصبك الضخم والسلطة والمال والفرنسيون ..ومع ذلك فإن هيلدا أتعس كثيرا من هيلدا بنت

1/ الكيلاني ، نجيب : مواكب الأحرار، ص ص 92 ـ 93 .

2/ المصدر نفسه ، ص 115 .

فرط الرمان ..هيلدا الأمس كانت مرحة طروبا لا تعرف القلق ولا الخمر ولا الأرق ، صدقني يا أبي لو خيرت بين اليوم والأمس لاخترت الأمس .. "([1]).

وبذلك ينجح الكيلاني في تصوير هذه المرأة في صورة ضحية للطمع والجشع والخيانة من قبل أقرب الناس إليها وهو والدها الذي باعها في سوق النخاسة المقنع بالطموح إلى أعلى المراتب في الدولة ، ولكن على حساب العفة والشرف والطهر ، لتتحول هيلدا من فتاة تنبعث منها الحياة والفرح والسعادة إلى حطام امرأة تعيش على اجترار ذكريات الماضي ، ماضي المرح والطرب....

ثانيا : نموذج المرأة اليهودية :

إن المتتبع للآثار الروائية للكيلاني يعثر على شخصيات نسوية متنوعة المشارب تعكس الحياة اليهودية في أبسط تفاصيلها اليومية، ومن تلك الشخصيات النسوية نجد على سبيل المثال ما يلي :

ـ في رواية (نور الله الجزء الثاني) نجد شخصية زينب بنت الحارث :

وهي زوجة سلام بن مشكم من يهود خيبر، بل واحد من زعمائها .وزينب هذه تحمل في قلبها حقدا قويا على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وعلى عموم المسلمين. وقد وصفها السارد بأنها امرأة قوية سيدة قومها لذلك فهي تحضر اجتماعات سادة خيبر على الرغم من اعتراض زوجها سلام بن مشكم على ذلك " ودخلت امرأة شبه ملثمة وقالت:

ـ لا بد أن أشارككم في هذا الاجتماع الخطر.. إن اليهود اكتووا بنار المذلة والعذاب رجالا نساء وشيبا وشبانا"([2]).

1/ الكيلاني ، نجيب : مواكب الأحرار ،ص ص 140ـ 141 .

2/ الكيلاني ، نجيب: نور الله (الجزء الثاني) طبعة جديدة منقحة ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2000 م، ص64.

لذلك أفرد لها الكاتب مساحة واسعة من هذه الرواية، حيث أولاها الكثير من اهتمامه؛ فقد اكتسح وجودها تسعة فصول من الرواية ([1]).

فقد استطاع الكيلاني من خلال تلك الفصول أن يرسم ملامح تلك الشخصية وأبعادها النفسية والفكرية، فقد اتصفت كغيرها من أبناء جلدتها (بني خبير) بالدهاء والمكر والحقد، تسير على خطى تعاليم التلمود التي ترى بأن جميع الأمم من دون اليهود قد خلقهم الله ليكونوا عبيدا مسخرين لخدمة اليهود ومخططاتهم ، ومن خرج عن ذلك فحكمه القتل لأن التلمود تغريهم بذلك، فمن قتل (أمميا) أي غير يهودي يكافئ بالخلود في الفردوس. لذلك كانت تسعى هي وقومها إلى التصدي للدعوة المحمدية، والتخطيط لقتل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ" قالت زينب دون أن ترفع عن وجهها النقاب ودون أن يدرك أحد ما يرتسم على وجهها من انفعالات حاقدة :

ـ إن أقصر طريق هو قتل محمد ([2]) .

فقد بذلت قصارى جهدها، فها هي تقترح على قومها أن يرسلوا واحدا منهم ليدس السم للرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ، ثم بعد ذلك عندما يتخاذل قومها عن تطبيق هذه الفكرة، تدبر مؤامرة أخرى حيث تتفق مع (فهد) أحد عبيد زوجها على قتل محمد كما فعل وحشي مع حمزة بن عبد المطلب. ولمّا درج اليهود على بذل كل الطرق والوسائل لتحقيق مخططاتهم والوصول إلى غاياتهم، فإن زينب بنت الحارث سيدة قومها وزوجة سلام بن مشكم سيد قومه، تدوس على كرامتها ، وتمرغ شرف زوجها في الوحل ، حيث تسلم نفسها للعبد (فهد) في صورة من أبشع صور الخيانة الزوجية لا لشيء سوى لشفاء غليلها ، فهي امرأة تمقت زوجها المتخاذل وتريد الانتقام من خصمها محمد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ .

1/ الكيلاني ، نجيب: نور الله (الجزء الثاني)(الفصول : 6 ـ 8 ـ 9 ـ 10ـ 11 ـ 12 ـ 15 ـ 16 ـ 17).

2/ المصدر نفسه ، ص66

وتعجز، وتفشل خطتها حينما تنهزم خيبر أمام جحافل المسلمين ، فتلجأ إلى خطة أخرى حينما تعلن إسلامها وتولم للرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ بشاة مسمومة فيأكل منها أحد الصحابة (بشر بن البرّاء) فيموت لتوه مسموما .

لكن الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ بعد أن لاك مضغة منها يلفظها ويلتفت إلى أصحابه قائلا: "إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم"([1]) . وبذلك يكتشف أمرها ويقام عليها حد القتل . وبذلك تكون صورة هذه المرأة اليهودية صورة تحمل كل صفات النسوة اليهوديات من خيانة وغدر ومكر وفسق وفجور .

ـ أما في رواية (ليل وقضبان) فتصادفنا شخصية (نبيهة بنت حسن عرفات) :

وهي شخصية موضوعية ورد اسمها كثيرا على لسان أحد شخوص الرواية (الشيخ سلامة) وهو محكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، لأنه قتل أخاه من أجل الميراث وقد شهدت عليه زوجة أخيه وهي (نبيهة بنت حسن عرفات) ،وقد وصفها الكاتب على لسان هذا الشيخ بأنها " وباء وربع صفراء ويهودية بنت يهودي"([2]).

وقد وصفها الكاتب بالخيانة أولا لأنها خانت زوجها حينما اتفق مع أخيه (الشيخ سلامة) على قتله، ثم غدرت به لمّا شهدت ضده لتبرئ نفسها وتلك من الصفات التي اشتهر بها اليهود أينما كانوا . لذلك نجد هذا الشيخ يهذي ويرجع كل مصائب العالم إلى نبيهة بنت حسن عرفات، ولعل في ذلك ترميز من الكاتب إلى أن اليهود هم وراء كل المصائب التي يعاني منها العالم المعاصر .

ولكي نتعمق في كشف صورة المرأة اليهودية سنتناول بالدرس المفصل شخصيتين يهوديتين هما (راشيل) في (عمر يظهر في القدس) و (كاميليا) في رواية (دم لفظير صهيون).

1/ الكيلاني ، نجيب: نور الله (الجزء الثاني) ، ص 169 .

2/ الكيلاني ، نجيب : ليل وقضبان ، ص 26 .

أ) ـ (راشيل) في رواية (عمر يظهر في القدس) :

(راشيل) صورة حية للمرأة اليهودية، وهي شخصية نامية متطورة تكتمل تدريجيا من بداية الرواية إلى نهايتها، ركز الكاتب على صفاتها وتصرفاتها وفكرها ومعتقداتها؛ فهي فتاة يهودية ذات شعر ذهبي ووجه فاتن تغطيه المساحيق ترتدي لباسا كاشفا يفضح جسدها ويظهر مفاتنها يكشف عن ذراعيها ولا يكاد يصل فوق الركبة، تترنم بالحرية وتسعى لتكريس وجودها من خلال علاقات كثيرة مع شخوص الرواية الآخرين ترى أن " للمرأة الحق كل الحق في أن تبرز مفاتنها.. ثم هزت كتفيها في ميوعة وقالت: وخاصة إذا كانت جميلة([1]).ويصور الكاتب تحول هذه الشخصية من اليهودية إلى الإسلام.. وأصبحت تدافع عن قضاياه، وتحارب المجتمع الإسرائيلي، وقد جاء هذا التحول على يد الخليفة عمر بن الخطاب الذي مثل الشخصية المحورية في هذه الرواية .

لكن تحول راشيل كان تدريجيا خضع لحركية التفاعل مع الأحداث والأشخاص التي تدور حولها . فقد كان أول صدام لها مع الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في أول لقاء بينهما حينما كانت في جلسة عربدة رفقة صديقها (إيلي)،رجل المخابرات الإسرائيلية على قارعة الطريق مما أغضب الخليفة، حيث ثار ضد هذا السلوك المشين الذي هو في اعتقاد هذه الفتاة ضرب من ممارسة الحرية الفردية. فـ (راشيل) فتاة شابة تحمل من صفات الجمال والتبرج والكبرياء ما يجعلها مميزة ومثيرة تعيش على غرار كل فتاة يهودية في الفجور تلبس كيفما تشاء وتشرب الخمر وتمارس طقوس الحب على قارعة الطريق مع صديقها وتعتقد أن كل من يراها يفتتن بها، لكنها تقف مبهورة أمام هذا الكهل الذي تحدث سلوكاته منعرجا في حياتها ،لأنها لم تصادف شخصا مثله في واقعها، فقد منعها بالقوة من ممارسة طقوس الحب على قارعة الطريق لأنه يعتبر ذلك انتهاكا لأنوثة المرأة وابتذال لعرضها وسلوكا منافيا لتعاليم الدين الإسلامي.

1/ الكيلاني، نجيب، عمر يظهر في القدس، ص 70 .

فأعجبت به حتى أنها لم تصدق بوجود مثل هذا الشخص ".. لو صورته لي الكتب مع هذه الصورة قبل أن أراه، لهززت كتفي ساخرة وقلت هذه أسطورة لا وجود لها.. لكني الآن ألمسه على كثب.. وأسمع كلماته.. ويحلو لي دائما أن أقارن بينه وبين غيره من الناس فيهولني الفرق الشاسع"([1]).

وتظهر (راشيل) منذ اللقاء الأول مع الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – امرأة لعوب قوية الشخصية لا تتقبل الهزيمة لذلك ازداد إصرارها على التقرب من الخليفة لأنها ترى أن تصرفاته " توحي بالغرابة والشذوذ "([2]).

و(راشيل) فتاة لا تتورع في أن تبدي إعجابها الشبقي بالخليفة أمام عشيقها، حيث تطوقه بذراعيها وتقول في استهزاء : " إيلي.. يا حبيبي.. إن هذا الرجل ظريف للغاية.. لكأنه من أهل الكهف.. إنه تحفة نادرة.."([3]).

ثم إنها لا تتوقف عند هذا الحد من المجون والاستهزاء، بل تتجرأ بكل وقاحة وتتحسس ذراع الخليفة وتقول : "أنت كهل مثير للغاية.. إني أدعوك للعشاء معي.."([4]).

وهي في سبيل تحقيق نزواتها تفعل كل شيء حتى إنها تذهب إلى مخفر الشرطة وتشهد بأن عمر والراوي بريئان وأنهما لم يشاركا في حادثة التفجيرات التي وقعت بالمدينة، ذلك ما يجعل السارد يتعجب من هذا الفعل" العجيب في الأمر أنه في اليوم التالي وحوالي الثانية عشرة ونصف ظهرا، وكان الخليفة يؤدي صلاة الظهر إماما بعد أن تيمم لعدم توافر الماء...جاء شرطي صهيوني يمني الأصل ثم نادى عمر وهتف باسمي أنا الآخر... وعندما وقفنا أمام مدير السجن، قال لنا وابتسامة صفراء تحوم على ثغره، مبروك لقد ثبتت

1/ الكيلاني، نجيب، عمر يظاهر في القدس، ص 185 .

2/ المصدر نفسه ، ص 89 .

3/ المصدر نفسه ، ص 26.

4/ المصدر نفسه ، ص 27 .

براءتكم...وأمسكنا ببعض الجناة.. ولقد أمر بالإفراج عنكم.. يجب أن تشكروا المواطنة الإسرائيلية (راشيل)..إنها مواطنة شريفة..([1]).

وقد صور الكيلاني هذه الفتاة شهوانية متقلبة المزاج، تلهث وراء غرائزها تتنكر لخطيبها (إيلي) رغبة في امتلاك الخليفة الذي استعصى عنها لذلك تقول لإيلي " انتهى الأمر.. لم أعد أحبك.. هذا شيء خارج عن إرادتي"([2]).

إن (راشيل) نموذج للفتاة اليهودية التي تتصف بالعبثية والطيش والسعي لتحقيق مآربها مهما كانت الوسيلة المؤدية لذلك الغرض. لكن الخليفة يقف صامدا محافظا على مبادئه رافضا هذه السلوكيات الماجنة "يا للكارثة إنها حرية فسوق.. وهذه الصور البائسة تتعرض لحريتنا نحن، تقطع علينا الطريق... وتنشر مباذلها لجر الضعفاء منا.. إنه هدم للفضائل.. أهناك اعتداء على حرياتنا وحريات الآخرين أبشع؟"([3]).

وفي النهاية يتغلب الخليفة على هذه الفتاة ليس بالقهر والخداع والعنف ولكن بالحق والمبادئ والقيم التي انبهرت بها هذه الفتاة التي تحمل داخل قلبها بذور الخير رغم يهوديتها، فكثيرا ما كانت تفكر في شأن الخليفة واختلافه عن الرجال الذين تعرفهم، وكانت ترى نفسها غريبة عن هذا العالم وأن شيئا ما ينقصها وتريد معرفته "كنت أبحث دائما عن شيء لا أعرفه.. في أعماقي تيه خالد.."([4]).

هنا تبدأ نقطة التحول في شخصية (راشيل) الشريرة لتنتقل إلى (راشيل) الطيبة لذلك نراها تعترف للخليفة بأنها لا تؤمن حقا بالدين ولا تشعر بشيء تجاه التوراة " لا

1/ الكيلاني، نجيب، عمر يظهر بين القدس ، ص ص 69 ـ 70 .

2/ المصدر نفسه ، ص 90 .

3/ المصدر نفسه ، ص 81 .

4/ المصدر نفسه ، ص90.

أشعر بقيد واحد من قيود الدين، كل ما يهمني في التوراة أنها تجاوبت مع أمالنا السياسية في الوطن والخلاص.. وما عدا ذلك فلا أؤمن بشيء"([1]).

تلك هي إذا حقيقة اليهود فلا دين ولا ملة وما التوراة و التلمود وبروتوكولات حكماء صهيون إلا مطية لتحقيق الأهداف السياسية والمآرب الشخصية .

ويبلغ تأثر (راشيل) مداه حينما تتحول إلى نقيض ما كانت عليه بعدما أصبحت كلمات الخليفة تلامس روحها وتتغلغل في عقلها وتنفذ إلى صميم قلبها، لذلك حينما تذهب إلى المستشفى لعيادة الخليفة عمر – رضي الله عنه – تعلن إسلامها بين يديه، وفي ذلك يقول السارد: "كنت لا أصدق ما تقع عليه عيناي أو تسمعه أذناي، و(راشيل) ترتل الشهادتين في صدق لا شك فيه، ورأيت الرضا والفرح يكللان وجه أمير المؤمنين"([2]).

لعل الكيلاني يقصد من وراء إسلام هذه الفتاة أن يبين أن اليهود الذين يتظاهرون بالتدين في الحقيقة هم لا يؤمنون بالتوراة ولا بالتلمود إلا بما يحقق طموحاتهم السياسية في بناء وطن مسروق، وما إسلام (راشيل) إلى تعبير على أن اليهود أنفسهم يشككون في هذا المجد الزائف الذي صنعه لهم آباؤهم وأجدادهم من حاخامات محرفين وساسة متعصبين ونسبوه إلى الله بزعمهم أنهم شعب الله المختار.

وحينما تتشبع (راشيل) بالمبادئ والقيم الصحيحة، تصبح هي أيضا داعية إليها وكيف لا وقد تعلمت على أيدي إمام من أئمة هذا الدين، فتنشر مبادئ الدين الجديد في إحدى المدارس للبنات. ومن خلال مناقشتها مع الطالبات يطرح الكيلاني جملة من الأفكار أهمها رؤية الإسلام للمرأة ودورها الصحيح في المجتمع، "ردت راشيل في ثقة : المرأة في نظره إنسانة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى لكنه يرفض تبذلها وانحرافها، ولا يعتبر ذلك تحررا، وإنما هو ضرب من الإغراء والإفساد والحيوانية يضر بالفرد، ويؤذي سلامة المجتمع.. .بل ويحط من شأن المرأة نفسها، المرأة في عصور الإسلام الأولى كانت

1/ الكيلاني، نجيب، عمر يظهر بين القدس ، ص ، 85.

2/ المصدر نفسه ، ص 124.

محاربة.. ومضمدة للجراح.. وشاعرة.. متفقهة في الدين، تروي الحديث وتشارك في الأحداث، يؤخذ رأيها"([1]).

لعل الكيلاني يطرح من خلال هذا المقبوسة قضية هامة ألا وهي حوار الحضارات وضرورة تبادل الفكر الإنساني وتقارب الرؤى بين الشعوب والمجتمعات من أجل سعادة الإنسان أينما كان وحيثما وجد وأي كانت عقيدته.

لذلك كان من نتائج هذا اللقاء أن تأثر كثير من تلك الفتيات الإسرائيليات منهن والمسيحيات بمبادئ الخليفة واقتنعن بها إلى درجة الرغبة في اعتناق الدين الجديد " فقد ذهبت عشرة فتيات منهن خمسة من اليهود واثنتان من المسيحيات، وذهبن إلى المستشفى لمقابلة الخليفة، وطلبن اعتناق مبادئه والتعلم على يديه وقد استقبلهن الخليفة راضيا باسما"([2]).

وكان من مظاهر تغير (راشيل) أنها لبست عباءة ضافية وامتنعت عن استعمال المساحيق وأدوات التجميل لأنها اقتنعت أن الجوهر هو الأساس، وأما المظهر فهو خادع لا يكشف عن حقيقة صاحبة. ولما أبدى الخليفة والسارد دهشتهما من هذا التغيير في لباس راشيل صرحت في عجل قائلة : " لا تشك في أمري، لقد ارتديت زيا يليق... أعرف أنك ممن يرفضون تبرج النساء.."([3]).

وقد كانت واعية بهذا التغيير الذي حدث في حياتها ويبدو ذلك واضحا من خلال حوارها مع صديقها (إيلي) الذي قال لها: "إنني أعرفك يا راشيل، فأجابته راشيل الأمس أم راشيل اليوم؟"([4]).

1/ الكيلاني، نجيب، عمر يظهر في القدس ، ص158.

2/ المصدر نفسه ، ص178.

3/ المصدر نفسه ، ص 83 .

4/ المصدر نفسه ، ص 205 .

إلا أن الكيلاني يركز على طرح فكرة متأصلة في الشخصية اليهودية، إنها صفة المكر والدهاء حتى وإن دخلت (راشيل) الإسلام فإنها بقيت تتصف بكثير من صفات أسلافها من اليهود من مكر ودهاء وخداع، فها هي ذي تخدع صديقها (إيلي) حينما توهمه بأنها دخلت الإسلام شكليا فقط لأنها في الحقيقة جاسوسة من قبل المخابرات الإسرائيلية لمعرفة أخبار الخليفة كما استطاعت مخادعة رجل المخابرات، مدير المخابرات حينما ناقشها في موضوع إسلامها والذي تم تسجيله في غرفة الخليفة أثناء نطقها بالشهادتين، لذلك نجده يقول لها : " إما أن تكوني ممثلة بارعة، أتقنت دورها على الوجه الكامل، وإما أن يكون الرجل قد خدعك وأقنعك بترهاته.."([1]).

واستطاعت بدهائها أن تبدد كل الشكوك التي كانت تراوده، بل إنها صارت تهتف: "عاشت إسرائيل الكبرى...الموت للمسلمين.."([2]).

ومرة ثالثة تخدع والديها حينما طلبا منها كتابة مذكراتها وبيعها لإحدى الصحف المشهورة نظير أموال طائلة لكنها رفضت ذلك حتى لا تسيء للخليفة ولكن بطريقة فيها نوع من المكر والدهاء حيث " همست في دهاء.. انتظروا.. لسوف أتدبر الأمر بطريقة تسركما .."([3]).

إلا أنها لم تكن كذلك مع الخليفة لأنها كانت صادقة في إسلامها مما ميزها عن غيرها من بني جنسها فالكيلاني يريد من خلال هذه الشخصية ومواقفها أن يطرح قضية جوهرية وهي ضرورة أخذ الحيطة والحذر مع العدو وربما استعمال نفس السلاح الذي يحاربنا به، فما أخذ بالقوة لابد أن يسترجع بالقوة ، وقد أكد الكيلاني هذه الفكرة على

1/ الكيلاني، نجيب، عمر يظهر في القدس ، ص 125 .

2/ المصدر نفسه ، ص 126 .

3/ المصدر نفسه ، ص 129 .

لسان راشيل حين قالت:" شرف الأسلوب مرتبط بشرف الغاية، ولكن هذا المعتدي لا تستطيع مواجهته إلا بنفس سلاحه.."([1]).

وفي النهاية يمكن القول إن الكيلاني استطاع من خلال هذه الشخصية أن يكشف كثيرا من الأفكار والصفات التي يتصف بها اليهود منذ القدم وعموما فإن " هذه القصة أعطت كثيرا وكشفت بأسلوبها الآسر عن خبائث اليهود وزبائنهم في الإفساد والتشويه والتحريف لكل قيمنا وسلوكنا ، وكشفت عن صور من مآسينا وأمراضنا ، وصور من الكيد والقهر للمسلم الغريب في هذا العصر على يد المسخرين والممسوخين لتنفيذ المخطط اليهودي في العالم الإسلامي كله .." ([2])

ب) ـ (كاميليا) في (دم لفطير صهيون):

كاميليا امرأة يهودية ، وهي زوجة (داود هراري) تاجر يهودي كبير ،وهو شخصية رئيسية من شخوص الرواية التي تدور أحداثها في دمشق ، وبالضبط في إحدى حارات اليهود ، وحتى يضع الكاتب القارئ في جوّ الرواية ، فقد عمد منذ البداية إلى وصف دقيق لتلك الحارة وسكانها من اليهود، فهي حارة " إذا سرت فيها وقعت عيناك على رجال اليهود ونسائهم وأطفالهم وعلى بيوتهم المتلاصقة المزدوجة ...لا يكاد المرء يدخلها إلا منحنيا ..كأنها أبواب الدهاليز الغامضة ..والباب يقودك إلى ممر ملتوٍ كالأفعى يفضي إلى باحة واسعة في جوفها بريق الذهب والجواهر ..وزجاجات الخمر ..وغانيات يلعبن بالنار ، يرقصن رقصة غجرية ..وحاخامات يتحدثون عن الفطير المقدس ..ودم المسيحيين ..وعيد الفصح "([3]).

1/ الكيلاني، نجيب: عمر يظهر في القدس ، ص 169 .

2/ بريغش ، محمد حسن : في الأدب الإسلامي المعاصر (دراسة وتطبيق) ، ص219 .

3/ الكيلاني ، نجيب : دم لفطير صهيون ، ط08 ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان، 2002م ، ص10 .

وفي حارة اليهود بدمشق تعيش أسرة (هراري) ذات الثراء الفاحش والتجارات الواسعة والصيت الذائع، وقد شكل أفراد هذه الأسرة اليهودية شخصيات هذه الرواية التي تروي قصة قتل أحد رجال الدين المسيحيين (القس البادري توما) بطريقة بشعة وذلك بذبحه وتقطيع جسده إربا إربا وتصفية دمه لمزجه بالدقيق لصنع الفطير المقدس ـ الذي يعتقد اليهود أنه يرد القوة للمرضى ـ ورميت قطع جسده في مصرف قريب من حارة اليهود وكان (داود هراري)هو الذي ذبحه بعد استدراجه إلى بيته وقد ساعده جماعة من اليهود، ثم تطور أحداث الرواية حتى تكتشف الجريمة ويحاكم الجناة..

في هذا الجو الموبوء بالخيانة والغدر والجريمة تعيش (كاميليا) وهي شخصية موضوعة لجأ إليها الكاتب لبيان فساد المنابع السلوكية والفكرية والعقيدية لليهود وإبراز " الفرق الشاسع بين عظمة الإسلام وسماحته إذا ما قورن بتلك الانحرافات اليهودية" ([1]).

فقد ذكر الكيلاني أنه اعتمد في كتابة هذه القصة على محاضر التحقيق في قضية الأب توما، لكن تلك المحاضر كان ينقصها العنصر النسائي وهو أساسي في كل قصة، فكيف يهمله في هذه القصة الخاصة باليهود وجرائمهم علما أن المرأة تلعب دورا هاما لعدة أسباب ومن" أبرزها أن اليهود في العادة يستخدمون نساءهم في كثير من المهام المؤثرة كالتجسس، أو نشر الفساد الجنسي والأخلاقي، أو الترويج لبعض المفاسد كشرب الخمر والمخدرات" ([2]).

كذلك اخترع الكيلاني هذه الشخصية (كاميليا) ليبين صورة المرأة اليهودية، وفي ذلك يقول:" لم يستغرق الأمر كبير تفكير فقد اهتديت إلى فكرة زوجات أو بنات اليهود من أسرة (هراري) المتهمة في القضية، ويرى البعض أنني قد زدت من جرعة العواطف والجنس بالنسبة لنساء اليهود، وأنا في الواقع لم أفعل ذلك بهدف الإثارة – و إن حدثت- ولكني أردت أن أبرز دور النساء اليهوديات الداعرات في العبث وتحقيق الأهداف

1/ الكيلاني ، نجيب : تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية، 56 .

2/ المصدر نفسه ، ص 61 .

اليهودية الماكرة والعبرة في النهاية- كما أقول وأردد دائما – بالانطباع الأخير الذي تخلفه القصة في وجدان القارئ وفكره.." ([1]).

لذلك كشفت الرواية الانحراف الأخلاقي في سلوك (كامليا) ونظرتها للإنسان والحياة ليس من منطلق شخصي فحسب بل هو مستمد من العقيدة اليهودية المنحرفة.

فكاميليا جسدت صورة المرأة التي تخون زوجها مع خادمه (مراد الفتّال) وتعلل سبب تلك الخيانة عجز زوجها وضعفه وأن من حقها أن تعيش فقد كانت " تكتم في نفسها تمردها وحنقها، وكانت صغيرة السن بالنسبة له، فهو فوق الخامسة والخمسين، أما هي فلم تكن قد بلغت الثلاثين من عمرها..."([2]).

وبيّن الكاتب أن كاميليا لم تكن خائنة بدافع شخصي فحسب بل إن ذلك نابع أيضا من اقتناعها بما ورد في التوراة المحرفة وتعاليم التلمود من تحريض على ذلك الفسوق والفجور، فعندما كانت كاميليا تنتظر عشيقها مراد الفتّال في تلك الحجرة الصغيرة القذرة التي تقع في آخر الدهليز الأرضي...حيث كانت تلك الغرفة المهجورة تمتلئ بالأتربة وبعض المخطوطات القديمة والكتب المقدسة، وغيرها من طبعات التلمود الصفراء الرثة وبعض الأغراض الأخرى"([3]) .

وحينما كانت كاميليا تنتظر في هذا الجو المليء بالعفن شد انتباهها كتاب قديم " يغطيه الغبار فتناولته وأخذت تقرأ:(الطور يورد) وهو كتاب ألفه العالم الرباني يعقوب، وهو أحد أئمة اليهود...وجاء في البند (158) إنه " محرم على اليهودي أن ينجي أحدا من بقية الأمم من البئر التي يكون قد وقع فيها ، وعلى الطبيب اليهودي ألا يداوي أمميا (غير

1/ الكيلاني ، نجيب : تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ، 56 .

2/ الكيلاني ، نجيب : دم لفطير صهيون ، ص 17 .

3/ المصدر نفسه ، ص 21 .

إسرائيلي) مطلقا ولو بالأجرة إلا إذا أراد ضرره أو الانتفاع بماله، فإذا كان مبتدئا في هذا الفن، فليتعلم بمداواة باقي الأمم، ويجوز إجراء المعالجة مجانا في هذه الحالة...."([1]).

وعندما انتابها القلق والضيق بسبب تأخر مراد الفتّال قذفت بالكتاب بعيدا..." وبطريقة لاشعورية تناولت مخطوطا آخر مكتوبا بخط اليد الأسود وأخذت تقرأ دون أن تدرك معنى لما تقرأ :(لا تعتبر اليمين التي يقسمها اليهودي في معاملاته مع باقي الشعوب يمينا، لأنه كأنما أقسم لحيوان، والقسم لحيوان لا يعد يمينا...فإذا اضطر يهودي أن يحلف لمسيحي فله أن يعتبر ذلك الحلف كلا شيء... على أنه لا معنى للنزاع القائم على الأموال بين اليهودي وغير اليهودي...إن أموال المسيحي ودمه ملك لليهودي، وله التصرف المطلق فيها، وله الحق، طبقا لقواعد التلمود، في استرجاع تلك الأموال..."([2]).

وعلى الرغم أن كاميليا تعلم أن هذه الكلمات هي من صميم القواعد الدينية اليهودية إلا أنها لم تعرها اهتماما ولم تشعر حيالها بأدنى مذاق أو معنى، مع أنها تؤمن بها وتجلها... وحين يبلغ بها القلق مبلغه، تجول في أنحاء الغرفة بحثا عن كتاب آخر عله يسليها ويخفف من توترها "واختطفت كتابا ثالثا صغيرا وأخذت تقرأ فيه.. لكن الكلمات شدتها هذه المرة : (ماذا أرى يا إلهي؟ فلتقرأ بصوت مرتفع : وقال الرّبّي كرونر : إن التلمود يصرح للإنسان اليهودي بأن يسلم نفسه للشهوات إذا لم يمكنه أن يقاومها، ولكنه يلزم أن يفعل ذلك سرا لعدم الضرر بالديانة..."([3]).

الأمر الذي جعل كاميليا تتساءل كيف تكون هذه الكلمات في الكتب الإسرائيلية المقدسة دون أن تدري عنها شيئا، ولماذا لا يذكر لها زوجها شيئا عن ذلك ولا يخبرها إلا عن الفطير المقدس.

1/ الكيلاني ، نجيب : دم لفطير صهيون ، ص 22 .

2/ المصدر نفسه ، ص23 .

3/ المصدر نفسه، ص ن .

إن الكيلاني يربط بين إقدام كاميليا على خيانة زوجها مع خادمه وبين ما تجده في الكتب المقدسة عن أفعال الحاخامات وأئمة اليهود وما ورد في تلك الكتب من مسوغات للانحطاط الخلقي والانحراف السلوكي لأولئك فقد ورد في التلمود" أن كثيرا من الحاخامات مثل الرّبيّ (رابي) والرّبيّ (نحمان) أنهم كانوا ينادون في المدن التي يدخلونها عما إذا كان يوجد فيها امرأة تريد أن تسلم نفسها لهم عدة أيام....وجاء في التلمود أيضا عن الربيّ (اليعازر) أنه فتك بكل نساء الدنيا، وأنه سمع مرة أن واحدة تطلب صندوقا ملانا بالذهب كي تسلم نفسها فحمل الصندوق وعبر سبعة شلالات حتى وصل لها....وجاء في التلمود أن هذا الحاخام لما توفي صرخ الله في السماء قائلا تحصل الربي (اليعازر) على الحياة الأبدية ...."([1]).

هكذا تقرأ كاميليا بإعجاب هذه الكلمات المثيرة التي وجدتها في التلمود عن هؤلاء الحاخامات الذين انحرفوا....ولم يحرقهم الله بنار العذاب... بل إن الله قد جازاهم بالحصول على الحياء الأبدية... تلك هي تعاليم التلمود المسوغة الخيانة والفسوق، فكيف لا تنغمس كاميليا في وحل الإثم؟ وتميل نفسها إلى الجريمة في غرفة مليئة بالتراب وصرارير وأغراض قديمة، تبعث في نفسها النشوة العارمة في كيانها لذلك عندما يجيء مراد " تشبثت به كأغلى أمنية تفوق الدين والدنيا بالنسبة لها" ([2]). لأنها كانت تعتقد بأنها " سوف تحصل على الحياة الأبدية كالحاخام اليعازر" ([3]).

وقد اتسمت هذه الشخصية بالتذبذب في السلوك والتناقض والاضطراب النفسي فهي من جهة تعامل زوجها (داود) معاملة الزوجة المطيعة المهتمة بشؤون زوجها، تبدي له أسمى معاني الاحترام والمحبة " إنها بالتأكيد اليوم لا تريد لزوجها أن ينتهي تلك النهاية المحزنة، هل هي تحبه؟ سؤال صعب سؤال صعب الإجابة، أهي تكرهه؟... بالأمس كانت

1/ الكيلاني ، نجيب : دم لفطير صهيون ، ص 24 .

2/ المصدر نفسه ، ص 25 .

3/ المصدر نفسه ، ص ن .

تخونه وكانت تدرك أن هذه الخيانة لها معنى يرفضه المجتمع.... وكانت تفترض أن زوجها رافض له، بل قد يسفك دمها لو علم به وتتصور زوجها غاضب الوجه، مشمئز النظرات...يريد أن ينشب فيها أظافره...هذه الصورة المتخيلة لزوجها كانت تثير الكراهية له في نفسها ... أما زوجها الذي تعايشه وتخاطبه، ويرق لها ويبتسم عند رؤيتها، ويحاول مراضاتها بشتى الطرق، فهو نموذج آخر غير النموذج المتخيل الرهيب..."([1]).

فقد صور الكاتب كاميليا امرأة ممزقة بين شخصيتين لزوجها، شخصية تميزت بالحنان والرفق والحب وهي التي تحترمها، وشخصية ثانية هي شخصية الزوج العاجز الضعيف الذي لا يستطيع معاملتها كزوج بمنحها حقوقها المشروعة لذلك "كانت تهرب من هذا التمزق النفسي العنيف إلى الخمر وإلى أحضان الخادم ويوما كانت لها فلسفة غريبة مفادها أنها تحب زوجها لكنه لا يؤدي معها وظيفة الرجل، وكانت فلسفتها الغريبة تزعم لها أن لها الحق في أن تسد الفراغ القاتل في حياتها، أو النقص القائم في زوجها بأية طريقة، ولو مع خادم..."([2]).

إلا أن الكيلاني قد نجح في تصوير هذه المرأة التي لم تكن شخصية ثابتة على وضع واحد بل إنها تطورت وكان تطورها تطورا إيجابيا، حيث تحولت كاميليا من امرأة خائنة عابثة تخون زوجها مع خادمه مراد انتقاما لأنوثتها المهدورة و ثأرا من خادمتها (أستير) التي أحبها مراد ويرغب في الزواج منها. تتحول كاميليا من شخصية شريرة عابثة إلى شخصية واعية خيرية تسعى إلى التكفير عمّا اقترفته من ذنوب.

وينجح الكيلاني أكثر حينما لا تجعل هذا التحول اعتباطيا ومفاجئا، بل إنه مهد له بمسوغات كثيرة ، فقد اجتمعت أسباب كثيرة وتضافرت عدة عوامل ساعدت على تحول هذه الشخصية منها على وجه الخصوص دخول زوجها داود هراري السجن بتهمة جريمة قتل الأب توما. وتحول حالة هذا الزوج إلى الضعف والانكسار" فحينما جاء إليها

1/ الكيلاني ، نجيب : دم لفطير صهيون ، ص 100 .

2/ المصدر نفسه ، ص 101 .

زوجها، كان كالهيكل العظمي، تكسوه جلود ساحبة، وكانت عيناه غائرتين تفيضان تعاسة و ألما" ([1]).

لذلك ذرفت الدموع إشفاقا عليه حتى أنها نسيت ماضيها المضطرب، وانتابتها مشاعر غامضة تجاه زوجها، لذلك " لم تفهم كاميليا شيئا وضمته إليها في حنان بالغ.... تألمت في عمق....أحزنتها حالته التعسة"([2]).

وقد كان تحولها أيضا بسبب ما شعرت به من ضعف وهوان حتى إنها اشمأزت من نفسها وتمنت أن تموت لحظة أمسكت بها خادمتها أستير وهي في الوضع الشائن حينما وجدت نفسها مكرهة على مداهنة الخادمة حتى لا تفشي سر خيانتها حيث " أدركت كامليا معنى كلماتها إنها تهدد، ولا بد من مهادنتها... لو استطاعت أن تعتذر للخادمة وتسترضيها ... فإن ذلك معناه أن تكتم سر جريمة البادري توما، وفي نفس الوقت تغطي على خطيئتها، وبعد ذلك تستطيع أن تتدبر أمرها بهدوء...." ([3]) .

لذلك تشعر كاميليا بالندم على ما قامت به من خيانة لزوجها ومع خادمه خاصة حينما وجدت نفسها جاثية على ركبتيها العاريتين "واختطفت يدها وقبلتها وأخذت تتمسح في أذيال ثوبها..." حتى لا تكشف عن هذه الجريمة.

إلا أن أهم عامل ساهم في تحول شخصية "كاميليا" هو ما رأت في شوارع دمشق من حال المسلمين حيث رأت مجموعة من الأطفال يقرأون المصاحف تحت شمس الشتاء الساطعة، فأخذت تقارن بين الطقوس التعبدية الغامضة التي يقوم بها اليهود وعلى رأسهم أحبارهم وحاخاماتهم " الكتب المقدسة في أيدي الأطفال...يا إلهي... لا أسرار ولا غموض...الدين للجميع ... ليس هناك أسرار مخبأة في دهاليز مظلمة، وليس هناك طقوس خاصة بالأحبار الكبار أو الحاخامات العظام.. المصحف يقرؤه الصغير والكبير، أكان أبو

1/ الكيلاني ، نجيب : دم لفطير صهيون ، ص 83 .

2/ المصدر نفسه ، ص 86 .

3/ المصدر نفسه ، ص64 .

العافية على حق حينما اعتنق الإسلام؟؟ هذا ما كانت تفكر فيه كاميليا وهي تدلف إلى حارة اليهود..."([1]).

كل تلك الأسباب تجعل كاميليا تستيقظ من غيها وتتبع فطرتها السليمة تطلب الانفصال عن زوجها وتفضل ذلك بدلا من الرذيلة والخيانة..." هي لا تنكر أن لها مع زوجها مأساة من نوع خفي يجهله الناس، وتعرفه هي تمام المعرفة، لكن علاج الأمر لا يكون بالجنوح إلى الرذيلة، أليس بإمكانها أن تنفصل عنه، وتبحث لها عن زوج آخر؟ إن هذا التصرف برغم صعوبته وأثاره المؤلمة قد يكون أليق بها كإنسانة تؤمن بالقيم المتوارثة والأخلاق المتعارف عليها.."([2]).

هكذا تنتهي هذه الرواية بتوبة هذه المرأة ورجوعها إلى الفطرة السليمة حيث تصارح زوجها بالحقيقة وتطلب منه أن يطلق سراحها فقد أدت واجبها نحوه" وما إن هدأت الأحوال واستقرت الأمور وكاد الناس أن ينصرفوا عن حادثة البادري ومخلفاتها حتى قدمت كاميليا إلى زوجها وقالت في هدوء تحسد عليه:

- آن أن أخبرك بالحقيقة.

- التفت إليها في دهشة وقال :

- ماذا ؟

- لقد قررت الرحيل.

- كيف؟؟

- لقد أديت واجبي ويجب أن تنتهي حياتنا الزوجية..

- كاميليا حبيبتي ...أنا ومالي وما أملك تحت تصرفك...

- قالت وهي تبتسم في مرارة:

- حان الفراق...ولا فائدة.

1/ الكيلاني ، نجيب : دم لفطير صهيون ، ص 88 .

2/ المصدر نفسه ، ص 101 .

ومع أن زوجها ترجاها أن تتراجع في قرارها حتى أنه أغراها بأن لها الحرية في استكمال سعادتها بالطريقة التي تراها شريطة أن لا تتركه، وهو بذلك يحرضها على الرذيلة، إلا أن كاميليا قد أخذت قرارها دون رجعة مصرحة :" أنا خارجة ولن أعود...وأي كلام بهذا الخصوص لا فائدة منه "([1]).

بذلك يتضح أن المرأة اليهودية لا تخرج عن إطار ما رسمته لها تعاليم التلمود وبروتوكولات حكماء صهيون. والتي لا تخرج عن سلوكات الغدر والخيانة والمكر وادعاء التفوق على الآخرين بحكم أن اليهود هم شعب الله المختار وفقا للمقولة الكاذبة..

1/ الكيلاني ، نجيب : دم لفطير صهيون ، ص 112 .

الخاتمة

الخاتمة

بعد هذه الرحلة مع سيرة نجيب الكيلاني ، وشخصياته وأدبه ، لا سيما شخصية المرأة في مختلف البيئات . نتوقف في نهاية رحلة البحث هذه وفي المرحلة الأخيرة منه لنتعرف على أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث ، لنجملها فيما يلي :

أولا: إن نجيب الكيلاني من رواد النقد التنظيري للأدب الإسلامي ، فبالرغم من شهرته الروائية والقصصية عموما ـ إذ يصفه الناقد محمد حسن بريغش ـ برائد القصة الإسلامية ـ فإن له باعا طويلا وجهودا كبيرة في التاصيل للأدب الإسلامي ، بل هو الداعي الأول لقيام رابطة عالمية للأدب الإسلامي في العديد من المناسبات والمنتديات .

ثانيا : عالج الكيلاني في نقده التنظيري جملة من القضايا التي تشكل الأساس الفلسفي والفكري للأدب الإسلامي ،من حيث مفهوم الأدب الإسلامي وآفاقه المستقبلية ، ومن حيث مقاييس الشكل والمضمون ،ومن حيث موقع الأدب الإسلامي من المحلية والعالمية وموقف الأدب الإسلامي من الآداب الأخرى،وموقف الأديب من قضايا الالتزام والجنس والدين والجمال، كما وضع الكيلاني القواعد الأساسية والمنطلقات التنظيرية لأدب الأطفال.

ثالثا: كان الكيلاني من الأدباء العرب الذين شغلهم الصراع المحتدم بين الخير والشر ، حيث استطاع أن يرصد كل تيارات ذلك الصراع ومتناقضاته داخل المجتمع ليحولها بلمسة ابداعية إلى أصوات لغوية تتدفق من مجرى النصوص الروائية حاملة قضايا العصر

بسلبياته وإيجابيات من خلال شخوص نسوية استطاعت أن تحرك الأحداث التي تجسد القضايا المعاصرة التي أرقت المرأة لمعالجتها .

رابعا : قدم الكيلاني صورا مميزة ، متعددة ومتنوعة للمرأة في مختلف رواياته ،إذطرح العديد من قضايا المرأة ،وقد كان للمرأة حضور واضح ، وقد بدا وجودها طبيعيا في أغلب الروايات التي بني عليها البحث عدا بعض الشخصيات التي ظهر فيها التكلف بحيث أقحمت في العمل الروائي،كتلك الشخصيات التي وضعها الروائي في بعض الروايات التاريخية كشخصية (زمردة)في رواية (اليوم الموعود) و(نجمة الليل) في رواية (ليالي تركستان) والتي لم يكن لها حضور فعلي في الأحداث التاريخية.

رابعا : قدم لنا الكيلاني نماذج مختلفة للمرأة تباينت مكانتها واختلفت أدوارها في المجتمع ؛ فهناك الزوجة على اختلاف درجات وعيها ، منها الصالحة والطالحة ، الجاهلة والمتعلمة، العاملة والعاطلة عن العمل .وقد تعددت وظائف المرأة ؛ فهناك المرأة المزارعة والمرأة التاجرة والمرأة الحكيمة والممرضة والمرأة الصحافية ، والمرأة البرلمانية والمدرسة والمرأة الفنانة .

سادسا : لقد شكلت الروايات التي درستها محاكمات كتابية للمجتمع وتعرية لازدواجيته وكشفا لزيفه ونفاقه ؛ هذا المجتمع الذي يبارك أعمال الذكر ويسمح له أن يفعل كل شئ دونما أية إدانة ، وبالمقابل يكشر عن أنيابه كلما تعلق الأمر بالمرأة ، فيمنعها من عمل أي شئ ، لا لشئ سوى لأنها امرأة ، لذلك لاحظنا أن الرجال في معظم الروايات كانوا متسلطين وقفوا مواقف سلبية من المرأة ، ومنعوها من ممارسة العديد من الحقوق التي في الحقيقة منحها إليها الإسلام الحنيف ، فبدت النساءفي تلك الروايات مضطهدات مقهورات مقموعات ، يعانين من ظلم مزدوج : ظلم الرجل وظلم المجتمع .

سابعا : وقد كان تصوير الكيلاني لقضايا المعذبين في الأرض من الفقراء والمستضعفين تصويرا بين فيه الظلم الواقع على هؤلاء ، وخاصة المرأة في هذا المجتمع الذي تتحكم فيه الأعراف والتقاليد البعيدة عن روح الدين الإسلامي ، مما جعل بعض الرجال من مرضى النفوس وعديمي النخوة أن يدوسوا على كرامتها مثلما رأينا (الجنرال ديبوي مع هيلدا في رواية مواكب الأحرار ، ورئيس التحرير بركات الزناري مع الصحافية صفاء في رواية رأس الشيطان ، ومثلهما الحاج عبد الودود رضوان مع سكينة في رواية الربيع العاصف).وحت في الحالات التي تبدو فيه المرأة هي المسيطرة والمتحكمة في دفة الأحداث وحين تملك قوة الشخصية والثقافة ، مثل (وهيبة في رواية ليل الخطايا) حيث كان هذه المرأة هي التي توجه الحدث وتغوي شابا صغيرا وتخون زوجها ،إلا أنها وفي نفس الوقت كانت ضحية للرجل ، ضحية قسوة والده الذي كان يحرقها بالمسامير ، فآثار الحروق لا تزال على ظهرها تمنعها من النسيان .

ثامنا: قدم لنا الكيلاني المرأة من جانب آخر شخصية نامية متطورة في العمل الروائي، اتسمت حركة نموها في اتجاهين متعاكسين فهي إما تتجه إلى الأعلى في درجات الرقي لتحقيق الخير والصلاح ، أو تتجه إلى الأسفل نحو دركات الانحدار نحو الحضيض لتتردى في غياهب الشر والرذيلة .وبذلك كانت المرأة انعكاسا للواقع في المجتمعات التي جرت فيها أحداث رواياته .وقد أسند الكيلاني إلى المرأة في كثير من الأحيان الأدوار البطولية لأنه يطمح أن تكون لها نفس الأدوار في الواقع الاجتماعي .

تاسعا: شكل نموذج المرأة غير العربية رصيدا معتبرا من الشخصيات في روايات الكيلاني، خاصة المرأة اليهوديةالتي بدت شخصية سلبية كرست الرذيلة من غدر وخيانة ، وعموما

فقد كانت المرأة غير العربية غير منسجمة مهما بلغت العلاقة بينها وبين الرجل العربي .وذلك بحكم التباين في العادات والتقاليد والمعتقد .

عاشرا: كانت القرية مسرحا لعدد لا بأس به من روايات الكيلاني حيث جسدها بملامح محددة ومعالم واضحة،وبأسمائها الحقيقية وموقعها الجغرافي الحقيقي مثل قرية (شرشابة) مسقط رأسه . وكتب الكيلاني عن المدينة بمعالمها الحضارية وقد وصفها بعقلية البدوي المنبهر والذي تصدمه المدينة بما فيها من تجاذبات وتناقضات ، وقد رصد الكيلاني الصدام الثقافي بين القرية والمدينة مثلما رأيناه في رواية الربيع العاصف .

وقبل أن ننتهي من إنجاز هذا البحث تجدر بي الإشارة إلى أن الكيلاني قد ناصر دعوته وفكره الذي يؤمن به ـ فكر الإخوان المسلمين ـ بأعماله الروائية والقصصية أكثر من الأعمال والدراسات الفكرية والتاريخية التي تناولت الدعوة الإسلامية بشكل عام ودعوة الإخوان المسلمين بشكل خاص،لذلك نجد أن ربما توظيف الرواية والقصة الفنية في خدمة الفكر الدعوي تكون أنجح وأنجع أكثر من الخطابات المباشرة ، وهو ما نجح فيه الكيلاني نجاحا كبيرا .

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت إلى لفت انتباه المتلقي من خلال هذه الدراسة المتواضعة إلى الالتفات إلى أعمال هذا المبدع الفذ الذي أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات التي أغفلها النقاد والدارسون لأسباب مختلفة منها ما لا يرقى إلى النقد النزيه والموضوعية ، ومع ذلك فإني لا أدّعي بأني أعطيت هذا الأديب ما يستحقه من الدراسة والنقد .

وأخيرا أدعو الله أن لا أكون قد حدت عن جادة الصواب ، فإن وفقت فهذا من تسديده وتوفيقه سبحانه وتعالى ، وإن أخطأت فمن هواي ونقصي ، وإني أعتذر لكل من أتعبه عناء قراءة بحثي دون أن ينال رضاه ، طامعا في كرمه أن يغفر زلتي ويتجاوز عن صبوتي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم عل سيدنا محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين .

المصادر و المراجع

القرآن الكريم

(برواية ورش عن نافع)، بالرسم العثماني ،ط 02، عُنِيَتْ بطبعه ونشره مؤسسة الديار المقدسة للطباعة والنشر ، دمشق ، سورية ، 1429هـ ـ 2008م .

أولا : المصادر

أ / المصادر الأساسية :

*** الروايات التي بني عليها البحث :**

01/ الكيلاني ، نجيب : حمامة سلام ، ط 04 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2001م .

02/ الكيلاني ، نجيب : دم لفطير صهيون ، ط08 ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2002م .

03/ الكيلاني نجيب: الذين يحترقون، طبعة 01، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان 1999 م.

04/ الكيلاني نجيب : رأس الشيطان، د.ط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ،لبنان سنة 2005م.

05/ الكيلاني ، نجيب : الربيع العاصف ،طبعة جديدة منقحة ،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت ،لبنان ،2005م .

06/ الكيلاني، نجيب: رجال وذئاب، طبعة جديدة منقحة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، التوزيع بيروت، لبنان،2001م .

07/ الكيلاني ، نجيب : الرجل الذي آمن ، ط03 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2001م.

08/ الكيلاني ،نجيب : رحلة الى الله ، طبعة جديدة منقحة ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2000 م.

09/ الكيلاني، نجيب: رمضان حبيبي، ط4، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، لبنان، 2001م.

10/ الكيلاني، نجيب: عذراء جاكرتا ، ط01 ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر، 2013م.

11/ الكيلاني نجيب عمر يظهر في القدس، ط 02، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،1981م .

12/الكيلاني ، نجيب : في الظلام ، د.ط ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 1999م .

13/ الكيلاني ، نجيب : قضية أبو الفتوح الشرقاوي ، ط 02 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2001م .

14/ الكيلاني ، نجيب ، ليالي تركستان، ط 01 ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة، مصر 2013م .

15/ الكيلاني، نجيب : ليالي السهاد، د.ط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان،2005م .

16/ الكيلاني ، نجيب : ليل الخطايا ، ط 01 ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، 1960م .

17/ الكيلاني ، نجيب : ليل وقضبان ، ط 08 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان ، 2005م .

18/ الكيلاني نجيب: ملكة العنب، ط 01 ،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،2000م.

19/ الكيلاني، نجيب: مملكة البلعوطي، ط 01، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان،2001م.

20/ الكيلاني ، نجيب : مواكب الأحرار ، د.ط ،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2005م .

21/ الكيلاني ، نجيب : النداء الخالد ، د.ط ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ، 2005م.

22/ الكيلاني ، نجيب : نور الله(الجزء الأول)،طبعة جديدة منقحة ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2000 م.

23/ الكيلاني ، نجيب: نور الله (الجزء الثاني) طبعة جديدة منقحة ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2000.

24/ الكيلاني ، نجيب : اليوم الموعود، ط 08 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2005م .

***مؤلفات أخري للأديب :**

25/ الكيلاني ، نجيب : آفاق الأدب الإسلامي ، ط 01، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1985 م .

26/ الكيلاني، نجيب: الإسلام وحركة الحياة(الجزء الثاني)،ط 01، مؤسسة الرسالة، بيروت،1992م .

27/ الكيلاني ، نجيب: الإسلامية والمذاهب الأدبية ، د.ط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان ، 1987 م.

28/ الكيلاني ، نجيب : تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية ، ط 01 ، دار ابن حزم، بيروت ، لبنان، 1991م .

29/ الكيلاني ، نجيب: رحلتي مع الأدب الإسلامي ، ط 01، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان،1985م .

30/ الكيلاني، نجيب : لمحات من حياتي ،مؤسسة الرسالة(الجزء الأول)، بيروت، ط 01، 1985م .

31/ الكيلاني ، نجيب : مدخل إلى الأدب الإسلامي ، ط 02 ،دار ابن حزم ، للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1992م.

32/ الكيلاني ، نجيب : نحن والإسلام ، ط 01 ، مؤسسة الرسالة، بيروت ،2001م .

ب/ المصادر المساعدة :

33/ جبران، مسعود : الرائد ،ط 02 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان، 2001م .

34/ الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد : الصحاح في اللغة(الجزء الأول)، ط 04 ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين، بيروت لبنان ، يناير 1990م .

35/ الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني : تاج العروس من جواهر القاموس(الجزء الأول) ، المطبعة الخيرية، مصر 1307ه 1890م .

36/ أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح، حديث رقم،64،(1419)،دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر 36-1426ه-2005م.

37/ الصابوني ، محمد علي : صفوة التفاسير (مجلد 03) ،ط 04 (منقحة) ،دار القرآن الكريم، بيروت ، 1981م .

38/ العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري الجزء السادس) ، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز - محمد فؤاد عبد الباقي ، دار المعرفة، بيروت ، لبنان ، د.ت .

39/ مصطفى إبراهيم وعبد القادر حامد والنجار محمد : المعجم الوسيط ، ط 02، دار الدعوة، اسطنبول، 1987م .

40/ ابن منظور ، محمد بن مكرم : لسان العرب ، ط 04 ، دار بيروت للطباعة والنشر،1955 م .

41/ وهبة ، مجدي : معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1984م .

ثانيا: المراجع :

أ/ المراجع بالعربية

42/ إبراهيم محمد، عبد الحميد : في الأدب والنقد، د. ط ، الدار القومية للطباعة والنشر، 1966م .

43/ إسلامبولي ،سامر: المرأة مفاهيم يجب أن تصحح، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق، سورية، 1999م.

44/ أفاية، محمود نور الدين : الهوية والاختلاف (في المرأة والكتابة والهامش)،د.ط ، دار إفريقيا الشرق، د.ت.

45/ أفرفار ، علي : صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني ، ط 01 ،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان ، 1996م.

46/ الباردي ،محمد رجب: شخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة ، ط 01 ، الدار التونسية للنشر، 1993م.

47/ بريغش، محمد حسن، دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة (مع عرض و دراسة لعدد من قصص الدكتور نجيب الكيلاني)، ط 01، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1994م.

48/ بريغش ، محمد حسن : في الأدب الإسلامي المعاصر، (دراسة وتطبيق)، ط 01، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،1998م .

49/ بريغش، محمد حسن: في القصة الإسلامية المعاصرة ،(دراسة وتطبيق)، ط1،دار البشير،عمان،الأردن،1993م.

50/ البيوري ، أحمد : في الرواية العربية التكون والانشغال، ط 01 ، الدار البيضاء ، 2000م .

51/ تركي ، رابح : الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط 03، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ،1981م .

52/ جمعة ، زينب : صورة المرأة في الرواية (قراءة جديدة في روايات إملي نصر الله) ، ط 01 ، الدار العربية للعلوم، بيروت لبنان ، 2005م .

53/ الجيار ، مدحت : النص الأدبي من منظور اجتماعي ، ط 01 ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ، 2000م.

54/ الحداد ، الطاهر : امرأتنا في الشريعة والمجتمع ، د. ط ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1980م .

55/ حرب ، علي : الحب والغناء وتأملات في المرأة والعشق والوجود ، ط 01 ، دار المنهل للطباعة والنشر والتوزيع ، د.ت .

56/ حقي ، يحي : فجر القصة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،1975م .

57/حمود ، ماجدة : صورة الآخر في التراث العربي ، ط 01 ، منشورات الاختلاف ، الجزائر، 2010م.

58/ حمود ، ماجدة : مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن ،اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، سورية،2000م .

59/ حنون ، عبد المجيد : صورة الفرنسي في الرواية المغربية ،د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986م .

60/ حليفي، شعيب : شعرية الرواية الفانتاستيكية ، ط 02 ، دار الحرف للنشر والتوزيع، القنيطرة، المغرب ، 2007م .

61/ الخمّاش ، سلوى: المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف ،ط 03، دار الحقيقة ، بيروت ، لبنان،1973م .

62/ خيرت ، أحمد : مركز المرأة في الإسلام ، ط 03، دار المعارف ، 1983م .

63/ داود ، حامد حفني : تاريخ الأدب الحديث (تطوره، معالمه الكبرى ، مدارسه) ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م .

64/ درويش ، العربي حسن : النقد الأدبي الحديث (مقاييسه واتجاهاته وقضاياه ومذاهبه)، ط2، مكتبة النهضة المصرية، 1984م .

65/ الرباعي، عبد القادر : الصورة الفنية في النقد الشعري ــ دراسة في النظرية والتطبيق ، مكتبة الكتاني، إربد ، الأردن،1995م.

66/ الركابي ، جودة : الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1970م.

67/ سليمان، نبيل : وعي الذات والعالم ، دار الحوار، اللاذقية ،سورية،1985م .

68/ السعداوي، نوال : توأم السلطة والجنس، ط 02، مكتبة مدبولي،القاهرة،2006 م.

69/ السعداوي ، نوال: دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، ط 02 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان،1990م.

70/ السعداوي ، نوال : الوجه العاري للمرأة العربية ، دار مطابع المستقبل، ط 03 ، القاهرة ، 1993م .

71/ السيد ، سابق : إسلامنا ، د . ط ، دار الكتب العربي ، بيروت ،لبنان، د . ت، ص 210.

72/ شبلول ، أحمد فضل : الحياة في الرواية، قراءات في الرواية العربية والمترجمة، د . ط ، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية،، 2001م.

73/ شرف الدين ، ماجدولين : بيان شهرزاد(التشكلات النوعية لصور الليالي) ط 01، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،المغرب ، 2001م .

74/ الطالبي ، عمار : ابن باديس حياته وآثاره، ط 02 ، الجزء الثالث ، دار الغرب الإسلامي ، 1985م .

75/ الطاهر ، علي جواد : مقدمة في النقد الأدبي ، مقدمة في النقد الأدبي ، ط 01 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، 1979م .

76/ طرابيشي ، جورج : شرق وغرق : أنوثة ورجولة (دراسات في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية) ،ط 04 ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، فبراير، 1997م .

77/ طه ، جمانة : المرأة في منظور الدين والواقع (دراسة مقارنة) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب،2004م .

78/ عبد الباقي ، زيدان : المرأة بين الدين والمجتمع ، د ط ، 1977 م .

79/ عبد الغني ، مصطفى : الاتجاه القومي في الرواية العربية ،ط 02، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.

80/ عبد الغني ، مصطفى : قضايا الرواية العربية ،ط 01 ، الدار المصرية اللبنانية ، يناير 1999.

81/ عبود ، عبدة : الأدب المقارن (مشكلات وآفاق)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1999م .

82/ غالي ، شكري : أزمة الجنس في القصة العربية ، د، ط ، دار النشر ، القاهرة ، مصر 1971م .

83/ الغزالي ، محمد : قضايا المرأة ، د.ط ، دار الشروق ، القاهرة ، 1990م .

84/ غليون ، برهان : اغتيال العقل ، د. ط ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة رغاية ، الجزائر، 1990م .

85/ الغنوشي، راشد : الحريات العامة في الدولة الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، 1993م.

86/ الغنوشي، راشد : المرأة بين القرآن وواقع المسلمين ، ط 01 ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر، 2012م .

87/ : فار ، حسن : أقوال أشهر من قائليها موسوعة في الأقوال المأثورة، ط 02 ، وكالة الأهرام للتوزيع، القاهرة، مصر ، د .ت .

88/ الفاسي ، علال : النقد الذاتي ، مطبعة الرسالة ، الرباط، المغرب ، 1979م .

89/ قاسم ، أمين : الأعمال الكاملة، تحرير المرأة ، تحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،1976 .

90/ القاعود، حلمي محمد : الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني ، (دراسة نقدية)،ط1،دار البشير، عمان ، الأردن،1992 .

91/ قبيسي ، بشرى : المرأة في التاريخ والمجتمع ، ط 01 ، دار أمواج ، بيروت ، لبنان ، 1995م .

92/ القصراوي ، مها حسين : الزمن في الرواية العربية، ط 01،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004م .

93/ محمد سعيد، فاطمة الزهراء : الرمزية في أدب نجيب محفوظ ، ط01 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان ، 1981م .

94/ مرتاض ، عبد المالك : القصة ، ط 01 ، دار مكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع والنشر لأصحابها مرازقة وبوداود وشركائهما ، الجزائر ، 1968م.

95/ المقدسي ، أنيس : الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة ، ط 03، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م .

96/ موسى ، سليمان : الأدب القصصي عند العرب، ط 05 ، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة ، 1983م .

97/ نزيه ، أبو نضال : الشرط الاجتماعي وقصور الوعي في الرواية النسوية العربية ، في خصوصية الإبداع السنوي، د . ط ، وزارة الثقافة ، عمان ، الأردن ، 1997 م .

98/ هلال ، محمد غنيمي : الأدب المقارن ، بيروت، دار العودة ، 1983م.

99 / هيكل ، محمد حسين : ثورة الأدب ، القاهرة ، دار المعارف ، 1978م .

100/ وادي ، طه : صورة المرأة في الرواية المعاصرة ، ط 04 ، دار المعارف ، القاهرة، مصر ، 1994م .

ب/المراجع المترجمة

101/ آلن ، روجر : الرواية العربية ، ترجمة حصة إبراهيم المنيف ، المجلس الأعلى للثقافة، بيروت،1997م .

102/ دانيال ، هنري باجو : الأدب العام والمقارن ، ترجمة د. غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سورية ، 1997م.

103/ روجورب ، هينكل : قراءة الرواية مدخل إلى تقنيات التفسير، ترجمة : صلاح رزق، د . ط ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، 2005م .

104/ كاربانتيه ، ريمون : معرفة الغير ، ط 01 ، ترجمة نسيم نصر ، دار منشورات عويدات ، بيروت، لبنان ، 1975م .

105/ ول وايزيل ، ديورانت : قصة الحضارة (الجزء التاسع)،ترجمة زكي نجيب محمود ، الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية، القاهرة ، دت .

ج/ الرسائل الجامعية والأطاريح

106/ ديوالي حاجي ، جاسم علي: الخطاب النقدي عند نجيب الكيلاني ،رسالة ماجستير، جامعة الموصل، العراق،2005م .

107/ سهيل ياسين، توفيق : نجيب الكيلاني روائيا ،رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1985م.

د/ المجلات والدوريات

108/ أحمد ، سيف الدين : صورة المرأة الأوروبية في روايات د. شكيب الجابري ، مجلة جامعة دمشق، المجلد 18،العدد 01،2002م .

109/ أحمد محمد ،عبد الرحمن : جوانب مضيئة من حياة رائد الأدب الإسلامي المعاصر، مجلة الأدب الإسلامي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، العدد : 10/09، رجب ـ ذو الحجة، سنة 1416هـ ـ كانون الأول(ديسمبر) 1995مـ نيسان (أفريل) 1996م . .

110/ افتتاحية مجلة الأدب الإسلامي ، مجلة الأدب الإسلامي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، العدد : 10/09، رجب ـ ذو الحجة، سنة 1416هـ ـ كانون الأول(ديسمبر) 1995مـ نيسان (أفريل) 1996م . .

111/ الأمراني ، حسن : ومن للأدب بعدك ، مجلة الأدب الإسلامي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، العدد : 10/09، رجب ـ ذو الحجة، سنة 1416هـ ـ كانون الأول(ديسمبر) 1995مـ نيسان (أفريل) 1996م . .

112/ حامد ، أبو أحمد ، نجيب الكيلاني بين أدباء العصر، مجلة الأدب الإسلامي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، العدد : 10/09، رجب ـ ذو الحجة، سنة 1416هـ ـ كانون الأول(ديسمبر) 1995مـ نيسان (أفريل) 1996م . .

113/ حداد ، ياسين : الصورة النمطية للجنسين : مضامينها وأبعادها ، مجلة دراسات ، العدد 15، 1988م .

114/ الحكيم ، سعاد : المرأة ولية ..وأنثى (قراءة في نص ابن عربي) مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، سورية ، عدد 80، تموز 2000م .

115/ خليل ،عماد الدين : صورة المرأة في الرواية الإسلامية (عمالقة الشمال) و(عذراء جاكرتا) للكيلاني نموذجا، (أدب المرأة ـ دراسات نقدية)، من بحوث الملتقى الدولي

الأول للأدبيات الإسلاميات المنعقد في القاهرة 1419 هـ - 1999م ،رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، مكتب البلاد العربية ،ط 01 ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، 64 ، السعودية 1428هـ 2007م .

116/ الخوالدة ، سميرة فياض : المرأة في روايات نجيب الكيلاني ، (أدب المرأة - دراسات نقدية)، من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات المنعقد في القاهرة 1419 هـ - 1999م ، رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، مكتب البلاد العربية، ط 01 ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، 64 ، السعودية 1428هـ 2007م .

117/ الخولي ، يمنى طريف : النسوية وفلسفة العلم ، مجلة عالم الفكر ، العدد02، المجلد 34 ، أكتوبر- ديسمبر 2005م ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ،.

118/ الداهي ، محمد : الآخر المتعدد في المؤلفات التخيلية لعبد الله العروي ، مجلة (فكر) للعلوم الإنسانية والاجتماعية، الرباط، المملكة المغربية ، العدد09 ، السنة 2010م .

119/ السيد ، جمال : حوار قبل الرحيل ، مجلة الأدب الإسلامي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، العدد : 10/09، رجب - ذو الحجة، سنة 1416هـ - كانون الأول(ديسمبر) 1995م- نيسان (أفريل) 1996م .

120/ السيد ، غسان : صورة الغرب في الأدب العربي رواية (فيَّاض) ، لخيري الذهبي أنموذجا، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24 ،العدد : 04/03 ،2008م .

121/ العريني، عبد الله بن صالح ،نجيب الكيلاني في رحلته الروائية ، مجلة الأدب الإسلامي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، العدد : 09 /10، رجب - ذو الحجة، سنة 1416هـ - كانون الأول(ديسمبر) 1995م- نيسان (أفريل) 1996م .

122/ عليمات ، يوسف محمود : صورة المرأة عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، مجلة العلوم الإنسانية ، كلية الآداب ، جامعة الكويت ،العدد 14 ، صيف 2007م .

123/ الغزاوي ، سعيد : من الفرادية والتصادم إلى التحاور والتساكن استقراء لتطور الشخصيات في روايات نجيب الكيلاني الإسلامية ، مجلة المشكاة ، العدد23، السنة السادسة ، 1416هـ/1996م .

124/ لغزيوي ، علي : نجيب الكيلاني رائد الأدب الإسلامي ، مجلة الأدب الإسلامي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، العدد : 10/09، رجب ـ ذو الحجة، سنة 1416هـ ـ كانون الأول(ديسمبر) 1995مـ نيسان (أفريل) 1996م .

125/ فعاليات منتدى الروائيين العرب : صورة المرأة في الرواية العربية ، ط1 ، دار سحر للنشر ، تونس ، 2005م .

126/ مكي ، محمود علي : الفن القصصي في إسبانيا ، مجلة عالم الفكر الكويتية، العدد 03، 1972م.

127/ الندوي ،أبو الحسن علي الحسني : ، تقديم وتقدير ، مجلة الأدب الإسلامي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، العدد : 10/09، رجب ـ ذو الحجة، سنة 1416هـ ـ كانون الأول(ديسمبر) 1995مـ نيسان (أفريل) 1996م .

128/ اليعقوبي ، علي يوسف : مصطلح الأدب الإسلامي في النقد الحديث بين القبول والرفض ، مجلة الجامعة الإسلامية ، المجلد 19 ، العدد 02، يونيو 2011م .

هـ/ الشبكة العنكبوتية

129/ أبو هيف ، عبد الله : رؤى الآخر في الرواية العربية ، مجلة الموقف الأدبي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق، العدد،380،كانون الأول،سنة2002م،ص 01،عنوان الموقع: www.awu.dam.org/mokifadaby/380.028htlm

فهرست المحتويات

فهرست المحتويات

مقدمة ..... ص 05

المدخل: في مفاهيم الدراسة ص19

تمهيد ص21

أولا ـ الصورة الأدبية (الصورولوجيا) ص21

1 ـ الهوس بالآخر أو ما يسمى بـ (La Manie) ص27

2 ـ الرِّهَابُ أو ما يسمى بـ (La phobie) ص28

3 ـ الحب أو التسامح أو ما يسمى بـ (La philie) ص30

أ) ـ صورة شعب في أدبه ص35

ب) ـ صورة شعب في أدب شعب آخر ص36

ثانيا ـ المرأة العربية ومكانتها في المجتمع ص42

ثالثا ـ الرواية العربية : النشأة والتطور .....ص 55

الباب الأول : نجيب الكيلاني والفن الروائي.....ص 74

تمهيد ص75

الفصل الأول : سيرة حياتـــــه ومصادر ثقافته.....ص77

أولا ـ سيرة حياته.....ص78

ثانيا ـ ثقافته ومصادرها.....ص83

الفصل الثاني : إنتاجه الأدبي والفكري.....ص103

أولا : مراحل التجربة الروائية عند الكيلاني.....ص104

ثانيا :روايات نجيب الكيلاني (أنواعها وموضوعاتها).....ص109

ثالثا : آثاره ص117

رابعا : غزارة إنتاج نجيب الكيلاني.....ص124

خامسا : الميداليات والجوائز التي تحصل عليها ص126

الفصل الثالث : آراؤه النقدية ومواقفه الأدبية ص130

أولا : قضايا مثيرة في أدب نجيب الكيلاني ص131

أ) ـ الحرية والالتزام في الأدب ص132

ب) ـ الدين والفن ص134

ج) ـ الأدب والجنس ص137

د) ـ مشكلة اللغة أو بين الفصحى والعامية ص138

ثانيا ـ مفهوم الأدب الإسلامي عند نجيب الكيلاني ص139

الباب الثاني : قضايا المرأة العربية في روايات نجيب الكيلاني ص150

تمهيد ص151

الفصل الأول : الحرية الشخصية وتحقيق الذات ص153

أولا : نضال المرأة من أجل الحرية الشخصية ص154

ثانيا : المرأة والسعي إلى الحرية وتحقيق الذات في روايات نجيب الكيلاني ص181

أـ (صابرين) في رواية (النداء الخالد) ص181

ب ـ (جليلة) في رواية (رمضان حبيبي) ص187

الفصل الثاني حق المرأة في التعليم والعمل ص196

أولا : مطالبة المرأة بحقها في التعليم والعمل.....ص197

ثانيا : المرأة والمطالبة بحق التعليم والعمل في روايات نجيب الكيلاني ص200

أ ـ الحكيمة (فضيلة علاَّم) في رواية (رجال ذئاب) ص200

ب- الممرضة (رجاء) في رواية (عمر ظهر في القدس) ص203

الفنانة (صافي) في رواية (ليالي السهاد) ص208

د- المدرِّسة (نبيلة عبد الله) في رواية (رحلة إلى الله) ص215

هـ – الصحافية (صفاء) في رواية (رأس الشيطان) ص223

الفصل الثالث قضية إكراه المرأة على الزواج ص234

أولا : الاختيار والإكراه في الزواج ص235

ثانيا : المرأة والإكراه على الزواج في روايات نجيب الكيلاني ص236

(نهيرة) في رواية (في الظلام) ص237

الفصل الرابع : قضية العنوسة والطلاق ص248

أولا : المرأة بين مطرقة العنوسة وسنديان الطلاق ص249

ثانيا : المرأة وظاهرتا العنوسة والطلاق في روايات نجيب الكيلاني ص249

أ) ـ بنات (أبي العز سليم) العوانس في رواية (مملكة البلعوطي) ص249

ب) ـ الممرضات العوانس في رواية (الذين يحترقون) ص252

ج) ـ (هدى) المرأة المطلقة في رواية (الذين يحترقون).....ص259

الباب الثالث : نماذج المرأة في روايات نجيب الكيلاني ص267

تمهيـد ص268

الفصل الأول : نموذج مريم (المرأة الطاهرة المقدسة) ص273

أولا :- المرأة الأم.....ص274

أ ـ (مسعدة) أم محمد حسب الله في رواية (ملكة العنب) ص275

ب- (أم أحمد) المجاهد في رواية (رمضان حبيبي).....ص284

ثانيا : ـ المرأة الزوجة ص291

أـ (أم العز) زوجة (المعلم حامد) في رواية (الربيع العاصف).....ص296

ب ـ (قطيفة) زوجة أبو الفتوح الشرقاوي في رواية (قضية أبو الفتوح الشرقاوي).....ص300

الفصل الثاني : نموذج شهرزاد (المرأة قاهرة الرجال) ص310

أولا: شهرزاد الوذج ص311

ثانيا : المرأة قاهرة الرجال في روايات نجيب الكيلاني ص311

أ ـ (سكينة) في رواية (حمامة السلام) ص312

ب ـ (فاطمة) في رواية (عذراء جاكرتا) ص320

ج ـ الممرضة منال في رواية (الربيع العاصف).....340

الفصل الثالث : نموذج بلقيس (المرأة وسلطة الجاه والمال والجمال).....ص359

أولا : بلقيس الشخصية القوية والقرار الحكيم ص360

ثانيا : المرأة وقوة الشخصية وحسن الاختيار في روايات نجيب الكيلاني ص361

أ) ـ (شجرة الدّرّ) في رواية (اليوم الموعود) ص361

ب)- الفنانة (صافي) في رواية (ليالي السهاد) ص362

ج)- (براعم) في رواية (ملكة العنب) ص363

الفصل الرابع نموذج زوليخة (المرأة الغانية) ص388

أولا: المرأة العربية بين قهر المجتمع ومأساة البغاء ص389

ثانيا : المرأة المنحرفة بين البغاء والخيانة الزوجية في روايات نجيب الكيلاني ص392

01 : نموذج البغي ص393

أ) ـ المومس (زمردة) في رواية (اليوم الموعود) ص394

ب) المومس (نجمة الليل) في رواية (ليالي تركستان) ص403

02 : نموذج الزوجة الخائنة ص411

أ- (وهيبة) في رواية (ليل الخطايا) ص411

ب – (عنايات هانم) في رواية (ليل وقضبان) أو (ليل العبيد) ص417

الفصل الخامس : نموذج المرأة غير العربية ص428

أولا : نموذج المرأة الغربية ص428

أ) ـ (صوفيا) في رواية (الرجل الذي آمن) ص428

ب) ـ الملكة (مارجريت) في رواية (اليوم الموعود) ص430

ج) ـ (هيلدا) في رواية (مواكب الأحرار) ص431

ثانيا : نموذج المرأة اليهودية ص436

أ) ـ (راشيل) في رواية (عمر يظهر في القدس) ص439

ب) ـ (كاميليا) في (دم لفطير صهيون) ص445

الخاتمة ص455

المصادر والمراجع المعتمدة ص461

فهرست المحتويات ص475